تفسير النسفي

للإمام الجليل العلامة أبي البركات

عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

عليه سحائب الرحمة

والرضوان

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سورة الكهف مائة وإحدى عشرة آية بصرى وعشر آيات كوفى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ) محمد ﷺ (الْكِتَابَ) القرآن، لقن الله عباده وفقهم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهى نعمة الإسلام وما أنزل على محمد ﷺ من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم (وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا) أى شيئا من العوج والعوج فى المعانى كالعوج فى الأعيان، يقال فى رأيه عوج وفى عصاه عوج والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شىء منه من الحكمة (قَيِّمًا) مستقيما وانتصابه بمضمر وتقديره جعله قيما لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة، وفائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة وفى أحدهما غنى عن الآخر التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفح أو قيما على سائر الكتب مصدقا لها شاهدا بصحتها (لِّيُنذِرَ) أنذر متعد إلى مفعولين كقوله : إنا أنذرناكم عذابا قريبا. فاقتصر على أحدهما، وأصله لينذر الذين كفروا (بَأْسًا) عذابا (شَدِيدًا) وإنما اقتصر على أحد مفعولى أنذر لأن المنذر به هو المسوق إليه فاقتصر عليه (مِّن لَّدُنْهُ) صادرا من عنده (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ) أى بأن لهم (أَجْرًا حَسَنًا) أى الجنة ويبشر حمزة وعلى (مَّاكِثِينَ) حال من هم فى لهم (فِيهِ) فى الأجر وهو الجنة (أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) ذكر المنذرين دون المنذر به بعكس الأول استغناء بتقديم ذكره (مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ) أى بالولد أو باتخاذه يعنى أن قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط، فإن قلت: اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال فكيف قيل مالهم به من علم قلت معناه مالهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشىء إما للجهل بالطريق الموصل إليه أو لأنه فى نفسه محال

(وَلاَ لِآبَآئِهِمْ) المقلدين (كَبُرَتْ كَلِمَةً) نصب على التمييز وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة والضمير فى كبرت يرجع إلى قولهم اتخذ الله ولدا وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها (تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) صفة لكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر (إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً) ما يقولون ذلك إلا كذبا هو صفة لمصدر محذوف أى قولا كذبا (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ) قاتل نفسك (عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِمْ) أى آثار الكفار شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وماتداخله من الأسف على توليهم برجل فارقه أحبته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا على فراقهم (إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ) بالقرآن (أَسَفًا) مفعول له أى لفرط الحزن، والأسف المبالغة فى الحزن والغضب (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا) أى مايصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) وحسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها ثم زهد فى الميل إليها بقوله (وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا) من هذه الزينة (صَعِيدًا) أرضا ملساء (جُرُزًا) يابسا لانبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة والمعنى نعيدها بعد عمارتها خرابا بإماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار وغير ذلك ولما ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأجناس التى لاحصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن قال (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ) يعنى أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة، والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم اسم كلبهم أو قريتهم أو اسم كتاب كتب فى شأنهم أو اسم الجبل الذى فيه الكهف (كَانُوا مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا) أى كانوا آية عجبا من آياتنا وصفا بالمصدر أو على ذات عجب (إِذْ) أى اذكر إذ (أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً) أى رحمة من خزائن رحمتك وهى المغفرة والرزق والأمن من الأعداء (وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا) أى الذى نحن عليه من مفارقة الكفار (رَشَدًا) حتى نكون بسببه راشدين مهتدين أو اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك أسدا أو يسر لنا طريق رضاك (فَضَرَبْنَا

عَلَىٰ ءاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ) أى ضربنا عليها حجابا من النوم يعنى أنمناهم إنامة ثقيلة لاتنبههم فيها الاصوات فحذف المفعول الذى هو الحجاب (سِنِينَ عَدَدًا) ذوات عدد فهو صفة لسنين قال الزجاج أى تمد عددا لكثرتها لأن القليل يعلم مقداره من غير عدد فإذا كثر عد فأما دراهم معدودة فهى على القلة لأنهم كانوا يعدون القليل ويزنون الكثير (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ) أيقظناهم من النوم (لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ) المختلفين منهم فى مدة لبثهم لأنهم لما انتبهوا اختلفوا فى ذلك وذلك قوله قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول أو أى الحزبين المختلفين من غيرهم (أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) غاية وأحصى فعل ماض وأمدا ظرف لأحصى أو معمول له والفعل الماضى خبر المبتدأ وهو أى والمبتدأ مع خبره سد مسد مفعولى نعلم والمعنى أيهم ضبط أمداً لأوقات لبثهم وأحاط علما بأمد لبثهم ومن قال أحصى أفعل من الإحصاء وهو العد فقد زل لأن بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس وإنما قال لنعلم مع أنه تعالى لم يزل عالما بذلك لأن المراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيمانا واعتبارا وليكون لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفاره أو المراد لنعلم اختلافهما موجودا كما علمناه قبل وجوده (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ) بالصدق (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ) جمع فتى والفتوة بذل الندى وكف الأذى وترك الشكوى واجتناب المحارم واستعمال المكارم وقيل الفتى من لايدعى قبل الفعل ولا يزكى نفسه بعد الفعل (ءامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) يقينا وكانوا من خواص دقيانوس قد قذف الله فى قلوبهم الإيمان وخاف بعضهم بعضا وقالوا ليخل اثنان اثنان منا فيظهر كلاهما مايضمر لصاحبه ففعلوا فحصل اتفاقهم على الإيمان (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) وقويناها بالصبر على هجران الأوطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام (إِذْ قَامُوا) بين يدى الجبار وهو دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام (فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) مفتخرين (لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا) ولئن سميناهم آلهة (لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) قولا ذا شطط وهو الإفراط فى الظلم والإبعاد فيه من شطط يشط ويشط إذا بعد (هَٰؤُلَاءِ) مبتدأ (قَوْمُنَا) عطف بيان (اتَّخَذُوا

مِن دُونِهِ آلِهَةً) خبر وهو إخبار في معنى الإنكار (لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم) هلا يأتون على عبادتهم بحذف المضاف (بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ) بحجة ظاهرة وهو تبكيت لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) بنسبة الشريك إليه (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ) خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم (وَمَا يَعْبُدُونَ) نصب عطف على الضمير أي وإذ اعتزلتموهم وإذ اعتزلتم معبوديهم (إِلَّا اللَّهَ) استثناء متصل لأنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه غيره كأهل مكة أو منقطع أي وإذ اعتزلتم الكفار والأصنام التي يعبدونها من دون الله أو هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) صيروا إليه أو اجعلوا الكهف مأواكم (يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ) من رزقه (وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا) مَرفقا مدنى وشامى وهو ما يرتفق به أي ينتفع وإنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم أو أخبرهم به نبي في عصرهم (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ) بتخفيف الزاي كوفى، تزور شامى، تزاور غيرهم وأصله تتزاور فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها والكل من الزور وهو الميل ومنه زاره إذا مال إليه والزور الميل عن الصدق (عَن كَهْفِهِمْ) أي تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم (ذَاتَ الْيَمِينِ) جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمين (وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ) تقطعهم أي تتركهم وتعدل عنهم (ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ) في متسع من الكهف والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم وقيل منفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار (ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) أي ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله يعني أن ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقناة أبدا ومعنى ذلك من آيات الله أن شأنهم وحديثهم من آيات الله (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) مثل ما مر في سبحان وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم فأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية (وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) أي من أضله فلا هادي له (وَتَحْسَبُهُمْ) بفتح السين شامى وحمزة وعاصم غير الأعشى وهو خطاب لكل أحد (أَيْقَاظًا)

جمع يقظ (وَهُمْ رُقُودٌ) نيام قيل عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظا (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) قيل لهم تقلبتان فى السنة وقيل تقلبة واحدة فى يوم عاشوراء (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ) حكاية حال ماضية لأن اسم الفاعل لايعمل إذا كان فى معنى المضى (بِالْوَصِيدِ) بالفناء أو بالعتبة (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ) لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم (لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ) لأعرضت عنهم وهربت منهم (فِرَارًا) منصوب على المصدر لأن معنى وليت منهم فررت منهم (وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ) وبتشديد اللام حجازى للمبالغة (رُعْبًا) تميز وبضم العين شامى وعلى وهو الخوف الذى يرعب الصدر أى يملؤه وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة أولطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم وعن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال أريد أن أدخل فقال ابن عباس رضى الله عنهما لقد قيل لمن هو خير منك لوليت منهم فرارا فدخلت جماعة بأمره فأحرقتهم ريح (وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ) وكما أنمناهم تلك النومة كذلك أيقظناهم إظهارا للقدرة على الإنامة والبعث جميعا (لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ) ليسأل بعضهم بعضا ويتعرفوا حالهم وماصنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقينا ويشكروا ما أنعم الله به عليهم (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ) رئيسهم (كَمْ لَبِثْتُمْ) كم مدة لبثكم (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) جواب مبنى على غالب الظن وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب (قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) بمدة لبثكم إنكار عليهم من بعضهم كأنهم قد علموا بالأدلة أو بإلهام أن المدة متطاولة وأن مقدارها لا يعلمه إلا الله وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال فظنوا أنهم فى يومهم فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك وقد استدل ابن عباس رضى الله عنهما على أن الصحيح أن عددهم سبعة لأنه قد قال فى الآية قال قائل منهم كم لبثتم وهذا واحد وقالوا فى جوابه لبثنا يوما أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ثم قال ربكم أعلم بما لبثتم وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ) كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك لاطريق لكم إلى علمه فخذوا فى شىء آخر مما يهمكم فابعثوا أحدكم أى يمليخا (بِوَرِقِكُمْ) هى الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة وبسكون الراء أبو عمرو وحمزة وأبو بكر (هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ) هى طرسوس وحملهم الورق عند فرارهم دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتكلين على الاتفاقات وعلى

مافى أوعيـة القوم من النفقات وعن بعض العلماء أنه كان شديد الحنين إلى بيت الله ويقول ما لهذا السفر إلا شيئان شد الهميان والتوكل على الرحمن (فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ) أى أهلها فحذف كما فى واسئل القرية وأى مبتدأ وخبره (أَزْكَىٰ) أحل وأطيب أو أكثر وأرخص (طَعَامًا) تمييز (فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ) وليتكلف اللطف فيما يباشره من أمر البايعة حتى لايغبن أو فى أمر التخفى حتى لايعرف (وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) ولا يفعلن مايؤدى إلى الشعور بنا من غير قصد منه فسمى ذلك إشعاراً منه بهم لأنه سبب فيه والضمير فى (إِنَّهُمْ) راجع إلى الأهل القدر فى أيها (إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) يطلعوا عليكم (يَرْجُمُوكُمْ) يقتلوكم أخبث القتلة (أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ) بالإكراه، والعود بمعنى الصيرورة كثير فى كلامهم (وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا) إذاً يدل على الشرط أى ولن تفلحوا إن دخلتم فى دينهم أبدا (وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) وكما أنمناهم وبعثناهم لما فى ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم (لِيَعْلَمُوٓا) أى الذين أطلعناهم على حالهم (أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ) وهو البعث (حَقٌّ) كائن لأن حالهم فى نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث (وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَا) فإنهم يستدلون بأمرهم على صحة البعث (إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ) متعلق بأعثرنا أى أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان (بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) أمر دينهم ويختلفون فى حقيقة البعث فكان بعضهم يقول تبعث الأرواح دون الأجساد وبعضهم يقول تبعث الأجساد مع الأرواح ليرتفع الخلاف وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت (فَقَالُوا) حين توفى الله أصحاب الكهف (ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا) أى على باب كهفهم لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالحظيرة (رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام فى أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم أو من كلام الله عز وجل رداً لقول الخائضين فى حديثهم (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ) من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم) على باب الكهف (مَّسْجِدًا) يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم روى أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها وممن شدد فى ذلك دقيانوس فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على

الإيمان والتصلب فيه ثم هربوا إلى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال ماتريدون مني إني أحب أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم وقيل مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن وقد اختلف أهل مملكته فى البعث معترفين وجاحدين فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين لهم الحق فألقى الله فى نفس رجل من رعيانهم فهدم ماسدبه فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب فرآهم فى المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجداً (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) الضمير فى سيقولون لمن خاض فى قصتهم فى زمن رسول الله ﷺ من المؤمنين، وأهل الكتاب سألوا رسول الله ﷺ عنهم فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم فنزلت اخبارا بما سيجرى بينهم من اختلافهم فى عددهم وأن المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم ويروى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبى ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال العاقب وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فحقق الله قول المسلمين وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ وبما ذكرنا من قبل وعن على رضى الله عنه هم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشليمينا شليمنا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة فى أمره والسابع الراعى الذى وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسم مدينتهم أفسوس واسم كلبهم قطمير وسين الاستقبال وإن دخل فى الأول دون الآخرين فهما داخلان فى حكم السين كقولك قد أكرم وأنعم تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعاً أو أريد بيفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له ثلاثة خبر مبتدأ

محذوف أى هم ثلاثة وكذلك خمسة وسبعة ورابعهم كلبهم جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم رجما بالغيب رميا بالخبر الخفى وإتيانا به كقوله ويقذفون بالغيب أى يأتون به أو وضع الرجم موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين والواو الداخلة على الجملة الثالثة هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة النكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة فى قولك جاءنى رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفى يده سيف وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر وهذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم دليله أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله رجما بالغيب وأتبع القول الثالث قوله (قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم) أى قل ربى أعلم بعدتهم وقد أخبركم بها بقوله سبعة وثامنهم كلبهم (مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) قال ابن عباس رضى الله عنهما أنا من ذلك القليل وقيل إلا قليل من أهل الكتاب والضمير فى سيقولون على هذا لأهل الكتاب خاصة أى سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ولا علم بذلك إلا فى قليل منهم وأكثرهم على ظن وتخمين (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ) فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف (إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا) إلا جدا لا ظاهراً غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد من غير تجهيل لهم أو بمشهد من الناس ليظهر صدقك (وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا) ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيئا فترده عليه وتزيف ماعنده ولا سؤال مسترشد لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ) لأجل شىء تعزم عليه (إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ) الشىء (غَدًا) أى فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) أن تقوله بأن يأذن لك فيه أو ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله أى إلا بمشيئته وهو فى موضع الحال أى إلا ملتبسا بمشيئة الله قائلا إن شاء الله وقال الزجاج معناه ولا تقولن إنى أفعل ذلك إلا بمشيئة الله تعالى لأن قول القائل أنا أفعل ذلك إن شاء الله معناه لا أفعله إلا بمشيئة الله وهذا نهى تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذى القرنين فسألوه فقال ائتونى غدا أخبركم ولم

يستثن فابطأ عليه الوحى حتى شق عليه (وَاذْكُرْ رَّبَّكَ) أى مشيئة ربك وقل إن شاء الله (إِذَا نَسِيتَ) إذا فرط منك نسيان لذلك والمعنى إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر عن الحسن مادام فى مجلس الذكر وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة وهذا محمول على تدارك التبرك بالاستثناء فأما الاستثناء المغير حكما فلا يصح إلا متصلا وحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضى الله عنهما فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له أبو حنيفة هذا يرجع عليك إنك تأخذ البيعة بالأيمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن كلامه وأمر الطاعن فيه بإخراجه من عنده أو معناه واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء تشديداً فى البعث على الاهتمام بها أوصل صلاة نسيتها إذا ذكرتها أو إذا نسيت شيئا فاذكره ليذكرك المنسى (وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا) يعنى إذا نسيت شيئا فاذكر ربك، وذكر ربك عند نسيانه أن تقول عسى ربى أن يهدينى لشىء آخر بدل هذا المنسى أقرب منه رشداً وأدنى خيرا ومنفعة . أن يهدين، إن ترن، أن يؤتين، أن تعلمن. مكى فى الحالين ووافقه أبو عمرو ومدنى فى الوصل (وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ) يريد لبثهم فيه أحياء مضروبا على آذانهم هذه المدة وهو بيان لما أجمل فى قوله فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً وسنين عطف بيان لثلثمائة. ثلثمائة سنين بالإضافة حمزة وعلىّ على وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله بالأخسرين أعمالا (وَازْدَادُوا تِسْعًا) أى تسع سنين لدلالة ماقبله عليه وتسعا مفعول به لأن زاد تقتضى مفعولين فازداد يقتضى مفعولا واحدا (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) أى هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم والحق ما أخبرك به أو هو حكاية لكلام أهل الكتاب وقل الله أعلم رد عليهم والجمهور على أن هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا فى كهفهم كذا مدة (لَهُ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) ذكر اختصاصه بعلم ما غاب فى السماوات والأرض وخفى فيها من أحوال أهلها (أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) أى وأسمع به والمعنى ما أبصره بكل موجود وما أسمعه لكل مسموع (مَالَهُم) لأهل السماوات والأرض (مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ) من متول لأمورهم (وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ) فى قضائه (أَحَدًا) منهم، ولا تشرك على النهى شامى كانوا يقولون له ائت بقرآن

غير هذا أو بدله فقيل له (وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ) أى من القرآن ولا تسمع لما يهزون به من طلب التبديل فإنه (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِ) أى لا يقدر أحد على تبديلها أو تغييرها إنما يقدر على ذلك هو وحده (وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا) ملجأ تعدل إليه أن هممت بذلك ولما قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ نح هؤلاء الموالى وهم صهيب وعمار وخباب وسلمان وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك نزل (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم) واحبسها معهم وثبتها (بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ) دائبين على الدعاء فى كل وقت أو بالغداة لطلب التوفيق والتيسير والعشى لطلب عفو التقصير أو هما صلاة الفجر والعصر. بالغدوة شامى (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) رضا الله (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) ولا تجاوز، عداه إذا جاوزه وعدى بعن لتضمن عدا معنى نبا فى قولك نبت عنه عينه وفائدة التضمين إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) فى موضع الحال (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا) من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر وهو دليل لنا على أنه تعالى خالق أفعال العباد (وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) مجاوزا عن الحق (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ) أى الإسلام أو القرآن، والحق خبر مبتدأ محذوف أى هو (فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ) أى جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ماشئتم من الأخذ فى طريق النجاة أو فى طريق الهلاك وجىء بلفظ الأمر والتخيير لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ماشاء من النجدين ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال (إِنَّآ أَعْتَدْنَا) هيأنا (لِلظَّٰلِمِينَ) للكافرين فقيد بالسياق كما ترك حقيقة الأمر والتخيير بالسياق وهو قوله إنا أعتدنا للظالمين (نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق وهى الحجرة التى تكون حول الفسطاط أو هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار أو هو حائط من نار يطيف بهم (وَإِن يَسْتَغِيثُوا) من العطش (يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ) هو دردى الزيت أو ما أذيب من جواهر الأرض وفيه تهكم بهم (يَشْوِى الْوُجُوهَ) إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته (بِئْسَ الشَّرَابُ) ذلك (وَسَآءَتْ) النار (مُرْتَفَقًا) متكأ من الرفق وهذه لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا وإلا فلا ارتفاق لأهل النار وبين جزاء من اختار الإيمان فقال (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ

جَنَّٰتُ عَدْنٍ) كلام مستأنف بيان للأجر المبهم ولك أن تجعل إنا لانضيع وأولئك خبرين معا والمراد من أحسن منهم عملا كقولك السمن منوان بدرهم أو لأن من أحسن عملا والذين آمنوا وعملوا الصالحات ينتظمهما معنى واحد فأقام من أحسن مقام الضمير (تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ) من للابتداء وتنكير أساور وهى جمع أسورة التى هى جمع سوار لإبهام أمرها فى الحسن (مِن ذَهَبٍ)من للتبيين (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ) مارق من الديباج (وَإِسْتَبْرَقٍ) ماغلظ منه أى يجمعون بين النوعين (مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ) خص الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم (نِعْمَ الثَّوَابُ) الجنة (وَحَسُنَتْ) الجنة والأرائك (مُرْتَفَقًا) متكأ (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ) ومثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا أخوين فى بنى إسرائيل أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران فى والصافات فى قوله قال قائل منهم إنى كان لى قرين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فجعلاها شطرين فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار فقال المؤمن : اللهم إن أخى اشترى أرضاً بألف دينار وأنا أشترى منك أرضاً فى الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه داراً بألف فقال: اللهم إنى أشترى منك داراً فى الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال اللهم إنى جعلت ألفا صداقاً للحور ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال اللهم إنى اشتريت منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به فى حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ) بساتين من كروم (وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ) وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين فى كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة يقال حفوه إذا أطافوا به وحففته بهم أى جعلتهم حافين حوله وهو متعد إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ) أعطت حمل على اللفظ لأن لفظ كلتا مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز (أُكُلَهَا) ثمرها (وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ) ولم تنقص من أكلها (شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا) نمتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل مايسقى به وهو

النهر الجارى فيها (وَكَانَ لَهُ) لصاحب الجنتين (ثَمَرٌ) أنواع من المال من ثمر ماله إذا كثره أى كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما له ثمر وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء عاصم وبضم الثاء وسكون الميم أبوعمرو وبضمهما غيرهما (فَقَالَ لِصَٰحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع يعنى قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به فى الجنتين ويريه مافيهما ويفاخره بما ملك من المال دونه (أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) أنصاراً وحشماً، أوأولاداً ذكوراً لأنهم ينفرون معه دون الإناث (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ) إحدى جنتيه أو سماها جنة لاتحاد الحائط، وجنتين للنهر الجارى بينهما (وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) ضار لها بالكفر (قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا) أى أن تهلك هذه الجنة شك فى بيدودة جنته لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك (وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً) كائنة (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا) إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدن فى الآخرة خيراً من جنته فى الدنيا إدعاء لكرامته عليه ومكانته عنده منقلبا تمييز أى مرجعاً وعاقبة (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ) أى خلق أصلك لأن خلق أصله سبب فى خلقه وكان خلقه خلقاً له (ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ) أى خلقك من نطفة (ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا) عدلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال جعله كافراً بالله لشكه فى البعث (لَّٰكِنَّا) بالألف فى الوصل شامى، الباقون بغير ألف، وبالألف فى الوقف اتفاق، وأصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فأدغمت الأولى فى الثانية بعد أن سكنت (هُوَ اللَّهُ رَبِّى) هو ضمير الشأن والشأن الله ربى والجملة خبر أنا والراجع منها إليه ياء الضمير وهو استدراك لقوله أكفرت قال لأخيه أنت كافر بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمراً حاضر وفيه حذف أى أقول هو الله بدليل عطف (وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَوْلَآ) وهلا (إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ) ماموصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف، تقديره الأمر ماشاء الله أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف يعنى أى شىء شاء الله كان والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر إلى مارزقك الله منها الأمر ما شاء الله اعترافا بأنها وكل مافيها إنما حصل بمشيئة الله وأن أمرها بيده إن

شاء تركها عامرة وإن شاء خربها (لَاقُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ) إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونته وتأييده من قرأ (إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا) بنصب أقل فقد جعل أنا فصلا ومن رفع وهو الكسائى جعله مبتدأ وأقل خبره والجملة مفعولا ثانياً لترنى وفى قوله (وَوَلَداً) نصرة لمن فسر النفر بالأولاد فى قوله: وأعز نفراً (فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ) فى الدنيا أو فى العقبى (وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً) عذاباً (مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقاً) أرضاً بيضاء يزلق عليها للاستها (أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً) غائرا أى ذاهباً فى الأرض (فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً) فلا يتأتى منك طلبه فضلا عن الوجود والمعنى إن ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب مابى ومابك من الفقر والغنى فيرزقنى لإيمانى جنة خيراً من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بساتينك (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) هو عبارة عن إهلاكه وأصله من أحاط به العدو لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل فى كل إهلاك (فَأَصْبَحَ) أى الكافر (يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) يضرب إحداهما على الأخرى ندماً وتحسراً وإنما صار تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط فى اليد ولأنه فى معنى الندم عدى تعديته بعلى كأنه قيل فأصبح يندم (عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا) أى فى عمارتها (وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) يعنى أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم (وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَداً) تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة كفره وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لايهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمنى ويجوز أن يكون توبة من الشرك وندما على ما كان منه ودخولا فى الإيمان (وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ) يقدرون على نصرته (مِن دُونِ اللهِ) أى هو وحده القادر على نصرته لايقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لحكمة (وَمَا كَانَ مُنتَصِراً) وما كان ممتنعا بقوته عن انتقام الله (هُنَالِكَ الْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ) بكسر بالياء والولاية بكسر الواو حمزة وعلى فهى بالفتح النصرة والتولى وبالكسر السلطان والملك والمعنى هنالك أى فى ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لايملكها غيره ولايستطيعها أحد سواه تقريرا لقوله ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله أو هنالك السلطان والملك لله لايغلب أو فى مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر يعنى أن قوله

ياليتنى لم أشرك بربى أحداً كلمة ألجىء إليها فقالها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها. أوهنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم يعنى أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء ويؤيده قوله (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) أى لأوليائه أوهنالك إشارة إلى الآخرة أى فى تلك الدار الولاية لله كقوله: لمن الملك اليوم. الحق بالرفع أبو عمرو وعلى صفة للولاية أو خبر مبتدأ محذوف أى هى الحق أوهو الحق غيرهما بالجر صفة لله. عقبا بسكون القاف عاصم وحمزة وبضمها غيرهما وفى الشواذ عقبى على وزن فعلى وكلها بمعنى العاقبة (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ السَّمَآءِ) أى هى كماء أنزلناه (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا أو أثر فى النبات الماء فاختلط به حتى روى (فَأَصْبَحَ هَشِيمًا) يابساً متكسراً الواحدة هشيمة (تَذْرُوهُ الرِّيَـٰحُ) تنسفه وتطيره. الريح حمزة وعلى (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ) من الإنشاء والإفناء (مُّقْتَدِرًا) قادراً شبه حال الدنيا فى نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والإفناء بحال النبات يكون أخضر ثم يهيج فتطيره الريح كأن لم يكن (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) لازاد القبر وعدة العقبى (وَالْبَـٰقِيَـٰتُ الصَّـٰلِحَـٰتُ) أعمال الخير التى تبقى ثمرتها للإنسان أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا) جزاء (وَخَيْرٌ أَمَلًا) لأنه وعد صادق وأكثر الآمال كاذبة يعنى أن صاحبها يأمل فى الدنيا ثواب الله ويصيبه فى الآخرة (وَيَوْمَ) واذكر يوم (نُسَيِّرُ الْجِبَالَ) تُسيَّر الجبال مكى وشامى وأبوعمرو أى تسير فى الجو أويذهب بها بأن تجعل هباء منثوراً منبثاً (وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) ليس عليها مايسترها مما كان عليها من الجبال والأشجار (وَحَشَرْنَـٰهُمْ) أى الموتى (فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) أى فلم نترك. غادره أى تركه ومنه الغدر ترك الوفاء والغدير ماغادره السيل (وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا) مصطفين ظاهرين ترى جماعتهم كما ترى كل واحد لا يحجب أحد أحدا شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان (لَّقَدْ جِئْتُمُونَا) أى قلنا لهم لقد جئتمونا وهذا المضمر يجوز أن يكون عامل النصب فى يوم نسير (كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أى لقد بعثناكم كما أنشأناكم أول مرة أو جئتمونا عراة لا شىء معكم كما خلقناكم أولا وإنما قال وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى للدلالة على

حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك (بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً) وقتاً لإنجاز ماوعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور أو مكان وعد للمحاسبة (وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ) أى صحف الأعمال (فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ) خائفين (مِمَّا فِيهِ) من الذنوب (وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً) أى لايترك شيئاً من المعاصى (إِلَّآ أَحْصَٰهَا) حصرها وضبطها (وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِرًا) فى الصحف عتيدا أو جزاء ماعملوا (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) فيكتب عليه مالم يعمل أو يزيد فى عقابه أو يعذبه بغير جرم (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) سجود تحية أو سجود انقياد (فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ) وهو مستأنف كأن قائلا قال ما له لم يسجد فقيل كان من الجن (فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) خرج عما أمره ربه به من السجود وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ) الهمزة للإنكار والتعجيب كأنه قيل أعقيب ماوجد منه تتخذونه وذريته (أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى) وتستبدلونهم بى ومن ذريته لاقيس موسوس الصلاة والأعور صاحب الزنا وبتر صاحب المصائب ومطوس صاحب الأراجيف وداسم يدخل ويأكل مع من لم يسم الله تعالى (وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) أعداء (بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا) بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعة الله (مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ) أى إبليس وذريته (خَلْقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) يعنى أنكم اتخذتموهم شركاء لى فى العبادة وإنما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء فى الإلهية فنفى مشاركتهم فى الإلهية بقوله ماأشهدتهم خلق السموات والأرض لأعتضد بهم فى خلقها أو أشاورهم فيه أى تفردت بخلق الأشياء فأفردونى فى العبادة (وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ) أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله ولاتقتلوا أنفسكم (وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ) أى وما كنت متخذهم (عَضُداً) أى أعوانا فوضع المضلين موضع الضمير ذمًّا لهم بالإضلال فإذا لم يكونوا عضداً لى فى الخلق فمالكم تتخذونهم شركاء لى فى العبادة (وَيَوْمَ يَقُولُ) الله للكفار، وبالنون حمزة (نَادُوا) ادعوا بصوت عال (شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) أنهم فيكم شركائى ليمنعوكم من عذابى وأراد الجن وأضاف الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم (فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا) مهلكا من وبق يبق وبوقا إذا هلك أو مصدر كالموعد أى وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم

وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعاً أو الملائكة وعزيراً وعيسى والموبق البرزخ البعيد أى وجعلنا بينهم أمداً بعيداً لأنهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان (وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوٓا) فأيقنوا (أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) مخالطوها واقعون فيها (وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا) عن النار (مَصْرِفًا) معدلا (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) يحتاجون إليه (وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا) تميز أى أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل يعنى أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شىء (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ) أى سببه وهو الكتاب والرسول (وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ) أن الأولى نصب والثانية رفع وقبلها مضاف محذوف تقديره وما منع الناس الإيمان والاستغفار إلا انتظار أن تأتيهم سنة الأولين وهى الإهلاك أو انتظار أن يأتيهم العذاب أى عذاب الآخرة (قُبُلًا) كوفى أى أنواعا جمع قبيل. الباقون قِبلا أى عيانا (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) يوقف عليه ويستأنف بقوله (وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَٰطِلِ) هو قولهم للرسل ما أنتم إلا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة ونحو ذلك (لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) ليزيلوا ويبطلوا بالجدال النبوة (وَاتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِى) القرآن (وَمَآ أُنذِرُوا) ما موصولة والراجع من الصلة محذوف أى وما أنذروه من العقاب أومصدرية أى وإنذارهم (هُزُوًا) موضع استهزاء بسكون الزاى والهمزة حمزة وبإبدال الهمزة واوا حفص وبضم الزاى والهمزة غيرهما (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِ) بالقرآن ولذلك رجع الضمير إليها مذكراً فى قوله أن يفقهوه (فَأَعْرَضَ عَنْهَا) فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر (وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) عاقبة ماقدمت يداه من الكفر والمعاصى غير متفكر فيها ولا ناظر فى أن المسىء والمحسن لابد لهما من جزاء ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم بقوله (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) أغطية جمع كنان وهو الغطاء (أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا) ثقلا عن استماع الحق وجمع بعد الإفراد حملا على لفظ من ومعناه (وَإِن تَدْعُهُمْ) يامحمد (إِلَى الْهُدَىٰ) إلى الإيمان

(فَلَن يَهْتَدُوا) فلا يكون منهم اهتداء البتة (إِذًا) جزاء وجواب فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى أنهم جعلوا مايجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً فى انتفائه وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله مالى لاأدعوهم حرصاً على إسلامهم فقيل وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً (أَبَدًا) مدة التكليف كلها (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ) البليغ المغفرة (ذُوالرَّحْمَةِ) الموصوف بالرحمة (لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ) أى ومن رحمته ترك مؤاخذته أهل مكة عاجلا مع فرط عداوتهم لرسول الله ﷺ (بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ) وهو يوم بدر (لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا) منجى ولا ملجأ يقال وأل إذا نجا ووأل إليه إذا لجأ إليه (وَتِلْكَ) مبتدأ (الْقُرَىٰ) صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس والخبر (أَهْلَكْنَاهُمْ) أو تلك القرى نصب بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم والمراد قوم نوح وعاد وثمود (لَمَّا ظَلَمُوا) مثل ظلم أهل مكة (وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر والمهلك الإهلاك ووقته. وبفتح الميم وكسر اللام حفص وبفتحهما أبوبكر أى لوقت هلاكهم أولهلاكهم والموعد وقت أومصدر (وَإِذْ) واذكر إذ (قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ) هو يوشع بن نون وإنما قيل فتاه لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه العلم (لَا أَبْرَحُ) لا أزال وقد حذف الخبر لدلالة الحال والكلام عليه أما الأولى فلأنها كانت حال سفر وأما الثانى فلأن قوله (حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ) غاية مضروبة تستدعى ما هى غاية له فلابد أن يكون المعنى لاأبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين وهو المكان الذى وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام وهوملتقى بحرى فارس والروم وسمى خضرا لأنه أينما يصلى يخضر ماحوله (أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) أوأسير زمانا طويلا قيل ثمانون سنة. روى أنه لما ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بنى اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط سأل ربه أى عبادك أحب إليك؟ قال الذى يذكرنى ولاينسانى قال فأى عبادك أقضى؟ قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم؟ قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أوترده عن ردى، فقال إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان فرقد موسى

فاضطرب الحوت ووقع فى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه فى البحر فأتيا الصخرة فإذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى فقال وأنى بأرضنا السلام فعرفه نفسه فقال ياموسى أنا على علم علمنيه الله لاتعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لاأعلمه أنا (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا) مجمع البحرين (نَسِيَا حُوتَهُمَا) أى نسي أحدهما وهو يوشع لأنه كان صاحب الزاد دليله فإنى نسيت الحوت وهو كقولهم نسوا زادهم وإنما ينساه متعهد الزاد قيل كان الحوت سمكة مملوحة فنزلا ليلة على شاطيء عين الحياة ونام موسى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت فى الماء (فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ) أى اتخذ طريقا له من البر إلى البحر (سَرَبًا) نصب على المصدر أي سرب فيه سربا يعنى دخل فيه واستربه (فَلَمَّا جَاوَزَا) مجمع البحرين ثم نزلا وقد سارا ماشاء الله (قَالَ) موسى (لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا) تعبا ولم يتعب ولا جاع قبل ذلك (قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ) هى موضع الموعد (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ) ثم اعتذر فقال (وَمَآ أَنسَانِيهُ) وبضم الهاء حفص (إِلاَّ الشَّيْطَانُ) بإلقاء الخواطر فى القلب (أَنْ أَذْكُرَهُ) بدل من الهاء فى أنسانيه أى وما أنسانى ذكره إلا الشيطان (وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) وهو أن أثره بقى إلى حيث سار (قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ) نطلب وبالياء مكى وافقه أبو عمرو وعلى ومدنى فى الوصل وبغير ياء فيهما غيرهما اتباعا لخط المصحف وذلك إشارة إلى اتخاذه سبيلا أى ذلك الذى كنا نطلب لأن ذهاب الحوت كان علما على لقاء الخضر عليه السلام (فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا) فرجعا فى الطريق الذى جاءا فيه (قَصَصًا) يقصان قصصا أي يتبعان آثارهما اتباعا قال الزجاج: القصص اتباع الأثر (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا) أى الخضر راقدا تحت ثوب أو جالسا فى البحر (ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا) هى الوحى والنبوة أو العلم أو طول الحياة (وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) يعنى الإخبار بالغيوب وقيل العلم اللدنى ماحصل للعبد بطريق الإلهام (قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) أى علما ذا رشد أرشد به فى دينى رَشَدا أبو عمرو وهما لغتان كالبخل والبخل وفيه دليل على أنه لا ينبغى لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته وأن يتواضع لمن هو أعلم منه (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ) وبفتح الياء حفص وكذا ما بعده فى هذه السورة (صَبْرًا) أى عن الإنكار والسؤال (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ

بِهِ خُبْراً) تمييز نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد وعلل ذلك بأنه يتولى أمورا هى فى ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك أن يجزع إذا رأى ذلك فكيف إذا كان نبيا (قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا) من الصابرين عن الإنكار والإعراض (وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْرًا) فى محل النصب عطف على صابرا أى ستجدنى صابرا وغير عاص أوهو عطف على ستجدنى ولا محل له (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْئَلْنِي) بفتح اللام وتشديد النون مدنى وشامى وبسكون اللام وتخفيف النون غيرهما والياء ثابتة فيهما إجماعا (عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) أى فمن شرط اتباعك لى أنك إذا رأيت منى شيئا وقد علمت أنه صحيح إلا أنه خفى عليك وجه صحته فانكرت فى نفسك أن لا تفاتحنى بالسؤال ولا تراجعنى فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك وهذا من أدب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) فانطلقا على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركباها قال أهلها هما من اللصوص وقال صاحب السفينة أرى وجوه الأنبياء فحملوهما بغير نول فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلى الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ثم (قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) ليغرق حمزة وعلى من غرق (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) أتيت شيئا عظيما من أمر الأمر إذا عظم (قَالَ) أى الخضر (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) فلما رأى موسى أن الخرق لا يدخله الماء ولم يفر من السفينة (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) بالذى نسيته أو بشىء نسيته أو بنسيانى أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى أو أراد بالنسيان الترك أى لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة (وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه أى ولا تغشنى عسرا من أمرى وهو اتباعه إياه أى ولا تعسر على متابعتك ويسرها على بالإغضاء وترك المناقشة (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ) قيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه ثم ذبحه بالسكين وإنما قال فقتله بالفاء وقال خرقها بغير فاء لأن خرقها جعل جزاء للشرط وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه والجزاء (قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا) وإنما خولف بينهما لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب وقد تعقب القتل لقاء الغلام (زَكِيَّةً) زاكية حجازى وأبو عمرو وهى الطاهرة من الذنوب إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت أو لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث (بِغَيْرِ نَفْسٍ) أى لم تقتل نفسا فيقتص منها وعن ابن عباس

رضى الله تعالى عنهما أن نجدة الحرورى كتب إليه كيف جاز قتله وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان فكتب إليه أن علمت من حال الولدان ماعلمه موسى فلك أن تقتل (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا) وبضم الكاف حيث كان مدنى وأبو بكر وهو المنكر وقيل النكر أقل من الإمر لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة أو معناه جئت شيئاً أنكر من الأول لأن الخرق يمكن تداركه بالسد ولا يمكن تدارك القتل (قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) زاد لك هنا لأن النكر فيه أكثر (قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا) بعد هذه الكرة أو المسئلة (فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا) أعذرت فيما بينى وبينك فى الفراق. ولدنى بتخفيف النون مدنى وأبو بكر (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ) هى أنطاكية أو الأيلة وهى أبعد أرض الله من السماء (اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا) استضافا (فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا) ضيفه أنزله وجعله ضيفه قال عليه السلام «كانوا أهل قرية لئاماً» وقيل شر القرى التى تبخل بالقرى (فَوَجَدَا فِيهَا) فى القرية (جِدَارًا) طوله مائة ذراع (يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ) يكاد يسقط استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك (فَأَقَامَهُ) بيده أو مسحه بيده فقام واستوى أو نقضه وبناه كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسئلة فلم يجدا مواسيا فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن (قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) أى لطلبت على عملك جعلا حتى تستدفع به الضرورة. لتخذت بتخفيف التاء وكسر الخاء وإدغام الذال بصرى وبإظهارها مكى وبتشديد التاء وفتح الخاء وإظهار الذال حفص وبتشديد التاء وفتح الخاء وإدغام الذال فى التاء غيرهم والتاء فى تخذ أصل كما فى تبع واتخذ افتعل منه كاتبع من تبع وليس من الأخذ فى شىء (قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) هذا إشارة إلى السؤال الثالث أى هذا الاعتراض سبب الفراق والأصل هذا فراق بينى وبينك وقد قرئ به فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ) قيل كانت لعشرة أخوة خمسة منهم زمنى وخمسة يعملون فى البحر (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) أجعلها ذات عيب (وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ) أمامهم أو خلفهم وكان طريقهم فى رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره فأعلم الله به الخضر وهو جلندى (يَأْخُذُ كُلَّ

سَفِينَةٍ غَصْبًا) أى يأخذ كل سفينة صالحة لاعيب فيها غصباً وإن كانت معيبة تركها وهو مصدر أو مفعول له فإن قلت قوله فأردت أن أعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب قلت المراد به التأخير وإنما قدم للعناية (وَأَمَّا الْغُلَامُ) وكان اسمه الحسين (فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وهو من كلام الخضر وإنما خشى الخضر منه ذلك لأنه تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وإن كان من قول الله تعالى فمعنى فخشينا فعلمنا إن عاش أن يصير سببا لكفر والديه (فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا) يبدّلهما بهما مدنى وأبو عمرو (خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً) طهارة ونقاء من الذنوب (وَأَقْرَبَ رُحْمًا) رحمة وعطفا وزكاة ورحما تمييز روى أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبيا أو سبعين نبيا أو أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما رُحما شامى وهما لغتان (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ) أصرم وصريم (يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ) هى القرية المذكورة (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا) أى لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله أو مال مدفون من ذهب وفضة أو صحف فيها علم والأول أظهر وعن قتادة أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة عليهم وأحلت لنا (وَكَانَ أَبُوهُمَا) قيل جدهما السابع (صَٰلِحًا) ممن يصحبنى وعن الحسين بن على رضى الله عنهما أنه قال لبعض الخوارج فى كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين قال بصلاح أبيهما قال فأبى وجدى خير منه (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) أى الحلم (وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً) مفعول له أو مصدر منصوب بأراد ربك لأنه فى معنى رحمهما (مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ) وما فعلت ما رأيت (عَنْ أَمْرِى) عن اجتهادى وإنما فعلته بأمر الله والهاء تعود إلى الكل أو إلى الجدار (ذَٰلِكَ) أى الأجوبة الثلاثة (تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) حذف التاء تخفيفاً وقد زل أقدام أقوام من الضلال فى تفضيل الولى على النبي وهو كفر جلى حيث قالوا أمر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولىّ والجواب أن الخضر نبي وإن لم يكن كما زعم

البعض فهذا ابتلاء فى حق موسى عليه السلام على أن أهل الكتاب يقولون إن موسى هذا ليس موسى بن عمران إنما هو موسى بن مانان ومن المحال أن يكون الولىّ وليًّا إلا بإيمانه بالنبى ثم يكون النبى دون الولىّ ولا غضاضة فى طلب موسى العلم لأن الزيادة فى العلم مطلوبة وإنما ذكر أولا فأردت لأنه إفساد فى الظاهر وهو فعله وثالثا فأراد ربك لأنه إنعام محض وغير مقدور البشر وثانيا فأردنا لأنه إفساد من حيث الفعل إنعام من حيث التبديل وقال الزجاج معنى فأردنا فأراد الله عزوجل ومثله فى القرآن كثير (وَيَسْئَلُونَكَ) أى اليهود على جهة الامتحان أو أبوجهل وأشياعه (عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ) هو الإسكندر الذى ملك الدنيا قيل ملكها مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمرود وبختنصر وكان بعد نمرود وقيل كان عبداً صالحا ملّكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل نبيا وقيل ملكا من الملائكة وعن علىّ رضى الله عنه أنه قال ليس بملك ولا نبى ولكن كان عبداً صالحا ضرب على قرنه الأيمن فى طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمى ذا القرنين وفيكم مثله أراد نفسه قيل كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى وقال عليه السلام «سمى ذا القرنين لأنه طاف قرنى الدنيا» يعنى جانبيها شرقها وغربها وقيل كان له قرنان أى ضفيرتان أو انقرض فى وقته قرنان من الناس أو لأنه ملك الروم وفارس أو الترك والروم أو كان لتاجه قرنان أو على رأسه ما يشبه القرنين أو كان كريم الطرفين أبا وأما وكان من الروم (قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ) من ذى القرنين (ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ) جعلنا له فيها مكانة واعتلاء (وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ) أراده من أغراضه ومقاصده فى ملكه (سَبَبًا) طريقا موصلا إليه (فَأَتْبَعَ سَبَبًا) والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة فأراد بلوغ المغرب فأتبع سببا. يوصله إليه حتى بلغ وكذلك أراد المشرق فأتبع سببا وأراد بلوغ السدين فأتبع سببا. فأتبع سببا ثم أتبع كوفى وشامى الباقون بوصل الألف وتشديد التاء عن الأصمعى أتبع لحق واتبع اقتفى وإن لم يلحق (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ) أى منتهى العمارة نحو المغرب وكذا المطلع قال ﷺ «بدء أمره أنه وجد فى الكتب أن أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلد فجعل يسير فى طلبها والخضر وزيره وابن خالته فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين» (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ

حَمِئَةٍ) ذات حمأة من حمئت البئر إذا صارت فيها الحمأة حامية شامى وكوفى غير حفص بمعنى حارة وعن أبى ذر كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال «أتدرى يا أباذر أين تغرب هذه» قلت الله ورسوله أعلم قال «فإنها تغرب فى عين حامية» وكان ابن عباس رضى الله عنهما عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله ابن عمرو كيف تقرؤها فقال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين كذلك نجده فى التوراة فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما ولا تنافى لجاز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا (وَوَجَدَ عِندَهَا) عند تلك العين (قَوْمًا) عراة من الثياب لباسهم جلود الصيد وطعامهم مالفظ البحر وكانوا كفارا (قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) إن كان نبيا فقد أوحى الله إليه بهذا وإلا فقد أوحى إلى نبى فأمره النبى به أو كان إلهاما خير بين أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على أمرهم وبين أن يتخذ فيهم حسنا بإكرامهم وتعليم الشرائع إن آمنوا أو التعذيب القتل واتخاذ الحسن الأسر لأنه بالنظر إلى القتل إحسان (قَالَ) ذو القرنين (أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ) بالقتل (ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا) فى القيامة يعنى أما من دعونه إلى الإسلام فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم وهو الشرك فذاك هو المعذب فى الدارين (وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا) أى عمل ما يقتضيه الإيمان (فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ) فله جزاء الفعلة الحسنى التى هى كلمة الشهادة. جزاء الحسنى كوفى غير أبى بكر أى فله الفعلة الحسنى جزاء (وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) أى ذا يسر أى لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ) هم الزنج (لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا) من دون الشمس (سِتْرًا) أى أبنية عن كعب أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم أو الستر اللباس عن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض (كَذَٰلِكَ) أى أمر ذى القرنين كذلك أى كما وصفناه تعظيما لأمره (وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ) من الجنود والآلات وأسباب الملك (خُبْرًا) نصب على المصدر لأن فى أحطنا معنى خبرنا أو بلغ مطلع الشمس مثل ذلك أى كما بلغ مغربها أو تطلع على قوم مثل

ذلك القبيل الذى تغرب عليهم يعنى أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم فى تعذيبه لمن بقى منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن منهم (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) بين الجبلين وهما جبلان سدذو القرنين مابينهما. السَّدين وسَدًا مكى وأبو عمرو وحفص السُّدين وسُدا حمزة وعلى وبضمهما غيرهم قيل ما كان مسدوداً خلقة فهو مضموم وما كان من عمل العباد فهو مفتوح وانتصب بين على أنه مفعول به لبلغ كما انجر بالإضافة فى هذا فراق بينى وبينك وكما ارتفع فى لقد تقطع بينكم لأنه من الظروف التى تستعمل أسماء وظروفا وهذا المكان فى منقطع أرض الترك مما يلى المشرق (وَجَدَ مِن دُونِهِمَا) من ورائهما (قَوْمًا) هم الترك (لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) أى لايكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها. يُفقهون حمزة وعلى أن لايفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لأن لغتهم غريبة مجهولة (قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وهمزهما عاصم فقط وهما من ولد يافث أو يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم (مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) قيل كانوا يأكلون الناس وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئا أخضر إلا أكلوه ولا يابسا إلا احتملوه ولا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وقيل هم على صنفين طوال مفرطو الطول وقصار مفرطو القصر (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا) خراجا حمزة وعلى أى جعلا نخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال (عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّى) بالإدغام وبفكه مكى (فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ) أى ماجعلنى فيه مكينا من كثرة المال واليسار خير مما تبذلون لى من الخراج فلا حاجة لى إليه (فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ) بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات (أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) جداراً وحاجزاً حصينا موثقا والردم أكبر من السد (ءَاتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ) قطع الحديد والزبرة القطعة الكبيرة قيل حفر الأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سدما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جلدا وصلدا وقيل بعد ما بين السدين مائة فرسخ (حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) بفتحتين جانبى الجبلين لأنهما يتصادفان أى يتقابلان. الصُّدُفين مكى وبصرى وشامى. الصُّدْفين أبو بكر

(قَالَ انفُخُوا) أى قال ذو القرنين للعملة انفخوا فى الحديد (حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ) أى المنفوخ فيه وهو الحديد (نَاراً) كالنار (قَالَ ءَاتُونِىٓ) أعطونى (أُفْرِغْ) أصب (عَلَيْهِ قِطْراً) نحاسا مذابا لأنه يقطر وهو منصوب بأفرغ وتقديره آتونى قطرا أفرغ عليه قطرا فحذف الأول لدلالة الثانى عليه قال ائتونى بوصل الألف حمزة وإذا ابتدأ كسر الألف أى جيئونى (فَمَا اسْطَٰعُوا) بحذف التاء للخفة لأن التاء قريبة المخرج من الطاء (أَن يَظْهَرُوهُ) أن يعلوا السد (وَمَا (اسْتَطَٰعُوا لَهُ نَقْباً) أى لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه ولا نقب لصلابته (قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى) أى هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى) فإذا دنى مجىء يوم القيامة وشارف أن يأتى (جَعَلَهُ) أى السد (دَكَّآءَ) أى مدكوكا مبسوطا مسوى بالأرض وكل ماانبسط بعد ارتفاع فقد اندك. دكاء كوفى أى أرضا مستوية (وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا) آخر قول ذى القرنين (وَتَرَكْنَا) وجعلنا (بَعْضَهُمْ) بعض الخلق (يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ) يختلط (فِى بَعْضٍ) أى يطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين فى البلاد وروى أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله نغفا فى أقفائهم فيدخل فى آذانهم فيموتون (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ) لقيام الساعة (فَجَمَعْنَٰهُمْ) أى جمع الخلائق للثواب والعقاب (جَمْعًا) تأكيد (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا) وأظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى) عن آياتى التى ينظر إليها أو عن القرآن فأذكره بالتعظيم أو عن القرآن وتأمل معانيه (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) أى وكانوا صما عنه إلا أنه أبلغ إذ الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ) أى أفظن الكفار اتخاذهم عبادى يعنى الملائكة وعيسى عليهم السلام أولياء نافعهم بئس ماظنوا وقيل أن بصلتها سد مسد مفعولى أحسب وعبادى أولياء مفعولا أن يتخذوا وهذا أوجه يعنى أنهم لا يكونون لهم أولياء (إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا) هو مايقام للنزيل وهو الضيف ونحوه فبشرهم بعذاب أليم (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ

أَعْمَٰلًا) أعمالا تميز وإنما جمع والقياس أن يكون مفردا لتنوع الأهواء وهم أهل الكتاب أو الرهبان (ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ) ضاع وبطل وهو فى محل الرفع أى هم الذين (فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا) فلا يكون لهم عندنا وزن ومقدار (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ) هى عطف بيان لجزاؤهم (بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا) أى جزاؤهم جهنم بكفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَٰلِدِينَ فِيهَا) حال (لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) تحولا إلى غيرها رضا بما أعطوا يقال حال من مكانه حولا أى لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم وهذه غاية الوصف لأن الإنسان فى الدنيا فى أى نعيم كان فهو طامح مائل الطرف إلى أرفع منه أو المراد نفى التحول وتأكيد الخلود (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ) أى ماء البحر (مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى) قال أبو عبيدة المداد ما يكتب به أى لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مدادا لها والمراد بالبحر الجنس (لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ) بمثل البحر (مَدَدًا) لنفد أيضا والكلمات غير نافدة ومددا تمييز نحولى مثله رجلا والمدد مثل المداد وهو ما يمد به. ينفد حمزة وعلى، وقيل قال حي بن أخطب فى كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ثم تقرءون وما أوتيتم من العلم إلا قليلا فنزلت يعنى أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله (قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ) فمن كان يأمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول أو فمن كان يخاف سوء لقاء ربه والمراد باللقاء القدوم عليه وقيل رؤيته كما هو حقيقة اللفظ والرجاء على هذا يجرى على حقيقته (فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا) خالصا لا يريد به إلا وجه ربه ولا يخلط به غيره وعن يحيى بن معاذ هو ما لا يستحى منه (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا) هو نهى عن الشرك أو عن الرياء قال ﷺ «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر قال «الرياء» قال ﷺ «من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة تكون فإن يخرج الدجال فى تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدجال، ومن قرأ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إلى آخرها عند مضجعه كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى

مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه وإن كان مضجعه بمكة فتلاها كان له نورا يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ ».

﴿ سورة مريم عليها السلام مكية، وهي ثمان أو تسع وتسعون آية مدني وشامي ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(كٓهيعٓصٓ) قال السدى هو اسم الله الأعظم وقيل هو اسم للسورة قرأ على ويحيى بكسر الهاء والياء ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء وحمزة بعكسه وغيرهم بفتحهما (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ) خبر مبتدأ أى هذا ذكر (عَبْدَهُ) مفعول الرحمة (زَكَرِيَّآ) بالقصر حمزة وعلى وحفص وهو بدل من عبده (إِذْ) ظرف للرحمة (نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا) دعاه دعاء سرا كما هو المأمور به وهو أبعد عن الرياء وأقرب إلى الصفاء أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى أوان الكبر لأنه كان ابن خمس وسبعين أو ثمانين سنة (قَالَ رَبِّ) هذا تفسير الدعاء وأصله يا ربى فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصارا (إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى) ضعف وخص العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية والمراد أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن (وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) تمييز أى فشا فى رأسى الشيب واشتعلت النار إذا تفرقت فى التهابها وصارت شعلا فشبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وانتشاره فى الشعر وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار ولا ترى كلاما أفصح من هذا ألا ترى أن أصل الكلام يارب قد شخت إذا الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن وشيب الرأس المتعرض لهما وأقوى منه ضعف بدنى وشاب رأسى ففيه مزيد التقرير للتفصيل، وأقوى منه وهنت عظام بدنى ففيه عدول عن التصريح إلى الكناية فهى أبلغ منه وأقوى منه أنا وهنت عظام بدنى وأقوى منه إنى وهنت عظام بدنى وأقوى منه إنى وهنت العظام من بدنى ففيه سلوك طريقى الإجمال والتفصيل وأقوى منه إنى وهنت العظام منى ففيه ترك توسيط البدن وأقوى منه إنى وهن العظم منى لشمول الوهن

العظام فردا فردا باعتبار ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد ولهذا تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ وهي الاستعارة فحصل اشتعل شيب رأسي وأبلغ منه اشتعل رأسي شيبا لإسناد الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس لإفادة شمول الاشتعال الرأس إذ وزان اشتعل شيب رأسي واشتعل رأسي شيبا وزان اشتعل النار في بيتي واشتعل بيتي نارا والفرق نير ولأن فيه الإجمال والتفصيل كما عرف في طريق التميز وأبلغ منه واشتعل الرأس مني شيبا لما مر وأبلغ منه واشتعل الرأس شيبا ففيه اكتفاء بعلم المخاطب إنه رأس زكريا بقرينة العطف على وهن العظم (وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ) مصدر مضاف إلى المفعول أي بدعائي إياك (رَبِّ شَقِيًّا) أي كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم سعيدا به غير شقي فيه يقال سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها وشقي إذا خاب ولم ينلها وعن بعضهم أن محتاجا سأله وقال أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا فقال مرحبا بمن توسل بنا إلينا وقت حاجته وقضى حاجته (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ) هم عصبته اخوته وبنوعمه وكانوا شرار بني إسرائيل فخافهم أن يغيروا الدين وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته فطلب عقبا صالحا من صلبه يقتدى به في إحياء الدين (مِن وَرَآءِى) بعدموتي وبالقصر وفتح الياء كهداى مكي وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لأن وجود خوفه بعد موته لا يتصور ولكن بمحذوف أو بمعنى الولاية في الموالي أي خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي، أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) عقيما لا تلد (فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ) اختراعا منك بلا سبب لأن امرأتي لاتصلح للولادة (وَلِيًّا) إبنا يلي أمرك بعدي (يَرِثُنِي وَيَرِثُ) برفعهما صفة لوليا أي هب لي ولدا وارثا مني العلم ومن آل يعقوب النبوة ومعنى وراثة النبوة أنه يصلح لأن يوحى إليه ولم يرد أن نفس النبوة تورث وبجزمهما أبو عمرو وعلى على أنه جواب للدعاء يقال ورثته وورثت منه (مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ) يعقوب بن إسحق (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) مرضيا ترضاه أو راضيا عنك وبحكمك فأجاب الله تعالى دعاءه وقال (يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ) تولى الله تسميته تشريفا له. نبشرك بالتخفيف حمزة (لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا) لم يسم أحد بيحيى قبله وهذا دليل على أن الاسم الغريب جدير بالأثرة وقيل مثلا وشبيها ولم

يكن له مثل فى أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد بين شيخ وعجوز وأنه كان حصورا فلما بشرته الملائكة به (قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ) كيف (يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ) وليس هذا باستبعاد بل هو استكشاف أنه بأي طريق يكون أيوهب له وهو وامرأته بتلك الحال أم يحولان شابين (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) أي بلغت عتيا وهو اليبس والجساوة فى المفاصل والعظام كالعود اليابس من أجل الكبر والطعن فى السن العالية عتيا وصليا وجثيا وبكيا بكسر الأوائل حمزة وعلى وحفص إلا فى بكيا (قَالَ كَذَٰلِكَ) الكاف رفع أى الأمر كذلك تصديق له ثم ابتدأ (قَالَ رَبُّكَ) أو نصب بقال وذلك إشارة إلى مبهم يفسره (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) أى خلق يحيى من كبيرين سهل (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ) أو جدتك من قبل يحيى. خلقناك حمزة وعلى (وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) لأن المعدوم ليس بشىء (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي ءَايَةً) علامة أعرف بها حبل امرأتى (قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) حال من ضمير تكلم أى حال كونك سوى الأعضاء واللسان يعنى علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح مابك خرس ولا بكم ودل ذكر الليالى هنا والأيام فى آل عمران على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن إذ ذكر الأيام يتناول مابإزائها من الليالى وكذا ذكر الليالى يتناول مابإزائها من الأيام عرفا (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ) من موضع صلاته وكانوا ينتظرونه ولم يقدر أن يتكلم (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ) أشار بإصبعه (أَن سَبِّحُوا) صلوا وأن هى المفسرة (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) صلاة الفجر والعصر (يَٰيَحْيَىٰ) أى وهبنا له يحيى وقلنا له بعد ولادته وأوان الخطاب يايحيى (خُذِ الْكِتَٰبَ) التوراة (بِقُوَّةٍ) حال أى بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد (وَءَاتَيْنَٰهُ الْحُكْمَ) الحكمة وهو فهم التوراة والفقه فى الدين (صَبِيًّا) حال قيل دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال: ماللعب خلقنا (وَحَنَانًا) شفقة ورحمة لأبويه وغيرهما عطفا على الحكم (مِّن لَّدُنَّا) من عندنا (وَزَكَوٰةً) أى طهارة وصلاحا فلم يعمد بذنب (وَكَانَ تَقِيًّا) مسلما مطيعا (وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ) وبارا بهما لايعصيهما (وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا) متكبرا (عَصِيًّا) عاصيا لربه (وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ) أمان من الله له (يَوْمَ وُلِدَ) من أن يناله الشيطان (وَيَوْمَ يَمُوتُ) من فتانى القبر (وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) من الفزع الأكبر قال ابن عيينة : إنها أوحش المواطن (وَاذْكُرْ) يامحمد (فِي الْكِتَٰبِ) القرآن (مَرْيَمَ) أى

اقرأ عليهم فى القرآن قصة مريم ليقفوا عليها ويعلموا ما جرى عليها (إِذِ) بدل من مريم بدل اشتمال إذ الأحيان مشتملة على مافيها وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه (انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا) أى اعتزلت (مَكَانًا) ظرف (شَرْقِيًّا) أى تخلت للعبادة فى مكان مما يلى شرقى بيت المقدس أو من دارها معتزلة عن الناس وقيل قعدت فى مشرقه للاغتسال من الحيض (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا) جعلت بينها وبين أهلها حجابا يسترها لتغتسل وراءه (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا) جبريل عليه السلام والإضافة للتشريف وإنما سمى روحا لأن الدين يحيا به وبوحيه (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا) أى فتمثل لها جبريل فى صورة آدمى شاب أمرد وضىء الوجه جعد الشعر (سَوِيًّا) مستوى الخلق وإنما مثل لها فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولاتنفر عنه ولو بدا لها فى صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه (قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا) أى إن كان يرجى منك أن تتقى الله فإنى عائذة به منك (قَالَ) جبريل عليه السلام (إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ) أمنها مما خافت وأخبر أنه ليس بآدمى بل هو رسول من استعاذت به (لِأَهَبَ لَكِ) بإذن الله تعالى أو لأكون سببا فى هبة الغلام بالنفخ فى الدرع . ليهب لك أى الله أبو عمرو ونافع (غُلَٰمًا زَكِيًّا) طاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير والبركة (قَالَتْ أَنَّىٰ) كيف (يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ) ابن (وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ) زوج بالنكاح (وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) فاجرة تبغى الرجال أى تطلب الشهوة من أى رجل كان ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هذين، والبغى فعول عند المبرد بغوى فقلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت العين إتباعا ولذا لم تلحق تاء التأنيث كما لم تلحق فى امرأة صبور وشكور وعند غيره هى فعيل ولم تلحقها الهاء لأنها بمعنى مفعولة وإن كانت بمعنى فاعلة فهو قد يشبه به مثل إن رحمة الله قريب (قَالَ) جبريل (كَذَٰلِكِ) أى الأمر كما قلت لم يمسسك رجل نكاحا أو سفاحا (قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ) أى إعطاء الولد بلا أب على سهل (وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ)تعليل معلله محذوف أى ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك أو هو معطوف على تعليل مضمر أى لنبين به قدرتنا ولنجعله آية للناس أى عبرة وبرهاناً على قدرتنا (وَرَحْمَةً مِّنَّا) لمن آمن به (وَكَانَ) خلق عيسى (أَمْرًا مَّقْضِيًّا) مقدراً مسطوراً فى اللوح فلما اطمأنت إلى قوله دنا منها فنفخ

فى جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها (فَحَمَلَتْهُ) أى الموهوب وكانت سنها ثلاث عشرة سنة أو عشرا أو عشرين (فَانتَبَذَتْ بِهِ) اعتزلت وهو فى بطنها والجار والمجرور فى موضع الحال، عن ابن عباس رضى الله عنهما كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته وقيل ستة أشهر وقيل سبعة وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى وقيل حملته فى ساعة ووضعته فى ساعة (مَكَانًا قَصِيًّا) بعيداً من أهلها وراء الجبل وذلك لأنها لما أحست بالحمل هربت من قومها مخافة اللائمة (فَأَجَاءَهَا) جاء بها وقيل ألجأها وهو منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء ألا تراك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد (الْمَخَاضُ) وجع الولادة (إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ) أصلها وكانت يابسة وكان الوقت شتاء وتعريفها مشعر بأنها كانت نخلة معروفة وجاز أن يكون التعريف للجنس أى جذع هذه الشجرة كأنه تعالى أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب لأنه خرسة النفساء أى طعامها ثم (قَالَتْ) جزعا مما أصابها (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا) اليوم ـ مِتُّ ـ مدنى وكوفى غير أبى بكر وغيرهم بالضم يقال مات يموت ومات يمات (وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا) شيئاً متروكا لا يعرف ولا يذكر. بفتح النون حمزة وحفص بالكسر غيرهما ومعناهما واحد وهو الشىء الذى حقه أن يطرح وينسى لحقارته (فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا) ـ مَن ـ أى الذى تحتها فمن فاعل وهو جبريل عليه السلام لأنه كان بمكان منخفض عنها أو عيسى عليه السلام لأنه خاطبها من تحت ذيلها. من تحتها مدنى وكوفى سوى أبى بكر والفاعل مضمر وهو عيسى عليه السلام أو جبريل والهاء فى تحتها للنخلة ولشدة مالقيت سليت بقوله (أَلَّا تَحْزَنِي) لا تهتمى بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس وأن بمعنى أى (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ) بقربك أو تحت أمرك إن أمرته أن يجرى جرى وإن أمرته أن يقف وقف (سَرِيًّا) نهراً صغيرا عند الجمهور وسئل النبى ﷺ عن السرى فقال هو الجدول وعن الحسن سيداً كريما يعنى عيسى عليه السلام وروى أن خالد بن صفوان قال له إن العرب تسمى الجدول سريًا فقال الحسن صدقت ورجع إلى قوله وقال ابن عباس رضى الله عنهما ضرب عيسى أو جبريل عليهما السلام بعقبه الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى النهر اليابس فاخضرت النخلة وأثمرت وأينعت ثمرتها فقيل لها (وَهُزِّي) حركى (إِلَيْكِ)

إلى نفسك (بِجِذْعِ النَّخْلَةِ) قال أبو على الباء زائدة أى هزى جذع النخلة (تُسَاقِطْ عَلَيْكِ) بإدغام التاء الأولى فى الثانية مكي ومدنى وشامى وأبو عمرو وعلي وأبو بكر والأصل تتساقط بإظهار التاءين وتساقط بفتح التاء والقاف وطرح التاء الثانية وتخفيف السين حمزة ويساقط بفتح الياء والقاف وتشديد السين يعقوب وسهل وحماد ونصير وتساقط حفص من المفاعلة وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع فهذه تسع قراآت (رُطَبًا) تميز أو مفعول به على حسب القراءة (جَنِيًّا) طريا وقالوا التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وقيل ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض من العسل (فَكُلِي) من الجنى (وَاشْرَبِي) من السرى (وَقَرِّي عَيْنًا) بالولد الرضى وعينا تميز أى طيبي نفسا بعيسى وارفضى عنك ما أحزنك (فَإِمَّا) أصله إن مافضمت إن الشرطية إلى ما وأدغمت فيها (تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا) أى فإن رأيت آدمياً يسألك عن حالك فقولى إنى نذرت للرحمن صمتاً وإمساكا عن الكلام وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الأكل والشرب وقيل صياما حقيقة وكان صيامهم فيه الصمت فكان التزامُه التزامَه وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت فصار ذلك منسوخا فينا وإنما أمرت أن تنذر السكوت لأن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرىء به ساحتها ولئلا تجادل السفهاء وفيه دليل على أن السكوت عن السفيه واجب وما قُدعَ سفيه بمثل الإعراض ولا أطلق عنانه بمثل العراض وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة وقد تسمى الإشارة كلاماً وقولا ألا ترى إلى قول الشاعر فى وصف القبور * وتكلمت عن أوجه تبلى * وقيل كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام أو سوغ لها هذا القدر بالنطق (فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا) آدميا (فَأَتَتْ بِهِ) بعيسى (قَوْمَهَا) بعد ما طهرت من نفاسها (تَحْمِلُهُ) حال منها أى أقبلت نحوهم حاملة إياه فلما رأوه معها (قَالُوا يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) بديعاً عجيباً والفرى القطع كأنه يقطع العادة (يَٰأُخْتَ هَٰرُونَ) وكان أخاها من أبيها ومن أفضل بنى إسرائيل أو هو أخو موسى عليه السلام وكانت من أعقابه وبينهما ألف سنة وهذا كما يقال يا أخا همدان أى يا واحداً منهم

أو رجل صالح أو طالح فى زمانها شبهوها به فى الصلاح أو شتموها به (مَا كَانَ أَبُوكِ) عمران (امْرَأَ سَوْءٍ) زانيا (وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ) حنة (بَغِيًّا) زانية (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ) إلى عيسى أن يجيبهم وذلك أن عيسى عليه السلام قال لها لا تحزنى وأحيلى بالجواب على وقيل أمرها جبريل بذلك ولما أشارت إليه غضبوا وتعجبوا و (قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ) حدث ووجد (فِي الْمَهْدِ) المعهود (صَبِيًّا) حال (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ) ولما أسكتت بأمر الله لسانها الناطق أنطق الله لها اللسان الساكت حتى اعترف بالعبودية وهو ابن أربعين ليلة أو ابن يوم روى أنه أشار بسبابته وقال بصوت رفيع إنى عبد الله وفيه رد لقول النصارى (ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ) الإنجيل (وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) روى عن الحسن أنه كان فى المهد نبياً وكلامه معجزته وقيل معناه أن ذلك سبق فى قضائه أو جعل الآتى لامحالة كأنه وجد (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ) نفاعا حيث كنت أومعلما للخير (وَأَوْصَانِي) وأمرنى (بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ) إن ملكت مالا وقيل صدقة الفطر أو تطهير البدن ويحتمل وأوصانى بأن آمركم بالصلاة والزكاة (مَادُمْتُ حَيًّا) نصب على الظرف أى مدة حياتى (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي) عطفاً على مباركاً أى باراً بها أكرمها وأعظمها (وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا) متكبراً (شَقِيًّا) عاقا (وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ) يوم ظرف والعامل فيه الخبر وهو على (وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) أى ذلك السلام الموجه إلى يحيى فى المواطن الثلاثة موجه إلى إن كان حرف التعريف للعهد وإن كان للجنس فالمعنى وجنس السلام على وفيه تعريض باللعنة على أعداء مريم وابنها لأنه إذا قال وجنس السلام على فقد عرض بأن ضده عليكم إذ المقام مقام مناكرة وعناد فكان مئنة لمثل هذا التعريض (ذَٰلِكَ) مبتدأ (عِيسَى) خبره (ابْنُ مَرْيَمَ) نعته أو خبر ثان أى ذلك الذى قال إنى كذا وكذا عيسى بن مريم لا كما قالت النصارى إنه إله أو ابن الله (قَوْلَ الْحَقِّ) كلمة الله فالقول الكلمة والحق الله وقيل له كلمة الله لأنه ولد بقوله كن بلاواسطة أب وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر أوخبر مبتدأ محذوف أوبدل من عيسى ونصبه شامى وعاصم على المدح أو على المصدر أى أقول قول الحق هو ابن مريم وليس بإله كما يدعونه (الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) يشكون من المرية الشك أويختلفون من المراء، فقالت اليهود: ساحر كذاب وقالت النصارى: ابن الله وثالث ثلاثة (مَا كَانَ لِلَّهِ) ماينبغى له (أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ)

جيء بمن لتأكيد النفى (سُبْحَـٰنَهُۥٓ) نزه ذاته عن اتخاذ الولد (إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) بالنصب شامى أى كما قال لعيسى كن فكان من غير أب ومن كان متصفا بهذا كان منزها أن يشبه الحيوان الوالد (وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ) بالكسر شامى وكوفى على الابتداء وهو من كلام عيسى يعنى كما أنا عبده فأنتم عبيده على وعليكم أن نعبده ومن فتح عطف على بالصلاة أى وأوصانى بالصلاة وبالزكاة وبأن الله ربى وربكم أو علقه بما بعده أى ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه (هَـٰذَا) ذكرت (صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ) فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا (فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ) الحزب الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها وهم ثلاث فرق نسطورية ويعقوبية وملكانية (مِنۢ بَيْنِهِمْ)من بين أصحابه أو من بين قومه أو من بين الناس وذلك أن النصارى اختلفوا فى عيسى حين رفع ثم اتفقوا على أن يرجعوا إلى قول ثلاثة كانوا عندهم أعلم أهل زمانهم وهم يعقوب ونسطور وملكان فقال يعقوب هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء وقال نسطور كان ابن الله أظهره ماشاء ثم رفعه إليه وقال الثالث كذبوا كان عبدا مخلوقاً نبيا فتبع كل واحد منهم قوم (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) من الأحزاب إذ الواحد منهم على الحق (مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) هو يوم القيامة أو من شهودهم هول الحساب والجزاء فى يوم القيامة أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وجوارحهم بالكفر أو من مكان الشهادة أو وقتها أو المراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه وجعله عظيما لفظاعة ماشهدوا به فى عيسى (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) الجمهور على أن لفظه أمر ومعناه التعجب والله تعالى لايوصف بالتعجب ولكن المراد أن إسماعهم وإبصارهم جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صما وعميا فى الدنيا قال قتادة: إن عموا وصموا عن الحق فى الدنيا فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لاينفعهم، وبهم مرفوع المحل على الفاعلية كأكرم بزيد فمعناه كرم زيد جدا (لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ) أقيم الظاهر مقام المضمر أى لكنهم اليوم فى الدنيا بظلمهم أنفسهم حيث تركوا الاسماع والنظر حين يجدى عليهم ووضعوا العبادة فى غير موضعها (فِى ضَلَـٰلٍ) عن الحق (مُّبِينٍ) ظاهر وهو اعتقادهم عيسى إلهاً معبوداً مع ظهور آثار الحدث فيه إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم (وَأَنذِرْهُمْ) خوفهم (يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ) يوم القيامة لأنه يقع فيه الندم على مافات ، وفى الحديث « إذا رأوا منازلهم

فى الجنة أن لو آمنوا » (إِذْ) بدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة وهو مصدر (قُضِيَ الْأَمْرُ) فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) هنا عن الاهتمام لذلك المقام (وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) لا يصدقون به وهم وهم حالان أى وأنذرهم على هذا الحال غافلين غير مؤمنين (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا) أى نتفرد بالملك والبقاء عند تعميم الهلك والفناء وذكر من لتغليب العقلاء (وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) بضم الياء وفتح الجيم وفتح الياء يعقوب أى يردون فيجازون جزاء وفاقاً (وَاذْكُرْ) لقومك (فِي الْكِتَابِ) القرآن (إِبْرَاهِيمَ) قصته مع أبيه (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) بغير همز وهمزه نافع قيل الصادق المستقيم فى الأفعال والصديق المستقيم فى الأحوال فالصديق من أبنية المبالغة ونظيره الضحيك والمراد فرط صدقه وكثرة ماصدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله أى كان مصدقا لجميع الأنبياء وكتبهم وكان نبيا فى نفسه وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين إبراهيم وبين ماهو بدل منه وهو (إِذْ قَالَ) وجاز أن يتعلق إذ بكان أو بصديقا نبيا أى كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات والمراد بذكر الرسول إياه وقصته فى الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم كقوله واتل عليهم نبأ إبراهيم وإلا فالله عز وعلا هو ذاكره ومورده فى تنزيله (لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ) بكسر التاء وفتحها ابن عامر والتاء عوض من ياء الإضافة ولا يقال ياأبتى لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ) المفعول فيهما منسى غير منوى ويجوز أن يقدر أى لا يسمع شيئاً ولا يبصر شيئاً (وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا) يحتمل أن يكون شيئاً فى موضع المصدر أى شيئاً من الإغناء وأن يكون مفعولا به من قولك أغن عنى وجهك أى بعد (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ) الوحى أو معرفة الرب (مَا لَمْ يَأْتِكَ) ما فى مالا يسمع ومالم يأتك يجوز أن تكون موصولة أو موصوفة (فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ) أرشدك (صِرَاطًا سَوِيًّا) مستقيما (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) لا تطعه فيما سول من عبادة الصنم (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) عاصيا (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ) قيل أعلم (أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) قرينا فى النار تليه ويليك فانظر فى نصيحته كيف راعى المجاملة والرفق والخلق الحسن كما أمر ففى الحديث «أوحى إلى ابراهيم إنك خليلى حسن خلقك ولومع الكفار تدخل مداخل الأبرار» فطلب منه أولا العلة فى خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه لأن من يعبد أشرف الخلق منزلة وهم الأنبياء كان محكوما

عليه بالغى المبين فكيف بمن يعبد حجرا أو شجرا لا يسمع ذكر عابده ولا يرى هيآت عبادته ولا يدفع عنه بلاء ولا يقضى له حاجة ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال إن معى شيئا من العلم ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوى فهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بالهداية دونك فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذى عصى الرحمن الذى جميع النعم منه أوقعك فى عبادة الصنم وزينها لك فأنت عابده فى الحقيقة ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة ومايجره ماهوفيه من التبعة والوبال مع مراعاة الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به وأن العذاب لاصق به بل قال أخاف أن يمسك عذاب بالتنكير المشعر بالتقليل كأنه قال إنى أخاف أن يصيبك نفيان من عذاب الرحمن وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب كما أن رضوان الله أكبر من الثواب فى نفسه وصدر كل نصيحة بقوله ياأبت توسلا إليه واستعطافا وإشمارا بوجوب احترام الأب وإن كان كافرا فثم (قَالَ) آزر توبيخا (أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰإِبْرَٰهِيمُ) أى أترغب عن عبادتها فناداه باسمه ولم يقابل ياأبت بيابنى وقدم الخبر على المبتدأ لأنه كان أهم عنده (لَئِن لَّمْ تَنتَهِ) عن شتم الأصنام (لَأَرْجُمَنَّكَ) لأقتلنك بالرجام أو لأضربنك بها حتى تتباعد أو لأشتمنك (وَاهْجُرْنِى) عطف على محذوف يدل عليه لأرجمنك تقديره فاحذرنى واهجرنى (مَلِيًّا) ظرف أى زمانا طويلا من الملاوة (قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ) سلام توديع ومتاركة أو تقريب وملاطفة ولذا وعده بالاستغفار بقوله (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى) سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة بأن يهديك للإسلام (إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا) ملطفا بعموم النعم أو رحيما أو مكرما والحفاوة الرأفة والرحمة والكرامة (وَأَعْتَزِلُكُمْ) أراد بالاعتزال المهاجرة من أرض بابل إلى الشام (وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ) أى ما تعبدون من أصنامكم (وَأَدْعُوا) وأعبد (رَبِّى) ثم قال تواضعا وهضما للنفس ومعرضا بشقاوتهم بدعاء آلهتهم (عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا) أى كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ) فلما اعتزل الكفار ومعبودهم (وَهَبْنَالَهُ إِسْحَٰقَ) ولدا (وَيَعْقُوبَ) نافلة ليستأنس بهما (وَكُلًّا) كل واحد منهما (جَعَلْنَا نَبِيًّا) أى لما ترك الكفار الفجار لوجهه عوضه أولادا مؤمنين أنبياء (وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا

هى المال والولد (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ) ثناء حسنا وهو الصلاة على ابراهيم وآل ابراهيم فى الصلوات وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهى العطية (عَلِيًّا) رفيعا مشهورا (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا) كوفى غير المفضل أى أخلصه الله واصطفاه ومخلصا بالكسر غيرهم أى أخلص هو العبادة لله تعالى فهو مخلص بماله من السعادة بأصل الفطرة ومخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمة (وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) الرسول الذى معه كتاب من الأنبياء والنبي الذى ينبىء عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب كيوشع (وَنَادَيْنَاهُ) دعوناه وكلمناه ليلة الجمعة (مِن جَانِبِ الطُّورِ) هو جبل بين مصر ومدين (الْأَيْمَنِ) من اليمين أى من ناحية اليمين والجمهور على أن المراد أيمن موسى عليه السلام لأن الجبل لا يمين له والمعنى أنه حين أقبل من مدين يريد مصر نودى من الشجرة وكانت فى جانب الجبل على يمين موسى عليه السلام (وَقَرَّبْنَاهُ) تقريب منزلة ومكانة لا منزل ومكان (نَجِيًّا) حال أى مناجيا كنديم بمعنى منادم (وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا) من أجل رحمتنا له وترؤفنا عليه (أَخَاهُ) مفعول (هَارُونَ) بدل منه (نَبِيًّا) حال أى وهبنا له نبوة أخيه وإلا فهرون كان أكبر سنا منه (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ) هو ابن إبراهيم فى الأصح (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) وافيه وعد رجلا أن يقيم مكانه حتى يعود إليه فانتظره سنة فى مكانه حتى عاد وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى وقيل لم يعد ربه موعدا إلا أنجزه وإنما خصه بصدق الوعد وإن كان موجودا فى غيره من الأنبياء تشريفا له ولأنه المشهور من خصاله (وَكَانَ رَسُولًا) إلى جرهم (نَّبِيًّا) مخبرا منذرا (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ) أمته لأن النبي أبو أمته وأهل بيته وفيه دليل على أنه لم يداهن غيره (بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) يحتمل أنه إنما خصت هاتان العبادتان لأنهما أما العبادات البدنية والمالية (وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) قرئ مرضوا على الأصل (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ) هو أخنوخ أول مرسل بعد آدم عليه السلام وأول من خط بالقلم وخاط اللباس ونظر فى علم النجوم والحساب واتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بنى قابيل وقولهم سمى به لكثرة دراسته كتب الله لا يصح لأنه لو كان افعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا فامتناعه من الصرف دليل العجمة (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا) أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) هو شرف النبوة والزلفى

عند الله وقيل معناه رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة وقد رآه النبي ﷺ ليلة المعراج فيها وعن الحسن إلى الجنة لاشيء أعلى من الجنة وذلك انه حبب لكثرة عبادته إلى الملائكة فقال لملك الموت أذقني الموت يهن عليّ ففعل ذلك بإذن الله فحيي وقال أدخلني النار أزدد رهبة ففعل ثم قال أدخلني الجنة أزدد رغبة ثم قال له اخرج فقال قد ذقت الموت ووردت النار فما أنا بخارج من الجنة فقال الله عز وجل بإذني فعل وبإذني دخل فدعه (أُوْلَٰٓئِكَ) إشارة إلى المذكورين في السورة من زكرياء إلى إدريس (الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ) من للبيان لأن جميع الأنبياء منعم عليهم (مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ) من للتبعيض وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه لأنه جد أبي نوح (وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح لأنه ولد سام ابن نوح (وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ) إسماعيل وإسحٰق ويعقوب (وَإِسْرَٰٓءِيلَ) أى ومن ذرية إسرائيل أى يعقوب وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى لأن مريم من ذريته (وَمِمَّنْ) يحتمل العطف على من الأولى والثانية (هَدَيْنَا) لمحاسن الإسلام (وَاجْتَبَيْنَآ) من الأنام أو لشرح الشريعة وكشف الحقيقة (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ الرَّحْمَٰنِ) أى إذا تليت عليهم كتب الله المنزلة وهو كلام مستأنف ان جعلت الذين خبراً لأولئك وان جعلته صفة له كان خبراً. يتلى بالياء قتيبة لوجود الفاصل مع أن التأنيث غير حقيقى (خَرُّوا سُجَّدًا) سقطوا على وجوههم رغبة (وَبُكِيًّا) باكين رهبة جمع باك كسجود وقعود فى جمع ساجد وقاعد فى الحديث « اتلوا القرآن وابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا » وعن صالح المرى قرأت القرآن على رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى ياصالح « هذه القراءة فأين البكاء » ويقول فى سجود التلاوة سبحان ربى الأعلى ثلاثا (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ) فجاء من بعد هؤلاء المفضلين (خَلْفٌ) أولاد سوء وبفتح اللام العقب الخير عن ابن عباس هم اليهود (أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ) تركوا الصلاة المفروضة (وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ) ملاذ النفوس وعن عليّ رضى الله عنه من بنى الشديد وركب المنظور ولبس المشهور وعن قتادة رضى الله عنه هو فى هذه الأمة (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) جزاء غى وكل شر عند العرب غى وكل خير رشاد وعن ابن عباس وابن مسعود هو واد فى جهنم أعدّ للمصرين على الزنا وشارب الخمر وآكل الربا والعاق وشاهد الزور (إِلَّا مَن تَابَ) رجع عن كفره (وَءَامَنَ) بشرطه (وَعَمِلَ صَٰلِحًا) بعد إيمانه (فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) بضم

الياء وفتح الخاء مكي وبصرى وأبو بكر (وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا) أى لاينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه بل يضاعف لهم أو لايظلمون شيئاً من الظلم (جَنَّـٰتِ) بدل من الجنة لأن الجنة تشتمل على جنات عدن لأنها جنس أو نصب على المدح (عَدْنٍ) معرفة لأنها علم لمعنى العدن وهو الإقامة أو علم لأرض الجنة لكونها مقام إقامة (الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ) أى عباده التائبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات كما سبق ذكرهم ولأنه أضافهم إليه وهو للاختصاص وهؤلاء أهل الاختصاص (بِالْغَيْبِ) أى وعدها وهى غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها (إِنَّهُ) ضمير الشأن أو ضمير الرحمن (كَانَ وَعْدُهُ) أى موعوده وهو الجنة (مَأْتِيًّا) أى هم يأتونها (لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا) فى الجنة (لَغْوًا) فحشاً أو كذباً أو مالا طائل تحته من الكلام وهو المطروح منه وفيه تنبيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه داره التى لا تكليف فيها (إِلاَّ سَلَٰمًا) أى لكن يسمعون سلاما من الملائكة أو من بعضهم على بعض أو لا يسمعون فيها إلا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة فهو استثناء منقطع عند الجمهور وقيل معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ولما كان أهل دار السلام أغنياء عن الدعاء بالسلامة كان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) أى يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفى لنهار من الدنيا إذ لا ليل ولا نهار ثم لأنهم فى النور أبداً وإنما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بإرخائها والرزق بالبكرة والعشى أفضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك وقيل أراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان بكرة وعشيا تريد الدوام (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا) أى نجعلها ميراث أعمالهم يعنى ثمرتها وعاقبتها وقيل يرثون المساكن التى كانت لأهل النار او آمنوا لأن الكفر موت حكما (مَن كَانَ تَقِيًّا) عن الشرك * عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى عليه السلام قال «ياجبريل مامنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» فنزل (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ) والتنزل على معنيين معنى النزول على مهل ومعنى النزول على الإطلاق والأول أليق هنا يعنى أن نزولنا فى الأحايين وقتا غب وقت ليس إلا بأمر الله (لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) أى له ماقدامنا وما خلفنا من الأماكن وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من مكان إلى مكان إلا بأمر الملك ومشيئته وهو الحافظ العالم

بكل حركة وسكون وما يحدث من الأحوال لاتجوز عليه الغفلة والنسيان فأنى لنا أن نتقلب فى ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه (رَّبُّ السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) بدل من ربك أو خبر مبتدأ محذوف أى هو رب السموٰات والأرض ثم قال لرسوله لما عرفت انه متصف بهذه الصفات (فَاعْبُدْهُ) فاثبت على عبادته (وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِ) أى اصبر على مكافأة الحسود، لعبادة المعبود، واصبر على المشاق، لأجل عبادة الخلاق، أى لتتمكن من الإتيان بها (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) شبيها ومثلا أو هل يسمى أحد باسم الله غيره لأنه مخصوص بالمعبود بالحق أى إذا صح أن لا معبود توجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها فتهافت أبى بن خلف عظما وقال أنبعث بعد ماصرنا كذا فنزل (وَيَقُولُ الْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) والعامل فى إذا ما دل عليه الكلام وهو أبعث أى إذا مامت أبعث وانتصابه بأخرج ممتنع لأن مابعد لام الابتداء لايعمل فيما قبلها فلا تقول اليوم لزيد قائم ولام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال وتؤكد مضمون الجملة فلما جامعت حرف الاستقبال خلصت للتوكيد واضمحل معنى الحال وما فى إذا ماللتوكيد أيضاً فكأنه قال أحقًّا إنا سنخرج من القبور أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك على وجه الاستنكار والاستبعاد وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن مابعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ومنه جاء إنكارهم (أَوَ لَا يَذْكُرُ الْإِنسَٰنُ) خفيف شامى ونافع وعاصم من الذكر والسائر بتشديد الذال والكاف وأصله يتذكر كقراءة أبى فأدغمت التاء فى الذال أى أو لايتدبر والواو عطفت لايذكر على يقول ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعنى أيقول ذلك ولايتذكر حال النشأة الأولى حتى لاينكر النشأة الأخرى فإن تلك أدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود وأما الثانية فليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة وردها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق (أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ) من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه (وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا) هو دليل على مابينا وعلى أن المعدوم ليس بشىء خلافا للمعتزلة (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ) أى الكفار المنكرين للبعث (وَالشَّيَٰطِينَ) الواو للعطف وبمعنى مع أوقع أى يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان فى سلسلة وفى اقسام الله باسمه مضافا إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله (ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)

حال جمع جاث أى بارك على الركب ووزنه فعول لأن أصله جثوو كسجود وساجد أى يمتلون من المحشر إلى شاطىء جهنم عتلا على حالهم التى كانوا عليها فى الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ) طائفة شاعت أى تبعت غاويا من الغواة (أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا) جرأة أو فجوراً أى لنخرجن من كل طائفة من طوائف الغى أعتاهم فأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحناهم فى النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم وقيل المراد بأشدهم عتياً الرؤساء لتضاعف جرمهم لكونهم ضلالا ومضلين قال سيبويه : أيهم مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التى هى صلته وهو هو من هو أشد حتى لو جىء به لأعرب بالنصب، وقيل أيهم هو أشد وهـذا لأن الصلة توضح الموصول وتبينه كما أن المضاف إليه يوضح المضاف ويخصصه فكما أن حذف المضاف إليه فى من قبل يوجب بناء المضاف وجب أن يكون حذف الصلة أو شىء منها موجبا للبناء وموضعها نصب بننزع، وقال الخليل هى معربة وهى مبتدأ وأشد خبره وهو رفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد على الرحمن عتياً ويجوز أن يكون النزع واقعا على من كل شيعة كقوله ووهبنا لهم من رحمتنا أى لننزعن بعض كل شيعة فكأن قائلا قال من هم فقيل أيهم أشد عتيا وعلى يتعلق بأفعل أى عتوهم أشد على الرحمن (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا) أحق بالنار (صِلِيًّا) تمييز أى دخولا والباء تتعلق بأولى (وَإِن مِّنكُمْ) أحد (إِلَّا وَارِدُهَا) داخلها والمراد النار والورود: الدخول عند على وابن عباس رضى الله عنهم وعليه جمهور أهل السنة لقوله تعالى فأوردهم النار ولقوله تعالى لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ولقوله ثم تنجى الذين اتقوا إذ النجاة إنما تكون بعد الدخول ولقوله عليه السلام «الورود الدخول لايبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاما كما كانت على ابراهيم وتقول النار للمؤمن جز يامؤمن فإن نورك أطفأ لهبى » وقيل الورود بمعنى الدخول لكنه يختص بالكفار لقراءة ابن عباس وإن منهم وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات وعن عبد الله الورود الحضور لقوله تعالى ولما ورد ماء مدين وقوله أولئك عنها مبعدون وأجيب عنه بأن المراد عن عذابها وعن الحسن وقتادة الورود المرور على الصراط لأن الصراط ممدود عليها فيسلم أهل الجنة ويتقاذف أهل النار وعن مجاهد وورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده فى الدنيا لقوله عليه السلام «الحمى حظ كل مؤمن

من النار » وقال رجل من الصحابة لآخر أيقنت بالورود قال نعم قال وأيقنت بالصدر قال لا قال ففيم الضحك وفيم التثاقل (كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا) أى كان ورودهم واجبا كائنا محتوما والحتم مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى به الموجب كقولهم ضرب الأمير (ثُمَّ نُنَجِّي) وعلى بالتخفيف (الَّذِينَ اتَّقَوا) عن الشرك وهم المؤمنون (وَّنَذَرُ الظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) فيه دليل على دخول الكل لأنه قال ونذر ولم يقل وندخل والمذهب أن صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو لامحاله وقالت المرجئة الخبيثة لايعاقب لأن المعصية لاتضر مع الإسلام عندهم وقالت المعتزلة يخلد (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا) أى القرآن (بَيِّنَـٰتٍ) ظاهرات الإعجاز أوحججا وبراهين حال مؤكدة كقوله وهو الحق مصدقاً إذ آيات الله لاتكون إلا واضحة وحججا (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى مشركو قريش وقد رجلوا شعورهم وتكلفوا فى زيهم (لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا) للفقراء ورسهم شعثة وثيابهم خشنة (أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ) نحن أم أنتم (خَيْرٌ مَّقَامًا) بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان والمسكن وبالضم مكى وهو موضع الإقامة والمنزل (وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) مجلسا يجتمع القوم فيه للمشاورة ومعنى الآية أن الله تعالى يقول إذا أنزلنا آية فيها دلائل وبراهين أعرضوا عن التدبر فيها إلى الافتخار بالثروة والمال وحسن المنزل والحال فقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ) فكم مفعول أهلكنا ومن تبيين لإبهامها أى كثيراً من القرون أهلكنا وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم (هُمْ أَحْسَنُ) فى محل النصب صفة لكم ألا ترى أنك لو تركت هم كان أحسن نصبا على الوصفية (أَثَٰثًا) هو متاع البيت أوماجد من الفرش (وَرِءْيًا) منظرا وهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت وريا بغير همز مشددا نافع وابن عامر على قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم الإدغام أو من الرى الذى هو النعمة (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَـٰلَةِ) الكفر (فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا) جواب من لأنها شرطية وهذا الأمر بمعنى الخبر أى من كفر مد له الرحمن يعنى أمهله وأملى له فى العمر ليزداد طغيانا وضلالا كقوله تعالى إنما نملى لهم ليزدادوا إثما وإنما أخرج على لفظ الأمر إيذانا بوجوب ذلك وانه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل ليقطع معاذير الضلال (حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ) هى متصلة بقوله خير مقاما وأحسن نديا وما بينهما اعتراض أى لا يزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعود رأى عين (إِمَّا الْعَذَابَ) فى الدنيا وهو تعذيب

المسلمين إياهم بالقتل والأسر (وَإِمَّا السَّاعَةَ) أى القيامة وما ينالهم من الخزى والنكال فهما بدلان مما يوعدون (فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً) منزلا (وَأَضْعَفُ جُنداً) أعوانا وأنصارا أى فحينئذ يعلمون أن الأمر على عكس ماقدروه وأنهم شر مكانا وأضعف جندا لاخير مقاما وأحسن نديا وأن المؤمنين على خلاف صفتهم وجاز أن تتصل بما يليها والمعنى إن الذين فى الضلالة ممدود لهم فى ضلالتهم لا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة وحتى هى التى يحكى بعدها الجمل ألا ترى أن الجملة الشرطية واقعة بعدها وهى قوله إذارأوا مايوعدون. فسيعلمون (وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) معطوف على موضع فليمدد لوقوعه موضع الخبر تقديره من كان فى الضلالة مد أو يمد له الرحمن ويزيد أى يزيد فى ضلال الضال بخذلانه ويزيد المهتدين أى المؤمنين هدى ثباتا على الاهتداء أو يقينا وبصيرة بتوفيقه (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) أعمال الآخرة كلها أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاالله والله أكبر (خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً) ممايفتخر به الكفار (وَخَيْرٌ مَّرَدّاً) أى مرجعا وعاقبة تهكم بالكفار لأنهم قالوا للمؤمنين أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً) ثم. وبضم الواو وسكون اللام فى أربعة مواضع ههنا وفى الزخرف ونوح حمزة وعلى جمع ولد كأسد فى أسد أو بمعنى الولد كالعرب فى العرب ولما كانت رؤية الأشياء طريقا إلى العلم بها وصحة الخبر عنها استعملوا أرأيت فى معنى اخبر والفاء أفادت التعقيب كأنه قال أخبر أيضا بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقيب حديث أولئك وقوله لأوتين جواب قسم مضمر (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه، الهمزه للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة أى أنظر فى اللوح المحفوظ فرأى منيته (أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً) موثقا أن يؤتيه ذلك أو العهد كلمة الشهادة وعن الحسن نزلت فى الوليد بن المغيرة والمشهور أنها فى العاص بن وائل فقدروى أن خباب بن الأرت صاغ للعاص ابن وائل حليا فاقتضاه الأجر فقال إنكم تزعمون أنكم تبعثون وأن فى الجنة ذهبا وفضة فأنا أقضيك ثم فإنى أوتى مالا وولدا حينئذ (كَلَّا) ردع وتنبيه على الخطأ أى هو مخطىء فيما تصوره لنفسه فليرتدع عنه (سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ) أى قوله والمراد سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله لأنه كما قال كتب من غير تأخير قال الله تعالى: مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وهو كقوله

* إذا ماانتسبنا لم تلدنى لئيمة * أى علم وتبين بالانتساب أنى لست بابن لئيمة (وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ) نزيده من العذاب كما يزيد فى الافتراء والاجتراء من المدد، يقال مده وأمده (مَدًّا) أكد بالمصدر لفرط غضبه تعالى (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ) أى نزوى عنه مازعم أنه يناله فى الآخرة والمعنى مسمى ما يقول وهو المال والولد (وَيَأْتِينَا فَرْداً) حال أى بلا مال ولا ولد كقوله ولقد جئتمونا فرادى فما يجدى عليه تمنيه وتألبه (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ ءالِهَةً) أى اتخذ هؤلاء المشركون أصناما يعبدونها (لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) أى ليعتزوا بآلهتهم ويكونوا لهم شفعاء وأنصارا ينقذونهم من العذاب (كَلاَّ) ردع لهم عما ظنوا (سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ) الضمير للآلهة أى سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون أو للمشركين أى ينكرون أن يكونوا قد عبدوها كقوله والله ربنا ما كنا مشركين (وَيَكُونُونَ) أى المعبودون (عَلَيْهِمْ) على المشركين (ضِدًّا) خصما لأن الله تعالى ينطقهم فتقول يارب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك والضديقع على الواحد والجمع وهو فى مقابلة لهم عزا والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أى يكونون عليهم ضدا لما قصدوه أى يكونون عليهم ذلالالهم عزاوإن رجع الضمير فى سيكفرون ويكونون إلى المشركين فالمعنى ويكونون عليهم أى أعداءهم ضدا أى كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها ثم عجب نبيه عليه السلام بقوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ) أى خليناهم وإياهم من أرسلت البعير أطلقته أوسلطناهم عليهم بالإغواء (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) تغريهم على المعاصى إغراء والأز والهز إخوان ومعناها التهييج وشدة الإزعاج (فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ) بالعذاب (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) أى أعمالهم للجزاء وأنفاسهم للفناء وقرأها ابن السماك عند المأمون فقال إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْداً) ركبانا على نوق رحالها ذهب وعلى نجائب سروجها ياقوت (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ) الكافرين سوق الأنعام لأنهم كانوا أضل من الأنعام (إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً) عطاشا لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش وحقيقة الورد المسير إلى الماء فيسمى به الواردون، فالوفد جمع وافد كركب وراكب والورد جمع وارد ونصب يوم بمضمر أى يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين مالا يوصف أى اذكر يوم نحشر. ذكر المتقون بأنهم يجمعون إلى ربهم الذى غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلا

لهم والكافرون بأنهم يساقون إلى النار كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء استخفافا بهم (لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَـٰعَةَ) حال والواو إن جعل ضميرا فهو للعباد ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لأنهم على هذه القسمة ويجوز أن يكون علامة للجمع كالتى فى أكلونى البراغيث والفاعل من اتخذ لأنه فى معنى الجمع ومحل من اتخذ رفع على البدل من واو يملكون أو على الفاعلية أو نصب على تقدير حذف المضاف أى إلا شفاعة من اتخذ والمراد لا يملكون أن يشفع لهم (إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً) بأن آمن . فى الحديث «من قال لا إله إلا الله كان له عند الله عهد» وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال لأصحابه ذات يوم «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا» قالوا وكيف ذلك قال «يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك وإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كان لهم عند الله عهد فيدخلون الجنة» أو يكون من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به أى لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا) أى النصارى واليهود ومن زعم أن الملائكة بنات الله (لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة وهو التفات أو أمر نبيه عليه السلام بأن يقول لهم ذلك، والإد العجب أو العظيم المنكر والإدة الشدة وأدّنى الأمر أثقلنى وعظم علىّ أداً (تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ) تقرب وبالياء نافع وعلىّ (يَتَفَطَّرْنَ) وبالنون بصرى وشامى وحمزة وخلف وأبو بكر. الانفطار من فطره إذا شقه والتفطر من فطره إذا شققه (مِنْهُ) من عظم هذا القول (وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ) تنخسف وتنفصل أجزاؤها (وَتَخِرُّ الْجِبَالُ) تسقط (هَدًّا) كسرا أو قطعا أو هدما، والهدة صوت الصاعقة من السماء وهو مصدر أى تهد هدًّا من سماع قولهم أو مفعول له أو حال أى مهدودة (أَن دَعَوْا) لأن سموا ومحله جر بدل من الهاء فى منه أو نصب مفعول له علل الخرور بالهد والهد بدعاء الولد للرحمن أو رفع فاعل هدا أى هدها دعاؤهم (لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) انبغى مطاوع بغى إذا طلب أى ما يتأتى له اتخاذ الولد وما يتطلب لو طلب مثلا لأنه محال غير داخل تحت الصحة وهذا لأن اتخاذ الولد

لحاجة ومجانسة وهو منزه عنهما وفى اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان له الرحمن وحده لايستحق هذا الاسم غيره لأن أصول النعم وفروعها منه فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ماعندك عطاؤه فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن (إِن كُلُّ مَن) نكرة موصوفة صفتها (فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) وخبر كل (إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ) ووحد آتى وآتيه حملا على لفظ كل وهو اسم فاعل من أتى وهو مستقبل أى يأتيه (عَبْدًا) حال أى خاضعاً ذليلا منقاداً والمعنى ما كل من فى السموات والأرض من الملائكة والناس إلاهو يأتى الله يوم القيامة مقراً بالعبودية والعبودية والبنوة تتنافيان حتى لو ملك الأب ابنه يعتق عليه ونسبة الجميع إليه نسبة العبد إلى المولى فكيف يكون البعض ولداً والبعض عبداً وقرأ ابن مسعود آت الرحمن على أصله قبل الإضافة (لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) أى حصرهم بعلمه وأحاط بهم (وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا) أى كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً بلا مال ولا ولد أو بلا معين ولا ناصر (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا) مودة فى قلوب العباد قال الربيع يحبهم ويحببهم إلى الناس وفى الحديث يعطى المؤمن مِقَةً فى قلوب الأبرار ومهابة فى قلوب الفجار وعن قتادة وهرم ماأقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه وعن كعب مايستقر لعبد ثناء فى الأرض حتى يستقر له فى السماء (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ) سهلنا القرآن (بِلِسَانِكَ) بلغتك حال (لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ) المؤمنين (وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا) شداداً فى الخصومة بالباطل أى الذين يأخذون فى كل لديد أى شق من المراء والجدال جمع ألدّ يراد به أهل مكة (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ) تخويف لهم وإنذار (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ)أى هل تجد أوترى أوتعلم والإحساس الإدراك بالحاسة (أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) صوتاً خفياً ومنه الركاز أى لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يرى ولا صوت يسمع يعنى هلكوا كلهم فكذا هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم والله أعلم .

﴿ سورة طه ﷺ مكية، وهى مائة وخمس وثلاثون آية كوفى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طه) فخم الطاء لاستعلائها وأمال الهاء ابوعمرو وأمالهما حمزة وعلى وخلف وأبوبكر وفخمهما على الأصل غيرهم وما روى عن مجاهد والحسن والضحاك وعطاء وغيرهم أن معناه يارجل فإن صح فظاهر وإلا فالحق ماهو المذكور فى سورة البقرة (مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ) إن جعلت طه تعديداً لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام وإن جعلتها اسما للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها وهى فى موضع المبتدأ والقرآن ظاهر أوقع موقع المضمر لأنها قرآن وأن يكون جوابا لها وهى قسم (لِتَشْقَىٰٓ) لتتعب لفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا أو بقيام الليل فإنه روى أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل أبق على نفسك فإن لها عليك حقا أى ماأنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة ومابعثت إلا بالحنيفية السمحة (إِلَّا تَذْكِرَةً) استثناء منقطع أى لكن أنزلناه تذكرة أوحال (لِّمَن يَخْشَىٰ) لمن يخاف الله أو لمن يئول أمره إلى الخشية (تَنزِيلاً) بدل من تذكرة إذا جعل حالا ويجوز أن ينتصب بنزل مضمراً أو على المدح أو بيخشى مفعولا أى أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله (مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَٰوَٰتِ) من يتعلق بتنزيلا صلة له (الْعُلَى) جمع العليا تأنيث الأعلى ووصف السماوات بالعلى دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها (الرَّحْمَٰنُ) رفع على المدح أى هو الرحمن (عَلَى الْعَرْشِ) خبر مبتدأ محذوف (اسْتَوَىٰ) استولى. عن الزجاج ، ونبه بذكر العرش وهو أعظم المخلوقات على غيره وقيل لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقال استوى فلان على العرش أى ملك وإن لم يقعد على السرير البتة وهذا كقولك يد فلان مبسوطة أى جواد وإن لم يكن له يد رأساً، والمذهب قول على رضى الله عنه: الاستواء غير مجهول والتكييف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة لأنه تعالى كان ولا مكان فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان (لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) خبر ومبتدأ ومعطوف (وَمَا بَيْنَهُمَا) أى ذلك كله ملكه (وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ) ماتحت سبع الأراضين أوهو الصخرة التى تحت الأرض السابعة (وَإِن

تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ) ترفع صوتك (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ) ما أسررته إلى غيرك (وَأَخْفَىٰ) منه وهو ما أخطرته ببالك أو ما أسررته فى نفسك وما ستسره فيها (اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ) أى هوواحدبذاته وإن افترقت عبارات صفاته ردلقولهم إنك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى والحسنى تأنيث الأحسن (وَهَلْ) أى وقد (أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ) خبره قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به فى تحمل أعباء النبوة بالصبر على المكاره ولينال الدرجة العليا كما نالها موسى (إِذْ رَءَا) ظرف لمضمر أى حين رأى (نَارًا) كان كيت وكيت أو مفعول به لاذكر روى أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا فى الخروج إلى أمه وخرج بأهله فولد له ابن فى الطريق فى ليلة مظلمة مثلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فرأى عند ذلك ناراً فى زعمه وكان نوراً (فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا) أقيموا فى مكانكم (إِنِّىٓ ءَانَسْتُ)أبصرت (نَارًا) والإيناس رؤية شىء يؤنس به (لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا) بنى الأمر على الرجاء لئلا يعد ماليس يستيقن الوفاء به (بِقَبَسٍ) نار مقتبسة فى رأس عود أو فتيلة (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) ذوى هدى أو قوما يهدوننى الطريق ومعنى الاستعلاء فى على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا) أى النار وجد ناراً بيضاء تتوقد فى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها وكانت شجرة العناب أو العوسج ولم يجد عندها أحداً وروى انه كلما طلبها بعدت عنه فإذا تركها قربت منه فثم (نُودِىَ) موسى (يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ) بكسر الهمزة أى نودى فقيل ياموسى إنى أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته، وبالفتح مكى وأبوعمرو أى نودى بأنى (أَنَا رَبُّكَ) أنا مبتدأ أو تأكيد أو فصل وكرر الضمير لتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة روى انه لما نودى ياموسى قال من المتكلم فقال الله عز وجل: أنا ربك. فعرف أنه كلام الله عزوجل بأنه سمعه من جميع جهاته الست وسمعه بجميع أعضائه (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادى المقدس أو لأنها كانت من جلد حمار ميت غير مدبوغ أو لأن الحفوة تواضع لله ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها فخلعهما وألقاها من وراء الوادى (إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ) المطهر أو المبارك (طُوًى) حث كان منوّن شامى وكوفى لأنه

اسم علم للوادى وهو بدل منه وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ) اصطفيتك للنبوة، وإنا اخترناك حمزة (فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ) إليك للذى يوحى أو للوحى واللام يتعلق باستمع أو باخترتك (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) وحدنى وأطعنى (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار أو لأنى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها أو لأن أذكرك بالمدح والثناء أو لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى أو لتكون لى ذاكرا غير ناس أو لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة لقوله: إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها وذا يصح بتقدير حذف المضاف أى لذكر صلاتى وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها (إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ) لا محالة (أَكَادُ) أريد عن الأخفش وقيل صلة (أُخْفِيهَا) قيل هو من الأضداد أى أظهرها أو أسترها عن العباد فلا أقول هى آتية لإرادتى إخفاءها ولولا مافى الأخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة وهو أنهم إذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها فى كل وقت لما أخبرت به (لِتُجْزَىٰ) متعلق بآتية (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ) بسعيها من خير أو شر (فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا) فلا يصرفنك عن العمل للساعة أو عن إقامة الصلاة أو عن الإيمان بالقيامة فالخطاب لموسى والمراد به أمته (مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا) لا يصدق بها (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) فى مخالفة أمره (فَتَرْدَىٰ) فتهلك (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ) ماميتدأ وتلك خبره وهى بمعنى هذه وبيمينك حال عمل فيها معنى الإشارة أى قارة أو مأخوذة بيمينك أو تلك موصول صلته بيمينك والسؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت أو للتوطين لئلا يهوله انقلابها حية أو للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة (وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي) أخبط ورق الشجر على غنمى لتأكل (وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ) ـ وَلِيَ ـ حفص جمع مأربة بالحركات الثلاث وهى الحاجة (أُخْرَىٰ) والقياس أخر وإنما قال أخرى ردا إلى الجماعة أو لنسق الآى وكذا الكبرى ولما ذكر بعضها شكرا أجمل الباقى حياء من التطويل أو ليسأل عنها الملك العلام فيزيد فى الإكرام والمآرب الأخر أنها كانت تماشيه وتحدثه وتحارب العدو والسباع وتصير رشاء فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا وتكونان شمعتين بالليل وتحمل زاده ويركزها فتثمر ثمرة يشتهيها ويركزها

فينبع الماء فإذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكرا أو لأنها جواب سؤال آخر لأنه لما قال هى عصاى قيل له ماتصنع بها فأخذ يعدد منافعها (قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ) اطرح عصاك لتفزع مما تتكىء عليه فلا تسكن إلا بنا وترى فيها كنه ما فيها من المآرب فتعتمد علينا فى المطالب (فَأَلْقَىٰهَا) فطرحها (فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ) تمشى سريعا قيل انقلبت ثعبانا يبتلع الصخر والشجر فلما رآها تبتلع كل شىء خاف وإنما وصفت بالحية هنا وبالثعبان وهو العظيم من الحيات وبالجان وهو الدقيق فى غيرها لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وجاز أن تنقلب حية صفراء دقيقة ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها أو لأنها كانت فى عظم الثعبان وسرعة الجان وقيل كان بين لحييها أربعون ذراعا ولما (قَالَ) له ربه (خُذْهَا وَلَا تَخَفْ) بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها (سَنُعِيدُهَا) سنردها (سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ) تأنيث الأول، والسيرة: الحالة التى يكون عليها الإنسان غريزية كانت أو مكتسبة وهى فى الأصل فعلة من السير كالركبة من الركوب ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة وانتصبت على الظرف أى سنعيدها فى طريقتها الاولى أى فى حال ما كانت عصا والمعنى نردها عصا كما كانت وأرى ذلك موسى عند المخاطبة لئلا يفزع منها إذا انقلبت حية عند فرعون ثم نبه على آية أخرى فقال (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ) إلى جنبك تحت العضد وجناحا الإنسان جنباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر سميا جناحين لانه يجنحهما أى يميلهما عند الطيران والمعنى أدخلها تحت عضدك (تَخْرُجْ بَيْضَاءَ) لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر (مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ) برص (ءَايَةً أُخْرَىٰ) لنبوتك بيضاء وآية حالان معا ومن غير سوء صلة بيضاء كقولك ابيضت من غير سوء وجاز أن ينتصب آية بفعل محذوف يتعلق به الامر (لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا الْكُبْرَى) أى خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بها تين الآيتين بعض آياتنا الكبرى العظمى أو نريك بهما الكبرى من آياتنا أو المعنى فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) جاوز حد العبودية إلى دعوى الربوبية ولما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى وعرف أنه كلف أمراً عظيما يحتاج إلى صدر فسيح (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى) وسعه ليحتمل الوحى والمشاق وردىء الأخلاق من فرعون وجنده (وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى) وسهل

على ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون واشرح لى صدرى آكد من اشرح صدرى لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقى الإجمال والتفصيل لأنه يقول اشرح لى ويسرلى علم أن ثمة مشروحا وميسراً ثم رفع الإبهام بذكر الصدر والأمر (وَاحْلُلْ) افتح (عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي) وكان فى لسانه رتة للجمرة التى وضعها على لسانه فى صباه وذلك أن موسى أخذ لحية فرعون ولطمه لطمة شديدة فى صغره فأراد قتله فقالت آسية أيها الملك إنه صغير لايعقل فجعلت فى طشت ناراً وفى طشت يواقيت ووضعتهما لدى موسى فقصد اليواقيت فأمال الملك يده إلى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه فاحترق لسانه فصار لكنة منها وروى أن يده احترقت واجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال إلى أى رب تدعونى قال إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنها ومن لسانى صفة لعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لسانى وهذا يشعر بأنه لم تزل العقدة بكمالها وأكثرهم على ذهاب جميعها (يَفْقَهُوا قَوْلِي) عند تبليغ الرسالة (وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا) ظهيراً أعتمد عليه من الوزر الثقل لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته أو من الوزر الملجأ لأن الملك يعتصم برأيه ويلتجئ إليه فى أموره أو معينا من الموازرة وهى المعاونة فوزيرا مفعول أول لاجعل والثانى (مِّنْ أَهْلِي) أولى أوزيرا مفعولاه وقوله (هَارُونَ) عطف بيان لوزيراً وقوله (أَخِي) بدل أو عطف بيان آخر ووزيراً وهرون مفعولاه وقدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) قو به ظهرى وقيل الأزر القوة (وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) اجعله شريكى فى النبوة والرسالة. اشدد وأشركه على حكاية النفس شامى على الجواب والباقون على الدعاء والسؤال (كَيْ نُسَبِّحَكَ) نصلى لك وننزهك تسبيحا (كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا) فى الصلوات وخارجها (إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا) عالماً بأحوالنا فأجابه الله تعالى حيث (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ) أعطيت مسئولك فالسؤل الطلبة فعل بمعنى مفعول كخبز بمعنى مخبوز. سولك بلا همز أبوعمرو (وَلَقَدْ مَنَنَّا) أنعمنا (عَلَيْكَ مَرَّةً) كرة (أُخْرَىٰ) قبل هذه ثم فسرها فقال (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ) إلهاما أو مناما حين ولدت وكان فرعون يقتل أمثالك وإذ ظرف لمننا ثم فسر مايوحى بقوله (أَنِ اقْذِفِيهِ) ألقيه (فِي التَّابُوتِ) وأن مفسرة لأن الوحى بمعنى القول (فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) النيل (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ) الجانب وسمى ساحلا لأن الماء يسحله أى يقشره والصيغة أمر ليناسب ماتقدم ومعناه الإخبار

أى يلقيه اليم بالساحل (يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ) يعنى فرعون والضمائر كلها راجعة إلى موسى ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت يفضى إلى تنافر النظم والمقذوف فى البحر والملقى إلى الساحل وإن كان هو التابوت لكن موسى فى جوف التابوت روى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجاً فوضعته فيه وقيرته ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت فأمر به فأخرج ففتح فإذا بصبى أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديداً فذلك قوله (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى) يتعلق منى بألقيت يعنى إنى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب فما رآه أحد إلا أحبه قال قتادة كان فى عينى موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبه (وَلِتُصْنَعَ) معطوف على محذوف تقديره وألقيت عليك محبة لتحب ولتصنع (عَلَىٰ عَيْنِىٓ) أى لتربى بمرأى منى وأصله من صنع الفرس أى أحسن القيام عليه يعنى أنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ولتصنع بسكون اللام والجزم يزيد على أنه أمر منه (إِذْ تَمْشِىٓ) بدل من إذ أوحينا لأن مشى أخته كان منة عليه (أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ) روى أن أخته مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثدى امرأة فقالت هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه فيربيه وأرادت بذلك المرضعة الأم وتذكير الفعل للفظ من، فقالوا نعم فجاءت بالأم فقبل ثديها وذلك قوله (فَرَجَعْنَٰكَ) فرددناك (إِلَىٰٓ أُمِّكَ) كما وعدناها بقولنا إنا رادوه إليك (كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا) بلقائك (وَلَا تَحْزَنَ) على فراقك (وَقَتَلْتَ نَفْسًا) قبطياً كافراً (فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ الْغَمِّ) من القود. قيل الغم: القتل بلغة قريش وقيل اغتم بسبب القتل خوفا من عقاب الله تعالى ومن اقتصاص فرعون فغفر الله له باستغفاره قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ونجاه من فرعون بأن ذهب به من مصر إلى مدين (وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا) ابتليناك ابتلاء بإيقاعك فى المحن وتخليصك منها، والفتون مصدر كالقعود أو جمع فتنة أى فتناك ضروبا من الفتن، والفتنة المحنة وكل ما يبتلى الله به عباده فتنة ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ) هى بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر قال وهب لبث عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة عشر منها مهر لصفوراء وأقام عنده ثمان عشرة سنة بعدها حتى ولد له أولاد (ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ) أى موعد ومقدار للرسالة وهو أربعون سنة (وَاصْطَنَعْتُكَ

لِنَفْسِي) اخترتك واصطفيتك لوحي ورسالتي لتتصرف على إرادتي ومحبتي قال الزجاج اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي كأني أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم (اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي) بمعجزاتي (وَلَا تَنِيَا) تفترا من الوني وهو الفتور والتقصير (فِي ذِكْرِي) أي اتخذا ذكري جناحا تطيران به وأريد بالذكر تبليغ الرسالة فالذكر يقع على سائر العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها (اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) كرر لأن الأول مطلق والثاني مقيد (إِنَّهُ طَغَىٰ) جاوز الحد بادعائه الربوبية (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا) الطفاله في القول لما له من حق تربية موسى أو كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة أو عداه شباباً لايهرم بعده وملكا لاينزع عنه إلا بالموت أو هو قوله هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فظاهره الاستفهام والمشورة (لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ) أي يتعظ ويتأمل فيذعن للحق (أَوْ يَخْشَىٰ) أي يخاف أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة وإنما قال لعله يتذكر مع علمه أنه لايتذكر لأن الترجي لهما أي اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر عمله وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وقيل معناه لعله يتذكر متذكر أو يخشى خاش وقد كان ذلك من كثير من الناس وقيل لعل من الله تعالى واجب وقد تذكر ولكن حين لم ينفعه التذكر وقيل تذكر فرعون وخشي وأراد اتباع موسى فمنعه هامان وكان لايقطع أمراً دونه وتليت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال هذا رفقك بمن يقول أنا إله فكيف بمن قال أنت الإله وهذا رفقك بمن قال أنا ربكم الأعلى فكيف بمن قال سبحان ربي الأعلى (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا) يعجل علينا بالعقوبة ومنه الفارط يقال فرط عليه أي عجل (أَوْ أَن يَطْغَىٰ) يجاوز الحد في الإساءة إلينا (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا) أي حافظكما وناصركما (أَسْمَعُ) أقوالكما (وَأَرَىٰ) أفعالكما قال ابن عباس رضي الله عنهما أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى مايراد بكما فأمنع لست بغافل عنكما فلاتهتما (فَأْتِيَاهُ) أي فرعون (فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) إليك (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) أي أطلقهم عن الاستعباد والاسترقاق (وَلَا تُعَذِّبْهُمْ) بتكليف المشاق (قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ) بحجة على صدق ما ادعيناه وهذه الجملة جارية من الجملة الأولى وهي إنا رسولا ربك

مجرى البيان والتفسير والتفصيل لأن دعوى الرسالة لاتثبت إلا ببينتها وهى المجىء بالآى فقال فرعون وما هى فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس (وَالسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ) أى سلم من العذاب من أسلم وليس بتحية وقيل وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ) فى الدنيا والعقبى (عَلَىٰ مَن كَذَّبَ) بالرسل (وَتَوَلَّىٰ) أعرض عن الإيمان وهى أرجى آى القرآن لأنه جعل جنس السلام للمؤمن وجنس العذاب على المكذب وليس وراء الجنس شىء فأتياه وأديا الرسالة وقالا له ما أمرا به (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ) خاطبهما ثم نادى أحدهما لأن موسى هو الأصل فى النبوة وهارون تابعه (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ) خلقه أول مفعولى أعطى أى أعطى خليقته كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به أو ثانيهما أى أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذا الأنف والرجل واليد كل واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها وقرأ نصير خلَقه صفة للمضاف أو للمضاف إليه أى أعطى كل شىء مخلوق عطاء (ثُمَّ هَدَىٰ) عرف كيف يرتفق بما أعطى للمعيشة فى الدنيا والسعادة فى العقبى (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ) فما حال الأمم الخالية والرمم البالية سأله عن حال من تقدم من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد (قَالَ) موسى مجيبا (عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي) مبتدأ وخبر (فِي كِتَٰبٍ) أى اللوح خبر ثان أى هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو وما أنا إلا عبد مثلك لاأعلم منه إلا ماأخبرنى به علام الغيوب وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله فى اللوح المحفوظ (لَّا يَضِلُّ رَبِّي) أى لا يخطىء شيئا يقال ضللت الشىء إذا أخطأته فى مكانه فلم تهتد له أى لايخطىء فى سعادة الناس وشقاوتهم (وَلَا يَنسَى) ثوابهم وعقابهم وقيل لاينسى ماعلم فيذكره الكتاب ولكن ليعلم الملائكة أن معمول الخلق يوافق معلومه (الَّذِي) مرفوع صفة لربى أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح (جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا) كوفى وغيرهم مهادا وهما لغتان لما يبسط ويفرش (وَسَلَكَ) أى جعل (لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) طرقا (وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً) أى مطرا (فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ) بالماء نقل الكلام من الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للافتنان وقيل تم كلام موسى ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله فأخرجنا به وقيل هذا كلام موسى أى فأخرجنا

نحن بالحراثة والغرس (أَزْوَٰجاً) أصنافا (مِّن نَّبَاتٍ) هو مصدر سمى به النابت فاستوى فيه الواحد والجمع (شَتَّىٰ) صفة للأزواج أو للنبات جمع شتيت كمريض ومرضى أى إنها مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل بعضها للناس وبعضها للبهائم ومن نعمة الله تعالى أن أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجاتنا مما لانقدر على أكله قائلين (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَـٰمَكُمْ) حال من الضمير فى فأخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين فى الانتفاع بهـا مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) فى الذى ذكرت (لَاَيَـٰتٍ) لدلالات (لِّأُوْلِى النُّهَىٰ) لذوى العقول واحدها نهية لأنها تنهى عن المحظور أو ينتهى إليها فى الأمور (مِنْهَا) من الأرض (خَلَقْنَـٰكُم) أى أباكم آدم عليه السلام وقيل يعجن كل نطفة بشىء من تراب مدفنه فيخلق من التراب والنطفة معا أو لأن النطفة من الأغذية وهى من الأرض (وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) إذا متم فدفنتم (وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ) عند البعث (تَارَةً أُخْرَىٰ) مرة أخرى والمراد بإخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر عدد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاءوا وأنبت فيها أصناف النبات التى منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم وهى أصلهم الذى منه تفرعوا وأمهم التى منها ولدوا وهى كفاتهم إذا ماتوا (وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ) أى فرعون (ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا) وهى تسع آيات العصا واليـد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل (فَكَذَّبَ) الآيات (وَأَبَىٰ) قبول الحق (قَالَ) فرعون (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا) مصر (بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ) فيه دليـل على أنه خاف منه خوفا شديدا وقوله بسحرك تعلل وإلا فأى ساحر يقدر أن يخرج ملـكا من أرضه (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ) فلنعارضنك بسحر مثل سحرك (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً) هو مصدر بمعنى الوعد ويقدر مضاف أى مكان موعد والضمير فى (لَّا نُخْلِفُهُ) للموعد قرأ يزيد بالجزم على جواب الأمر وغيره بالرفع على الوصف للموعد (نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً) هو بدل من المكان المحذوف ويجوز أن لايقدر مضاف ويكون المعنى اجعل بيننا وبينك وعدا لا نخلفه وانتصب مكانا بالمصدر أو بفعل يدل عليه المصدر (سُوًى) بالكسر حجازى وأبو عمرو وعلىّ وغيرهم بالضم وهو نعت

لـكانا أى منصفا بيننا وبينك وهو من الاستواء لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ) مبتدأ وخبر وهو يوم عيـد كان لهم أو يوم النيروز أو يوم عاشوراء وإنما استقام الجواب بالزمان وإن كان السؤال عن المـكان على التأويل الأول لأن اجتماعهم يوم الزينة يكون فى مكان لا محالة فبذكر الزمان علم المـكان وعلى الثانى تقديره وعدكم وعد يوم الزينة (وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ) أى تجمع فى موضع رفع أوجر عطفا على يوم أوالزينة (ضُحًى) أى وقت الضحوة لتكون أبعد عن الريبة وأبين لـكشف الحق وليشيع فى جميع أهل الوبر والمدر (فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ) أدبر عن موسى معرضا (فَجَمَعَ كَيْدَهُ) مكره وسحرته وكانوا اثنين وسبعين أو أربعمائة أو سبعين ألفا (ثُمَّ أَتَىٰ) للموعد (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ) أى للسحرة (وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا (فَيُسْحِتَكُم) كوفى غير أبى بكر يهلـكـكم وبفتح الياء والحاء غيرهم، والسحت والإسحات بمعنى الإعدام وانتصب على جواب النهى (بِعَذَابٍ) عظيم (وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ) من كذب على الله (فَتَنَازَعُوا) اختلفوا أى السحرة فقال بعضهم هو ساحر مثلنا وقال بعضهم ليس هذا بكلام السحرة أى لا تفتروا على الله كذباً الآية (أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ) أى تشاوروا فى السر وقالوا إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر والنجوى يكون مصدرا واسما ثم لفقوا هذا الـكلام يعنى (قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ) يعنى موسى وهٰرون قرأ أبو عمرو إن هذين لساحران وهو ظاهر ولـكنه مخالف للإمام وابن كثير وحفص والخليل وهو أعرف بالنحو واللغة إن هذان لساحران بتخفيف إن مثل قولك إن زيد لمنطلق واللام هى الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة وقيل هى بمعنى ما واللام بمعنى إلا أى ماهذان إلا ساحران دليله قراءة أبىّ إن ذان إلا ساحران وغيرهم إن هذان لساحران قيل هى لغـة بلحارث بن كعب وخثعم ومراد وكنانة فالتثنية فى لغتهم بالألف أبدا فلم يقلبوها ياء فى الجر والنصب كعصا وسعدى قال :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال الزجاج: إن بمعنى نعم، قال الشاعر :

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه

أى نعم والهاء للوقف وهذان مبتدأ وساحران خبر مبتدأ محذوف واللام داخلة على المبتدأ المحذوف تقديره هذان لها ساحران فيكون دخولها فى موضعها الموضوع لها وهو الابتداء وقد يدخل اللام فى الخبر كما يدخل فى المبتدأ قال : * خالى لأنت ومن جرير خاله * قاله فعرضته على المبرد فرضيه وقد زيفه أبو علىّ (يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم) مصر (بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ) بدينكم وشريعتكم (الْمُثْلَىٰ) الفضلى تأنيث الأمثل وهو الأفضل (فَأَجْمِعُوا) فأحكموا أى اجعلوه مجمعا عليه حتى لا تختلفوا فاجمعوا أبوعمرو ويعضده فجمع كيده (كَيْدَكُم) هو مايكاد به (ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا) مصطفين حال أمروا بأن يأتوا صفا لأنه أهيب فى صدور الرائين (وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ) وقد فاز من غلب وهو اعتراض (قَالُوا) أى السحرة (يَٰمُوسَىٰ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ) عصاك أولا (وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ) ما معنا وموضع أن مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر أو رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف معناه اختر أحد الأمرين أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه وكأنه تعالى ألهمهم ذلك وقد وصلت إليهم بركته وعلم موسى اختيار إلقائهم أولا حتى (قَالَ بَلْ أَلْقُوا) أنتم أولا ليبرزوا ما معهم من مكايد السحر ويظهر الله سلطانه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين فألقوا (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ) يقال فى إذا هذه: إذا المفاجأة والتحقيق أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها وخصت فى بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير والتقدير ففاجأ موسى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعى (يُخَيَّلُ) وبالتاء ابن ذكوان (إِلَيْهِ) إلى موسى (مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ) رفع بدل اشتمال من الضمير فى يخيل أى يخيل الملقى روى أنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيلت ذلك (فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ) أضمر فى نفسه خوفاً ظناً منه أنها تقصده للجبلة البشرية أو خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ) الغالب القاهر وفى ذكر إن وأنت وحرف التعريف ولفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة مبالغة بينة (وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ) بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف حفص وتلقّف

ابن ذكوان، الباقون تلقفْ (مَاصَنَعُوٓا) زوراً وافتعلوا أى اطرح عصاك تبتلع عصيهم وحبالهم ولم يقل عصاك تعظيما لها أى لا تحتفل بما صنعوا فإن ما فى يمينك أعظم منها أو تحقيرا أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الذى فى يمينك فإنه بقدرتنا يتلقفها على وحدته وكثرتها (إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ) كوفى غير عاصم سحر بمعنى ذى سحر أو ذوى سحر أو هم لتوغلهم فى السحر كأنهم السحر وكيد بالرفع على القراءتين وما موصولة أو مصدريه وإنما وحد ساحر ولم يجمع لأن القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ) أى هذا الجنس (حَيْثُ أَتَىٰ) أينما كان فألقى موسى عصاه فتلقفت ماصنعوا فلعظم مارأوا من الآية وقعوا إلى السجود فذلك قوله (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا) قال الأخفش من سرعة ماسجدوا كأنهم ألقوا فما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الإلقاءين روى أنهم رأوا الجنة ومنازلهم فيها فى السجود فرفعوا رءوسهم ثم (قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ) وإنما قدم هٰرون هنا وأخر فى الشعراء محافظة للفاصلة ولأن الواو لا توجب ترتيبا (قَالَ ءَامَنتُمْ) بغير مد حفص وبهمزة ممدودة بصرى وشامى وحجازى وبهمزتين غيرهم (لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ) أى لموسى يقال آمن له وآمن به (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) لعظيمكم أو لمعلمكم، تقول أهل مكة للمعلم أمرنى كبيرى (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ) القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لأن كل واحد من العضوين يخالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال ومن لابتداء الغاية لأن القطع مبتدأ وناشىء من مخالفة العضو ومحل الجار والمجرور النصب على الحال يعنى لأقطعنها مختلفات لأنها إذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف شبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن المظروف فى الظرف فلهذا قال (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) وخص النخل لطول جذوعها (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا) أنا على ترك إيمانكم بى أو رب موسى على ترك الإيمان به وقيل يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله وسلامه عليه بدليل قوله آمنتم له واللام مع الإيمان فى كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين (وَأَبْقَىٰ) أدوم (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ) لن نختارك (عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ) القاطعة

الدالة على صدق موسى (وَالَّذِي فَطَرَنَا) عطف على ماجاءنا أى لن نختارك على الذى جاءنا ولا على الذى خلقنا أو قسم وجوابه لن نؤثرك مقدم على القسم (فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ) فاصنع ما أنت صانع من القتل والصلب قال: * وعليهما مسرودتان قضاها * أى صنعهما أو احكم ماأنت حاكم (إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَآ) أى فى هذه الحياة الدنيا فانتصب على الظرف أى إنما تحكم فينا مدة حياتنا (إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ) ما موصولة منصوبة بالعطف على خطايانا (مِنَ السِّحْرِ) حال من ما، روى أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا: ما هذا بسحر الساحر إذا نام بطل سحره فكرهوا معارضته خوف الفضيحة فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر وضر فرعون جهله به ونفعهم علمهم بالسحر فكيف بعلم الشرع (وَاللَّهُ خَيْرٌ) ثوابا لمن أطاعه (وَأَبْقَىٰ) عقابا لمن عصاه وهو رد لقول فرعون ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى (إِنَّهُ) هو ضمير الشأن (مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا) كافرا (فَإِنَّ لَهُ) للمجرم (جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا) فيستريح بالموت (وَلَا يَحْيَىٰ) حياة ينتفع بها (وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا) مات على الإيمان (قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ) بعد الإيمان (فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَٰتُ الْعُلَىٰ) جمع العليا (جَنَّٰتُ عَدْنٍ) بدل من الدرجات (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا) دائمين (وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ) تطهر من الشرك بقول لا إله إلا الله قيل هذه الآيات الثلاث حكاية قولهم وقيل خبر من الله تعالى لاعلى وجه الحكاية وهو أظهر (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي) لما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلا ويأخذ بهم طريق البحر (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ) اجعل لهم من قولهم ضرب له فى ماله سهما (يَبَسًا) أى يابسا وهو مصدر وصف به يقال يبس يبسا ويبسا (لَّا تَخَٰفُ) حال من الضمير فى فاضرب أى اضرب لهم طريقا غير خائف. لا تخف حمزة على الجواب (دَرَكًا) هو اسم من الإدراك أى لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك (وَلَا تَخْشَىٰ) الغرق وعلى قراءة حمزة ولا تخشى استئناف أى وأنت لا تخشى أو يكون الألف للإطلاق كما فى وتظنون بالله الظنونا فخرج بهم موسى من أول الليل وكانوا سبعين ألفا وقد استعاروا حليهم فركب فرعون فى ستمائة ألف من القبط فقص أثرهم فذلك قوله (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ) هو

حال أى خرج خلفهم ومعه جنوده (فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ) أصابهم من البحر (مَا غَشِيَهُمْ) هو من جوامع الكلم التى تستقل مع قلتها بالمعانى الكثيرة أى غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله عز وجل (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ) عن سبيل الرشاد (وَمَا هَدَىٰ) وما أرشدهم إلى الحق والسداد وهذا رد لقوله وماأهديكم إلا سبيل الرشاد ثم ذكر منته على بنى إسرائيل بعد ما أنجاهم من البحر وأهلك فرعون وقومه بقوله (يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) أى أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى وقلنا يابنى إسرائيل (قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ) أى فرعون (وَوَٰعَدْنَٰكُمْ) بإيتاء الكتاب (جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ) وذلك أن الله عز وجل وعد موسى أن يأتى هذا المكان ويختار سبعين رجلا يحضرون معه لنزول التوراة وإنما نسب إليهم المواعدة لأنها كانت لنبيهم ونقبائهم وإليهم رجعت منافعها التى قام بها شرعهم ودينهم والأيمن نصب لأنه صفة جانب وقرئ بالجر على الجوار (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ) فى التيه وقلنا لكم (كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ) حلالات (مَا رَزَقْنَٰكُمْ) أنجيتكم وواعدتكم ورزقتكم كوفى غير عاصم(وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ) ولا تتعدوا حدود الله فيه بأن تكفروا النعم وتنفقوها فى المعاصى أولا يظلم بعضكم بعضا (فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى) عقوبتى (وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ) هلك أو سقط سقوطا لانهوض بعده وأصله أن يسقط من جبل فيهلك وتحقيقه سقط من شرف الإيمان إلى حفرة من حفر النيران. قرأ على فيحل ويحلل والباقون بكسرها فالمكسور فى معنى الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه والمضموم فى معنى النزول (وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ) عن الشرك (وَءَامَنَ) وحد الله تعالى وصدقه فيما أنزل (وَعَمِلَ صَٰلِحًا) أدى الفرائض (ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ) ثم استقام وثبت على الهدى المذكور وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح (وَمَآ أَعْجَلَكَ) أى وأى شىء عجل بك (عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ) أى عن السبعين الذين اختارهم وذلك أنه مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقا إلى كلام ربه وأمرهم أن يتبعوه قال الله تعالى وما أعجلك أى أى شىء أوجب عجلتك استفهام إنكار وما مبتدأ وأعجلك الخبر (قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى) أى هم خلفى يلحقون بى وليس بينى وبينهم إلا مسافة يسيرة ثم ذكر موجب العجلة فقال (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ)

أى إلى الموعد الذى وعدت (لِتَرْضَىٰ) لتزداد عنى رضاوهذا دليل على جواز الاجتهاد (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ) ألقيناهم فى فتنة (مِن بَعْدِكَ) من بعد خروجك من بينهم والمراد بالقوم الذين خلفهم مع هارون (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) بدعائه إياهم إلى عبادة العجل وإجابتهم له وهومنسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان فاتخذ عجلاواسمه موسى بن ظفر وكان منافقا (فَرَجَعَ مُوسَىٰ) من مناجات ربه (إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَٰنَ أَسِفاً) شديد الغضب أو حزينا (قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً) وعدهم الله أن يعطيهم التوراة التى فيها هدى ونوروكانت ألف سورة كل سورة ألف آية يحمل أسفارها سبعون جملاولاوعد أحسن من ذلك (أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) أى مدةمفارقتى إياكم، والعهد الزمان، يقال طال عهدى بك أى طال زمانى بسبب مفارقتك (أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أى أردتم أن تفعلوا فعلا يجب به عليكم الغضب من ربكم (فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى) وعدوه أن يقيموا على أمره وماتركهم عليهمن الآيات فأخلفوا موعده باتخاذالعجل (قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا) بفتح الميم مدنى وعاصم وبضمها حمزة وعلى وبكسرها غيرهم أى ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أى لو ملكنا أمرنا وخلينا ورأينا لما أخلفنا موعدك ولكنا غلبنا من جهة السامرى وكيده (وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا) بالضم والتشديد حجازى وشامى وحفص، وبفتح الحاء والميم مع التخفيف غيرهم (أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ) أثقالا من حلى القبط أوأرادوا بالأوزار أنها آثام وتبعات لأنهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلة أن لنا غدا عيدا فقال السامرى إنما حبس موسى لشؤم حرمها لأنهم كانوا معهم فى حكم المستأمنين فىدار الحرب وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربى على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ فأحرقوها نخبأ فى حفرة النار قالب عجل فانصاغت عجلا مجوفا نخور بدخول الريح فى مجار منه أشباه العروق وقيل نفخ فيه ترابا من موضع قوائم فرس جبريل عليه السلام يوم الغرق وهو فرس حياة فحيى نخاروومالت طباعهم إلى الذهب فعبدوه (فَقَذَفْنَاهَا) فى نار السامرى التى أوقدها فى الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلى (فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ) ما معه من الحلى فى النار أو مامعه من التراب الذى أخذه من أثر حافر فرس جبريل عليه

السلام (فَأَخْرَجَ لَهُمْ) السامرى من الحفرة (عِجْلاً) خلقه الله تعالى من الحلى التى سبكتها النار ابتلاء (جَسَدًا) مجسداً (لَّهُ خُوَارٌ) صوت وكان يخوز كما تخور العجاجيل (فَقَالُوا) أى السامرى وأتباعه (هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ) فأجاب عامتهم إلا اثنى عشر ألفا (فَنَسِيَ) أى فنسى موسى ربه هنا وذهب يطلبه عند الطور أو هو ابتداء كلام من الله تعالى أى نسى السامرى ربه وترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر أو نسى السامرى الاستدلال على أن العجل لا يكون إلها بدليل قوله (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ) أى أنه لا يرجع فأن مخففة من الثقيلة (إِلَيْهِمْ قَوْلًا) أى لا يجيبهم (وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) أى هو عاجز عن الخطاب والضر والنفع فكيف تتخذونه إلها وقيل إنه ما خار إلا مرة (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ) لمن عبدوا العجل (هَٰرُونُ مِن قَبْلُ) من قبل رجوع موسى إليهم (يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ) ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ) لا العجل (فَاتَّبِعُونِي) كونوا على دينى الذى هو الحق (وَأَطِيعُوٓا أَمْرِي) فى ترك عبادة العجل (قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ) أى لن نزال مقيمين على العجل وعبادته (حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ) فننظره هل يعبده كما عبدناه وهل صدق السامرى أم لا فلما رجع موسى (قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا) بعبادة العجل (أَلَّا تَتَّبِعَنِ) بالياء فى الوصل والوقف مكى وافقه أبو عمرو ونافع فى الوصل وغيرهم بلا ياء أى ما دعاك إلى ألا تتبعنى لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشيء وبين الداعى إلى تركه وقيل لا مزيدة والمعنى أى شيء منعك أن تتبعنى حين لم يقبلوا قولك وتلحق بى وتخبرنى أو ما منعك أن تتبعنى فى الغضب لله وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً (أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) أى الذى أمرتك به من القيام بمصالحهم ثم أخذ بشعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا وإنكاراً عليه لأن الغيرة فى الله ملكته (قَالَ يَبْنَؤُمَّ) وبخفض الميم شامى وكوفى غير حفص وكان لأبيه وأمه عند الجمهور ولكنه ذكر الأم استعطافا وترفيقاً (لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ) ثم ذكر عذره فقال (إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ) إن قاتلت بعضهم ببعض (فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) أو خفت أن تقول إن فارقتهم واتبعتك ولحق بى فريق وتبع السامرى فريق: فرقت بين بنى إسرائيل (وَلَمْ تَرْقُبْ) ولم تحفظ (قَوْلِي) اخلفنى فى قومى وأصلح وفيه دليل على جواز

الاجتهاد ثم أقبل موسى على السامرى منكراً عليه حيث (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ) ما أمرك الذى تخاطب عليه(يَـٰسَـٰمِرِىُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) وبالتاء حمزة وعلى، وقال الزجاج بصر علم وأبصر نظر أى علمت مالم يعلمه بنو اسرائيل قال موسى وماذاك قال رأيت جبريل على فرس الحياة فألقى فى نفسى أن أقبض من أثره فما ألقيته على شىء إلا صار له روح ولحم ودم (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً) القبضة المرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير وقرىء فقبصت قبصة فالضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الأصابع (مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) أى من أثر فرس الرسول وقرىء بها (فَنَبَذْتُهَا) فطرحتها فى جوف العجل (وَ كَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ) زينت (لِى نَفْسِى) أن أفعله ففعلته اتباعا لهواى وهو اعتراف بالخطأ واعتذار (قَالَ) له موسى (فَاذْهَبْ) من بيننا طريداً (فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَوٰةِ) ماعشت (أَن تَقُولَ) لمن أراد مخالطتك جاهلا بحالك (لَا مِسَاسَ) أى لايمسنى أحد ولا أمسه فمنع من مخالطة الناس منعا كليا وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته وإذا اتفق أن يماس أحدا حم الماس والممسوس وكان يهيم فى البرية يصيح لامساس ويقال إن ذلك موجود فى أولاده إلى الآن وقيل أراد موسى عليه السلام أن يقتله فمنعه الله تعالى منه لسخائه (وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ) أى لن يخلفك الله موعده الذى وعدك على الشرك والفساد فى الأرض ينجزه لك فى الآخرة بعدما عاقبك بذاك فى الدنيا لن تخلفه مكى وأبو عمر وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفا (وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ) وأصله ظللت فحذف اللام الأولى تخفيفاً (عَاكِفاً) مقيما (لَّنُحَرِّقَنَّهُ) بالنار (ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ) لنذرينه (فِى الْيَمِّ نَسْفاً) فحرقه وذراه فى البحر فشرب بعضهم من مائه حبا له فظهرت على شفاههم صفرة الذهب (إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً) تميز أى وسع علمه كل شىء ومحل الكاف فى (كَذَٰلِكَ) نصب أى مثل ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَاقَدْ سَبَقَ) من أخبار الأمم الماضية تكثيراً لبيناتك وزيادة فى معجزاتك (وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ) أى أعطيناك (مِن لَّدُنَّا) من عندنا (ذِكْراً) قرآنا فهو ذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة لمن أقبل عليه وهو مشتمل على الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار (مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ) عن

هذا الذكر وهو القرآن ولم يؤمن به (فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وِزْرًا) عقوبة ثقيلة سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الثقيل الذى ينقض ظهره ويلقى عليه بهره أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم (خَٰلِدِينَ) حال من الضمير فى يحمل وإنما جمع على المعنى ووحد فى فإنه حملا على لفظ من (فِيهِ) فى الوزر أى فى جزاء الوزر وهو العذاب (وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ حِمْلًا) ساء فى حكم بئس وفيه ضمير مبهم يفسره حملا وهو تميز واللام فى لهم للبيان كما فى هيت لك والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره ساء الحمل حملا وزرهم (يَوْمَ يُنفَخُ) بدل من يوم القيامة، ننفخ أبو عمرو (فِى الصُّورِ) القرن أو هو جمع صورة أى ننفخ الأرواح فيها دليله قراءة قتادة الصور بفتح الواو جمع صورة (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) حال أى عميا كما قال ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وهذا لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرق (يَتَخَٰفَتُونَ) يتسارون (بَيْنَهُمْ) أى يقول بعضهم لبعض سرا لهول ذلك اليوم (إِن لَّبِثْتُمْ) ما لبثتم فى الدنيا (إِلَّا عَشْرًا) أى عشر ليال يستقصرون مدة لبثهم فى القبور أو فى الدنيا لما يعاينون من الشدائد التى تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر لأن أيام السرور قصار أو لأنها ذهبت عنهم والذاهب وإن طالت مدته قصير بالانتهاء أو لاستطالتهم الآخرة لأنها أبدا يستقصر إليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم فى الآخرة وقد رجح الله قول من يكون أشد تقالا منهم بقوله (نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً) أعد لهم قولا (إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) وهو كقوله قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ) سألوا النبى ﷺ ما يصنع بالجبال يوم القيامة وقيل لم يسئل وتقديره إن سألوك (فَقُلْ) ولذا قرن بالفاء بخلاف سائر السؤالات مثل قوله ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى وقوله ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير. يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير. يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى . ويسئلونك عن الروح قل الروح. ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلو لأنها سؤالات تقدمت فورد جوابها ولم يكن فيها معنى الشرط فلم يذكر الفاء

(يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً) أي يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذرى الطعام وقال الخليل يقلعها (فَيَذَرُهَا) فيذر مقارها أو يجعل الضمير للأرض للعلم بها كقوله ما ترك على ظهرها (قَاعاً صَفْصَفاً) مستوية ملساء (لاَّ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً) انخفاضا (وَلَآ أَمْتاً) ارتفاعا والعوج بالكسر إن كان فى المعانى كما أن المفتوح فى الأعيان والأرض عين ولكن لما استوت الأرض استواء لا يمكن أن يوجد فيها اعوجاج بوجه ما وإن دقت الحيلة ولطفت جرت مجرى المعانى (يَوْمَئِذٍ) أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال أى يوم إذ نسفت وجاز أن يكون بدلا بعد بدل من يوم القيامة (يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) إلى المحشر أى صوت الداعى وهو إسرافيل حين ينادى على صخرة بيت القدس أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلمى إلى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون عنه (لَا عِوَجَ لَهُ) أى لايعوج له مدعو بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته (وَخَشَعَتِ) وسكنت (الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ) هيبة وإجلالا (فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا) صوتا خفيفا لتحريك الشفاه وقيل هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت أى لاتسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر (يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ) محل من رفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف أى لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن أى أذن للشافع فى الشفاعة (وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) أى رضى قولا لأجله بأن يكون المشفوع له مسلما أو نصب على أنه مفعول تنفع (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أى يعلم ما تقدمهم من الأحوال ومايستقبلونه (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) أى بما أحاط به علم الله فيرجع الضمير إلى ما أو يرجع الضمير إلى الله لأنه تعالى ليس بمحاط به (وَعَنَتِ) خضعت وذلت ومنه قيل للأسير: عان (الْوُجُوهُ) أى أصحابها (لِلْحَيِّ) الذى لا يموت وكل حياة يتعقبها الموت فهى كأن لم تكن (الْقَيُّومِ) الدائم القائم على كل نفس بما كسبت أو القائم بتدبير الخلق (وَقَدْ خَابَ) يئس من رحمة الله (مَنْ حَمَلَ ظُلْماً) من حمل إلى موقف القيامة شركا لأن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ولا ظلم أشد من جعل المخلوق شريك من خلقه (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) الصالحات الطاعات (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) مصدق بما جاء به محمد عليه السلام وفيه دليل أنه يستحق اسم الإيمان بدون الأعمال الصالحة وأن الإيمان شرط قبولها (فَلاَ يَخَافُ) أى فهو لايخاف

فلا يخف على النهى مكى (ظُلْماً) أن يزداد فى سيئاته (وَلَا هَضْماً) ولا ينقص من حسناته وأصل الهضم النقص والكسر (وَكَذَٰلِكَ) عطف على كذلك نقص أى ومثل ذلك الإنزال (أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَاناً عَرَبِيًّا) بلسان العرب (وَصَرَّفْنَا) كررنا (فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) يجتنبون الشرك (أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ) الوعيد أو القرآن (ذِكْرًا) عظة أو شرفا بإيمانهم به وقيل أوبمعنى الواو (فَتَعَٰلَى اللَّهُ) ارتفع عن فنون الظنون وأوهام الأفهام وتنزه عن مضاهاة الأنام ومشابهة الأجسام (الْمَلِكُ) الذى يحتاج إليه الملوك (الْحَقُّ) المحق فى الألوهية ولما ذكر القرآن وإنزاله قال استطرادا وإذا لقنك جبريل مايوحى إليك من القرآن فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ) بقراءته (مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ) من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً) بالقرآن ومعانيه وقيل ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شىء إلا فى العلم (وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰ ءَادَمَ) أى أوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم تقدم الملك إلى فلان وأوصى إليه وعزم عليه وعهد إليه فعطف قصة آدم على وصرفنا فيه من الوعيد، والمعنى وأقسم قسما لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة (مِن قَبْلُ) من قبل وجودهم فخالف إلى ما نهى عنه كما أنهم يخالفون يعنى أن أساس أمر بنى آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه (فَنَسِيَ) العهد أى النهى والأنبياء عليهم السلام يؤاخذون بالنسيان الذى لو تكلفوا لحفظوه (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) قصدا إلى الخلاف لأمره أولم يكن آدم من أولى العزم. والوجود بمعنى العلم ومفعولاه له عزما أوبمعنى نقيض العدم أى وعد مناله عزما وله متعلق بنجد (وَإِذْ قُلْنَا) منصوب باذكر (لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) قيل هو السجود اللغوى الذى هو الخضوع والتذلل أو كان آدم كالقبلة لضرب تعظيم له فيه (فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن إبليس كان ملكا من جنس المستثنى منهم وقال الحسن: الملائكة لباب الخليقة من الأرواح ولا يتناسلون وإبليس من نار السموم وإنما صح استثناؤه منهم لأنه كان يصحبهم ويعبد الله معهم (أَبَىٰ) جملة مستأنفة كأنه جواب لمن قال لم لم يسجد والوجه أن لا يقدر له مفعول وهو السجود المدلول عليه بقوله فسجدوا وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف (فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ

وَلِزَوْجِكَ) حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ) فلا يكونن سببه لإخراجكما (فَتَشْقَىٰ) فتتعب فى طلب القوت ولم يقل فتشقيا مراعاة لرءوس الآى أو دخلت تبعا أو لأن الرجل هو الكافل لنفقة المرأة وروى أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا) فى الجنة (وَلَا تَعْرَىٰ) عن الملابس لأنها معدة أبدا فيها (وَأَنَّكَ) بالكسر نافع وأبو بكر عطفا على إن الأولى وغيرهما بالفتح عطفا على ألا تجوع ومحله نصب بأن وجاز للفصل كما تقول إن فى علمى أنك جالس (لَا تَظْمَؤُا فِيهَا) لا تعطش لوجود الأشربة فيها (وَلَا تَضْحَىٰ) لا يصيبك حر الشمس إذ ليس فيها شمس فأهلها فى ظل ممدود (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَٰنُ) أى أنهى إليه الوسوسة كأسر إليه (قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ) أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود لأنه من أكل منها خلد بزعمه ولا يموت (وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ) لا يفنى (فَأَكَلَا) أى آدم وحواء (مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا) عوراتهما (وَطَفِقَا) طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وهو ككاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا إلا أنه للشروع فى أول الأمر وكاد للدنو منه (يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ) أى يلزقان الورق بسوءاتهما للتستر وهوورق التين (وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ) ضل عن الرأى وعن ابن عيسى خاب، والحاصل أن العصيان وقوع الفعل على خلاف الامر والنهى وقد يكون عمدا فيكون ذنبا وقد لا يكون عمدا فيكون زلة ولما وصف فعله بالعصيان خرج فعله من أن يكون رشدا فكان غيا لان الغى خلاف الرشد وفى التصريح بقوله وعصى آدم ربه فغوى والعدول عن قوله وزل آدم مزجرة بليغة وموعظة كافة للمكلفين كأنه قيل لهم انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة فلاتتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلا عن الكبائر (ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ) قربه إليه واصطفاه وقرىء به وأصل الكلمة الجمع يقال جبى إلى كذا فاجتبيته (فَتَابَ عَلَيْهِ) قبل توبته (وَهَدَىٰ) وهداه إلى الاعتذار والاستغفار (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا) يعنى آدم وحواء (بَعْضُكُمْ) ياذرية آدم (لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) بالتحاسد فى الدنيا والاختلاف فى الدين (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى) كتاب وشريعة (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ) فى الدنيا (وَلَا يَشْقَىٰ) فى العقبى قال ابن عباس رضى الله عنهما : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة

يعنى أن الشقاء فى الآخرة هو عقاب من ضل فى الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيــه نجا من الضلال ومن عقابه (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى) عن القرآن (فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا) ضيقا وهومصدر يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث عن ابن جبير يسلبه القناعة حتى لا يشبع فمع الدين التسليم والقناعة والتوكل فتكون حياته طيبة ومع الإعراض الحرص والشح فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتصوفة لايعرض أحدكم عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه (وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ) عن الحجة عن ابن عباس أعمى البصر وهو كقوله: ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا. وهو الوجه (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا) فى الدنيا (قَالَ كَذَٰلِكَ) أى مثل ذلك فعلت أنت ثم فسر فقال (أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ) أى أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعتبر وتركتها وعميت عنها فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ) لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك فى الدنيا وحشره أعمى فى العقبى ختم آيات الوعيد بقوله ولعذاب الآخره أشد وأبقى أى للحشر على العمى الذى لا يزول أبدا أشد من ضيق العيش المنقضى (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) أى الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب بالنون (كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ) حال من الضمير المجرور فى لهم (فِى مَسَـٰكِنِهِمْ) يريد أن قريشا يمشون فى مساكن عاد وثمود وقوم لوط ويعاينون آثار هلاكهم (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ) لذوى العقول إذا تفكروا علموا أن استئصالهم لكفرهم فلا يفعلون مثل مافعلوا (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) أى الحكم بتأخير العذاب عن أمة محمد ﷺ (لَكَانَ لِزَامًا) لازما فاللزام مصدر لزم فوصف به (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) القيامة وهو معطوف على كلمة والمعنى ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) فيك (وَسَبِّحْ) وصل (بِحَمْدِ رَبِّكَ) فى موضع الحال وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه (قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ) يعنى صلاة الفجر (وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) يعنى الظهر والعصر لأنهما واقعتان فى النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس

وغروبها (وَمِنْ ءانَآئِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) أى وتعهد أناء الليل أى ساعاته وأطراف النهار مختصا لها بصلاتك وقدتناول التسبيح فى آناء الليل صلاة العتمة وفى أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت فىقوله والصلاة الوسطى عند البعض وإنما جمع وأطراف النهار وهماطرفان لأمن الإلباس وهو عطف على قبل (لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) لعل للمخاطب أى اذكر الله فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله مابه ترضى نفسك ويسر قلبك. وتُرضى على وأبو بكر أى يرضيك ربك (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ)أى نظر عينيك ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك أن يباده الشيء بالنظر ثم يغض الطرف ولقد شدد المتقون فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعددالفسقة فىملابسهم ومراكبهم حتى قال الحسن لاتنظروا إلىدقدقة هماليج الفسقة ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب وهذا لأنهم إنمااتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالناظر إليهامحصل لغرضهم ومغر لهم على اتخاذها (إِلَىٰ مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ) أصنافا من الكفرة ويجوز أن ينتصب حالا من هاء الضمير والفعل واقع علىمنهم كأنه قال إلى الذىمتعنابه وهوأصناف بعضهم وناسا منهم (زَهْرَةَالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) زينتها وبهجتها وانتصب على الذم أو على إبداله من محل به أو على إبداله منأزواجا على تقدير ذوى زهرة (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) لنبلوهم حتىيستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم أولنعذبهمفىالآخرةبسببه (وَرِزْقُ رَبِّكَ) ثوابهوهوالجنة أوالحلال الكافى (خَيْرٌ وَأَبْقَى)مما رزقوا (وَأْمُرْ أَهْلَكَ) أمتكأوأهل بيتك (بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ) أنت داوم (عَلَيْهَالَا نَسْئَلُكَ رِزْقًا) أى لانسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك (نَّحْنُ نَرْزُقُكَ) وإياهم فلا تهتم لأمرالرزق وفرغ بالك لأمر الآخرة لأن من كان فى عمل الله كان الله فى عمله وعنعروة بن الزبير أنه كان إذارأىماعندالسلاطين قرأ: ولاتمدنعينيك. الآية ثم ينادى الصلاة، الصلاة رحمكم الله. وكان بكر بن عبد الله المزنى إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا بهذا أمر اللهورسوله، وعن مالك بن دينار مثله وفى بعض المسانيد أنه عليه السلام كان إذا أصابأهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ) أىوحسن العاقبة لأهلالتقوى بحذفالمضافين (وَقَالُوا) أىالكافرون (لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِ) هلايأتيناً محمد بآية من ربه تدل على صحة نبوته

(أَوَلَمْ تَأْتِهِم) أو لم تأتهم مدنى وحفص وبصرى (بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ) أى الكتب المتقدمة يعنى أنهم اقترحوا على عادتهم فى التعنت آية على النبوة فقيل لهم أو لم تأتكم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز يعنى القرآن من قبل أن القرآن برهان مافى سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهى مفتقرة إلى شهادته على صحة مافيها (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ) من قبل الرسول أو القرآن (لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا) هلا (أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ) بالنصب على جواب الاستفهام بالفاء (ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ) بنزول العذاب (وَنَخْزَىٰ) فى العقبى (قُلْ كُلٌّ) أى كل واحد مناومنكم (مُّتَرَبِّصٌ) منتظر للعاقبة وبمايؤول إليه أمرنا وأمركم (فَتَرَبَّصُوا) أنتم (فَسَتَعْلَمُونَ) إذا جاءت القيامة (مَنْ أَصْحَابُ) مبتدأ وخبر ومحلهما نصب (الصِّرَاطِ السَّوِيِّ) المستقيم (وَمَنِ اهْتَدَىٰ) إلى النعيم المقيم. قال رسول الله ﷺ «لايقرأ أهل الجنة إلا سورة طه ويس» والله أعلم بالصواب

﴿ سورة الأنبياء مكية ، وهى مائة واثنتا عشرة آية كوفى وإحدى عشرة آية مدنى وبصرى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقْتَرَبَ) دنا (لِلنَّاسِ) اللام صلة لاقترب عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالناس المشركون لأن مايتلوه من صفات المشركين (حِسَابُهُمْ) وقت محاسبة الله إياهم ومجازاته على أعمالهم يعنى يوم القيامة وإنما وصفه بالاقتراب لقلة مابقى بالإضافة إلى مامضى ولأن كل آت قريب (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) عن حسابهم وعمايفعل بهم ثم (مُّعْرِضُونَ) عن التأهب لذلك اليوم فالاقتراب عام والغفلة والإعراض يتفاوتان بتفاوت المكلفين فرب غافل عن حسابه لاستغراقه فى دنياه وإعراضه عن مولاه ورب غافل عن حسابه لاستهلاكه فى مولاه وإعراضه عن دنياه فهو لايفيق إلا برؤية المولى والأول إنما يفيق فى عسكر الموتى فالواجب عليك أن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب وتتنبه للمرض قبل أن تنبه وتعرض عن الغافلين وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين لتفوز بلقاء رب العالمين (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ) شىء من القرآن (مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ) فى التنزيل إتيانه مبتدأة تلاوته قريب عهده باستماعهم والمراد به الحروف المنظومة ولا خلاف

فى حدوثها (إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ) من النبى عليـه السلام أو غيره ممن يتلوه (وَهُمْ يَلْعَبُونَ) يستهزئون به (لَاهِيَةً) حال من ضمير يلعبون أو وهم يلعبون ولا هية حالان من الضمير فى استمعوه ومن قرأ لاهية بالرفع يكون خبراً بعد خبر لقوله: وهم. وارتفعت (قُلُوبُهُمْ) بلاهية وهى من لها عنه إذا ذهل وغفل والمعنى قلوبهم غافلة عما يرادبها، ومنها قال أبو بكر الوارق القلب اللاهى المشغول بزينة الدنيا وزهرتها الغافل عن الآخرة وأهوالها (وَأَسَرُّوا) وبالغوا فى إخفاء (النَّجْوَى) وهى اسم من التناجى ثم أبدل (الَّذِينَ ظَلَمُوا) من واو وأسروا إيذاناً بأنهم الموسومون بالظلم فيما أسروا به أوجاء على لغة من قال أ كلونى البراغيث أو هو مجرور المحـل لـكونه صفة أو بدلا من الناس أو هو منصوب المحل على الذم أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى فقدم عليـه أى والذين ظلموا أسروا النجوى (هَلْ هَٰذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُم تُبْصِرُونَ) هذا الـكلام كله فى محل النصب بدل من النجوى أى وأسروا هـذا الحديث ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً والمعنى أنهم اعتقدوا أن الرسول لا يكون إلا ملكا وإن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة فهو ساحر ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنـكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتماينون أنه سحر (قَـٰلَ رَبِّى) حمزة وعلى وحفص أى قال محمد وغيرهم قل ربى أى قل يا محمد للذين أسروا النجوى (يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ) أى يعلم قول كل قائل هو فى السماء أو الأرض سراً كان أو جهراً (وَهُوَ السَّمِيعُ) لأقوالهم (الْعَلِيمُ) بما فى ضمائرهم (بَلْ قَالُوآ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ افْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام رآها فى نومه فتوهمها وحيا من الله إليه ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ثم إلى أنه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج والمبطل رجاع غير ثابت على قول واحد ثم قالوا إن كان صادقا فى دعواه وليس الأمر كما يظن (فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ) بمعجزة (كَمَآ أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) كما أرسل من قبله باليد البيضاء والعصا وإبراء الأكمه وإحياء الموتى، وصحة التشبيه فى قوله كما أرسل الألون من حيث إنه فى معنى كما أتى الأولون بالآيات لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات ألا ترى أنه لافرق بين قولك أرسل محمد وبين قولك أتى محمد بالمعجزة فرد الله عليهم قولهم بقوله (مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم

مِّن قَرْيَةٍ) من أهل قرية (أَهْلَكْنَٰهَآ) صفة لقرية عند مجيء الآيات المقترحة لأنهم طلبوها تعنتاً (أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) أى أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء المقترحون لو أتيناهم بما اقترحوا مع أنهم أعتى منهم والمعنى أن أهل القرى اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله فلو أعطينا هؤلاء مايقترحون لنكثوا أيضاً (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا) هذا جواب قولهم هل هذا إلا بشر مثلكم (نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ) نوحى حفص (فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ) العلماء بالكتابين فإنهم يعرفون أن الرسل الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة وكان أهل مكة يعتمدون على قولهم (إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ذلك ثم بين أنه كمن تقدمه من الأنبياء بقوله (وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا) وحد الجسد لإرادة الجنس (لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ) صفة لجسدا يعنى وما جعلنا الأنبياء قبله ذوى جسد غير طاعمين (وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ) كأنهم قالوا هلا كان ملكا لا يطعم ويخلد، إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون أو مسمين بقاءهم الممتد وحياتهم المتطاولة خلودا (ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ) بإنجائهم والأصل فى الوعد مثل واختار موسى قومه أى من قومه (فَأَنجَيْنَٰهُمْ) مما حل بقومهم (وَمَن نَّشَآءُ) هم المؤمنون (وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ) المجاوزين الحد بالكفر ودل الإخبار بإهلاك المسرفين على أن من نشاء غيرهم (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ) يامعشر قريش (كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) شرفكم إن عملتم به أو لأنه بلسانكم أو فيه موعظتكم أو فيه ذكر دينكم ودنياكم والجملة أى فيه ذكركم صفة لكتابا (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) مافضلتكم به على غيركم فتؤمنوا (وَكَمْ) نصب بقوله (قَصَمْنَا) أى أهلكنا (مِن قَرْيَةٍ) أى أهلها بدليل قوله (كَانَتْ ظَالِمَةً) كافرة وهى واردة عن غضب شديد وسخط عظيم لأن القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذى يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم فإنه كسر بلا إبانة (وَأَنشَأْنَا) خلقنا (بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ) فسكنوا مساكنهم (فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟) أى المهلكون (بَأْسَنَآ) عذابنا أى علموا علم حس ومشاهدة (إِذَا هُم مِّنْهَا) من القرية وإذا للمفاجأة وهم مبتدأ والخبر (يَرْكُضُونَ) يهربون مسرعين والركض ضرب الدابة بالرجل فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب أو شبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم فقيل لهم (لَا تَرْكُضُوا۟) والقائل بعض الملائكة (وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ) نعمتم

فيه من الدنيا ولين العيش. قال الخليل: المترف الموسع عليه عيشه القليل فيه همه (وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ) أى يقال لهم استهزاء بهم: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجالسكم حتى يسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقولوا لكم بم تأمرون وكيف نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدمين أو يسألكم الناس فى أنديتكم المعاون فى نوازل الخطوب أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحاب أكفكم أو قال بعضهم لبعض لاتركضوا وارجعوا إلى منازلكم وأموالكم لعلكم تسألون مالا وخراجا فلا تقتلون فنودى من السماء ياثارات الأنبياء وأخذتهم السيوف فثم (قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ) اعترافهم بذلك حين لاينفعهم الاعتراف (فَمَا زَالَت تِّلْكَ) هى إشارة إلى ياويلنا (دَعْوَىٰهُمْ) دعاءهم وتلك مرفوع على أنه اسم زالت ودعواهم الخبر ويجوز العكس (حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا) مثل الحصيد أى الزرع المحصود ولم يجمع كما لم يجمع المقدر (خَٰمِدِينَ) ميتين خمود النار وحصيدا خامدين مفعول ثان لجعل أى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود كقولك جعلته حلوا حامضا أى جعلته جامعاً للطعمين (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ) اللعب فعل يروق أوله ولاثبات له، ولاعبين حال من فاعل خلقنا والمعنى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلق للهو واللعب وإنما سويناها ليستدل بها على قدرة مدبرها ولنجازى المحسن والمسىء على ماتقتضيه حكمتنا ثم نزه ذاته عن سمات الحدوث بقوله (لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا) أى ولدا أو امرأة كأنه رد على من قال: عيسى ابنه ومريم صاحبته (لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ) من الولدان أو الحور (إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ) أى إن كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله لاستحالته فى حقنا وقيل هو نفى كقوله وإن أدرى أى ما كنا فاعلين (بَلْ نَقْذِفُ) بل اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو بل من سنتنا أن نقذف أى نرمى ونسلط (بِٱلْحَقِّ) بالقرآن (عَلَى ٱلْبَٰطِلِ) الشيطان أو بالإسلام على الشرك أو بالجد على اللعب (فَيَدْمَغُهُۥ) فيكسره ويدحض الحق الباطل وهذه استعارة لطيفة لأن أصل استعمال القذف والدمغ فى الأجسام ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل والدمغ لإذهاب الباطل فالمستعار منه حسى والمستعار

له عقلى فكأنه قيل بل نورد الحق الشبيه بالجسم القوى على الباطل الشبيه بالجسم الضعيف فيبطله إبطال الجسم القوى الضعيف (فَإِذَا هُوَ) أى الباطل (زَاهِقٌ) هالك ذاهب (وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) الله به من الولد ونحوه (وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) خلقاً وملكاً فأنى يكون شىء منه ولداً له وبينهما تناف ويوقف على الأرض لأن (وَمَنْ عِندَهُ) منزلة ومكانة لامنزلا ولا مكانا يعنى الملائكة مبتدأ خبره (لَا يَسْتَكْبِرُونَ) لا يتعظمون (عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) ولا يعيون (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) حال من فاعل يسبحون أى تسبيحهم متصل دائم فى جميع أوقاتهم لاتتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر فتسبيحهم جار مجرى التنفس منا ثم أضرب عن المشركين منكراً عليهم وموبخاً فجاء بأم التى بمعنى بل والهمزة فقال (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ) يحيون الموتى ومن الأرض صفة لآلهة لأن آلهتهم كانت متخذة من جواهر الأرض كالذهب والفضة والحجر أو تعبد فى الأرض فنسبت إليها كقولك فلان من المدينة أى مدنى أو متعلق باتخذوا ويكون فيه بيان غاية الاتخاذ وفى قوله هم ينشرون زيادة توبيخ وإن لم يدعوا أن أصنامهم تحيي الموتى وكيف يدعون ومن أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات لأنه يلزم من دعوى الألوهية لها دعوى الإنشار لأن العاجز عنه لايصح أن يكون إلها إذ لايستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور والإنشار من جملة المقدورات وقرأ الحسن ينشرون بفتح الياء وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أى أحياها (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ) أى غير الله وصفت آلهة بإلا كما وصفت بغير لو قيل آلهة غير الله ولا يجوز رفعه على البدل لأن لو بمنزلة إن فى أن الكلام معه موجب والبدل لايسوغ إلا فى الكلام غير الموجب كقوله تعالى ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ولا يجوز نصبه استثناء لأن الجمع إذا كان منكراً لايجوز أن يستثنى منه عند المحققين لأنه لاعموم له بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء والمعنى لو كان يدبر أمر السموات والأرض آلهة شتى غير الواحد الذى هو فاطرهما (لَفَسَدَتَا) لخربتا لوجود التمانع وقد قررناه فى أصول الكلام ثم نزه ذاته فقال (فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) من الولد والشريك (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) لأنه المالك على الحقيقة ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس وجواز الخطأ عليه وعدم الملك الحقيقى لاستقبح ذلك وعد سفها فمن هو مالك الملوك ورب الأرباب وفعله صواب كله أولى

بأن لا يعترض عليه (وَهُمْ يُسْئَلُونَ) لأنهم مملوكون خطاءون فما أخلقهم بأن يقال لهم لم فعلتم فى كل شىء فعلوه وقيل وهم يسئلون يرجع إلى المسيح والملائكة أى هم مسئولون فكيف يكونون آلهة والألوهية تنافى الجنسية والمسئولية (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً) الإعادة لزيادة الإفادة فالأول للإنكار من حيث العقل والثانى من حيث النقل أى وصفتم الله تعالى بأن يكون له شريك فقيل لمحمد (قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ) حجتكم على ذلك وذا عقلى وهو يأباه كما مر أو نقلى وهو الوحى وهو أيضا يأباه فإنكم لا تجدون كتابا من الكتب السماوية إلا وفيه توحيده وتنزيهه عن الأنداد (هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ) يعنى أمته (وَذِكْرُ مَن قَبْلِى) يعنى أمم الأنبياء من قبلى وهو وارد فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه. معى حفص فلما لم يمتنعوا عن كفرهم أضرب عنهم فقال (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ) أى القرآن وهو نصب بيعلمون وقرئ الحقُّ أى هو الحق (فَهُم) لأجل ذلك (مُّعْرِضُونَ) عن النظر فيما يجب عليهم (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ) إلا نوحى كوفى غير أبى بكر وحماد (أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدُونِ) وحدونى فهذه الآية مقررة لما سبقها من آى التوحيد (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُ) نزلت فى خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله فنزه ذاته عن ذلك ثم أخبر عنهم بأنهم عباد بقوله (بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) أى بل هم عباد مكرمون مشرفون مقربون وليسوا بأولاد إذ العبودية تنافى الولادة (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) أى بقولهم فأنيبت اللام مناب الإضافة والمعنى أنهم يتبعون قوله فلا يسبق قولهم قوله ولا يتقدمون قوله بقولهم (وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) أى كما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضا مبنى على أمره لا يعملون عملا لم يأمروا به (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أى ما قدموا وأخروا من أعمالهم (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ) أى لمن رضى الله عنه وقال لا إله إلا الله (وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) خائفون (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ) من الملائكة (إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ) من دون الله إنىَ مدنى وأبو عمرو (فَذَٰلِكَ) مبتدأ أى فذلك القائل خبره (نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) وهو جواب الشرط (كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّـٰلِمِينَ) الكافرين الذين وضعوا الإلهية فى غير موضعها وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقق عصمتهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة والضحاك قد تحقق

الوعيدفى إبليس فإنه ادعى الالٰهية لنفسه ودعا إلى طاعة نفسه وعبادته (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا) ألم ير مكى (أَنَّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا) أى جماعة السماوات وجماعة الأرض فلذا لم يقل كن (رَتْقًا) بمعنى المفعول أى كانتا مرتوقتين وهو مصدر فلذا صلح أن يقع موقع مرتوقتين (فَفَتَقْنَـٰهُمَا) فشققناهما والفتق الفصل بين الشيئين والرتق ضد الفتق فإن قيل متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك قلنا إنه وارد فى القرآن الذى هو معجزة فقام مقام المرئى المشاهد ولأن الرؤية بمعنى العلم وتلاصق الأرض والسماء وتباينهما جائزان فى العقل فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لابد له من مخصص وهو القديم جل جلاله ثم قيل إن السماء كانت لاصقة بالأرض لافضاء بينهما ففتقناهما أى فصلنا بينهما بالهواء وقيل كانت السماوات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها الله تعالى وجعلها سبع سماوات وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحـدة ففتقها وجعلها سبع أرضين وقيل كانت السماء رتقا لا تمطر والأرض رتقا لاتنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله خلق الإنسان من عجل (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) يصدقون بما يشاهدون (وَجَعَلْنَا فِى الْأَرْضِ رَوَٰسِىَ) جبالا ثوابت من رسا إذاثبت (أَن تَمِيدَ بِهِمْ) لئلا تضطرب بهم فحذف لاواللام وإنما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما تزاد لذلك فى لئلا يعلم أهـل الـكتاب (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا) أى طرقا واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع ونصب على الحال من (سُبُلًا) متقدمة فإن قلت أى فرق بين قوله تعالى لتسلـكوا منها سبلا فجاجا وبين هذه قلت الأول للإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة والثانى لبيان أنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثم (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) ليهتدوا بها إلى البلاد المقصودة (وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا) فى موضعه عن السقوط كما قال ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه أو محفوظا بالشهب عن الشياطين كما قال وحفظناها من كل شيطان رجيم (وَهُمْ) أى الـكفار (عَنْ ءَايَٰتِهَا) عن الأدلة التى فيها كالشمس والقمر والنجوم (مُعْرِضُونَ) غير متفكرين فيهـا فيؤمنون (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ) لتسكنوا فيـه (وَالنَّهَارَ) لتتصرفوا فيه (وَالشَّمْسَ)لتكون

سراج النهار (وَالْقَمَرَ) ليكون سراج الليل (كُلٌّ) التنوين فيه عوض عن المضاف إليه أى كلهم والضمير للشمس والقمر والمراد بهما جنس الطوالع وجمع جمع العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة (فِي فَلَكٍ) عن ابن عباس رضى الله عنهما الفلك السماء والجمهور على أن الفلك موج مكفوف تحت السماء تجرى فيه الشمس والقمر والنجوم وكل مبتدأ خبره (يَسْبَحُونَ) يسيرون أى يدورون والجملة فى محل النصب على الحال من الشمس والقمر (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) البقاء الدائم (أَفَإِيْن مِّتَّ) بكسر الميم مدنى وكوفى غير أبى بكر (فَهُمُ الْخَالِدُونَ) والفاء الأول لعطف جملة على جملة والثانى لجزاء الشرط كانوا يقدرون أنه سيموت فنفى الله عنه الشماتة بهذا أى قضى الله أن لا يخلد فى الدنيا بشر أفإن مت أنت أيبقى هؤلاء (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم) ونختبركم سمى ابتلاء وإن كان عالما بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لأنه فى صورة الاختبار (بِالشَّرِّ) بالفقر والضر (وَالْخَيْرِ) الغنى والنفع (فِتْنَةً) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر وعن ابن ذكوان ترجعون (وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ) ما يتخذونك (إِلاَّ هُزُوًا) مفعول ثان ليتخذونك نزلت فى أبى جهل مر به النبى ﷺ فضحك وقال هذا نبى بنى عبد مناف (أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ) يعيب (ءَالِهَتَكُمْ) والذكر يكون بخير وبخلافه فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء وإن كان عدوا فذم (وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ) أى بذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية (هُمْ كَافِرُونَ) لا يصدقون به أصلا فهم أحق أن يتخذوا هزوا منك فإنك محق وهم مبطلون وقيل بذكر الرحمن أى بما أنزل عليك من القرآن هم كافرون جاحدون والجملة فى موضع الحال أى يتخدونك هزوا وهم على حال هى أصل الهزء والسخرية وهى الكفر بالله تعالى وكررهم للتأكيد أو لأن الصلة حالت بينه وبين الخبر فأعيد المبتدأ (خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ) فسر بالجنس وقيل نزلت حين كان النضر ابن الحارث يستعجل بالعذاب والعجل والعجلة مصدران وهو تقديم الشىء على وقته والظاهر أن المراد الجنس وأنه ركب فيه العجلة فكأنه خلق من العجل ولأنه يكثر منه والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم خلق من الكرم فقدم أولا ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها ثم منعه وزجره كأنه قال ليس ببدع منه أن يستعجل فإنه مجبول على ذلك وهو طبعه وسجيته

فقد ركب فيه وقيل العجل الطين بلغة حمير قال شاعرهم * والنخل ينبت بين الماء والعجل *
وإنما منع عن الاستعجال وهو مطبوع عليه كما أمره بقمع الشهوة وقد ركبها فيه لأنه أعطاه
القوة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة ومن عجل حال أى عجلا (سَأُوْرِيكُمْ ءايٰتِى)
نقماتى (فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) بالإتيان بها وهو بالياء عند يعقوب وافقه سهل وعياش فى الوصل
(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ) إتيان العذاب أو القيامة (إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ) قيل هو أحد
وجهى استعجالهم (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن
ظُهُورِهِمْ وَلَاهُمْ يُنصَرُونَ) جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أى لو يعلمون الوقت
الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا
يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ولا يجدون ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من
الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هوالذى هونه عندهم (بَلْ تَأْتِيهِم) الساعة
(بَغْتَةً) فجأة (فَتَبْهَتُهُمْ) فتحيرهم أى لا يكفونها بل تفجأهم فتغلبهم (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا)
فلا يقدرون على دفعها (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) يمهلون (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ
فَحَاقَ) فحل ونزل (بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم) جزاء (مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) سلى رسول
الله ﷺ عن استهزائهم به بأن له فى الأنبياء أسوة وأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق
بالمستهزئين بالأنبياء مافعلوا (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم) يحفظكم (بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ)
أى من عذابه إن أتاكم ليلا أونهارا (بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ) أى بل هم معرضون
عن ذكره ولا يخطرونه ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من
الكالىء وصلحوا للسؤال عنه والمعنى أنه أمر رسوله بسؤالهم عن الكالىء ثم بين أنهم لا
يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم ثم أضرب عن ذلك بقوله (أَمْ لَهُمْ ءالِهَةٌ
تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا) لما فى أم من معنى بل فقال ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا
وحفظنا ثم استأنف بقوله (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ) فبين أن
ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره
وينصره ثم قال (بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) أى ماهم فيه من

الحفظ والكلاءة إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وإمهالا كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وظنوا أنهم دائمون على ذلك وهو أمل كاذب (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) أى نقص أرض الكفر ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام، وذكر نأتى يشير بأن الله يجريه على أيدى المسلمين وأن عساكرهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها (أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم أى ليس كذلك بل يغلبهم رسول الله ﷺ وأصحابه بنصرنا (قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ) أخوفكم من العذاب بالقرآن (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ) بفتح الياء والميم ورفع الصم، ولا تسمع الصم شامى على خطاب النبى ﷺ (إِذَا مَا يُنذَرُونَ) يخوفون واللام فى الصم للعهد وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين والأصل ولا يسمعون إذا ماينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا ما أنذروا (وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ) دفعة يسيرة (مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ) صفة لنفحة (لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) أى ولئن مسهم من هذا الذى ينذرون به أدنى شىء لذلوا ودعوا بالويل على أنفسهم واقروا أنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا وقد بولغ حيث ذكر المس والنفحة لأن النفح يدل على القلة يقال نفحه بعطية: رضخه بها مع أن بناءها للمرة وفى المس والنفحة ثلاث مبالغات لأن النفح فى معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح لين ونفحه بعطية رضخه والبناء للمرة (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ) جمع ميزان وهومايوزن به الشىء فتعرف كميته وعن الحسن هوميزان له كفتان ولسان وإنما جمع الموازين لتعظيم شأنها كما فى قوله ياأيها الرسل والوزن لصحائف الأعمال فى قول (الْقِسْطَ) وصفت الموازين بالقسط وهو العدل مبالغة كأنها فى نفسها قسط أو على حذف المضاف أى ذوات القسط (لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) لأهل يوم القيامة أى لأجلهم (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) من الظلم (وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ) وإن كان الشىء مثقال حبة مثقالُ بالرفع مدنى وكذا فى لقمان على كان التامة (مِّنْ خَرْدَلٍ) صفة لحبة (أَتَيْنَا بِهَا) أحضرناها وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم ذهبت بعض

أصابه (وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ) عالين حافظين عن ابن عباس رضى الله عنهما لأن من حفظ شيئا حسبه وعلمه (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا) قيل هذه الثلاثة هى التوراة فهى فرقان بين الحق والباطل وضياء يستضاء به ويتوصل به إلى سبيل النجاة وذكر أى شرف أو وعظ وتنبيه أو ذكر ما يحتاج الناس إليه فى مصالح دينهم ودخلت الواو على الصفات كما فى قوله وسيدا وحصورا ونبيا وتقول مررت بزيد الكريم والعالم والصالح ولما انتفع بذلك المتقون خصهم بقوله (لِّلْمُتَّقِينَ) ومحل (ٱلَّذِينَ) جر على الوصفية أو نصب على المدح أورفع عليه (يَخْشَوْنَ رَبَّهُم) يخافونه (بِٱلْغَيْبِ) حال أى يخافونه فى الخلاء (وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ) القيامة وأهوالها (مُشْفِقُونَ) خائفون (وَهَٰذَا) القرآن (ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ) كثير الخير غزير النفع (أَنزَلْنَٰهُ) على محمد(أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ)استفهام توبيخ أى جاحدون أنه منزل من عند الله (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ) هداه (مِن قَبْلُ) من قبل موسى وهرون أو من قبل محمد عليه السلام (وَكُنَّا بِهِۦ) بابراهيم أو برشده (عَٰلِمِينَ) أى علمنا أنه أهل لما آتيناه (إِذْ) إما أن تتعلق بآتينا أوبرشده (قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ) أى الأصنام المصورة على صورة السباع والطيور والإنسان وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها (ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ) أى لأجل عبادتها مقيمون فلما عجزوا عن الإتيان بالدليل على ذلك (قَالُوا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ) فقلدناهم (قَالَ) إبراهيم (لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) أراد أن المقلدين والمقلدين منخرطون فى سلك ضلال ظاهر لايخفى على عاقل وأكد بأنتم ليصح العطف لأن العطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع (قَالُوٓا أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ) بالجد (أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ) أى أجاد أنت فيما تقول أم لاعب استعظاما منهم إنكاره عليهم واستبعادا لأن يكون ماهم عليه ضلالا فثم أضرب عنهم مخبراً بأنه جاد فيما قال غير لاعب مثبتا لربوبية الملك العلام وحدوث الأصنام بقوله (قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ) أى التماثيل فأنى يعبد المخلوق ويترك الخالق (وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم) المذكور من التوحيد شاهد (مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَتَٱللَّهِ) أصله والله وفى التاء معنى التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته وتعذره القوة سلطة نمرود (لَأَكِيدَنَّ

أَصْنَـٰمَكُم) لأكسرنها (بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم قال ذلك سرا من قومه فسمعه رجل واحدفمرض بقوله إنى سقيم أى سأسقم ليتخلف فرجع إلى بيت الأصنام (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا) قطعاً من الجذ وهو القطع جمع جذاذة كزجاجة وزجاج جذاذا بالكسر على، جمع جذيذ أى مجذوذ كخفيف وخفاف (إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ) للأصنام أو للكفار أى فكسرها كلها بفأس فى يده إلا كبيرها فعلق الفأس فى عنقه (لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ) إلى الكبير (يَرْجِعُونَ) فيسألونه عن كاسرها فيتبين لهم عجزه أو إلى إبراهيم يحتج عليهم أو إلى الله لما رأوا عجز آلهتهم (قَالُوا) أى الكفار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك (مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّـٰلِمِينَ) أى إن من فعل هذا الكسر لشديد الظلم لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والتعظيم (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَٰهِيمُ) الجملتان صفتان لفتى إلا أن الأول وهو يذكرهم أى يعيبهم لابد منه للسمع لأنك لاتقول سمعت زيداً وتسكت حتى تذكر شيئاً مما يسمع بخلاف الثانى وارتفاع إبراهيم بأنه فاعل يقال فالمراد الاسم لاالمسمى أى الذى يقال له هذا الاسم (قَالُوا) أى نمرود وإشراف قومه (فَأْتُوا بِهِ) أحضروا ابراهيم (عَلَىٰٓ أَعْيُنِ النَّاسِ) فى محل الحال بمعنى معاينا مشاهداً أى بمرأى منهم ومنظر (لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) عليه بما سمع منه أو بما فعله كأنهم كرهوا عقابه بلابينة أويحضرون عقوبتناله فلما أحضروه (قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَالَ) إبراهيم (بَلْ فَعَلَهُ) عن الكسائى إنه يقف عليه أى فعله من فعله وفيه حذف الفاعل وإنه لايجوز وجازأن يكون الفاعل مسنداً إلى الفتى المذكور فى قوله سمعنا فتى يذكرهم أو إلى إبراهيم فى قوله ياابراهيم ثم قال (كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا) وهو مبتدأ وخبر والأكثر أنه لا يقف والفاعل كبيرهم وهذا وصف أوبدل ونسب الفعل إلى كبيرهم وقصده تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى تبكيتا لهم وإلزاما للحجة عليهم لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم وأنه لا يصلح إلها وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق أنيق أأنت كتبت هذا وصاحبك أمى فقلت له بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمى لأن إثباته للعاجز منكما والأمر كائن بينكما استهزاء به وإثبات

للقادر ويمكن أن يقال غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة وكان غيظ كبيرها أشدلما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأن الفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ماتنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدر على هذا ويحكى أنه قال غضب أن تعبد هذه الصغارمعه وهو أكبر منها فكسرهن أوهو متعلق بشرط لايكون وهونطق الأصنام فيكون نفيا للمخبر عنه أى بل فعله كبيرهم إن كانواينطقون، وقوله فاسئلوهم اعتراض وقيل عرض بالكبير لنفسه وإنما أضاف نفسه إليهم لاشتراكهم فى الحضور (فَسْئَلُوهُمْ) عن حالهم (إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) وأنتم تعلمون عجزهم عنه (فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) فرجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بمخانقهم (فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّـٰلِمُونَ) على الحقيقة بعبادة مالاينطق لامن ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين فإن من لايدفع عن رأسه الفاس، كيف يدفع عن عابديه الباس (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) قال أهل التفسير أجرى الله تعالى الحق على لسانهم فى القول الأول ثم أدركتهم الشقاوة أى ردوا إلى الكفر بعدأن أقروا على أنفسهم بالظلم، يقال نكسته قلبته فجعلت أسفله أعلاه أى استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا فى المجادلة بالباطل والمكابرة وقالوا (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ) فكيف تأمرنا بسؤالها والجملة سدت مسد مفعولى علمت والمعنى لقدعلمت عجزهم عن النطق فكيف نسألهم (قَالَ) محتجاعليهم (أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً) هو فى موضع المصدر أى نفعا (وَلاَ يَضُرُّكُمْ) إن لم تعبدوه (أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ) أف صوت لذا صوت به علم أن صاحبه متضجر، ضجر مما رأى من ثباتهم على عبادتها بعدانقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق فتأفف بهم واللام لبيان المتأفف به أى لكم ولآلهتكم هذا التأفف، أف مدنى وحفص، أفَّ مكى وشامى أفٍّ غيرهم (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أن من هذا وصفه لايجوز أن يكون إلها فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قَالُوٓا حَرِّقُوهُ) بالنار لأنها أهول مايعاقب به وأفظع (وَانصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ) بالانتقام منه (إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ) أى إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزرا فاختاروا له أهول المعاقبات وهوالإحراق بالنار وإلا فرطتم فى نصرتها والذى أشار بإحراقه نمرود أورجل

من أكراد فارس وقيل إنهم حين هموا بإحراقه حبسوه ثم بنوا بيتاً بكوثى وجمعوا شهراً أصناف الخشب ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق فى الجو من وهجها ثم وضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فرموا به فيها وهو يقول: حسبي الله ونعم الوكيل، وقال له جبريل هل لك حاجة فقال أما إليك فلا قال فسل ربك قال حسبي من سؤالى علمه بحالى وما أحرقت النار إلا وثاقه وعن ابن عباس إنما نجا بقوله حسبي الله ونعم الوكيل (قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا) أى ذات برد وسلام فبولغ فى ذلك كأن ذاتها برد وسلام (عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ) أراد ابردى فيسلم منك إبراهيم وعن ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها والمعنى أن الله تعالى نزع عنها طبعها الذى طبعها عليه من الحر والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق كما كانت وهو على كل شىء قدير (وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا) إحراقاً (فَجَعَلْنَٰهُمُ الْأَخْسَرِينَ) فأرسل على نمرود وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت بعوضة فى دماغ نمرود فأهلكته (وَنَجَّيْنَٰهُ) أى ابراهيم (وَلُوطًا) ابن أخيه هاران من العراق (إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ) أى أرض الشام وبركتها أن أكثر الأنبياء منها فانتشرت فى العالمين آثارهم الدينية وهى أرض خصب يطيب فيها عيش الغنى والفقير وقيل ما من ماء عذب فى الأرض إلا وينبع أصله من صخرة بيت المقدس، روى أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة. وقال عليه السلام «إنها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم» (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) قيل هو مصدر كالعافية من غير لفظ الفعل السابق أى وهبنا له هبة وقيل هى ولد الولد وقد سأل ولداً فأعطيه وأعطى يعقوب نافلة أى زيادة وفضلا من غير سؤال وهى حال من يعقوب (وَكُلًّا) أى إبراهيم وإسحق ويعقوب وهو المفعول الأول لقوله (جَعَلْنَا) والثانى (صَٰلِحِينَ) فى الدين والنبوة (وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً) يقتدى بهم فى الدين (يَهْدُونَ) الناس (بِأَمْرِنَا) بوحينا (وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَٰتِ) وهى جميع الأعمال الصالحة وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات وكذلك قوله (وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَوٰةِ) والأصل وإقامة الصلاة إلا أن المضاف إليه جعل بدلا من الهاء (وَكَانُوا لَنَا عَٰبِدِينَ) لا للأصنام فأنتم يامعشر العرب أولاد إبراهيم فاتبعوه فى ذلك (وَلُوطًا) انتصب بفعل يفسره (ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا) حكمة وهى ما يجب فعله من العمل أو فصلا بين الخصوم

أو نبوة (وَعِلْماً) فقها (وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ) من أهلها وهى سدوم (ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ) اللواطة والضراط وحذف المارة بالحصى وغيرها (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ) خارجين عن طاعة الله (وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ) فى أهل رحمتنا أو فى الجنة (إِنَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ) أى جزاء له على صلاحه كما أهلكنا قومه عقابا على فسادهم (وَنُوحًا) أى واذكر نوحا (إِذْ نَادَىٰ) أى دعا على قومه بالهلاك (مِن قَبْلُ) من قبل هؤلاء المذكورين (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ) أى دعاءه (فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ) أى المؤمنين من ولده وقومه (مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ) من الطوفان وتكذيب أهل الطغيان (وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ) منعناه منهم أى من أذاهم (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ) صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم (وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ) أى واذكرهما (إِذْ) بدل منهما (يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ) فى الزرع أو الكرم (إِذْ) ظرف ليحكمان (نَفَشَتْ) دخلت (فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ) ليلا فأكلته وأفسدته والنفش انتشار الغنم ليلا بلا راع (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ) أرادهما والمتحاكمين إليهما (شَٰهِدِينَ) أى كان ذلك بعلمنا ومرأى منا (فَفَهَّمْنَٰهَا) أى الحكومة أو الفتوى (سُلَيْمَٰنَ) وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان صلوات الله عليه وقصته أن الغنم رعت الحرث وأفسدته بلا راع ليلا فتحاكما إلى داود فحكم بالغنم لأهل الحرث وقد استوت قيمتاهما أى قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكمن فقال أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها والحرث إلى رب الغنم حتى يصلح الحرث ويعود كهيئته يوم أفسد ثم يترادان فقال القضاء ماقضيت وأمضى الحكم بذلك وكان ذلك باجتهاد منهما وهذا كان فى شريعتهم فأما فى شريعتنا فلا ضمان عند أبى حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم بالليل أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد، وعند الشافعى رحمه الله يجب الضمان بالليل وقال الجصاص إنما ضمنوا لأنهم أرسلوها ونسخ الضمان بقوله عليه السلام «العجماء جبار» وقال مجاهد كان هذا صلحا وما فعله داود كان حكما والصلح خير (وَكُلًّا) من داود وسليمان (ءَاتَيْنَا حُكْمًا) نبوة (وَعِلْمًا) معرفة بموجب الحكم (وَسَخَّرْنَا) وذللنا (مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ) وهو حال بمعنى مسبحات أو استئناف كأن قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن (وَٱلطَّيْرَ) معطوف

على الجبال أو مفعول معه وقدمت الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل فى الإعجاز لأنها جماد روى أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهى تتجاوبه وقيل كانت تسير معه حيث سار (وَكُنَّا فَٰعِلِينَ) بالأنبياء مثل ذلك وإن كان عجبا عندكم (وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ) أى عمل اللبوس والدروع واللبوس اللباس والمراد الدرع (لِتُحْصِنَكُم) شامى وحفص أى الصنعة، وبالنون أبو بكر وحماد أى الله عز وجل، وبالياء غيرهم أى للبوس أو الله عزوجل (مِّنۢ بَأْسِكُمْ) من حرب عدوكم (فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ) استفهام بمعنى الأمر أى فاشكروا الله على ذلك (وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ) أى وسخرنا له الريح (عَاصِفَةً) حال أى شديدة الهبوب ووصفت فى موضع آخر بالرخاء لأنها تجرى باختياره فكانت فى وقت رخاء وفى وقت عاصفه لهبوبها على حكم إرادته (تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ) بأمر سليمان (إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا) بكثرة الأنهار والأشجار والثمار والمراد الشام وكان منزله بها وتحمله الريح من نواحى الأرض إليها (وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ) وقد أحاط علمنا بكل شىء فتجرى الأشياء كلها على مايقتضيه علمنا (وَمِنَ الشَّيَٰطِينِ) أى وسخرنا منهم (مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ) فى البحار بأمره لاستخراج الدر وما يكون فيها (وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ) أى دون الغوص وهو بناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور والجفان (وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ) أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه (وَأَيُّوبَ) أى واذكر أيوب (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى) أى دعا بأنى (مَسَّنِىَ الضُّرُّ) الضر بالفتح الضرر فى كل شىء وبالضم الضرر فى النفس من مرض أو هزال (وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ) ألطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فكأنه قال أنت أهل أن ترحم وأيوب أهل أن يرحم فارحمه واكشف عنه الضر الذى مسه عن أنس رضى الله عنه أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة ولم يشتك وكيف يشكو من قيل له إنا وجدناه صابرا نعم العبد وقيل إنما شكا إليه تلذذا بالنجوى لا منه تضررا بالشكوى والشكاية إليه غاية القرب كما أن الشكاية منه غاية البعد (فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ) أجبنا دعاءه (فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ) فكشفنا ضره إنعاما عليه (وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ) روى أن أيوب عليه السلام كان روميا من ولد إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام وله سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف شاة وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة

عبد لـكل عبد امرأة وولد ونخيل فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده وماله وبمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو ثلاث سنين وقالت له امرأته يوما لو دعوت الله عز وجل فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال أناأستحى من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى فلما كشف الله عنه أحياولده بأعيانهم ورزقه مثلهم معهم (رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا) هو مفعول له (وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ) يعنى رحمة لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره فيثابوا كثوابه (وَإِسْمَـٰعِيلَ) بن ابراهيم (وَإِدْرِيسَ) بن شيث بن آدم (وَذَا ٱلْكِفْلِ) أى اذكرهم وهو الياس أو زكريا أويوشع بن نون وسمى به لأنه ذو الحظ من الله والكفل الحظ (كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ) أى هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر (وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَا) نبوتنا أو النعمة فى الآخرة (إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ) أى ممن لا يشوب صلاحهم كدر الفساد (وَذَا ٱلنُّونِ) أى اذكر صاحب الحوت والنون الحوت فأضيف إليه (إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا) حال أى مراغما لقومه ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها روى أنه برم بقومه لطول ماذكرهم فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبا لله وبغضا للكفر وأهله وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى فى المهاجرة عنهم فابتلى ببطن الحوت (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ) نضيق (عَلَيْهِ) وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه دخل يوما على معاوية فقال لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا إلا بك قال وما هى يامعاوية فقرأ الآية فقال أو يظن نبى الله أن لا يقدر عليه قال هذا من القدر لا من القدرة (فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ) أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات أوظلمة الليل والبحر وبطن الحوت (أَن) أى بأنه (لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ) أو بمعنى أى (سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) لنفسى فى خروجى من قومى قبل أن تأذن لى فى الحديث مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له وعن الحسن مانجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ) غم الزلة والوحشة والوحدة (وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ) إذا دعونا واستغاثوا بنا. نجى شامى وأبوبكر بادغام النون فى الجيم عند البعض لأن النون لا تدغم فى الجيم وقيل تقديره نجى النجاء المؤمنين فسكن الياء تخفيفا وأسند الفعل إلى المصدر

ونصب المؤمنين بالنجاء لكن فيه إقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول وهذا لايجوز وفيه تسكين الياء وبابه الضرورات وقيل أصله ننجى من التنجية فحذفت النون الثانية لاجتماع النونين كما حذفت إحدى التاءين فى تنزل الملائكة (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا) سأل ربه أن يرزقه ولدا يرثه ولايدعه وحيدا بلاوارث ثم ردأمره إلى الله مستسلما فقال (وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) أى فإن لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فإنك خير وارث أى باق (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ) ولدا (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) جعلناها صالحة للولادة بعدالعقار أى بعدعقرها أوحسنة وكانت سيئه الخلق (إِنَّهُمْ) أى الأنبياء المذكورين (كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) أى أنهم إنما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم فى تحصيلها (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) أى طمعاوخوفا كقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه وهما مصدران فى موضع الحال أو المفعول له أى للرغبة فينا والرهبة منا (وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) متواضعين خائفين (وَالَّتِي) أى واذكر التى (أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) حفظته من الحلال والحرام (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) أجرينا فيها روح المسيح أو أمرنا جبريل فنفخ فى جيب درعها فأحدثنا بذلك النفخ عيسى فى بطنها وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً) مفعول ثان (لِّلْعَالَمِينَ) وإنما لم يقل آيتين كما قال وجعلنا الليل والنهار آيتين لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة وهى ولادتها إياه من غير فحل أو التقدير وجعلناها آية وابنها كذلك فآية مفعول المعطوف عليه ويدل عليه قراءة من قرأ آيتين (إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) الأمة الملة وهذه إشارة إلى ملة الإسلام وهى ملة جميع الأنبياء وأمة واحدة حال أى متوحدة غير متفرقة والعامل مادل عليه اسم الإشارة أى أن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة (وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) أى ربيتكم اختيارا فاعبدونى شكرا وافتخارا والخطاب للناس كافة (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ) أصل الكلام وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات والمعنى وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا وصاروا فرقا وأحزابا ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) فنجازيهم على أعمالهم (فَمَن

يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ) شيئا (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) بمايجب الإيمان به (فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ)أى فإن سعيه مشكور مقبول والكفران مثل فى حرمان الثواب كما أن الشكر مثل فى إعطائه وقد نفى نفى الجنس ليكون أبلغ (وَإِنَّا لَهُ) للسعى أى الحفظة بأمرنا (كَٰتِبُونَ) فى صحيفة عمله فنثيبه به (وَحَرَٰمٌ) وحِرم كوفى غير حفص وخلف وهما لغتان كحل وحلال وزنا وضده معنى والمراد بالحرام الممتنع وجوده (عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) والمعنى وممتنع على مهلك غير ممكن أن لايرجع إلى الله بالبعث أوحرام على قرية أهلكناها أى قدرنا إهلاكهم أوحكمنا بإهلاكهم ذلك وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور أنهم لايرجعون من الكفر إلى الإسلام (حَتَّىٰٓ) هى التى يحكى بعدها الكلام والكلام المحكى الجملة من الشرط والجزاء أعنى (إِذَا) وما فى حيزها (فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) أى فتح سدهما فحذف المضاف كما حذف المضاف إلى قرية فتحت شامى وهما قبيلتان من جنس الإنس يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج (وَهُم) راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر وقيل هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد (مِّن كُلِّ حَدَبٍ) نشز من الأرض أى ارتفاع (يَنسِلُونَ) يسرعون (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) أى القيامة وجواب إذا (فَإِذَا هِيَ) وهى إذا المفاجأة وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله إذا هم يقنطون فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل فهى شاخصة أو إذا هى شاخصة كان سديدا وهى ضمير مبهم يوضحه الأبصار ويفسره (شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى مرتفعة الأجفان لاتكاد تطرف من هول ماهم فيه (يَٰوَيْلَنَا) متعلق بمحذوف تقديره يقولون ياويلنا ويقولون حال من الذين كفروا (قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا) اليوم (بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ) بوضعنا العبادة فى غير موضعها (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ) يعنى الأصنام وإبليس وأعوانه لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم فى حكم عبدتهم (حَصَبُ) حطب وقرىء حطب (جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ) فيها داخلون (لَوْ كَانَ هَٰؤُلَآءِ ءَالِهَةً) كمازعمتم (مَّا وَرَدُوهَا) مادخلوا النار (وَكُلٌّ) أى العابد والمعبود (فِيهَا) فى النار (خَٰلِدُونَ لَهُمْ) للكفار (فِيهَا زَفِيرٌ) أنين وبكاء

وعويل (وَهُم فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) شيئاً مالأنهم صاروا صما وفى السماع نوع أنس فلم يعطوه (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ) الخصلة المفضلة فى الحسن تأنيث الأحسن وهى السعادة أو البشرى بالثواب أو التوفيق للطاعة فنزلت جواباً لقول ابن الزبعرى عند تلاوته عليه السلام على صناديد قريش إنكم وما تعبدون من دون الله إلى قوله خالدون أليس اليهود عبد واعزيراً والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة على إن قوله وما تعبدون لايتناولهم لأن مالمن لا يعقل إلا أنهم أهل عناد فزيد فى البيان (أُوْلَٰئِكَ) يعنى عزيراً والمسيح والملائكة (عَنْهَا) عن جهنم (مُبْعَدُونَ) لأنهم لم يرضوا بعبادتهم وقيل المراد بقوله إن الذين سبقت لهم منا الحسنى جميع المؤمنين لما روى إن علياً رضى الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، وقال الجنيد رحمه الله: سبقت لهم منا العناية فى البداية فظهرت لهم الولاية فى النهاية (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا) صوتها الذى يحس وحركة تلهبها وهذه مبالغة فى الإبعاد عنها أى لايقربونها حتى لايسمعوا صوتها وصوت من فيها (وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ) من النعيم (خَٰلِدُونَ) مقيمون والشهوة طلب النفس اللذة (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) النفخة الأخيرة (وَتَتَلَقَّىٰهُمُ الْمَلَٰئِكَةُ) أى تستقبلهم الملائكة مهنئين على أبواب الجنة يقولون (هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) أى هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم فى الدنيا. العامل فى (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ) لايحزنهم أو تتلقاهم. تطوى السماء يزيد، وطيها تكوير نجومها ومحو رسومها أو هو ضد النشر تجمعها ونطويها (كَطَيِّ السِّجِلِّ) أى الصحيفة (لِلْكُتُبِ) حمزة وعلى وحفص أى للمكتوبات أى لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة وغيرهم للكتاب أى كما يطوى الطومار للكتابة أو لما يكتب فيه لأن الكتاب أصله لمصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب وقيل السجل: ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه وقيل كاتب كان لرسول الله ﷺ والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها والطى مضاف إلى الفاعل وعلى الأول إلى المفعول (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) انتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده وما موصولة أى نعيد مثل الذى بدأناه نعيده ، وأول خلق ظرف لبدأنا أى أول ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت فى المعنى وأول الخلق إيجاده أى فكما أوجده أولا يعيده ثانياً تشبيها للإعادة بالإبداء فى تناول القدرة لها على السواء والتنكير

فى خلق مثله فى قولك هو أول رجل جاءنى تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يجمع (وَعْدًا) مصدر مؤكد لأن قوله نعيده عدة للإعادة (عَلَيْنَآ) أى وعدا كائنا لا محالة (إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ) ذلك أى محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ) كتاب داود عليه السلام (مِن بَعْدِ الذِّكْرِ) التوراة (أَنَّ الْأَرْضَ) أى الشأم (يَرِثُهَا عِبَادِىَ) ساكنة الياء حمزة غيره بفتح الياء (الصَّٰلِحُونَ) أى أمة محمد عليه السلام أو الزبور بمعنى المزبور أى المكتوب يعنى ما أنزل على الأنبياء من الكتب. والذكر أم الكتاب يعنى اللوح لأن الكل أخذوا منه. دليله قراءة حمزة وخلف بضم الزاى على جمع الزبر بمعنى المزبور والأرض أرض الجنة (إِنَّ فِى هَٰذَا) أى القرآن أو فى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ (لَبَلَٰغًا) لكفاية وأصله ما تبلغ به البغية (لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ) موحدين وهم أمة محمد عليه السلام (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً) قال عليه السلام «إنما أنا رحمة مهداة» (لِّلْعَٰلَمِينَ) لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه ومن لم يتبع فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها. وقيل هو رحمة للمؤمنين فى الدارين وللكافرين فى الدنيا بتأخير العقوبة فيها. وقيل هو رحمة للمؤمنين والكافرين فى الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال والمسخ والخسف. ورحمة مفعول له أو حال أى ذا رحمة (قُلْ إِنَّمَا) إنما لقصر الحكم على شىء أو لقصر الشىء على حكم نحو إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد. وفاعل (يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) والتقدير يوحى إلى وحدانية إلٰهى ويجوز أن يكون المعنى أن الذى يوحى إلىّ فتكون ما موصولة (فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) استفهام بمعنى الأمر أى أسلموا (فَإِن تَوَلَّوْا) عن الإسلام (فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ) أعلمتكم ما أمرت به (عَلَىٰ سَوَآءٍ) حال أى مستوين فى الإعلام به ولم أخصص بعضكم وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية (وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ) أى لا أدرى متى يكون يوم القيامة لأن الله تعالى لم يطلعنى عليه ولكنى أعلم بأنه كائن لا محالة أو لا أدرى متى يحل بكم العذاب إن لم تؤمنوا (إِنَّهُۥ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) إنه عالم بكل شىء يعلم ما تجاهروننى به من الطعن فى الإسلام وما تكتمونه فى صدوركم من الأحقاد للمسلمين وهو مجازيكم عليه (وَإِنْ أَدْرِى

لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ) وما أدرى لعل تأخير العذاب عنكم فى الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون (وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ) وتمتيع لكم إلى الموت ليكون ذلك حجة عليكم (قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ) اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل أو بما يحق عليهم من العذاب ولا تحابهم وشدد عليهم كما قال واشدد وطأتك على مضر. قال رب حفص على حكاية قول رسول الله ﷺ : رب احكم يزيد ربىَ أحكم زيد عن يعقوب (وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ) العاطف على خلقه (ٱلْمُسْتَعَانُ) المطلوب منه المعونة (عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) وعن ابن ذكوان بالياء كانوا يصفون الحال على خلاف ماجرت عليه وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين وخذلهم أى الكفار وهو المستعان على ما يصفون .

﴿ سورة الحج مكية وهى ثمان وسبعون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ) أمر بنى آدم بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة بقوله (إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ) لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى الذى يؤمنهم من تلك الأفزاع. والزلزلة شدة التحريك والإزعاج وإضافة الزلزلة إلى الساعة إضافة المصدر إلى فاعله كأنها هى التى تزلزل الأرض على المجاز الحكمى أو إلى الظرف لأنها تكون فيها كقوله بل مكر الليل والنهار ووقتها يكون يوم القيامة أو عند طلوع الشمس من مغربها ولا حجة فيها للمعتزلة فى تسمية المعدوم شيئا فإن هذا اسم لها حال وجودها وانتصب (يَوْمَ تَرَوْنَهَا) أى الزلزلة أو الساعة بقوله (تَذْهَلُ) تغفل. والذهول: الغفلة (كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ) عن إرضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل وقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا حدث وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة إذ المرضعة هى التى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى والمرضع التى شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به (وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ) أى حبلى (حَمْلَهَا) ولدها قبل تمامه عن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع

الحامل مافى بطنها لغير تمام (وَتَرَى النَّاسَ) أيها الناظر (سُكَٰرَىٰ) على التشبيه لما شاهدوا بساط العزة وسلطنة الجبروت وسرادق الكبرياء حتى قال كل نبي: نفسى نفسى (وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ) على التحقيق (وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) فخوف عذاب الله هو الذى أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه. وعن الحسن وترى الناس سكارى من الخوف وماهم بسكارى من الشراب. سكرى فيهما بالإمالة حمزة وعلى وهو كمطشى فى عطشان. روى أنه نزلت الآيتان ليلا فى غزوة بنى المصطلق فقرأهما النبى عليه السلام فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى اللَّهِ) فى دين الله (بِغَيْرِ عِلْمٍ) حال نزلت فى النضر بن الحرث وكان جدلا يقول الملائكة: بنات الله. والقرآن: أساطير الأولين. والله غير قادر على إحياء من بلى أو هى عامة فى كل من يخاصم فى الدين بالهوى (وَيَتَّبِعُ) فى ذلك (كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ) عات مستمر فى الشر ولا وقف على مريد لأن ما بعده صفته (كُتِبَ عَلَيْهِ) قضى على الشيطان (أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ) تبعه أى تبع الشيطان (فَأَنَّهُ) فأن الشيطان (يُضِلُّهُ) عن سواء السبيل (وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ) النار. قال الزجاج: الفاء فى فأنه للعطف وأن مكررة للتأكيد ورد عليه أبو على وقال إن من إن كان للشرط فالفاء دخل لجزاء الشرط وإن كان بمعنى الذى فالفاء دخل على خبر المبتدأ والتقدير فالأمر أنه يضله قال والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الأول والمعنى كتب على الشيطان إضلال من تولاه وهدايته إلى النار ثم ألزم الحجة على منكرى البعث فقال (يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ) يعنى إن ارتبتم فى البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا فى بدء خلقكم وقد كنتم فى الابتداء ترابا وماء وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا وهو صيرورة الخلق ترابا وماء (فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم) أى أباكم (مِّن تُرَابٍ ثُمَّ) خلقتم (مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ) أى قطعة دم جامدة (ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ) أى لحمة صغيرة قدر ما يمضغ (مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) المخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب كأن الله عز وجل يخلق المضغة متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ماهو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم وإنما نقلنا كم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة (لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ) بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا وأن من قدر على خلق

البشر من تراب أولا ثم من نطفة ثانيا ولا مناسبة بين التراب والماء وقدر أن يجعل النطفة علقه والعلقة مضغة والمضغة عظاما قادر على إعادة ما بدأه (وَنُقِرُّ) بالرفع عند غير المفضل مستأنف بعد وقف. أى نحن نثبت (فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ) ثبوته (إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) أى وقت الولادة ومالم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ) من الرحم (طِفْلًا) حال وأريد به الجنس فلذا لم يجمع أو أريد به ثم نخرج كل واحد منكم طفلا (ثُمَّ لِتَبْلُغُوا) ثم نربيكم لتبلغوا (أَشُدَّكُمْ) كمال عقلكم وقوتكم وهو من ألفاظ الجموع التى لا يستعمل لها واحد (وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ) عند بلوغ الأشد أو قبله أو بعده (وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ) أخسه يعنى الهرم والخرف (لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) أى لكيلا يعلم شيئاً من بعد ما كان يعلمه أو لكيلا يستفيد علما وينسى ما كان عالما به ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) ميتة يابسة (فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ) تحركت بالنبات (وَرَبَتْ) وانتفخت. وربأت حيث كان يزيد ارتفعت (وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ) صنف (بَهِيجٍ) حسن سار للناظرين إليه (ذَٰلِكَ) مبتدأ خبره (بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) أى ذلك الذى ذكرنا من خلق بنى آدم وإحياء الأرض مع ما فى تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا وهو أن الله هو الحق أى الثابت الوجود (وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ) كما أحيا الأرض (وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قادر (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ) أى أنه حكيم لا يخلف الميعاد وقد وعد الساعة والبعث فلابد أن يفى بما وعد (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ) فى صفاته فيصفه بغير ما هو له . نزلت فى أبى جهل (بِغَيْرِ عِلْمٍ) ضرورى (وَلَا هُدًى) أى استدلال لأنه يهدى إلى المعرفة (وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) أى وحى والعلم للإنسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة (ثَانِيَ عِطْفِهِ) حال أى لاويا عنقه عن طاعة الله كبرا وخيلاء وعن الحسن ثانى عَطفه بفتح العين أى مانع تعطفه إلى غيره (لِيُضِلَّ) تعليل للمجادلة. ليَضل مكى وأبو عمرو (عَن سَبِيلِ اللَّهِ) دينه (لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ) أى القتل يوم بدر (وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) أى جمع له عذاب الدارين (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ) أى السبب فى عذاب الدارين هو ما قدمت نفسه من الكفر والتكذيب وكنى عنها باليد لأن اليد آلة الكسب (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) فلا يأخذ أحدا بغير

ذنب ولا بذنب غيره وهو عطف على بما أى وبأن الله . وذكر الظلام بلفظ المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع وهو العبيد ولأن قليل الظلم منه مع علمه بقبحه واستغنائه كالكثير منا (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ) على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة وهو حال أى مضطربا (فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ) صحة فى جسمه وسعة فى معيشته (اطْمَأَنَّ) سكن واستقر (بِهِ) بالخير الذى أصابه أو بالدين فعبد الله (وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ) شر وبلاء فى جسده وضيق فى معيشته (انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ) جهته أى ارتد ورجع إلى الكفر كالذى يكون على طرف من العسكر فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فروطار على وجهه. قالوا نزلت فى أعاريب قدموا المدينة مهاجرين وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سويا وولدت امرأته غلاما سويا وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا خيراً واطمأن وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شرا وانقلب عن دينه (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ) حال وقد مقدرة دليله قراءة روح وزيد خاسر الدنيا والآخرة والخسران فى الدنيا بالقتل فيها وفى الآخرة بالخلود فى النار (ذَٰلِكَ) أى خسران الدارين (هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) الظاهر الذى لا يخفى على أحد (يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ) يعنى الصنم فإنه بعد الردة يفعل كذلك (مَا لَا يَضُرُّهُ) إن لم يعبده (وَمَا لَا يَنفَعُهُ) إن عبده (ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) عن الصواب (يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ) والإشكال أنه تعالى نفى الضر والنفع عن الأصنام قبل هذه الآية وأثبتهما لها هنا والجواب أن المعنى إذا فهم ذهب هذا الوهم وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه أنه ينفعه ثم قال يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ولا يرى لها أثر الشفاعة لمن ضره أقرب من نفعه (لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ) أى الناصر الصاحب (وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) المصاحب وكرر يدعوا كأنه قال يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ثم قال لمن ضره بكونه معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) هذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبد الله على حرف (مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) المعنى أن الله ناصر رسوله

فى الدنيا والآخرة فمن ظن من أعاديه غير ذلك (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) بحبل (إِلَى السَّمَآءِ) إلى سماء بيته (ثُمَّ لْيَقْطَعْ) ثم ليختنق به وسمى الاختناق قطعا لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه. وبكسر اللام بصرى وشامى (فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) أى الذى يغيظه أو مامصدرية أى غيظه والمعنى فليصور فى نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه وسمى فعله كيدا على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكدبه محسوده إنما كادبه نفسه والمراد ليس فى يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ) ومثل ذلك الإنزال أنزل القرآن كله (ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ) واضحات (وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ) أى ولأن الله يهدى به الذين يعلم أنهم يؤمنون أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبيّنا (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّـٰبِئِينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا) قيل الأديان خمسة أربعة للشيطان وواحد للرحمن والصابئون نوع من النصارى فلاتكون ستة (إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) فى الأحوال والأماكن فلايجازيهم جزاء واحدا ولايجمعهم فى موطن واحد وخبران الذين آمنوا إن الله يفصل بينهم كما تقول إن زيدا إن أباه قائم (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) عالم به حافظ له فلينظر كل امرئ معتقده وقوله وفعله وهو أبلغ وعيد(أَلَمْ تَرَ) ألم تعلم يامحمد علما يقوم مقام العيان (أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ) قيل إن الكل يسجد له ولكننا لا نقف عليه كما لانقف على تسبيحها قال الله تعالى: وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم. وقيل سمى مطاوعة غير المكلف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له سجودا له تشبيها لمطاوعته بسجود المكلف الذى كل خضوع دونه (وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ) أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة أو هو مرفوع على الابتداء ومن الناس صفة له والخبر محذوف وهو مثاب ويدل عليه قوله (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ) أى وكثير منهم حق عليه العذاب بكفره وإبائه السجود (وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ) بالشقاوة (فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ) بالسعادة (إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَايَشَآءُ) من الإكرام والإهانة وغير ذلك وظاهر هذه الآية والتى قبلها ينقض على المعتزلة قولهم لأنهم يقولون شاء أشياء ولم يفعل وهو يقول يفعل مايشاء (هَـٰذَانِ خَصْمَانِ) أى فريقان مختصمان فالخصم صفة وصف

بها الفريق وقوله (اخْتَصَمُوا) للمعنى وهذان للفظ والمراد المؤمنون والكافرون وقال ابن عباس رضى الله عنهما رجع إلى أهل الأديان المذكورة فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم (فِي رَبِّهِمْ) فى دينه وصفاته ثم بين جزاء كل خصم بقوله (فَالَّذِينَ كَفَرُوا) وهو فصل الخصومة المعنى بقوله إن الله يفصل بينهم يوم القيامة (قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ) كأن الله يقدرلهم نيرانا على مقادير جثتهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة واختير لفظ الماضى لأنه كائن لامحالة فهو كالثابت المتحقق (يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ) بكسر الهاء والميم بصرى وبضمهما حمزة وعلى وخلف وبكسر الهاء وضم الميم غيرهم (الْحَمِيمُ) الماء الحار عن ابن عباس رضى الله عنهما لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها (يُصْهَرُ) يذاب (بِهِ) بالحميم (مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) أى يذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم فيؤثر فى الظاهر والباطن (وَلَهُم مَّقَامِعُ) سياط مختصة بهم (مِنْ حَدِيدٍ) تضربون بها (كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا) من النار (مِنْ غَمٍّ) بدل الاشتمال من منها بإعادة الجار أو الأولى لابتداء الغاية والثانية بمعنى من أجل يعنى كلما أرادوا الخروج من النار من أجل غم يلحقهم فخرجوا (أُعِيدُوا فِيهَا) بالمقامع ومعنى الخروج عند الحسن أن النار تضربهم بلهبها فتلقيهم إلى أعلاها فضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً والمراد إعادتهم إلى معظم النار لأنهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون إليها (وَذُوقُوا) أى وقيل لهم ذوقوا (عَذَابَ الْحَرِيقِ) هو الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك ثم ذكر جزاء الخصم الآخر فقال (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ) جمع أسورة جمع سوار (مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا) بالنصب مدنى وعاصم وعلى ويؤتون لؤلؤا وبالجر غيرهم عطفا على من ذهب وبترك الهمزة الأولى فى كل القرآن أبو بكر وحماد (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) إبريسم (وَهُدُوٓا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَٰطِ الْحَمِيدِ) أى أرشد هؤلاء فى الدنيا إلى كلمة التوحيد وإلى صراط الحميد أى الإسلام أو هداهم الله فى الآخرة وألهمهم أن يقولوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وهداهم إلى طريق الجنة والحميد الله المحمود بكل لسان

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) أى يمنعون عن الدخول فى الإسلام ويصدون حال من فاعل كفروا أى وهم يصدون أى الصدود منهم مستمر دائم كما يقال فلان يحسن إلى الفقراء فإنه يراد به إستمرار وجود الإحسان منه فى الحال والاستقبال (وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أى ويصدون عن المسجد الحرام والدخول فيه (الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ) مطلقا من غير فرق بين حاضر وباد فإن أريد بالمسجد الحرام مكة ففيه دليل على أنه لاتباع دور مكة وإن أريد به البيت فالمعنى أنه قبلة لجميع الناس (سَوَآءً) بالنصب حفص مفعول ثان لجعلناه أى جعلناه مستويا (الْعَٰكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) وغير المقيم بالياء مكى وافقه أبو عمرو فى الوصل وغيره بالرفع على أنه خبر والمبتدأ مؤخر أى العاكف فيه والباد سواء والجملة مفعول ثان وللناس حال (وَمَن يُرِدْ فِيهِ) فى المسجد الحرام (بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مراداً ما عادلا عن القصد ظالما فالإلحاد العدول عن القصد (نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) فى الآخرة وخبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) واذكر يامحمد حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة أى مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة وقد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم (أن) هى المفسرة للقول المقدر أى قائلين له (لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ) من الأصنام والأقذار: وبفتح الياء مدنى وحفص (لِلطَّآئِفِينَ) لمن يطوف به (وَالْقَآئِمِينَ) والمقيمين بمكة (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) المصلين جمع راكع وساجد (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) ناد فيهم والحج هو القصد البليغ إلى مقصد منيع وروى أنه صعد أبا قبيس فقال يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فأجاب من قدر له أن يحج من الأصلاب والأرحام بلبيك اللهم لبيك وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله ﷺ أمر أن يفعل ذلك فى حجة الوداع والأول أظهر وجواب الأمر (يَأْتُوكَ رِجَالًا) مشاة جمع راجل كقائم وقيام (وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ) حال معطوفة على رجال كأنه قال رجالا وركبانا والضامر البعير المهزول وقدم الرجال على الركبان إظهارا لفضيلة المشات كما ورد فى الحديث (يَأْتِينَ) صفة لكل ضامر لأنه فى معنى الجمع وقرأ عبدالله يأتون

صفة للرجال والركبان (مِن كُلِّ فَجٍّ) طريق (عَمِيقٍ) بعيد قال محمد بن ياسين قال لى شيخ فى الطواف من أين أنت فقلت من خراسان قال كم بينكم وبين البيت قلت مسيرة شهرين أو ثلاثة قال فأنتم جيران البيت فقلت أنت من أين جئت قال من مسيرة خمس سنوات وخرجت وأنا شاب فاكتهلت قلت والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة فقال :

زر من هويت وإن شطت بك الدار ... وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بعد عن زيارته ... إن المحب لمن يهواه زوّار

واللام فى (لِّيَشْهَدُوا) ليحضروا متعلق بأذن أو بيأتوك (مَنَٰفِعَ لَهُمْ) نكرها لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادة وهذا لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم أو بالمال كالزكاة وقد اشتمل الحج عليهما مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال وخلع الأسباب وقطيعة الأصحاب وهجر البلاد والأوطان وفرقة الأولاد والخلان والتنبيه على ما يستمر عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء فالحاج إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلا على عتاده، ولا يأكل إلا من زاده فكذا المرء إذا خرج من شاطىء الحياة وركب بحر الوفاة لا ينفع وحدته إلا ما سعى فى معاشه لمعاده ولا يؤنس وحشته إلا ما كان يأنس به من أوراده وغسل من يحرم وتأهبه ولبسه غير المخيط وتطيبه مرآة لما سيأتى عليه من وضعه على سريره لغسله وتجهيزه مطيباً بالحنوط ملففاً فى كفن غير مخيط ثم المحرم يكون أشعث حيران فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغبا ورهبا سائلين خوفا وطمعا وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العرصات لا تكلم نفس إلا بإذنه فنهم شقى وسعيد والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل القضاء ومنى هو موقف المنى للمذنبين إلى شفاعة الشافعين وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف والبيت الحرام الذى من دخله كان آمناً من الإيذاء والقتال أنموذج لدار السلام التى هى من نزلها بقى سالما من الفناء والزوال غير أن الجنة حفت بمكاره النفس العادية كما أن الكعبة حفت بمتالف البادية فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادى شوقاً إلى اللقاء يوم التنادى (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) عند الذبح (فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ) هى عشر ذى الحجة عند أبى حنيفة رحمه الله وآخرها يوم النحر وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين رحمهم الله

وعند صاحبيه هي أيام النحر وهو قول ابن عمر رضي الله عنهما (عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) أي على ذبحه وهو يؤيد قولهما والبهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز (فَكُلُوا مِنْهَا) من لحومها والأمر للإباحة ويجوز الأكل من هدي التطوع والمتعة والقران لأنه دم نسك فأشبه الأضحية ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا (وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ) الذي أصابه بؤس أي شدة (الْفَقِيرَ) الذي أضعفه الإعسار (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) ثم ليزيلوا عنهم أدرانهم كذا قاله نفطويه قيل قضاء التفث قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد، والتفث: الوسخ والمراد قضاء إزالة التفث وقال ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما قضاء التفث مناسك الحج كلها (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) مواجب حجهم والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه: وفى بنذره وإن لم ينذر أو ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم، وليوفوا بسكون اللام والتشديد أبو بكر (وَلْيَطَّوَّفُوا) طواف الزيارة الذي هو ركن الحج ويقع به تمام التحلل. اللامات الثلاث ساكنة عند غير ابن عياش وأبي عمرو (بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) القديم لأنه أول بيت وضع للناس بناه آدم ثم جدده إبراهيم أو الكريم ومنه عتاق الخيل لكرائمها وعتاق الرقيق لخروجه من ذل العبودية إلى كرم الحرية أو لأنه أعتق من الغرق لأنه رفع زمن الطوفان أو من أيدي الجبابرة كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله أو من أيدي الملاك فلم يملك قط وهو مطاف أهل الغبراء كما أن العرش مطاف أهل السماء فإن الطالب إذا هاجته همة الطرب وجذبته جواذب الطلب جعل يقطع مناكب الأرض مراحل ويتخذ مسالك المهالك منازل فإذا عاين البيت لم يزده التسلي به إلا اشتياقاً ولم يفده التشفي باستلام الحجر إلا احتراقاً فيزده الأسف لهفان ويردده اللهف حوله في الدوران. طواف الزيارة آخر فرائض الحج الثلاث وأولها الإحرام وهو عقد الالتزام يشبه الاعتصام بعروة الإسلام حتى لا ينتقض بارتكاب ما هو محظور فيه ويبقى عقده مع ما يفسده وينافيه كما أن عقد الإسلام لا ينحل بازدحام الآثام وترتفع ألف حوبة بتوبة وثانيها الوقوف بعرفات بسمة الابتهال في صفة الاهتبال وصدق الاعتزال عن دفع الاتكال على مراتب الأعمال وشواهد الأحوال (ذَٰلِكَ) خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك أو تقديره ليفعلوا ذلك (وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ) الحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله عز وجل بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل

أن يكون عاما فى جميع تكاليفه ويحتمل أن يكون خاصا بما يتعلق بالحج وقيل حرمات الله البيت الحرام والمشعر الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام (فَهُوَ) أى التعظيم (خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ) ومعنى التعظيم العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ) أى كلها (إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) آية تحريمه وذلك قوله حرمت عليكم الميتة الآية والمعنى أن الله تعالى أحل لكم الأنعام كلها إلا ما بيّن فى كتابه فحافظوا على حدوده ولا تحرموا شيئاً مما أحل كتحريم البعض البحيرة ونحوها ولا تحلوا مما حرم كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغيرها ولما حث على تعظيم حرماته أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور بقوله (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) لأن ذلك من أعظم الحرمات وأسبقها حظراً ومن الأوثان بيان للرجس لأن الرجس مبهم يتناول غير شىء كأنه قيل فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان وسمى الأوثان رجسا على طريقة التشبيه يعنى أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس فعليكم أن تنفروا عنها وجمع بين الشرك وقول الزور أى الكذب والبهتان أو شهادة الزور وهو من الزور وهو الانحراف لأن الشرك من باب الزور إذ المشرك زاعم أن الوثن يحق له العبادة (حُنَفَاءَ لِلَّهِ) مسلمين (غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) حال كحنفاء (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ) سقط (مِنَ السَّمَاءِ) إلى الأرض (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ) أى تسلبه بسرعة فتخطّفه أى تتخطفه مدنى (أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ) أى تسقطه والهوى السقوط (فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) بعيد يجوز أن يكون هذا تشبيها مركبا ويجوز أن يكون مفرقا فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق قطعا فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء والذى أشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء المردية بالطير المتخطفة والشيطان الذى هو يوقعه فى الضلال بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة (ذَٰلِكَ) أى الأمر ذلك (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ) تعظيم الشعائر وهى الهدايا لأنها من معالم الحج أن يختارها عظام الأجرام حسانا ثمانا غالية الأثمان (فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) أى فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) من الركوب

عند الحاجة وشرب ألبانها عند الضرورة (إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) إلى أن تنحر (ثُمَّ مَحِلُّهَا) أى وقت وجوب نحرها منتهية (إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) والمراد نحرها فى الحرم الذى هو فى حكم البيت إذالحرم حريم البيت ومثله فى الاتساع قولك بلغت البلد وإنما اتصل مسيرك بحدوده وقيل الشعائر المناسك كلهاوتعظيمها إتمامها ومحلها إلى البيت العتيق يأباه (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) جماعة مؤمنة قبلكم (جَعَلْنَا مَنسَكًا) حيث كان بكسر السين بمعنى الموضع على وحمزة أى موضع قربان وغيرهما بالفتح على المصدر أى إراقة الدماء وذبح القرابين (لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) دون غيره (عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) أى عند نحرها وذبحها (فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) أى اذكروا على الذبح اسم الله وحده فإن إلهكم إله واحد وفيه دليل على أن ذكر اسم الله شرط الذبح يعنى أن الله تعالى شرع لكل أمة أن ينسكوا له أى يذبحوا له على وجه التقرب وجعل العلة فى ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك وقوله (فَلَهُ أَسْلِمُوا) أى أخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه له سالما أى خالصا لا تشوبوه بإشراك (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) المطمئنين بذكر الله أوالمتواضعين الخاشعين من الخبت وهوالمطمئن من الأرض وعن ابن عباس رضى الله عنهما الذين لا يظلمون وإذاظلموا لم ينتصروا وقيل تفسيره مابعده أى (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) خافت منه هيبة (وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ) من المحن والمصائب (وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ) فى أوقاتها (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) يتصدقون (وَالْبُدْنَ) جمع بدنة سميت لعظم بدنها وفى الشريعة يتناول الابل والبقر وقرئ برفعها وهو كقوله والقمر قدرناه (جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ) أى من أعلام الشريعة التى شرعها الله وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها ومن شعائر الله ثانى مفعولى جعلنا (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) النفع فى الدنيا والأجر فى العقبى (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا) عند نحرها (صَوَافَّ) حال من الهاء أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) وجوب الجنوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط أى إذا سقطت جنوبها على الأرض بعد نحرها وسكنت حركتها (فَكُلُوا مِنْهَا) إن شئتم (وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ) السائل من قنعت إليه إذا خضعت له وسألته قنوعا (وَالْمُعْتَرَّ) الذى يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل وقيل القانع الراضى بما عنده وبما يعطى من غير سؤال من قنعت قنعا وقناعة والمعتر المتعرض للسؤال (كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ) أى كما أمرنا كم

بنحرها سخرناها لكم أو هو كقوله ذلك ومن يعظم ثم استأنف فقال سخرناها لكم أى ذللناها لكم مع قوتها وعظم أجرامها لتتمكنوا من نحرها (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) لكى تشكروا إنعام الله عليكم (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ) أى لن يتقبل الله اللحوم والدماء ولكن يتقبل التقوى أولن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المراقة بالنحر والمراد أصحاب اللحوم والدماء والمعنى لن يرضى المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص ورعاية شروط التقوى وقيل كان أهل الجاهلية إذا نحروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت (كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ) أى البدن (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ) لتسموا الله عند الذبح أو لتعظموا الله (عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ) على ما أرشدكم إليه (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) الممتثلين أوامره بالثواب(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ) ـيدفعـ مكى وبصرى وغيرهما يدافع أى يبالغ فى الدفع عنهم (عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا) أى يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ونحوه إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ثم علل ذلك بقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ) فى أمانة الله (كَفُورٍ) لنعمة الله أى لأنه لا يحب أضدادهم وهم الخونه الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها (أُذِنَ) مدنى وبصرى وعاصم (لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ) بفتح التاء مدنى وشامى وحفص والمعنى أذن لهم فى القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه(بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم اصبروا فإنى لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت هذه الآية وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد مانهى عنه فى نيف وسبعين آية (وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ) على نصر المؤمنين (لَقَدِيرٌ) قادر وهو بشارة للمؤمنين بالنصرة وهو مثل قوله إن الله يدافع عن الذين آمنوا (الَّذِينَ) فى محل جر بدل من للذين أو نصب بأعنى أو رفع بإضمارهم (أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ) بمكة (بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) أى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب التمكين لا موجب الإخراج ومثله هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ومحل أن يقولوا جر بدل من حق

والمعنى ماأخرجوا من ديارهم إلا بسبب قولهم (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ) دفاع مدنى ويعقوب (النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ) وبالتخفيف حجازى (صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ) أى لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعا ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات أى كنائس وسميت الكنيسة صلاة لأنها يصلى فيها ولا للمسلمين مساجد أو لغلب المشركون فى أمة محمد ﷺ على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين فى ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجوداً أو لقربها من التهديم (يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا) فى المساجد أو فى جميع ما تقدم (وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ) أى ينصر دينه وأوليائه (إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ) على نصر أوليائه (عَزِيزٌ) على انتقام أعدائه (الَّذِينَ) محله نصب بدل من من ينصره أو جر تابع للذين أخرجوا (إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ) هو إخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المهاجرين إن مكنهم فى الأرض وبسط لهم فى الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين وفيه دليل صحة أمر الخلفاء الراشدين لأن الله عزوجل أعطاهم التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة وعن الحسن هم أمة محمد ﷺ (وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ) أى مرجعها إلى حكمه وتقديره وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمته (وَإِن يُكَذِّبُوكَ) هذه تسلية لمحمد ﷺ من تكذيب أهل مكة إياه أى لبيت بأوحدى فى التكذيب (فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ) قبل قومك (قَوْمُ نُوحٍ) نوحا (وَعَادٌ) هودا (وَثَمُودُ) صالحا (وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ) إبراهيم (وَقَوْمُ لُوطٍ) لوطا (وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ) شعيبا (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) كذبه فرعون والقبط ولم يقل وقوم موسى لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه أو كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وظهور معجزاته فما ظنك بغيره (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ) أمهلتهم وأخرت عقوبتهم (ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ) عاقبتهم على كفرهم (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) إنكارى وتغييرى حيث أبدلتهم بالنعم نقما وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا. نكيرى بالياء فى الوصل والوقف يعقوب (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا)

أهلكنها بصرى (وَهِيَ ظَالِمَةٌ) حال أى وأهلها مشركون (فَهِيَ خَاوِيَةٌ) ساقطة من خوى النجم إذا سقط (عَلَىٰ عُرُوشِهَا) يتعلق بخاوية والمعنى أنها ساقطة على سقوفها أى خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ولا محل لفهى خاوية من الاعراب لأنها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل وهذا إذا جعلنا كأين منصوب المحل على تقدير كثيرا من القرى أهلكناها (وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ) أى متروكة لفقد دلوها ورشائها ولفقد تفقدها أو هى عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطلت أى تركت لايستقى منها لهلاك أهلها (وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ) مجصص من الشيد الجص أو مرفوع البنيان من شاد البناء رفعه والمعنى كم قرية أهلكناها وكم بئر عطلناها عن سقاتها وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه أى أهلكنا البادية والحاضرة جميعا فخلت القصور عن أربابها والآبار عن واردها والأظهر أن البئر والقصر على العموم (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) هذا حث على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا (فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) أى يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه ويسمعون مايجب سماعه من الوحى (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الضمير فى فإنها ضمير القصة أو ضمير مبهم يفسره الأبصار أى فما عميت أبصارهم عن الإبصار بل قلوبهم عن الاعتبار ولكل إنسان أربع أعين عينان فى رأسه وعينان فى قلبه فإذا أبصر ما فى القلب وعمى مافى الرأس لم يضره وإن أبصر ما فى الرأس وعمى مافى القلب لم ينفعه وذكر الصدور لبيان أن محل العلم القلب ولئلا يقال إن القلب يعنى به غير هذا العضو كما يقال القلب لب كل شيء (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) الآجل استهزاء (وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) كأنه قال: ولم يستعجلونك به كأنهم يجوزون الفوت وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ولن يخلف الله وعده وماوعده ليصيبنهم ولو بعد حين (وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) يعدون مكى وكوفى غير عاصم أى كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه فى طول ألف سنة من سنيكم لأن أيام الشدائد طوال (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) أى وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حينا (ثُمَّ أَخَذْتُهَا)

بالعذاب (وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) أى المرجع إلى فلا يفوتنى شىء وإنما كانت الأولى أى فكأين معطوفة بالفاء وهذه أى وكأين بالواو لأن الأولى وقعت بدلا عن فكيف كان نكير وأماهذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو وهما ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك (قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) وإنما لم يقل بشير ونذير لذكر الفريقين بعده لأن الحديث مسوق إلى المشركين ويا أيها الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم أفلم يسيروا ووصفوا بالاستعجال وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا أو تقديره نذير مبين وبشير فبشر أولا فقال (فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ) لذنوبهم (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أى حسن ثم أنذر فقال (وَالَّذِينَ سَعَوْا) سعى فى أمر فلان إذا أفسده بسعيه (فِي ءَايَـٰتِنَا) أى القرآن (مُعَـٰجِزِينَ) حال. معجزين حيث كان مكى وأبو عمرو. وعاجزه سابقه كأن كل واحد منهما فى طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به فإذا سبقه قيل أعجزه وعجزه والمعنى سعوا فى معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحرا وشعرا وأساطير مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم (أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ) أى النار الموقدة (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ) من لابتداء الغاية (مِن رَّسُولٍ) من زائدة لتأكيد النفى (وَلَا نَبِيٍّ) هذا دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبى بخلاف ما يقول البعض إنهما واحد وسئل النبى ﷺ عن الأنبياء فقال «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا» فقيل فكم الرسل منهم فقال «ثلثمائة وثلاثة عشر» والفرق بينهما أن الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبى من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله وقيل الرسول واضع شرع والنبى حافظ شرع غيره (إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ) قرأ ، قال :

تمنى كتاب الله أول ليلة   تمنى داود الزبور على رسل

(أَلْقَى الشَّيْطَـٰنُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) تلاوته قالوا إنه عليه السلام كان فى نادى قومه يقرأ والنجم فلما بلغ قوله ومناة الثالثة الأخرى جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه وقيل نبهه جبريل عليه السلام فأخبرهم أن ذلك كان من الشيطان وهذا القول غير مرضى لأنه لا يخلوا إما أن يتكلم النبى عليه السلام بها

عمدا وإنه لايجوز لأنه كفر ولأنه بعث طاعنا للأصنام لامادحا لها أو أجرى الشيطان ذلك على لسان النبي عليه السلام جبرا بحيث لايقدر على الامتناع منه وهو ممتنع لأن الشيطان لايقدر على ذلك فى حق غيره لقوله تعالى: إن عبادى ليس لك عليهم سلطان. فنى حقه أولى، أو جرى ذلك على لسانه سهوا وغفلة وهو مردود أيضا لأنه لايجوز مثل هذه الغفلة عليه فى حال تبليغ الوحى ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله ولأنه تعالى قال فى صفة المنزل عليه لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقال: إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون. فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق إلا وجه واحد وهو أنه عليه السلام سكت عند قوله ومناة الثالثة الأخرى فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلا بقراءة النبي ﷺ فوقع عند بعضهم أنه عليه السلام هو الذى تكلم بها فيكون هذا إلقاء فى قراءة النبي عليه السلام وكان الشيطان يتكلم فى زمن النبي عليه السلام ويسمع كلامه فقد روى أنه نادى يوم أحد ألا إن محمدا قد قتل وقال يوم بدر : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم (فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَٰنُ) أى يذهب به ويبطله ويخبر أنه من الشيطان (ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءَايَٰتِهِ) أى يثبتها ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان (وَاللهُ عَلِيمٌ) بما أوحى إلى نبيه وبقصد الشيطان (حَكِيمٌ) لا يدعه حتى يكشفه ويزيله ثم ذكر أن ذلك ليفتن الله تعالى به قوما بقوله (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً) محنة وابتلاء (لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) شك ونفاق (وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) هم المشركون المكذبون فيزدادوا به شكا وظلمة (وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ) أى المنافقين والمشركين وأصله وإنهم فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم (لَفِى شِقَاقٍ) خلاف (بَعِيدٍ) عن الحق (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) بالله وبدينه وبالآيات (أَنَّهُ) أى القرآن (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ) بالقرآن (فَتُخْبِتَ) فتطمئن (لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فيتأولون مايتشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبون لما أشكل منه المحمل الذى تقتضيه الأصول المحكمة حتى لاتلحقهم حيرة ولاتعتريهم شبهة (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ) شك (مِّنْهُ) من القرآن أو من الصراط المستقيم (حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) فجأة (أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) يعنى يوم بدر فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فرج أو

راحة كالريح العقيم لاتأتي بخير. أوشديد لا رحمة فيه أو لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه وعن الضحاك أنه يوم القيامة وأن المراد بالساعة مقدماته (ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ) أى يوم القيامة والتنوين عوض عن الجملة أي يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم (لِّلَّهِ) فلا منازع له فيه (يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) أي يقضي ثم بين حكمه فيهم بقوله (فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) ثم خص قومامن الفريق الأول بفضيلة فقال (وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) خرجوا من أوطانهم مجاهدين (ثُمَّ قُتِلُوٓا) فى الجهاد قتلوا شامي (أَوْ مَاتُوا) حتف أنفهم (لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا) قيل الرزق الحسن الذي لا ينقطع أبدا (وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ) لأنه المخترع للخلق بلامثال، المتكفل للرزق بلا ملال (لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا) بفتح الميم مدنى والمراد الجنة (يَرْضَوْنَهُ) لأن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين (وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ) بأحوال من تمضى نحبه مجاهدا، وآمال من مات وهو ينتظر معاهدا (حَلِيمٌ) بإمهال من قاتلهم معاندا روي أن طوائف من أصحاب النبي ﷺ قالوا يانبي الله: هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فأنزل الله هاتين الآيتين (ذَٰلِكَ) أى الأمر ذلك ومابعده مستأنف (وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ) سمي الابتداء بالجزاء عقوبة لملابسته له من حيث انه سبب وذلك مسبب عنه (ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ) أي من جازى بمثل ما فعل به من الظلم ثم ظلم بعد ذلك فحق على الله أن ينصره (إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ) يمحو آثار الذنوب (غَفُورٌ) يستر أنواع العيوب وتقريب الوصفين بسياق الآية أن المعاقب مبعوث من عندالله على العفو وترك العقوبه بقوله: فمن عفا وأصلح فأجره على الله. وأن تعفوا أقرب للتقوى. فحيث لم يؤثر ذلك وانتصر فهو تارك للأفضل وهو ضامن لنصره في الكرة الثانية إذا ترك العفو وانتقم من الباغى، وعرف مع ذلك بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين أودل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده كما قيل العفو عند القدرة (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ) أى ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن آيات قدرته

أنه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل أى يزيد من هذا فى ذلك ومن ذلك فى هذا أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلايخفى عليه مايجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر والبغى والإنصاف وأنه سميع لما يقولون ولا يشغله سمع عن سمع وإن اختلفت فى النهار الأصوات بفنون اللغات بصير بما يفعلون ولايستتر عنه شىء بشىء فى الليالى وإن توالت الظلمات (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ) عراقى غير أبى بكر (مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) أى ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار وإحاطته بما يجرى فيهما وإدراكه قولهم وفعلهم بسبب أن الله الحق الثابت إلهيته وأن كل مايدعى إلهاً دونه باطل الدعوة وأنه لا شىء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) مطراً (فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) بالنبات بعدما كانت مسودة يابسة وإنما صرف إلى لفظ المضارع ولم يقل فأصبحت ليفيد بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول أنعم علىّ فلان فأروح وأغدو شاكراً له ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع وإنما رفع فتصبح ولم ينصب جواباً للاستفهام لأنه لو نصب لبطل الغرض وهذا لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار كما تقول لصاحبك ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر، إن نصبته نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه وإن رفعته أثبت شكره (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ) واصل عمله أو فضله إلى كل شىء (خَبِيرٌ) بمصالح الخلق ومنافعهم أو اللطيف المختص بدقيق التدبير والخبير المحيط بكل قليل وكثير (لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) مُلكاً وملكاً (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ) المستغنى بكمال قدرته بعد فناء مافى السماوات ومافى الأرض (الْحَمِيدُ) المحمود بنعمته قبل ثناء من فى السماوات ومن فى الأرض (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ) من البهائم مذللة للركوب فى البر (وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) أى ومن المراكب جارية فى البحر، ونصب الفلك عطفاً على ما وتجرى حال لها أى وسخر لكم الفلك فى حال جريها (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ) أى يحفظها من أن تقع (إِلَّا بِإِذْنِهِ) بأمره أو بمشيئته (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ) بتسخير ما فى الأرض (رَّحِيمٌ) بإمساك السماء لئلا تقع على الأرض عدد آلاءه مقرونة بأسمائه ليشكروه على آلائه ويذكروه بأسمائه وعن أبى حنيفة رحمه الله أن اسم الله الأعظم فى الآيات

الثمانية يستجاب لقرائها البتة (وَهُوَ الَّذِىٓ أَحْيَا كُمْ) فى أرحام أمهاتكم (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) عند انقضاء آجالكم (ثُم يُحْيِيكُمْ) لإيصال جزائكم (إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ) لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ودفع عنه من صنوف النقم أولا يعرف نعمة الإنشاء المبدى للوجود ولا الإفناء المقرب إلى الموعود ولا الإحياء الموصل إلى المقصود (لِّكُلِّ أُمَّةٍ) أهل دين (جَعَلْنَا مَنسَكًا) مر بيانه وهو رد لقول من يقول إن الذبح ليس بشريعة الله إذ هو شريعة كل أمة (هُمْ نَاسِكُوهُ) عاملون به (فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ) فلا يجادلنك والمعنى فلا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك (فِى الْأَمْرِ) أمر الذبائح أو الدين. نزلت حين قال المشركون للمسلمين: مالكم تأكلون ماقتلتم ولا تأكلون ما قتله الله يعنى الميتة (وَادْعُ) الناس (إِلَىٰ رَبِّكَ) إلى عبادة ربك (إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ) طريق قويم ولم يذكر الواو فى لكل أمة بخلاف ما تقدم لأن تلك وقعت مع مايناسبها من الآى الواردة فى أمر النسائك فعطفت على أخواتها وهذه وقعت مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا (وَإِن جَٰدَلُوكَ) مراء وتعنتا كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال (فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى فلا تجادلهم وادفعهم بهذا القول والمعنى أن الله أعلم بأعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين وتأديب يجاب به كل متعنت (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين أى يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة لرسول الله ﷺ مما كان يلقى منهم (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ) أى كيف يخفى عليه ماتعملون ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل مايحدث فى السماوات والأرض (إِنَّ ذَٰلِكَ) الموجود فيهما (فِى كِتَٰبٍ) فى اللوح المحفوظ (إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) أى علمه بجميع ذلك عليه يسير ثم أشار إلى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها بقوله (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ) ينزل مكى وبصرى (سُلْطَٰنًا) حجة وبرهانا (وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ) أى لم يتمسكوا فى عبادتهم لها ببرهان سماوى من جهة الوحى ولا حملهم عليها دليل عقلى (وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ) يعنى القرآن (تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنكَرَ) الإنكار بالعبوس والكراهة والمنكر مصدر (يَكَادُونَ يَسْطُونَ) يبطشون والسطو الوثب والبطش (بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا) هم النبي ﷺ وأصحابه (قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ) من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم أومما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ماتلى عليكم (ٱلنَّارُ) خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا قال ماهو فقيل النار أى هو النار (وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا) استئناف كلام (وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ) النار ولما كانت دعواهم بأن لله تعالى شريكاجارية فى الغرابةوالشهرة مجرى الأمثال السيرةقال الله تعالى (يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ) بين (مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ) لضرب هذاالمثل (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ) يدعون سهل ويعقوب (مِن دُونِ ٱللَّهِ) آلهة باطلة (لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا) لن تأكيد نفى المستقبل وتأكيده هناللدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل كأنه قال محال أن يخلقوا وتخصيص الذباب لمهانته وضعفه واستقذاره وسمى ذبابا لأنه كلماذب لاستقذاره آب لاستكباره (وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ) لخلق الذباب ومحله النصب على الحال كأنه قيل مستحيل منهم أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزل فى تجهيل قريش حيث وصفوا بالإلهية التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله ولو اجتمعوا لذلك (وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا) شيئا ثانى مفعولى يسلبهم (لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ) أى هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورءوسها بالعسل فإذاسلبه الذباب عجز الأصنام عن أخذه (ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ) أى الصنم بطلب ما سلب منه (وَٱلْمَطْلُوبُ) الذباب بما سلب وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف فإن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب (مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ) ما عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكا له (إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) أى إن الله قادر وغالب فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيها به أو لقوى بنصر أوليائه عزيز ينتقم من أعدائه (ٱللَّهُ يَصْطَفِى) يختار (مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا) كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم (وَمِنَ ٱلنَّاسِ) رسلا كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد

وغيرهم عليهم السلام هذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر وبيان أن رسل الله على ضربين ملك وبشر وقيل نزلت حين قالوا أأنزل عليه الذكر من بيننا (إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ) لقولهم (بَصِيرٌ) بمن يختاره لرسالته أو سميع لأقوال الرسل فيما تقبله العقول بصير بأحوال الأمم فى الرد والقبول (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) مامضى (وَمَا خَلْفَهُمْ) مالم يأت أو ما عملوه وما سيعملوه أو أمر الدنيا وأمر الآخرة (وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أى إليه مرجع الأمور كلها والذى هو بهذه الصفات لايسئل عما يفعل وليس لأحد أن يعترض عليه فى حكمه وتدابيره واختيار رسله ترجع شامى وحمزة وعلى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا) فى صلاتكم وكان أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة (وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ) واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله لا الصنم (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ) قيل لما كان للذكر مزية على غيره من الطاعات دعا المؤمنين أولا إلى الصلاة التى هى ذكر خالص لقوله تعالى وأقم الصلاة لذكرى ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج وغيرهما ثم عم بالحث على سائر الخيرات وقيل أريد به صلة الأرحام ومكارم الأخلاق (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أى كى تفوزوا أو افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم (وَجَاهِدُوا) أمر بالغزو أو مجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر أو هو كلمة حق عند أمير جائر (فِي اللهِ) أى فى ذات الله ومن أجله (حَقَّ جِهَادِهِ) وهو أن لايخاف فى الله لومة لائم يقال هو حق عالم وجد عالم أى عالم حقا وجدا ومنه حق جهاده وكان القياس حق الجهاد فيه او حق جهادكم فيه لكن الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت اضافته إليه ويجوز أن يتسع فى الظرف كقوله * ويوم شهدناه سليما وعامرا * (هُوَ اجْتَبَاكُمْ) اختاركم لدينه ونصرته (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)ضيق بل رخص لكم فى جميع ما كلفكم من الطهارة والصلاة والصوم والحج بالتيمم وبالإيماء وبالقصر والإفطار لعذر السفر والمرض وعدم الزاد والراحلة (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) أى اتبعوا ملة أبيكم أو نصب على الاختصاص أى أعنى بالدين ملة أبيكم وسماه أبا وإن لم يكن أبا للأمة كلها لأنه أبو رسول الله ﷺ فكان أبا لأمته لأن

أمة الرسول فى حكم أولاده قال عليه السلام «إنما أنا لكم مثل الوالد» (هُوَ سَمَّـٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ) أى الله بدليل قراءة أبىّ: الله سماكم المسلمين (مِن قَبْلُ) فى الكتب المتقدمة (وَفِى هَـٰذَا) أى فى القرآن أى فضلكم على سائر الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم (لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ) أنه قد بلغكم رسالة ربكم (وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ) بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة (فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ) بواجباتها (وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ) بشرائطها (وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ) وثقوا بالله وتوكلوا عليه لا بالصلاة والزكاة (هُوَ مَوْلَـٰكُمْ) أى مالكم وناصركم ومتولى أموركم (فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ) حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم (وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ) أى الناصر هو حيث أعانكم على طاعتكم وقد أفلح من هو مولاه وناصره والله الموفق للصواب .

﴿ سورة المؤمنون مكية وهى مائة وثمان عشرة آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ) قد نقيضة لما هى تثبت المتوقع ولما تنفيه وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة وهى الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ماتوقعوه والفلاح الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب أى فازوا بما طلبوا ونجوا مما هربوا والإيمان فى اللغة التصديق والمؤمن المصدق لغة وفى الشرع كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن قال عليه السلام «خلق الله الجنة فقال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون ثلاثا أنا حرام على كل بخيل مراء» لأنه بالرياء أبطل العبادات البدنية وليس له عبادة مالية (ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ) خائفون بالقلب ساكنون بالجوارح وقيل الخشوع فى الصلاة جمع الهمة لها والإعراض عما سواها وأن لايجاوز بصره مصلاه وأن لا يلتفت ولا يعبث ولا يسدل ولا يفرقع أصابعه ولا يقلب الحصى ونحو ذلك وعن أبى الدرداء هو إخلاص المقال وإعظام المقام واليقين التام وجمع الاهتمام. وأضيفت الصلاة إلى المصلين لا إلى المصلى له لانتفاع المصلى بها

وحده وهى عدته وذخيرته وأما المصلى له فغنى عنها (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) اللغو كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والشتم والهزل يعنى أن لهم من الجد ماشغلهم عن الهزل ولما وصفهم بالخشوع فى الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ) مؤدون ولفظ فاعلون يدل على المداومة بخلاف مؤدون وقيل الزكاة اسم مشترك يطلق على العين وهو القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير وعلى المعنى وهو فعل المزكى الذى هو التزكية وهو المراد هنا فجعل المزكين فاعلين له لأن لفظ الفعل يعم جميع الأفعال كالضرب والقتل ونحوهما تقول للضارب والقاتل والمزكى فعل الضرب والقتل والتزكية ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء ودخل اللام لتقدم المفعول وضعف اسم الفاعل فى العمل فإنك تقول هـذا ضارب لزيد ولا تقول ضرب لزيد (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ) الفرج يشمل سوءة الرجل والمرأة (إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ) فى موضع الحال أى الا والين على أزواجهم أوقوامين عليهن من قولك كان زياد على البصرة أى واليا عليها والمعنى أنهم لفروجهم حافظون فى جميع الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم أو تعلق على بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون إلا على أزواجهم أى يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه وقال الفراء إلا من أزواجهم أى زوجاتهم (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ) أى امائهم ولم يقل من لأن المملوك جرى مجرى غير العقلاء ولهذا يباع كما تباع البهائم (فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) أى لالوم عليهم إن لم يحفظوا فروجهم عن نسائهم وإمائهم (فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ) طلب قضاء شهوة من غير هذين (فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) الكاملون فى العدوان وفيه دليل تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لإرادة الشهوة (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ) لأمانتهم مكى وسهل سمى الشىء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإنما تؤدى العيون لا المعانى والمراد به العموم فى كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله عز وجل ومن جهة الخلق (رَٰعُونَ) حافظون والراعى القائم على الشىء بحفظ وإصلاح كراعى الغنم (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ) صلاتهم كوفى غير أبى بكر (يُحَافِظُونَ) يداومون فى أوقاتها وإعادة ذكر الصلاة لأنها أهم ولأن الخشوع

فيها غير المحافظة عليها أو لأنها وحدت أولا ليفاد الخشوع فى جنس الصلاة أية صلاة كانت وجمعت آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل (أُوْلَـٰئِكَ) الجامعون لهذه الأوصاف (هُمُ الْوَارِثُونَ) الأحقاء بأن يسموا وراثاً دون من عداهم ثم ترجم الوارثون بقوله (الَّذِينَ يَرِثُونَ) من الكفار فى الحديث « مامنكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإن مات ودخل الجنة ورث أهل النار منزله وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله» (الْفِرْدَوْسَ) هو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر وقال قطرب هو أعلى الجنان (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أنث الفردوس بتأويل الجنة (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ) أى آدم (مِن سُلَالَةٍ) من للابتداء والسلالة الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر وقيل إنما سمى التراب الذى خلق آدم منه سلالة لأنه سل من كل تربة (مِّن طِينٍ) من للبيان كقوله من الأوثان (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ) أى نسله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه لأن آدم عليه السلام لم يصر نطفة وهو كقوله وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وقيل الإنسان بنو آدم والسلالة النطفة والعرب تسمى النطفة سلالة أى ولقد خلقنا الإنسان من سلالة يعنى من نطفة مسلولة من طين أى من مخلوق من طين وهو آدم عليه السلام (نُطْفَةً) ماء قليلا (فِي قَرَارٍ) مستقر يعنى الرحم (مَّكِينٍ) حصين (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ) أى صيرناها بدلالة تعديه إلى مفعولين والخلق يتعدى إلى مفعول واحد (عَلَقَةً) قطعة دم والمنى أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) لحما قدر مايمضغ (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا) فصيرناها عظاما (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا) فأنبتنا عليها اللحم فصار لها كاللباس عظماً العظم شامى وأبو بكر عظماً العظام زيد عن يعقوب عظاما العظم عن أبى زيد وضع الواحد موضع الجمع لعدم اللبس إذ الإنسان ذو عظام كثيرة (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ) الضمير يعود إلى الإنسان أو إلى المذكور (خَلْقًا آخَرَ) أى خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث جعله حيواناً وكان جماداً وناطقاً وسميعاً وبصيراً وكان بضد هذه الصفات ولهذا قلنا إذا غصب بيضة فأفرخت عنده يضمن البيضة ولايرد الفرخ لأنه خلق آخر سوى البيضة (فَتَبَارَكَ اللَّهُ) فتعالى أمره فى قدرته وعلمه (أَحْسَنُ) بدل أو خبر مبتدأ محذوف وليس بصفة لأنه نكرة وإن أضيف لأن المضاف إليه عوض من من (الْخَالِقِينَ) المقدرين

أى أحسن المقدرين تقديراً فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وقيل إن عبد الله بن سعد ابن أبي سرح كان يكتب للنبي عليه السلام فنطق بذلك قبل إملائه فقال له رسول الله ﷺ «اكتب هكذا نزلت» فقال عبدالله إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلي فارتد ولحق بمكة ثم أسلم يوم الفتح وقيل هذه الحكاية غير صحيحة لأن ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة مكية وقيل القائل عمر أو معاذ رضي الله عنهما (ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ) بعد ما ذكرنا من أمركم (لَمَيِّتُونَ) عند انقضاء آجالكم (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) تحيون للجزاء (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) جمع طريقة وهي السموات لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) أراد بالخلق السموات كأنه قال خلقناها فوقكم وما كنا غافلين عن حفظها أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها وما كان غافلا عنهم وعما يصلحهم (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) مطراً (بِقَدَرٍ) بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة أو بمقدار ما علمنا من حاجاتهم (فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ) كقوله فسلكه ينابيع فى الأرض وقيل جعلناه ثابتا فى الأرض فماء الأرض كله من السماء ثم استأدى شكرهم بقوله (وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) أى كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه فقيدوا هذه النعمة بالشكر (فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ) بالماء (جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا) فى الجنات (فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ) سوى النخيل والأعناب (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) أى من الجنات أى من ثمارها ويجوز أن هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يغتلها أى أنها طعمته وجهته التى منها يحصل رزقه كأنه قال وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترزقون وتتعيشون (وَشَجَرَةً) عطف على جنات وهي شجرة الزيتون (تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ) طور سيناء وطور سينين لا يخلو إما أن يضاف الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون وإما أن يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرىء القيس وهو جبل فلسطين وسيناء غير منصرف بكل حال مكسور السين كقراءة الحجازى وأبى عمرو للتعريف والعجمة أو مفتوحها كقراءة غيرهم لأن الألف للتأنيث كصحراء (تَنبُتُ بِالدُّهْنِ) قال الزجاج الباء للحال أى تنبت ومعها الدهن تُنبت مكى وأبو عمرو إما لأن أنبت بمعنى نبت كقوله حتى إذا أنبت البقل أو لأن مفعوله محذوف أى تنبت زيتونها

وفيه الدهن (وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ) أى إدام لهم قال مقاتل جعل الله تعالى فى هذه إداما ودهنا فالإدام الزيتون والدهن الزيت وقيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وخص هذه الأنواع الثلاثة لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ) جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم (لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم) وبفتح النون شامى ونافع وأبو بكر وسقى وأسقى لغتان (مِّمَّا فِي بُطُونِهَا) أى نخرج لكم من بطونها لبنا سائغا (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ) سوى الألبان وهى منافع الأصواف والأوبار والأشعار (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) أى لحومها (وَعَلَيْهَا) وعلى الأنعام فى البر (وَعَلَى الْفُلْكِ) فى البحر (تُحْمَلُونَ) فى أسفاركم وهذا يشير إلى أن المراد بالأنعام الإبل لأنها هى المحمول عليها فى العادة فلذا قرنها بالفلك التى هى السفائن لأنها سفائن البر قال ذوا الرمة * سفينة بر تحت خدى زمامها * يريد ناقته (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ) وحدوه (مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ) معبود (غَيْرُهُ) بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ والجملة استئناف تجرى مجرى التعليل للأمر بالعبادة (أَفَلَا تَتَّقُونَ) أفلا تخافون عقوبة الله الذى هو ربكم وخالقكم إذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة فى شىء (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ) أى أشرافهم لعوامهم (مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) يأكل ويشرب (يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) أى يطلب الفضل عليكم ويترأس (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ) إرسال رسول (لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً) لأرسل ملائكة (مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا) أى بإرسال بشر رسولا أو بما يأمرنا به من التوحيد وسب آلهتنا والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر (فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ) جنون (فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ) فانتظروا واصبروا عليه إلى زمان حتى ينجلى أمره فإن أفاق من جنونه وإلا اقتلتموه (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ) فلما أيس من إيمانهم دعا الله بالانتقام منهم والمعنى أهلكهم بسبب تكذيبهم إياى إذ فى نصرته إهلاكهم أو انصرنى بدل ما كذبون كقولك هذا بذاك أى بدل ذاك والمعنى أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ) أى أجبنا دعاءه فأوحينا إليه (أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا) أى تصنعه وأنت واثق بحفظ الله لك ورؤيته إياك أو بحفظنا وكلاءتنا كأن معك من الله حفاظا يكلئونك بعيونهم لئلا يتعرض لك ولا يفسد عليك مفسد عملك ومنه قولهم

عليه من الله عين كالئة (وَوَحْيِنَا) أمرنا وتعليمنا اياك صنعتها روى أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر (فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا) أى عذابنا بأمرنا (وَفَارَ التَّنُّورُ) أى فار الماء من تنـور الخبز أى أخرج سبب الغرق من موضع الحرق ليكون أبلغ فى الانذار والاعتبار روى أنه قيل لنوح إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وكان تنور آدم فصار إلى نوح وكان من حجارة واختلف فى مكانه فقيل فى مسجد الكوفة وقيل بالشام وقيل بالهند (فَاسْلُكْ فِيهَا) فأدخل فى السفينة (مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ) من كل أمتي زوجين وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرماك (اثْنَيْنِ) واحدين مزدوجين كالجمل والناقة والحصان والرمكة روى أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض من كل حفص والمفضل أى من كل أمة زوجين اثنين واثنين تأكيد وزيادة بيان (وَأَهْلَكَ) ونساءك وأولادك (إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) من الله بإهلاكه وهو ابنه وإحدى زوجتيه فجيء بعلى مع سبق الضار كما جيء باللام مع سبق النافع فى قوله ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ونحوها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت (مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) ولاتسألنى نجاة الذين كفروا فإنى أغرقهم (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ) فإذا تمكنتم عليها راكبين (فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم ولم يقل فقولوا وإن كان فإذا استويت أنت ومن معك فى معنى إذا استويتم لأنه نبيهم وإمامهم فكان قوله قولهم مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة (وَقُل) حين ركبت على السفينة أو حين خرجت منها (رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا) أى إنزالا أو موضع إنزال منزلا أبو بكر أى مكانا (مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) والبركة فى السفينة النجاة فيها وبعد الخروج منها كثرة النسل وتتابع الخيرات (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) فيما فعل بنوح وقومه (لَآيَاتٍ) لعبرا ومواعظ (وَإِن) هى المخففة من المثقلة واللام هى الفارقة بين النافية وبينها والمعنى وإن الشأن والقصة (كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر كقوله تعالى ولقد تركناها آية فهل من مدكر (ثُمَّ أَنشَأْنَا) خلقنا (مِن بَعْدِهِمْ) من بعد

قوم نوح (قَرْنًا ءاخَرِينَ) هم عاد قوم هود ويشهد له قول هود واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح فى الأعراف وهود والشعراء (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ) الإرسال يعدى بإلى ولم يعد بفى هنا وفى قوله كذلك أرسلناك فى أمة وما أرسلنا فى قرية ولكن الأمة والقرية جعلت موضعا للإرسال كقول رؤبة :

* أرسلت فيها مصعبا ذا إقحام * (رَسُولًا) هو هود (مِّنْهُمْ) من قومهم (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) أن مفسرة لأرسلنا أى قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله (وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ) ذكر مقالة قوم هود فى جوابه فى الأعراف وهود بغير واو لأنه على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه فقيل له قالوا كيت وكيت وههنا مع الواو لأنه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول ومعناه أنه اجتمع فى الحصول هذا الحق وهذا الباطل وليس بجواب للنبى ﷺ متصل بكلامه ولم يكن بالفاء وجيء بالفاء فى قصة نوح لأنه جواب لقوله واقع عقيبه (الَّذِينَ كَفَرُوا) صفة للملأ أو لقومه (وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ) أى بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك (وَأَتْرَفْنَاهُمْ) ونعمناهم (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) بكثرة الأموال والأولاد (مَا هَٰذَا) أى النبى (إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) أى منه فحذف لدلالة ما قبله عليه أى من أين يدعى رسالة الله من بينكم وهو مثلكم (وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ) فيما يأمركم به وينهاكم عنه (إِنَّكُمْ إِذًا) واقع فى جزاء الشرط وجواب للذين قاولوهم من قومهم (لَّخَاسِرُونَ) بالانقياد لمثلكم ومن حمقهم أنهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ) بالكسر نافع وحمزة وعلى وحفص وغيرهم بالضم (وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ) مبعوثون للسؤال والحساب والثواب والعقاب وثنى أنكم للتأكيد وحسن ذلك للفصل بين الأول والثانى بالظرف ومخرجون خبر عن الأول والتقدير أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم وكنتم ترابا وعظاما (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ) وبكسر التاء يزيد وروى عنه بالكسر والتنوين فيهما والكسائى يقف بالهاء وغيره بالتاء وهو اسم للفعل واقع موقع بعد فاعلها مضمر أى بعد التصديق أو الوقوع (لِمَا تُوعَدُونَ) من العذاب أو فاعلها ما توعدون واللام زائدة أى بعد ما توعدون من البعث (إِنْ هِيَ) هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله إن الحياة (إِلَّا حَيَاتُنَا

الدُّنْيَا) ثم وضع هي موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها ويبينها والمعنى لاحياة إلا هذه الحياة التى نحن فيها ودنت منا وهذا لأن إن النافية دخلت على هى التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى لنفى الجنس (نَمُوتُ وَنَحْيَا) أى يموت بعض ويولد بعض ينقرض قرن فيأتى قرن آخر أو فيه تقديم وتأخير أى نحيا ونموت وهو قراءة أبى وابن مسعود رضى الله عنهما (وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) بعد الموت (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) أى ماهو إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه وفيما يعدنا من البعث (وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) بمصدقين (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ) فأجاب الله دعاء الرسول بقوله (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ) قليل صفة للزمان كقديم وحديث فى قولك مارأيته قديما ولا حديثا وفى معناه عن قريب وما زائدة أو بمعنى شىء أو زمن وقليل بدل منها وجواب القسم المحذوف (لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) إذا عاينوا مايحل بهم (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ) أى صيحة جبريل صاح عليهم فدمرهم (بِالْحَقِّ) بالعدل من الله يقال فلان يقضى بالحق أى بالعدل (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً) شبههم فى دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان (فَبُعْدًا) فهلاكا يقال بعد بعدا أو بعدا أى هلك وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها (لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) بيان لمن دعى عليه بالبعد نحو هيت لك (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ) قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ) من صلة أى ماتسبق أمة (أَجَلَهَا) المكتوب لها والوقت الذى حد لهلاكها وكتب (وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) لا يتأخرون عنه (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا) فعلى والألف للتأنيث كسكرى لأن الرسل جماعة ولذا لاينون لأنه غير منصرف. تترى بالتنوين مكى وأبو عمرو ويزيد على أن الألف للإلحاق كأرطى وهو نصب على الحال فى القراءتين أى متتابعين واحدا بعد واحد وتاؤها فيهما بدل من الواو والأصل وترى من الوتر وهو الفرد فقلبت الواو تاء كتراث (كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ) الرسول يلابس المرسل والمرسل إليه والإضافة تكون بالملابسة فتصح إضافته إليهما (فَأَتْبَعْنَا) الأمم والقرون (بَعْضَهُم بَعْضًا) فى الهلاك (وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) أخبارا يسمع بها ويتعجب منها والأحاديث تكون اسم جمع للحديث ومنه أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام وتكون جمعا للأحدوثة وهو مايتحدث به الناس

تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا (فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ) بدل من أخاه (بِآيَاتِنَا) التسع (وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) وحجة ظاهرة (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا) امتنعوا عن قبول الإيمان ترفعا وتكبرا (وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) متكبرين مترفعين (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا) البشر يكون واحدا وجمعا ومثل وغير يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث (وَقَوْمُهُمَا) أى بنوإسرائيل (لَنَا عَابِدُونَ) خاضعون مطيعون وكل من دان للملك فهو عابد له عند العرب (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) بالغرق (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ) أى قوم موسى (الْكِتَابَ) التوراة (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) يعملون بشرائعها ومواعظها (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) تدل على قدرتنا على مانشاء لأنه خلق من غير نطفةوحد. لأن الأعجوبة فيهما واحدة أوالمراد وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها (وَآوَيْنَاهُمَا) جعلنا مأواهما أى منزلها (إِلَىٰ رَبْوَةٍ) شامى وعاصم رُبوة غيرهما أى أرض مرتفعة وهى بيت المقدس أو دمشق أو الرملة أو مصر (ذَاتِ قَرَارٍ) مستقر من أرض مستوية منبسطة أوذات ثمار وماء يعنى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها (وَمَعِينٍ) وماء ظاهر جار على وجه الأرض وهو مفعول أى مدرك بالعين بظهوره من عانه إذا أدركه بعينه أوفعيل لأنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما لأنهم أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول فى زمانه نودى بذلك ووصى به ليعتقد السامع أن أمرا نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه أو هو خطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام لفضله وقيامه مقام الكل فى زمانه وكان يأكل من الغنائم أولعيسى عليه السلام لاتصال الآية بذكره وكان يأكل من غزل أمه وهو أطيب الطيبات والمراد بالطيبات ما حل والأمر للتكليف أو ما يستطاب ويستلذ والأمر للترفية والإباحة (وَاعْمَلُوا صَالِحًا) موافقا للشريعة (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) فأجازيكم على أعمالكم (وَإِنَّ هَٰذِهِ) كوفى على الاستئناف وأن حجازى وبصرى بمعنى ولأن أى فاتقون لأن هذه. أومعطوف على ماقبله أى بما تعملون عليم وبأن هذه. أو تقديره واعلموا أن هذه (أُمَّتُكُمْ) أى ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها

(أُمَّةً وَاحِدَةً) ملة واحدة وهى شريعة الاسلام وانتصاب أمة على الحال والمعنى وإن الدين دين واحد وهو الاسلام ومثله إن الدين عند الله الاسلام (وَأَنَا رَبُّكُمْ) وحدى (فَاتَّقُونِ) فخافوا عقابى فى مخالفتكم أمرى (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ) تقطع بمعنى قطع أى قطعوا أمر دينهم (زُبُرًا) جمع زبور أى كتبا مختلفة يعنى جعلوا دينهم أديانا وقيل تفرقوا فى دينهم فرقا كل فرقة تنتحل كتابا وعن الحسن قطعوا كتاب الله قطعا وحرفوه وقرئ زبرا جمع زبرة أى قطعا (كُلُّ حِزْبٍ) كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم (بِمَا لَدَيْهِمْ) من الكتاب والدين أو من الهوى والرأى (فَرِحُونَ) مسرورون معتقدون أنهم على الحق (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ) جهالتهم وغفلتهم (حَتَّىٰ حِينٍ) أى إلى أن يقتلوا أو يموتوا (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ) ما بمعنى الذى وخبر أن (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ) والعائد من خبر أن إلى اسمها محذوف أى نسارع لهم به والمعنى أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجا لهم إلى المعاصى وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات ومعاجلة بالثواب جزاء على حسن صنيعهم وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسألة الأصلح لأنهم يقولون إن الله لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصلح له فى الدين وقد أخبر أن ذلك ليس بخير لهم فى الدين ولا أصلح (بَل لَّا يَشْعُرُونَ) بل استدراك لقوله أيحسبون أى أنهم أشباه البهائم لا شعور لهم حتى يتأملوا فى ذلك أنه استدراج أو مسارعة فى الخير ثم بين ذكر أوليائه فقال (إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) أى خائفون (وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) أى بكتب الله كلها لا يفرقون بين كتبه كالذين تقطعوا أمرهم بينهم وهم أهل الكتاب (وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) كمشركى العرب (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا) أى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقرئ يأتون ما أتوا بالقصر أى يفعلون ما فعلوا (وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) خائفة أن لا تقبل منهم لتقصيرهم (أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) الجمهور على أن التقدير لأنهم وخبر إن الذين (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) يرغبون فى الطاعات فيبادرونها (وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) أى لأجل الخيرات سابقون إلى الجنات أو لأجلها سبقوا الناس (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) أى طاقتها يعنى أن الذى وصف به الصالحون غير خارج عن حد الوسع والطاقة وكذلك كل ما كلفه عباده وهو رد على من

جواز تكليف مالا يطاق (وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ) أي اللوح أوصحيفة الأعمال (يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) لا يقرءون منه يوم القيامة إلا ماهو صدق وعدل لازيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد بزيادة عقاب أو نقصان ثواب أو بتكليف مالا وسع له به (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا) بل قلوب الكفرة فى غفلة غامرة لها مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين (وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ) أى ولهم أعمال خبيثة متجاوزة متخطية لذلك أى لما وصف به المؤمنون (هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ) وعليها مقيمون لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم) متنعميهم (بِالْعَذَابِ) عذاب الدنيا وهو القحط سبع سنين حين دعا عليهم النبي عليه الصلاة والسلام أوقتلهم يوم بدر وحتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية (إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ) يصرخون استغاثة والجؤار الصراخ باستغاثة فيقال لهم (لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ) فإن الجؤار غير نافع لكم (إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ) أى من جهتنا لايلحقكم نصرأومعونة (قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) أى القرآن (فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ) ترجعون القهقرى والنكوص أن يرجع القهقرى وهو أقبح مشية لأنه لا يرى ماوراءه (مُسْتَكْبِرِينَ) متكبرين على المسلمين حال من تنكصون (بِهِۦ) بالبيت أو بالحرم لأنهم يقولون لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم والذى سوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت أوبآياتى لأنها فى معنى كتابى ومعنى استكبارهم بالقرآن تكذيبهم به استكبارا. ضمن مستكبرين معنى مكذبين فعدى تعديته أويتعلق الباء بقوله (سَٰمِرًا) تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته شعرا وسحرا والسامر نحو الحاضر فى الاطلاق على الجمع وقرئ سمّارا. أو بقوله (تَهْجُرُونَ) وهو من الهجر الهذيان تهجرون. نافع من أهجر فى منطقه إذا أفحش (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) أفلم يتدبروا القرآن ليعلموا أنه الحق المبين فيصدقوا به وبمن جاء به (أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) بل أجاءهم مالم يأت آباءهم الأولين فلذلك أنكروه واستبدعوه (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ) محمدا بالصدق والأمانة ووفور العقل وصحة النسب وحسن الأخلاق

أى عرفوه بهذه الصفات (فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) بغيا وحسدا (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ) جنون وليس كذلك لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلا وأثقبهم ذهنا (بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ) الأبلج والصراط المستقيم وبما خالف شهواتهم وأهواءهم وهو التوحيد والإسلام ولم يجدوا له مردا ولا مدفعا فلذلك نسبوه إلى الجنون (وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ) وفيه دليل على أن أقلهم ما كان كارها للحق بل كان تاركا للإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه كأبى طالب (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ) أى الله (أَهْوَآءَهُمْ) فيما يعتقدون من الآلهة (لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ) كما قال لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (وَمَن فِيهِنَّ) خص العقلاء بالذكر لأن غيرهم تبع (بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ) بالكتاب الذى هو ذكرهم أى وعظهم أو شرفهم لأن الرسول منهم والقرآن بلغتهم أو بالذكر الذى كانوا يتمنونه ويقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين الآية (فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ) بسوء اختيارهم (أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ) حجازى وبصرى وعاصم، خرجا فخرج شامى، خراجا فخراج على حمزة، وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك وإلى كل عامل من أجرته وجعله والخرج أخص من الخراج تقول خراج القرية وخرج الكوفة فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذا حسنت القراءة الأولى يعنى أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق الكثير من الخالق خير (وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ) أفضل المعطين (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) وهو دين الإسلام فحقيق أن يستجيبوا لك (وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ) لعادلون عن هذا الصراط المذكور وهو الصراط المستقيم (وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ) لما أخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال «بلى» فقال قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت الآية، والمعنى لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو القحط الذى أصابهم برحمته لهم ووجدوا الخصب (لَّلَجُّوا) أى لتمادوا (فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ) يترددون يعنى لعادوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ﷺ والمؤمنين ولذهب عنهم هذا التملق بين

بديه (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) استشهد على ذلك بأنا أخذناهم أولا بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت بعد ذلك منهم استكانة أى خضوع ولا تضرع وقوله ومايتضرعون عبارة عن دوام حالهم أى وهم على ذلك بعد ولذا لم يقل وما تضرعوا ووزن استكان استفعل من الكون أى انتقل من كون إلى كون كما قيل استحال إذا انتقل من حال إلى حال (حَتَّىٰ إِذَآ فَتَحْنَا) فتحنا يزيد (عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ) أى باب الجوع الذى هو أشد من الأسر والقتل (إِذَاهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) متحيرون آيسون من كل خير وجاء أعتاهم وأشدهم شكيمة فى العناد ليستعطفك أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤى فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) خصهما بالذكر لأنها يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) أى تشكرون شكرا قليلا وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقا والمعنى إنكم لم تعرفوا عظم هذه النعم ووضعتموها غير مواضعها فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم فى آيات الله وأفعاله ولم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولم تشكروا له شيئا (وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ) خلقكم وبثكم بالتناسل (فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم (وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ) أى يحيى النسم بالإنشاء ويميتها بالإفناء (وَلَهُ اخْتِلَافُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أى مجىء أحدهما عقيب الآخر واختلافهما فى الظلمة والنور أو فى الزيادة والنقصان وهو مختص به ولا يقدر على تصريفهما غيره (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فتعرفوا قدرتنا على البعث أو فتستدلوا بالصنع على الصانع فتؤمنوا (بَلْ قَالُوا) أى أهل مكة (مِثْلَ مَاقَالَ الْأَوَّلُونَ) أى الكفار قبلهم ثم بين ما قالوا بقوله (قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) متنا نافع وحمزة وعلى وحفص (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا) أى البعث (مِن قَبْلُ) مجىء محمد (إِنْ هَٰذَا إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ) جمع أسطار جمع سطر وهى ما كتبه الأولون مما لاحقيقة له وجمع أسطور أوفق ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بإقامة الحجة على المشركين بقوله (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ

تَعْلَمُونَ) فإنهم (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) لأنهم مقرون بأنه الخالق فإذا قالوا (قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها كان قادرا على إعادة الخلق وكان حقيقا بأن لايشرك به بعض خلقه فى الربوبية. أفلاتذ كرون بالتخفيف حمزة وعلى وحفص، وبالتشديد غيرهم (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) أفلا تخافونه فلا تشركوا به أو أفلا تتقون فى جحودكم قدرته على البعث مع اعترافكم بقدرته على خلق هذه الأشياء (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) الملكوت الملك والواو والتاء للمبالغة فتنبئ عن عظم الملك (وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أجرت فلانا على فلان إذا أغثته منه ومنعته يعنى وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولايغيث أحدمنه أحد، (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) تخدعون عن الحق أو عن توحيده وطاعته، والخادع هو الشيطان والهوى الأول لله بالإجماع إذ السؤال لمن وكذا الثانى والثالث عند غير أهل البصرة على المعنى لأنك إذا قلت من رب هذا فمعناه لمن هذا فيجاب لفلان كقول الشاعر :

إذا قيل من رب المزالف والقرى ... ورب الجياد الجرد قيل لخالد

أى لمن المزالف ومن قرأ بحذفه فعلى الظاهر لأنك إذا قلت من رب هذا فجوابه فلان (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ) بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فى قولهم اتخذ الله ولدا ودعائهم الشريك ثم أكد كذبهم بقوله (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ) لأنه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل من جنسه (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ) وليس معه شريك فى الألوهية (إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ) لانفرد كل واحد من الآلهة بالذى خلقه فاستبد به ولتميز ملك كل واحد منهم عن الآخر (وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) ولغلب بعضهم بعضا كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون وحين لم تروا أثرا لتمايز الممالك وللتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شىء، ولا يقال إذاً لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب وههنا وقع لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولاسؤال سائل لأن الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة لدلالة وما كان معه من إله عليه وهو جواب لمن حاجه من المشركين (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) من الأنداد والأولاد (عَالِمِ) بالجر صفة لله، وبالرفع مدنى وكوفى

غير حفص خبر مبتدأ محذوف (ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ) السر والعلانية (فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) من الأصنام وغيرها (قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ) ما والنون مؤكدان أى إن كان لابد من أن ترينى ما تعدهم من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ) أى فلا تجعلنى قرينا لهم ولا تعذبنى بعذابهم ، عن الحسن رضى الله عنه أخبره الله أن له فى أمته نقمة ولم يخبره متى وقتها فأمر أن يدعو هـذا الدعاء ويجوز أن يسأل النبى المعصوم ﷺ ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهارا للعبودية وتواضعا لربه، واستغفاره عليه الصلاة والسلام إذ قام من مجلسه سبعين مرة لذلك والفاء فى فلا لجواب الشرط ورب اعتراض بينهما للتأكيد (وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ) كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه فقيل لهم إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم فما وجه هذا الانكار (ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى) بالخصلة التى (هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ) هو أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كأنه قال ادفع بالحسنى السيئة والمعنى اصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الاحسان، وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى شهادة أن لا إله إلا الله والسيئة: الشرك أو الفحش بالسلام أو المنكر بالموعظة وقيل هى منسوخة بآية السيف وقيل محكمة إذ المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى ثلم دين (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) من الشرك أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم فنجازيهم عليه (وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ) من وساوسهم ونخساتهم، والهمزة: النخس ، والهمزات جمع الهمزة ومنه مهماز الرائض والمعنى أن الشياطين يحثون الناس على المعاصى كما تهمز الراضة الدواب حثا لها على المشى (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لندائه وبالتعوذ من أن يحضروه أصلا أو عند تلاوة القرآن أو عند النزع (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ) حتى تتعلق بيصفون أى لا يزالون يشركون إلى وقت مجىء الموت أو لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت وما بينهما مذكور على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان أن يستنزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم (قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ) أى ردونى إلى الدنيا خاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم كخطاب الملوك (لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) فى الموضع الذى تركت وهو الدنيا لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى، قال قتادة ما تمنى أن يرجع

إلى أهل ولا إلى عشيرة ولكن ليتدارك مافرط. لعلى ساكنة الياء كوفى وسهل ويعقوب (كَلَّآ) ردع عن طلب الرجعة وإنكار واستبعاد (إِنَّهَا كَلِمَةٌ) المراد بالكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض وهو قوله: رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت (هُوَ قَآئِلُهَا) لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه (وَمِن وَرَآئِهِمْ) أى أمامهم والضمير للجماعة (بَرْزَخٌ) حائل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا (إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) لم يرد أنهم يرجعون يوم البعث وإنما هو إقناط كلى لما علم أن لارجوع بعد البعث إلا إلى الآخرة (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ) قيل إنها النفخة الثانية (فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ) وبالإدغام أبو عمرو لاجتماع المثلين وإن كانا من كلمتين يعنى يقع التقاطع بينهم حيث يتفرقون مثابين ومعاقبين ولايكون التواصل بينهم بالأنساب إذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وإنما يكون بالأعمال (وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا لأن كلا مشغول عن سؤال صاحبه بحاله ولاتناقض بين هذا وبين قوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فللقيامة مواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون فيتساءلون (فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ) جمع موزون وهى الموزونات من الأعمال الصالحة التى لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله: فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ) بالسيئات والمراد الكفار (فَأُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ) غبنوها (فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ) بدل من خسروا أنفسهم ولامحل للبدل والمبدل منه لأن الصلة لامحل لها أو خبر بعد خبر لأولئك أو خبر مبتدأ محذوف (تَلْفَحُ) أى تحرق (وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ) عابسون فيقال لهم (أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي) أى القرآن (تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) فى الدنيا (فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) وتزعمون أنها ليست من الله تعالى (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا) ملكتنا (شِقْوَتُنَا) شقاوتنا حمزة وعلى وكلاهما مصدر أى شقينا بأعمالنا السيئة التى عملناها وقول أهل التأويل غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لا يصح لأنه إنما يكتب مايفعل العبد وما يعلم أنه يختاره ولا يكتب غير الذى علم أنه يختاره فلا يكون مغلوبا ومضطرا فى الفعل وهذا لأنهم إنما يقولون ذلك القول

اعتذارا لما كان منهم من التفريط فى أمره فلا يجمل أن يطلبوا لأنفسهم عذرا فيما كان منهم (وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) عن الحق والصواب (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا) أى من النار (فَإِنْ عُدْنَا) إلى الكفر والتكذيب (فَإِنَّا ظَالِمُونَ) لأنفسنا (قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا) اسكتوا سكوت ذلة وهوان (وَلَا تُكَلِّمُونِ) فى رفع العذاب عنكم فإنه لا يرفع ولا يخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم ولا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير أن يحضرونى. ارجعونى ولا تكلمونى بالياء فى الوصل والوقف يعقوب وغيره بلا ياء (إِنَّهُ) إن الأمر والشأن (كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا) مفعول ثان وبالضم مدنى وحمزة وعلى وكلاهما مصدر سخر كالسخر إلا أن فى ياء النسبة مبالغة قيل هم الصحابة رضى الله عنهم وقيل أهل الصفة خاصة ومعناه اتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين (حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ) بتشاغلكم بهم على تلك الصفة (ذِكْرِي) فتركتموه أى كان التشاغل بهم سببا لنسيانكم ذكرى (وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ) استهزاء بهم (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا) بصبرهم (أَنَّهُمْ) أى لأنهم (هُمُ الْفَائِزُونَ) ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا أى جزيتهم اليوم فوزهم لأن جزى يتعدى إلى اثنين وجزاهم بما صبروا جنة. إنهم حمزة وعلى على الاستئناف أى إنهم هم الفائزون لا أنتم (قَالَ) أى الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة. قل مكى وحمزة وعلى أمر لما لك أن يسألهم (كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ) فى الدنيا (عَدَدَ سِنِينَ) أى كم عدد سنين لبثتم فكم نصب بلبثتم وعدد تمييز (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها لأن المتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر مامر عليه من أيام الدعة (فَسْأَلِ الْعَادِّينَ) أى الحساب أو الملائكة الذين يعدون أعمار العباد وأعمالهم فسل بلا همز مكى وعلى (قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) أى ما لبثتم إلا زمنا قليلا أو لبثا قليلا (لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) صدقهم الله تعالى فى تقالهم لسنى لبثهم فى الدنيا ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها. قل إن حمزة وعلى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) حال أى عابثين أو مفعول له أى للعبث (وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

وبفتح التاء وكسر الجيم حمزة وعلي ويعقوب وهو معطوف على أنما خلقناكم أو على عبثا أي للعبث ولنترككم غير مرجوعين بل خلقناكم للتكليف ثم للرجوع من دار التكليف إلى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء (فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ) عن أن يخلق عبثاً (ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ) الذي يحق له الملك لأن كل شيء منه وإليه أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ) وصف العرش بالكرم لأن الرحمة تنزل منه أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين وقرئ شاذا برفع الكريم صفة للرب تعالى (وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ) أي لا حجة (لَهُۥ بِهِۦ) اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من أحسن إلى زيد ـ لا أحق بالإحسان منه ـ فإن الله مثيبه أو صفة لازمة جيء بها للتوكيد كقولك يطير بجناحيه لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان (فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ) أي جزاؤه وهذا جزاء الشرط (عِندَ رَبِّهِۦٓ) أي فهو يجازيه لا محالة (إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ) جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون وخاتمتها إنه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم علمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله (وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ) ثم قال (وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ) لأن رحمته إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته .

﴿ سورة النور مدنية وهي ستون وأربع آيات ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سُورَةٌ) خبر مبتدأ محذوف أي هذه سورة (أَنزَلْنَٰهَا) صفة لها وقرأ طلحة سورة على زيدا ضربته أو على اتل سورة والسورة الجامعة لجمل آيات بفاتحة لها وخاتمة واشتقاقها من سور المدينة (وَفَرَضْنَٰهَا) أي فرضنا أحكامها التي فيها . وأصل الفرض القطع أي جعلناها مقطوعاً بها. وبالتشديد مكي وأبو عمرو للمبالغة في الإيجاب وتوكيده أو لأن فيها فرائض شتى أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم (وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ) أي دلائل واضحات (لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) لكي تتعظوا . وبتخفيف الذال حمزة وعلي وخلف وحفص ثم فصل أحكامها فقال (ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى) رفعهما على الابتداء والخبر محذوف أي فيما فرض عليكم الزانية والزاني أي جلدهما أو الخبر فاجلدوا ودخلت الفاء لكون الألف واللام

بمعنى الذى وتضمينه معنى الشرط وتقديره التى زنت والذى زنى فاجلدوهما كما تقول من زنى: فاجلدوه. وكقوله: والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم. وقرأ عيسى ابن عمر بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر (فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) الجلد ضرب الجلد وفيه إشارة إلى أنه لايبالغ ليصل الألم إلى اللحم والخطاب للأئمة لأن إقامة الحد من الدين وهى على الكل إلا أنهم لايمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم وهذا حكم حر ليس بمحصن إذ حكم المحصن الرجم وشرائط إحصان الرجم الحرية والعقل والبلوغ والإسلام والتزوج بنكاح صحيح والدخول وهذا دليل على أن التغريب غير مشروع لأن الفاء إنما يدخل على الجزاء وهو اسم للكافى والتغريب المروى منسوخ بالآية كما نسخ الحبس والأذى فى قوله فأمسكوهن فى البيوت وقوله فآذوهما بهذه الآية (وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ) أى رحمة والفتح لغة وهى قراءة مكى وقيل الرأفة فى دفع المكروه والرحمة فى إيصال المحبوب والمعنى أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا فى دين الله ولا يأخذهم اللين فى استيفاء حدوده فيعطلوا الحدود أو يخففوا الضرب (فِى دِينِ اللَّهِ) أى فى طاعة الله أو حكمه (إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ولدينه وجواب الشرط مضمر أى فاجلدوا ولا تعطلوا الحد (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا) وليحضر موضع حدهما وتسميته عذابا دليل على أنه عقوبة (طَآئِفَةٌ) فرقة يمكن أن تكون حلقة ليعتبروا وينزجر هو وأقلها ثلاثة أو أربعة وهى صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول شىء وعن ابن عباس رضى الله عنهما أربعة إلى أربعين رجلا (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) من المصدقين بالله (الزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) أى الخبيث الذى من شأنه الزنا لايرغب فى نكاح الصوالح من النساء وإنما يرغب فى خبيثة من شكله أوفى مشركة والخبيثة المسافحة كذلك لايرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين فالآية تزهيد فى نكاح البغايا إذ الزنا عديل الشرك فى القبح والإيمان قرين العفاف والتحصن وهو نظير قوله الخبيثات للخبيثين وقيل: كان نكاح الزانية محرما فى أول الإسلام ثم نسخ بقوله: وأنكحوا الأيامى منكم وقيل المراد بالنكاح الوطء لأن غير الزانى يستقذر الزانية ولا يشتهيها وهو صحيح

لـكنه يؤدى إلى قولك الزانى لايزنى إلا بزانية والزانية لا يزنى بها إلا زان وسـئل ﷺ عمن زنى بامرأة ثم تزوجها فقال «أوله سفاح وآخره نـكاح» ومعنى الجملة الأولى صفة الزانى بكونه غير راغب فى العفائف ولـكن فى الفواجر ومعنى الثانية صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للإعفاء ولـكن للزناة وهما معنيان مختلفان وقدمت الزانية على الزانى أولا ثم قدم عليها ثانيا لأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ماجنيا والمرأة هى المادة التى منها نشأت تلك الجناية لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمـكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا فى ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه الخاطب ومنه بدء الطلب وقرئ لا ينكح بالجزم على النهى وفى المرفوع أيضاً معنى النهى ولـكن أبلغ وآكد ويجوز أن يكون خبراً محضاً على معنى أن عادتهما جارية على ذلك وعلى المؤمن أن لايدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصون عنها (وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ) أى الزنا أو نـكاح البغايا لقصد التكسب بالزنا أو لما فيه من التشبيه بالفساق وحضور مواقع التهمة والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فـكيف بمزاوجة الزوانى والقحاب (وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ) وبكسر الصـاد على أى يقذفون بالزنا الحرائر والعفائف المسلمات المـكلفات والقذف يكون بالزنا وبغيره والمراد هنا قذفهن بالزنا بأن يقول يازانية لذكر المحصنات عقيب الزوانى ولاشتراط أربعة شهداء بقوله (ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ) أى ثم لم يأتوا بأربعة شهود يشهدون على الزنا لأن القذف بغير الزنا بأن يقول يافاسق يا آكل الربا يكفى فيه شاهدان وعليه التعزير وشروط إحصان القذف الحرية والعقل والبلوغ والإسلام والعفة عن الزنا والمحصن كالمحصنة فى وجوب حد القذف (فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً) إن كان القاذف حراً ونصب ثمانين نصب المصادر كما نصب مائة جلدة. وجلدة نصب على التميز (وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا) نـكر شهادة فى موضـع النفى فتعم كل شهادة ورد الشهادة من الحد عندنا ويتعلق باستيفاء الحد أو ببعضه على ماعرف وعند الشافعى رحمه الله تعـالى يتعلق رد شهادته بنفس القذف فعندنا جزاء الشرط الذى هو الرمى الجلد ورد الشهادة على التأبيد وهو مدة حياتهم (وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) كلام مستأنف غير داخل فى حيز جزاء الشرط كأنه حكاية حال الرامين عند الله تعالى بعد انقضاء الجملة الشرطية

وقوله (إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ) أى القذف (وَأَصْلَحُوا) أحوالهم استثناء من الفاسقون ويدل عليه (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى يغفر ذنوبهم ويرحمهم وحق الاستثناء أن يكون منصوباً عندنا لأنه عن موجب وعند من جعل الاستثناء متعلقاً بالجملة الثانية أن يكون مجروراً بدلا من هم فى لهم ولما ذكر حكم قذف الأجنبيات بين حكم قذف الزوجات فقال (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ) أى يقذفون زوجاتهم بالزنا (وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ) أى لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به (إِلَّآ أَنفُسُهُمْ) يرتفع على البدل من شهداء (فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ) بالرفع كوفى غير أبى بكر على أنه خبر والمبتدأ فشهادة أحدهم وغيرهم بالنصب لأنه فى حكم المصدر بالإضافة إلى المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو فشهادة أحدهم وعلى هذا خبره محذوف تقديره فواجب شهادة أحدهم أربع (شَهَٰدَٰتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّٰدِقِينَ) فيما رماها به الزنا (وَالْخَٰمِسَةُ) لاخلاف فى رفع الخامسة هنا فى المشهور والتقدير والشهادة الخامسة (أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ) فهى مبتدأ وخبر (إِن كَانَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ) فيما رماها به من الزنا (وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ) ويدفع عنها الحبس وفاعل يدرأ (أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِاللهِ إِنَّهُ) إن الزوج (لَمِنَ الْكَٰذِبِينَ) فيما رمانى به من الزنا (وَالْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ) أى الزوج (مِنَ الصَّٰدِقِينَ) فيما رمانى به من الزنا، ونصب حفص الخامسة عطفاً على أربع شهادات وغيره رفعها بالابتداء وأن غضب الله خبره وخفف نافع أن لعنة الله وأن غضب الله بكسر الضاد وهما فى حكم المثقلة وأن غضب الله سهل ويعقوب وحفص وجعل الغضب فى جانبها لأن النساء يستعملن اللعن كثيراً كما ورد به الحديث فربما يجترئن على الإقدام لكثرة جرى اللعن على ألسنتهن وسقوط وقوعه عن قلوبهن فذكر الغضب فى جانبهن ليكون رادعا لهن والأصل أن اللعان عندنا شهادات مؤكدات بالإيمان مقرونة باللعن قائمة مقام حد القذف فى حقه ومقام حد الزنا فى حقها لأن الله تعالى سماه شهادة فإذا قذف الزوج زوجته بالزنا وهما من أهل الشهادة صح اللعان بينهما وإذا التعنا كما بين فى النهر لا تقع الفرقة حتى يفرق القاضى بينهما، وعند زفر رحمه الله تعالى تقع بتلاعنهما والفرقة تطليقة بائنة وعند أبى يوسف وزفر والشافعى تحريم مؤبد ونزلت آية اللعان فى هلال بن أمية أو عويمر حيث قال وجدت على بطن امرأتى خولة شريك بن سحماء فكذبته فلاعن النبى ﷺ بينهما

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ) تفضله (عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) نعمته (وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) جواب لولامحذوف أى لفضحكم أولعاجلكم بالعقوبة (إِنَّ الَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ) هوأبلغ مايكون من الكذب والافتراء، وأصله الأفْكُ وهوالقلب لأنه قول مأفوك عن وجهه والمراد ماأفك به على عائشة رضى الله عنها قالت عائشة: فقدت عقدا فى غزوة بنى المصطلق فتخلفت ولم يعرف خلو الهودج لخفتى فلما ارتحلوا أناخ لى صفوان بن المعطل بعيره وساقه حتى أتاهم بعد مانزلوا فهلك فى من هلك فاعتللت شهرا وكان عليه الصلاة والسلام يسأل « كيف أنت» ولاأرى منه لطفا كنت أراه حتى عثرت خالة أبى أم مسطح فقالت تعس مسطح فأنكرت عليها فأخبرتنى بالإفك فلما سمعت ازددت مرضا وبت عند أبوى لايرقأ لى دمع وما أكتحل بنوم وهما يظنان أن الدمع فالق كبدى حتى قال عليه الصلاة والسلام «ابشرى ياحميراء فقد أنزل الله براءتك» فقلت بحمد الله لا بحمدك (عُصْبَةٌ) جماعة من العشرة إلى الأربعين واعصوصبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن أبى رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم (مِّنكُمْ) من جماعة المسلمين وهم ظنوا أن الإفك وقع من الكفار دون من كان من المؤمنين (لَا تَحْسَبُوهُ) أى الإفك (شَرًّا لَّكُم) عند الله (بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) لأن الله أثابكم عليه وأنزل فى البراءة منه ثمانى عشرة آية والخطاب لرسول الله ﷺ وأبى بكر وعائشة وصفوان ومن ساءه ذلك من المؤمنين (لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ) أى على كل امرىء من العصبة جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه وكان بعضهم ضحك وبعضهم تكلم فيه وبعضهم سكت (وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ) أى عظمه عبد الله بن أبى (مِنْهُمْ) أى من العصبة (لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) أى جهنم يحكى أن صفوان مر بهودجها عليه وهو فى ملأ من قومه فقال من هذه فقالوا عائشة فقال والله مانجت منه ولا نجا منها ثم وبخ الخائضين فقال (لَّوْلَا) هلا (إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) أى الافك (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ) بالذين منهم فالمؤمنون كنفس واحدة وهو كقوله ولا تلمزوا أنفسكم (خَيْرًا) عفافا وصلاحا وذلك نحومايروى أن عمر رضى الله عنه قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام: أناقاطع بكذب المنافقين لأن الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك لأنه يقع على النجاسات فيتلطخ بها فلما عصمك الله من ذلك القدر من القذر فكيف لا يعصمك عن صحبة من تكون متلطخة

بمثل هذه الفاحشة وقال عثمان: إن الله ما أوقع ظلك على الأرض لئلا يضع إنسان قدمه على ذلك الظل فلما لم يمكن أحدا من وضع القدم على ظلك كيف يمكن أحدا من تلويث عرض زوجتك وكذا قال على رضى الله عنه: إن جبريل أخبرك أن على نعليك قذرا وأمرك بإخراج النعل عن رجلك بسبب ما التصق به من القذر فكيف لا يأمرك بإخراجها بتقدير أن تكون متلطخة بشيء من الفواحش وروى أن أبا أيوب الأنصارى قال لامرأته ألا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوأ فقال لا قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله فعائشة خير منى وصفوان خير منك وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر ولم يقل ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم ليبالغ فى التوبيخ بطريق الالتفات وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن الاشتراك فيه يقتضى أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن وهذا من الأدب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بإخوانه (وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) كذب ظاهر لا يليق بهما (لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) هلا جاءوا على القذف لو كانوا صادقين بأربعة شهداء (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ) الأربعة (فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ) أى فى حكمه وشريعته (هُمُ الْكَاذِبُونَ) أى القاذفون لأن الله تعالى جعل التفصلة بين الرمى الصادق والكاذب ثبوت الشهادة الشهود الأربعة وانتفاؤها والذين رموا عائشة رضى الله عنها لم يكن لهم بينة على قولهم فكانوا كاذبين (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره بخلاف ما تقدم أى ولولا أنى قضيت أن أتفضل عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الإمهال للتوبة وأن أترحم عليكم فى الآخرة فى العفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك، يقال أفاض فى الحديث وخاض واندفع (إِذْ) ظرف لمسكم أو لأفضتم (تَلَقَّوْنَهُ) يأخذه بعضكم من بعض يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه (بِأَلْسِنَتِكُمْ) أى أن بعضكم كان يقول لبعض هل بلغك حديث عائشة حتى شاع فيما بينهم وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ) إنما قيد بالأفواه مع أن القول لا يكون إلا بالفم لأن

الشيء المعلوم يكون علمه فى القلب ثم يترجم عنه اللسان وهذا الإفك ليس إلا قولا يدور فى في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب كقوله يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم (وَتَحْسَبُونَهُ) أى خوضكم فى عائشة رضى الله عنها (هَيِّنًا) صغيرة (وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ) كبيرة. جزع بعضهم عند الموت فقيل له فى ذلك فقال أخاف ذنبا لم يكن منى على بال وهو عند الله عظيم (وَلَوْلَا) وهلا (إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا) فصل بين لولا وقلتم بالظرف لأن للظروف شأنا وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها فلذا يتسع فيها مالا يتسع فى غيرها وفائدة تقديم الظرف أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم قدم والمعنى هلا قلتم إذ سمعتم الإفك مايصح لنا أن نتكلم بهذا (سُبْحَانَكَ) للتعجب من عظم الأمر ومعنى التعجب فى كلمة التسبيح أن الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه أو لتنزيه الله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة وإنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة لأن النبى مبعوث إلى الكفار ليدعوهم فيجب أن لا يكون معه ماينفرهم عنه والكفر غير منفر عندهم وأما الكشخنة فمن أعظم المنفرات (هَٰذَا بُهْتَانٌ) زور يبهت من يسمع (عَظِيمٌ) وذكر فيما تقدم هذا إفك مبين ويجوز أن يكونوا أمروا بهما مبالغة فى التبرى (يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا) فى أن تعودوا (لِمِثْلِهِ) لمثل هذا الحديث من القذف أو استماع حديثه (أَبَدًا) مادمتم أحياء مكلفين (إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) فيه تهييج لهم ليتعظوا وتذكير بما يوجب ترك العود وهو الإيمان الصادّ عن كل قبيح (وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ) الدلالات الواضحات وأحكام الشرائع والآداب الجميلة (وَاللهُ عَلِيمٌ) بكم وبأعمالكم (حَكِيمٌ) يجزى على وفق أعمالكم أوعلم صدق نزاهتها وحكم ببراءتها (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا) أى ما قبح جدا والمعنى يشيعون الفاحشة عن قصد الإشاعة ومحبة لها (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا) بالحد ولقد ضرب النبى ﷺ ابن أبى وحسانا ومسطحا الحد (وَالْآخِرَةِ) بالنار وعدها إن لم يتوبوا (وَاللهُ يَعْلَمُ) بواطن الأمور وسرائر الصدور (وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أى أنه قدعلم محبة من أحب الإشاعة وهومعاقبه عليها (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) لعجل لكم العذاب

وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة فى المنة عليهم والتوبيخ لهم (وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ) حيث أظهر براءة المقذوف وأثاب (رَّحِيمٌ) بغفرانه جناية القاذف إذا ثاب (يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ) أى آثاره ووساوسه بالإصغاء إلى الافك والقول فيه (وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُ) فإن الشيطان (يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ) ما أفرط قبحه (وَٱلْمُنكَرِ) ماتنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا) ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الافك (وَلَٰكِنَّ ٱللهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ) يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها (وَٱللهُ سَمِيعٌ) لقولهم (عَلِيمٌ) بضمائرهم وإخلاصهم (وَلَا يَأْتَلِ) ولا يحلف من ائتلى إذا حلف افتعال من الألية أو لا يقصر من الألو (أُوْلُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ) فى الدين (وَٱلسَّعَةِ) فى الدنيا (أَن يُؤْتُوا) أى لا يؤتوا إن كان من الالية (أُولِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ) أى لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان أولا يقصروا فى أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) العفو الستر والصفح الاعراض أى وليتجاوزوا عن الجفاء وليعرضوا عن العقوبة (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَكُمْ) فليفعلوا بهم مايرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم (وَٱللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) فتأدبوا بأدب الله واغفروا وارحموا، نزلت فى شأن أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح ابن خالته لخوضه فى عائشة رضى الله عنها وكان مسكينا بدريا مهاجرا ولما قرأها النبى ﷺ على أبى بكر قال بلى أحب أن يغفر الله لى ورد إلى مسطح نفقته (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ) العفائف (ٱلْغَٰفِلَٰتِ) السليمات الصدور النقيات القلوب اللاتى ليس فيهن دهاء ولا مكر لأنهن لم يجربن الأمور (ٱلْمُؤْمِنَٰتِ) بما يجب الايمان به عن ابن عباس رضى الله عنهما هن أزواجه عليه الصلاة والسلام وقيل هن جميع المؤمنات إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقيل أريدت عائشة رضى الله عنها وحدها وإنما جمع لأن من قذف واحدة من نساء النبى عليه الصلاة والسلام فكأنه قذفهن (لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) جعل القذفة ملعونين فى الدارين وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة إن لم يتوبوا والعامل فى (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ) يعذبون

وبالياء حمزة وعلى (أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى بماأفكوا أوبهتوا والعامل فى (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ) بالنصب صفة للدين وهو الجزاء ومعنى الحق الثابت الذى هم أهله وقرأ مجاهد بالرفع صفةلله كقراءة أبىّ يوفيهم الله الحق دينهم وعلى قراءة النصب يجوز أن يكون الحق وصفا لله بأن ينتصب على المدح (وَيَعْلَمُونَ) عند ذلك (أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) لارتفاع الشكوك وحصول العلم الضرورى ولم يغلظ الله تعالى فى القرآن فى شىء من المعاصى تغليظه فى إفك عائشة رضى الله عنها فأوجز فى ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وما ذاك إلا لأمر وعن ابن عباس رضى الله عنه من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة وهذا منه تعظيم ومبالغة فى أمر الافك ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهلها وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه ومريم رضى الله عنها بإنطاق ولدها وعائشة رضى الله عنها بهذه الآى العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر بهذه المبالغات فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله والتنبيه على إنافة محله ﷺ وعلى آله (الْخَبِيثَاتُ) من القول تقال (لِلْخَبِيثِينَ) من الرجال والنساء (وَالْخَبِيثُونَ) منهم يتعرضون (لِلْخَبِيثَاتِ) من القول وكذلك (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) أى فيهم وأولئك إشارة إلى الطيبين وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة رضى الله عنها وما رميت به من قول لايطابق حالها فى النزاهة والطيب ويجوز أن يكون إشارة إلى أهل البيت وأنهم مبرءون مما يقول أهل الإفك وأن يراد بالخبيثات والطيبات النساء الخبائث يتزوجن الخباث والخباث تتزوج الخبائث وكذا أهل الطيب (لَهُم مَّغْفِرَةٌ) مستأنف أو خبر بعد خبر (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) فى الجنة ودخل ابن عباس رضى الله عنهما على عائشة رضى الله عنها فى مرضها وهى خائفة من القدوم على الله تعالى فقال لا تخافى لأنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم وتلا الآية فغشى عليها فرحا بما تلا وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة، نزل جبريل بصورتى فى راحته حين أمر عليه الصلاة والسلام إن يتزوجنى وتزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى وتوفى عليه الصلاة والسلام ورأسه فى حجرى وقبر فى بيتى (١) وينزل عليه الوحى وأنا فى لحافه وأنا ابنة

(١) فى بعض النسخ زيادة « ولقد حفته الملائكة فى بيتى » وهى زائدة عن التسع .

خليفته وصديقه ونزل عذرى من السماء وخلقت طيبة عند طيب ووعدت مغفرة ورزقا كريما وقال حسان معتذرا فى حقها :

حصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَن بريبة   وتسبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا   نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حيّ من لؤى بن غالب   كرام المساعى مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها   وطهرها من كل شين وباطل

(يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ) أى بيوتا لستم تملكونها ولا تسكنونها (حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا) أى تستأذنوا عن ابن عباس رضى الله عنهما وقد قرأ به والاستئناس فى الأصل الاستعلام والاستكشاف استفعال من أنس الشىء إذا أبصره ظاهرا مكشوفا أى حتى تستعلموا أيطلق لكم الدخول أم لا وذلك بتسبيحة أو بتكبيرة أو بتحميدة أو بتنحنح (وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا) والتسليم أن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فإن أذن له وإلا رجع وقيل إن تلاقيا يقدم التسليم وإلا فالاستئذان (ذَٰلِكُمْ) أى الاستئذان والتسليم (خَيْرٌ لَّكُمْ) من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير إذن فكأن الرجل من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أى قيل لكم هذا لكى تذكروا وتتعظوا وتعملوا ما أمرتم به فى باب الاستئذان (فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا) فى البيوت (أَحَدًا) من الآذنين (فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ) حتى تجدوا من يأذن لكم أو فإن لم تجدوا فيها أحدا من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها لأن التصرف فى ملك الغير لابد من أن يكون برضاه (وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا) أى إذا كان فيها قوم فقالوا ارجعوا (فَارْجِعُوا) ولا تلحوا فى إطلاق الإذن ولا تلجوا فى تسهيل الحجاب ولا تقفوا على الأبواب لأن هذا مما يجلب الكراهة فإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى إليها من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك وعن أبى عبيد ماقرعت بابا على عالم قط (هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ) أى الرجوع أطيب وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة

أوأنفع وأنمى خيرا (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وعيدللمخاطبين بأنه عالم بماياتون وما يذرون مما خوطبوا به فموف جزاءه عليه (لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا) فى أن تدخلوا (بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ) استثنى من البيوت التى يجب الاستئذان على داخلها ماليس بمسكون منها كالخانات والربط وحوانيت التجار (فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ) أى منفعة كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع وقيل الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز (وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ) من للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل (وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) عن الزنا ولم يدخل من هنا لأن الزنا لا رخصة فيه بوجه ويجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفها وقدميها فى رواية وإلى رأس المحارم والصدر والساقين والعضدين (ذَٰلِكَ) أى غض البصر وحفظ الفرج (أَزْكَىٰ لَهُمْ) أى أطهر من دنس الاثم (إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) فيه ترغيب وترهيب يعنى أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر فى كل حركة وسكون (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) أمرن بغض الأبصار فلا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبى إلى ما تحت سرته إلى ركبتيه وإن اشتهت غضت بصرها رأسا ولا تنظر إلى المرأة إلا إلى مثل ذلك وغض بصرها من الأجانب أصلا أولى بها وإنما قدم غض الأبصار على حفظ الفروج لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور فبذر الهوى طموح العين (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) الزينة ما تزينت به المرأة من حلى أو كحل أو خضاب والمعنى ولا يظهرن مواضع الزينة إذ إظهار عين الزينة وهى الحلى ونحوها مباح فالمراد بها مواضعها أو إظهارها وهى فى مواضعها لإظهار مواضعها لا لإظهار أعيانها، ومواضعها الرأس والأذن والعنق والصدر والعضدان والذراع والساق فهى للإكليل والقرط والقلادة والوشاح والدملج والسوار والخلخال (إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) إلا ماجرت العادة والجبلة على ظهوره وهو الوجه والكفان والقدمان ففى سترها حرج بين فإن المرأة لا تجد بدا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح

وتضطر إلى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن (وَلْيَضْرِبْنَ) وليضعن من قولك ضربت بيدي على الحائط إذا وضعتها عليه (بِخُمُرِهِنَّ) جمع خمار (عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ) بضم الجيم مدنى وبصرى وعاصم كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى تغطيها (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) أى مواضع الزينة الباطنة كالصدر والساق والرأس ونحوها (إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ) لأزواجهن جمع بعل (أَوْ ءَابَآئِهِنَّ) ويدخل فيهم الأجداد (أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ) فقد صاروا محارم (أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ) ويدخل فيهم النوافل (أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ) فقد صاروا محارم أيضا (أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَٰتِهِنَّ) ويدخل فيهم النوافل وسائر المحارم كالأعمام والأخوال وغيرهم دلالة (أَوْ نِسَآئِهِنَّ) أى الحرائر لأن مطلق هذا اللفظ يتناول الحرائر (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ) أى إمائهن ولا يحل لعبدها أن ينظر إلى هـذه المواضع منها خصيا كان أو عنينا أو فحلا وقال سعيد بن المسيب لاتغرنكم سورة النور فإنها فى الإماء دون الذكور وعن عائشة رضى الله عنها أنها أباحت النظر إليها لعبدها (أَوِ التَّٰبِعِينَ غَيْرِ) بالنصب شامى ويزيد وأبو بكر على الاستثناء أو الحال وغيرهم بالجر على البدل أو على الوصفيه (أُوْلِى الْإِرْبَةِ) الحاجة إلى النساء قيل هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء لأنهم بله لا يعرفون شيئا من أمرهن أو شيوخ صلحاء أو العنين أو الخصى أو المخنث وفى الأثر أنه المجبوب والأول الوجه (مِنَ الرِّجَالِ) حال (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ) هـو جنس فصلح أن يراد به الجمع (لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ النِّسَآءِ) أى لم يطلعوا لعدم الشهوة من ظهر على الشئ إذا أطلع عليه أو لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء من ظهر على فلان إذا قوى عليه (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ) كانت المرأة تضرب الأرض برجليها إذا مشت لتسمع قعقعة خلخالها فيعلم أنهـا ذات خلخال فنهين عن ذلك إذ سماع صوت الزينة كإظهارها ومنـه سمى صوت الحلى وسواسا (وَتُوبُوٓا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ) أيهُ شامى إتباعا للضمة قبلها بعد حـذف الألف لالتقاء الساكنين وغيره على فتح الهاء لأن بعـدها ألفاً فى التقدير (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) العبد لا يخلو عن سهو وتقصير فى أوامره ونواهيه وإن اجتهد فلذا وصى المؤمنين جميعـاً بالتوبة وبتأميل الفلاح إذا تابوا

وقيل أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس له حاجة إلى التوبة وظاهر الآية يدل على أن العصيان لا ينافى الإيمان (وأنكِحُوا الأَيَمَىٰ مِنكُمْ) الأيامى جمع أيم وهو من لازوج له رجلا كان أو امرأة بكراً كان أوثيبا وأصله أيائم فقلبت (وَالصَّالِحِينَ) أى الخيرين أو المؤمنين والمعنى زوجوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح (مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ) أى من غلمانكم وجواريكم والأمر للندب إذ النكاح مندوب إليه (إِن يَكُونُوا فُقَرَآء) من المال (يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ) بالكفاية والقناعة أو باجتماع الرزقين وفى الحديث «التمسوا الرزق بالنكاح» وعن عمر رضى الله عنه روى مثله (وَاللهُ وَاسِعٌ) غنى ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق (عَلِيمٌ) يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وقيل فى الآية دليل على أن تزويج النساء والأيامى إلى الأولياء كما أن تزوج العبيد والإماء إلى الموالى قلنا الرجل لا يلى على الرجل الأيم إلا بإذنه فكذا لا يلى على المرأة إلا بإذنها لأن الأيم ينتظمها (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ) وليجتهدوا فى العفة كأن المستعف طالب من نفسه العفاف (لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً) استطاعة تزوج من المهر والنفقة (حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ) حتى يقدرهم على المهر والنفقة قال عليه الصلاة والسلام «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» فانظر كيف رتب هذه الأوامر فأمر أولا بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر ثم بالنكاح المحصن للدين المغنى عن الحرام ثم بعزة النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن تقدر عليه (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) أى المماليك الذين يطلبون الكتابة فالذين مرفوع بالابتداء أو منصوب بفعل يفسره (فَكَاتِبُوهُمْ) وهو للندب ودخلت الفاء لتضمنه معنى الشرط والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة وهو أن يقول لمملوكه كاتبتك على ألف درهم فإن أداها عتق ومعناه كتبت لك على نفسى أن تعتق منى إذا وفيت بالمال وكتبت لى على نفسك أن تفى بذلك أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لإطلاق الأمر (إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً) قدرة على الكسب أو أمانة وديانة والندبية معلقة بهذا الشرط (وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِىٓ ءَاتَاكُمْ) أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة

لقوله تعالى :وفى الرقاب وعند الشافعى رحمه الله معناه حطوا من بدل الكتابة ربعاً وهذا عندنا على وجه الندب والأول الوجه لأن الإيتاء هو التمليك فلا يقع على الحط سأل صبيح مولاه حويطبا أن يكاتبه فأبى فنزلت واعلم أن العبيد أربعة قن مقتنى للخدمة ومأذون فى التجارة ومكاتب وآبق فمثال الأول ولى العزلة الذى حصل العزلة بإيثار الخلوة وترك العشرة والثانى ولى العشرة فهو نجى الحضرة يخالط الناس للخبرة وينظر إليهم بالعبرة ويأمرهم بالعبرة فهو خليفة رسول الله ﷺ يحكم بحكم الله ويأخذ لله ويعطى فى الله ويفهم عن الله ويتكلم مع الله فالدنيا سوق تجارته والعقل رأس بضاعته والعدل فى الغضب والرضا ميزانه والقصد فى الفقر والغنى عنوانه والعز مفزعه ومنحاه والقرآن كتاب الإذن من مولاه هو كائن فى الناس بظواهره بائن منهم بسرائره فقد هجرهم فيما له عليهم فى الله باطناً ثم وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهراً :

وما هو منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

يأكل مايأكلون ويشرب مايشربون ومايدريهم أنه ضيف الله يرى السموات والأرض قائمات بأمره وكأنه قيل فيه .

فان تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فحال ولى العزلة أصفى وأحلى وحال ولى العشرة أوفى وأعلى ونزل الأول من الثانى فى حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان أما النبى عليه الصلاة والسلام فهو كريم الطرفين ومعدن الشذرين ومجمع الحالين ومنبع الزلالين فباطن أحواله مهتدى ولى العزلة وظاهر أعماله مقتدى ولى العشرة والثالث المجاهد المحاسب العامل المطالب بالضرائب كنجوم المكاتب عليه فى اليوم والليلة خمس وفى المائتى درهم خمسة وفى السنة شهر وفى العمر زورة فكأنه اشترى نفسه من ربه بهذه النجوم المرتبة فيسعى فى فكاك رقبته خوفاً من البقاء فى ربقة العبودية وطمعاً فى فتح باب الحرية ليسرح فى رياض الجنة فيتمتع بمبياه ويفعل مايشاؤه وبهواه والرابع الإباق فما أكثرهم فمنهم القاضى الجائر والعالم غير العامل والعامل المرائى والواعظ الذى لايفعل مايقول ويكون أكثر أقواله الفضول وعلى كل مالا ينفعه يصول فضلا عن السارق والزانى والغاصب فمنهم أخبر النبى عليه الصلاة والسلام: «إن الله لينصر هذا الدين بقوم لاخلاق لهم فى الآخرة» ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾

كان لابن أبيّ ست جـوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن الضرائب فشكت اثنتان منهن إلى رسول الله عليـه الصلاة والسلام فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة والبغاء الزنا للنساء خاصة وهو مصـدر لبغت (إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) تعففاً عن الزنا وإنما قيده بهذا الشرط لأن الإكراه لا يكون إلا مع إرادة التحصن فآمر المطيعة للبغاء لايسمى مكرها ولا أمره إكراها ولأنها نزلت على سبب فوقع النهى على تلك الصفة وفيه توبيخ للموالى أى إذا رغبن فى التحصن فأنتم أحق بذلك (لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) أى لتبتغوا بإكراههن على الزنا أجورهن وأولادهن (وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى لهن وفى مصحف ابن مسعود كذلك وكان الحسن يقول لهن والله لهن والله ولعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة وهو الذى يخاف منه التلف فكانت آثمة أو لهم إذا تابوا (وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ) بفتح الياء حجازى وبصرى وأبو بكر وحماد والمراد الآيات التى بينت فى هذه السورة وأوضحت فى معانى الأحكام والحدود وجاز أن يكون الأصل مبينا فيها فاتسع فى الظرف أى أجرى مجرى المفعول به كقوله ويوم شهدناه وبكسرها غيرهم أى بينت هى الأحكام والحدود جعل الفعل لها مجازاً أو من بين بمعنى تبين ومنه المثل * قد بين الصبح لذى عينين * (وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ) ومثلا من أمثال من قبلكم أى قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم يعنى قصة عائشة رضى الله عنها (وَمَوْعِظَةً) ما وعظ به من الآيات والمثل من نحو قوله تعالى: ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله. لولا إذ سمعتموه. ولولا إذ سمعتموه. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا (لِّلْمُتَّقِينَ) أى هم المنتفعون بها وإن كانت موعظة للكل نظير قوله (اللهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) مع قوله مثل نوره ويهدى الله لنوره قولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات ونور السموات والأرض الحق شبهه بالنور فى ظهوره وبيانه كقوله: الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور أى من الباطل إلى الحق وأضاف النور إليهما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضىء له السموات والأرض وجاز أن المراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون

به (مَثَلُ نُورِهِ) أى صفة نوره العجيبة الشأن فى الإضاءة (كَمِشْكَوٰةٍ) كصفة مشكاة وهى الكوّة فى الجدار غير النافذة (فِيهَا مِصْبَاحٌ) أى سراج ضخم ثاقب (الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ) فى قنديل من زجاج شامى بكسر الزاى (الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) مضى بضم الدال وتشديد الياء منسوب الى الدر لفرط ضيائه وصفائه وبالكسر والهمزة عمرو وعلى كأنه يدرأ الظلام بضوئه وبالضم والهمزة أبوبكر وحمزة شبه فى زهرته بأحد الكواكب الدرارى كالمشترى والزهرة ونحوهما (يُوقَدُ) ـ توقد ـ بالتخفيف حمزة وعلى وأبو بكر الزجاجة ويوقد بالتخفيف شامى ونافع وحفص وتوقد بالتشديد مكى وبصرى أى هذا المصباح (مِن شَجَرَةٍ) أى ابتدأ ثقوبه من زيت شجرة الزيتون يعنى رويت زبالته بزيتها (مُّبَٰرَكَةٍ) كثيرة المنافع أو لأنها نبتت فى الأرض التى بورك فيها للعالمين وقيل بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام (زَيْتُونَةٍ) بدل من شجرة نعتها (لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) أى منبتها الشام يعنى ليست من المشرق ولا من المغرب بل فى الوسط منهما وهو الشام وأجود الزيتون زيتون الشام وقيل ليست مما تطلع عليه الشمس فى وقت شروقها أو غروبها فقط بل يصيبها بالغداة والعشى جميعا فهى شرقية وغربية (يَكَادُ زَيْتُهَا) دهنها (يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) وصف الزيت بالصفاء والوميض وأنه لتلألئه يكاد يضىء من غير نار (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ) أى هذا النور الذى شبه به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوى النور وهذا لأن المصباح إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينتشر فيه والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه وضرب المثل يكون بدنىء محسوس معهود لابعلى غير معاين ولا مشهود فأبو تمام لما قال فى المأمون .

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قيل له إن الخليفة فوق من مثلته بهم فقال مرتجلا :

لاتنكروا ضربى له من دونه   مثلا شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

(يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ) أى لهذا النور الثاقب (مَن يَشَآءُ) من عباده أى يوفق لإصابة الحق من يشاء من عباده بإلهام من الله أو بنظره فى الدليل (وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) تقريباً إلى أفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا (وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فيبين كل شىء بما يمكن أن يعلم به وقال ابن عباس رضى الله عنـه مثل نوره أى نور الله الذى هدى به المؤمن وقرأ ابن مسعود رحمه الله مثل نوره فى قلب المؤمن كمشكاة وقرأ أبىّ مثل نور المؤمن (فِي بُيُوتٍ) يتعلق بمشكاة أى كمشكاة فى بعض بيوت الله وهى المساجد كأنه قيل مثل نوره كما يرى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت وكيت أو بتوقد أى توقد فى بيوت أو بيسبح أى يسبح له رجال فى بيوت وفيها تكرير فيه توكيد نحو زيد فى الدار جالس فيها أو بمحذوف أى سبحوا فى بيوت (أَذِنَ اللهُ) أى أمر (أَن تُرْفَعَ) تبنى كقوله بناها رفع سمكها فسواها وإذ يرفع إبراهيم القواعد أو تعظم من الرفعة وعن الحسن ما أمر الله أن ترفع بالبناء ولـكن بالتعظيم (وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) يتلى فيها كتابه أو هو عام فى كل ذكر (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) أى يصلى له فيها بالغداة صلاة الفجر وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين وإنما وحد الغدو لأن صلاته صلاة واحدة وفى الآصال صلوات والآصال جمع أصل جمع أصيل وهو العشى (رِجَالٌ) فاعل يسبح يسبح شامى وأبو بكر ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغدو ورجال مرفوع بما دل عليه يسبح أى يسبح له (لاَّ تُلْهِيهِمْ) لا تشغلهم (تِجَارَةٌ) فى السفر (وَلاَ بَيْعٌ) فى الحضر وقيل التجارة الشراء إطلاقا لاسم الجنس على النوع أو خص البيع بعد ما عم لأنه أوغل فى الإلهاء من الشراء لأن الربح فى البيعة الرابحة متيقن وفى الشراء مظنون (عَن ذِكْرِ اللهِ) باللسان والقلب (وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ) أى وعن إقامة الصلاة التاء فى إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال والأصل إقوام فلما قلبت الواو ألفاً اجتمع ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين فأدخلت التاء عوضاً عن المحذوف فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام التاء فأسقطت (وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ) أى وعن إيتاء الزكاة والمعنى لا تجارة لهم حتى تلهيهم كأولياء العزلة أو يبيعون ويشترون ويذكرون الله مع ذلك وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها غير متثاقلين كأولياء العشرة (يَخَافُونَ يَوْماً) أى يوم القيامة ويخافون حال من

الضمير فى تلهيهم أوصفة أخرى لرجال (تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ) ببلوغها إلى الحناجر (وَالْأَبْصَارُ) بالشخوص والزرقة أوتتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران والأبصار إلى العيان بعد إنكاره للطغيان كقوله فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ) أى يسبحون ويخافون ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم أى ليجزيهم ثوابهم مضاعفا ويزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضلا (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى يثيب من يشاء ثوابا لا يدخل فى حساب الخلق هذه صفات المهتدين بنور الله فأما الذين ضلوا عنه فالمذكورون فى قوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ) هو مايرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى (بِقِيعَةٍ) بقاع أو جمع قاع وهو المنبسط المستوى من الأرض كجيرة فى جار (يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ) يظنه العطشان (مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ) أى جاء إلى ما توهم أنه ماء (لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) كما ظنه (وَوَجَدَ اللَّهَ) أى جزاء الله كقوله يجد الله غفورا رحيما أى يجد مغفرته ورحمته (عِندَهُ) عند الكافر (فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ) أى أعطاه جزاء عمله وافيا كاملا وحد بعد تقدم الجمع حملا على كل واحد من الكفار (وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) لأنه لا يحتاج إلى عد وعقد ولا يشغله حساب عن حساب أو قريب حسابه لأن ما هو آت قريب شبه مايعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التى يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم يخيب فى العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله فيهم: عاملة ناصبة. وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. قيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان يترهب ملتمسا للدين فى الجاهلية فلما جاء الإسلام كفر (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ) أوهنا كأو فى أو كصيب (لُّجِّيٍّ) عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر (يَغْشَاهُ) يغشى البحر أومن فيه أى يعلوه ويغطيه (مَوْجٌ) هو ماارتفع من الماء (مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ) أى من فوق الموج موج آخر (مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ) من فوق الموج الأعلى سحاب (ظُلُمَاتٌ) أى هذه ظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة

البحر (بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) ظلمة الموج على ظلمة البحر وظلمة الموج على الموج وظلمة السحاب على الموج (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ) أى الواقع فيه (لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) مبالغة فى لم يرها أى لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها شبه أعمالهم أولا فى فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً ولم يكفه خيبة وكدا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار وشبهها ثانيا فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفى خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) من لم يهده الله لم يهتد عن الزجاج فى الحديث «خلق الله الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل» (أَلَمْ تَرَ) ألم تعلم يا محمد علما يقوم مقام العيان فى الإيقان (أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ) عطف على من (صَٰفَّٰتٍ) حال من الطير أى يصففن أجنحتهن فى الهواء (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) الضمير فى علم لكل أو لله وكذا فى صلاته وتسبيحه والصلاة الدعاء ولم يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لا يكاد العقلاء يهتدون إليها (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) لا يعزب عن علمه شىء (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) لأنه خالقهما ومن ملك شيئا فبتمليكه إياه (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) مرجع الكل (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي) يسوق إلى حيث يريد (سَحَابًا) جمع سحابة دليله (ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ) وتذكيره للفظ أى يضم بعضه إلى بعض (ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا) متراكما بعضه فوق بعض (فَتَرَى الْوَدْقَ) المطر (يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِ) من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال فى جبل (وَيُنَزِّلُ) وينزل مكى ومدنى وبصرى (مِنَ السَّمَاءِ) لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء (مِن جِبَالٍ) من للتبعيض لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التى (فِيهَا) فى السماء (مِن بَرَدٍ) للبيان أو الأوليان للابتداء والآخرة للتبعيض ومعناه أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها وعلى الأول مفعول ينزل من جبال أى بعض جبال فيها ومعنى من جبال فيها من برد أن يخلق الله فى السماء جبال برد كما خلق فى الأرض جبال حجر أو يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب (فَيُصِيبُ بِهِ) بالبرد (مَن يَشَاءُ)

أى يصيب الانسان وزرعه (وَيَصْرِفُهُ عَمَّن يَشَآءُ) فلا يصيبه أو يعذب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فلا يعذبه (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ) ضوئه (يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) يخطفها به يُذهب يزيد على زيادة الباء (يُقَلِّبُ اللهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ) يصرفهما فى الاختلاف طولا وقصرا والتعاقب (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) فى إزجاء السحاب وإنزال الودق والبرد وتقليب الليل والنهار (لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى الْأَبْصَارِ) لذوى العقول وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته حيث ذكر تسبيح من فى السماوات والأرض وما يطير بينهما ودعاءهم له وتسخير السحاب إلى آخر ما ذكر فهى براهين لائحة على وجوده ودلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبر ثم بين دليلا آخر فقال تعالى (وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ) خالق كل حمزة وعلى (دَآبَّةٍ) كل حيوان يدب على وجه الأرض (مِّن مَّآءٍ) أى من نوع من الماء مختص بتلك الدابة أو من ماء مخصوص وهو النطفة ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم ومنها أناسى وهو كقوله يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل وهذا دليل على أن لها خالقا ومدبرا وإلا لم تختلف لاتفاق الأصل وإنما عرف الماء فى قوله: وجعلنا من الماء كل شىء حى. لأن المقصود ثم أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء وأنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط. قالوا إن أول ما خلق الله الماء فخلق منه النار والريح والطين فخلق من النار الجن ومن الريح الملائكة ومن الطين آدم ودواب الأرض ولما كانت الدابة تشمل المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كأن الدواب كلهم مميزون فمن ثم قيل (فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ) كالحية والحوت وسمى الزحف على البطن مشيا استعارة كما يقال فى الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر أو على طرائق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين (وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ) كالإنسان والطير (وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ) كالبهائم وقدم ماهو أعرق فى القدرة وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو غيرها ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على أربع (يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ) كيف يشاء (إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) لايتعذر عليه شىء (لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَاللهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ) بلطفه ومشيئته (إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) إلى دين

الإسلام الذى يوصل إلى جنته والآيات لإلزام حجته لما ذكر إنزال الآيات ذكر بعدها افتراق الناس إلى ثلاث فرق فرقة صدقت ظاهراً وكذبت باطناً وهم المنافقون وفرقة صدقت ظاهراً وباطناً وهم المخلصون وفرقة كذبت ظاهراً وباطناً وهم الكافرون على هــذا الترتيب وبدأ بالمنافقين فقال (وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ) بألسنتهم (وَأَطَعْنَا) الله والرسـول (ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ) يعرض عن الانقياد لحكم الله ورسوله (فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ) أى من بعـد قولهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا (وَمَآ أُوْلَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) أى المخلصين وهو إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا لا إلى الفريق المتولى وحده وفيـه إعلام من الله بأن جميعهم منتف عنهم الإيمان لاعتقادهم مايعتقد هؤلاء والاعراض وإن كان من بعضهم فالرضا بالاعراض من كلهم (وَإِذَا دُعُوآ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ) أى إلى رسول الله كقولك أعجبنى زيد وكرمه تريد كرم زيد (لِيَحْكُمَ) الرسـول (بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ) أى فاجأ من فريق منهـم الاعراض نزلت فى بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما فى أرض فجعل اليهودى يجره إلى رسول الله ﷺ والمنافق إلى كعب بن الأشرف ويقول إن محمداً يحيف علينا (وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ) أى إذا كان الحق لهم على غيرهم (يَأْتُوآ إِلَيْهِ) إلى الرسـول (مُذْعِنِينَ) حال أى مسرعين فى الطاعة طلباً لحقهم لا رضا بحكم رسولهم قال الزجاج الإذعان الإسراع مع الطاعة والمعنى أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المر والعدل البحت يمتنعون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق لئلا تنتزعه من أحـداقهم بقضائك عليهم لخصومهم وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما وجب لهم فى ذمة الخصم (أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوآ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ) قسم الأمر فى صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين أو مرتابين فى أمر نبوته أو خائفين الحيف فى قضائه ثم أبطل خوفهـم حيفه بقوله (بَلْ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ) أى لايخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله وإنما هم ظالمون يريدون ان يظلموا من له الحق عليهم وذلك شىء لايستطيعونه فى مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام فمن ثم يأبون المحاكمة إليه (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ) وعن الحسن قول بالرفع والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسما لكان أوغلهما فى التعريف وأن يقولوا أو غل بخلاف

قول المؤمنين (إِذَا دُعُوآ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ) النبي عليه الصلاة والسلام ليحكم أى ليفعل الحكم (بَيْنَهُمْ) بحكم الله الذى أنزل عليه (أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا) قوله (وَأَطَعْنَا) أمره (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفائزون (وَمَن يُطِعِ اللهَ) فى فرائضه (وَرَسُولَهُ) فى سننه (وَيَخْشَ اللهَ) على مامضى من ذنوبه (وَيَتَّقْهِ) فيما يستقبل (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية وهى جامعة لأسباب الفوز ويتقه بسكون الهاء أبو عمرو وأبو بكر بنية الوقف وبسكون القاف وبكسر الهاء مختلسة حفص وبكسر القاف والهاء غيرهم (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) أى حلف المنافقون بالله جهد اليمين لأنهم بذلوا فيها مجهودهم وجهد يمينه مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وذلك إذا بالغ فى اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها وعن ابن عباس رضى الله عنهما من قال بالله فقد جهد يمينه وأصل أقسم جهد اليمين أقسم بجهد اليمين جهداً فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافا إلى المفعول كقوله فضرب الركاب وحكم هذا المنصوب حكم الحال كأنه قال جاهدين أيمانهم (لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ) أى لئن أمرنا محمد بالخروج إلى الغزو لغزونا أو بالخروج من ديارنا لخرجنا (قُل لَّا تُقْسِمُوا) لاتحلفوا كاذبين لأنه معصية (طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ) أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة مبتدأ محذوف الخبر أو خبر مبتدأ محذوف أى الذى يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لايشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلص من المؤمنين لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها (إِنَّ اللهَ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ) يعلم مافى ضمائركم ولا يخفى عليه شىء من سرائركم وإنه فاضحكم لامحالة ومجازيكم على نفاقكم (قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات وهو أبلغ فى تبكيتهم (فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ) يريد فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله تعالى وكلفه من أداء الرسالة فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقى بالقبول والإذعان فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) أى وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم فقد أحرزتم نصيبكم من الهدى فالضرر فى توليكم والنفع عائدان إليكم (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ

ٱلْمُبِينُ) وما على الرسول إلا أن يبلغ ماله نفع فى قلوبكم ولا عليه ضرر فى توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية والمبين الظاهر لكونه مقرونا بالآيات والمعجزات ثم ذكر المخلصين فقال (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ)الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام ولمن معه ومنكم للبيان وقيل المراد به المهاجرون ومن للتبعيض (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ) أى أرض الكفار وقيل أرض المدينة والصحيح أنه عام لقوله عليه الصلاة والسلام «ليدخلن هذا الدين على مادخل عليه الليل» (كَمَا ٱسْتَخْلَفَ) استخلف أبو بكر (ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم) وليبدلنهم بالتخفيف مكى وأبوبكر (مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) وعدهم الله أن ينصر الاسلام على الكفر ويورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل ببنى إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة وأن يمكن الدين المرتضى وهو دين الاسلام وتمكينه تثبيته وتعضيده وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذى كانوا عليه وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام «لاتغبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة» فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا والقسم المتلقى باللام والنون فى ليستخلفنهم محذوف تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم أونزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قيل أقسم الله ليستخلفنهم (يَعْبُدُونَنِى) إن جعلته استئنافا فلا محل له كأنه قيل مالهم يستخلفون ويؤمنون فقال يعبدوننى موحدين ويجوز أن يكون حالا بدلا من الحال الأولى وإن جعلته حالا عن وعدهم أى وعدهم الله ذلك فى حال عبادتهم فمحله النصب (لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا) حال من فاعل يعبدون أى يعبدوننى موحدين ويجوز أن يكون حالا بدلا من الحال الأولى (وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ) أى بعد الوعد والمراد كفران النعمة كقوله تعالى: فكفرت بأنعم الله (فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) هم الكاملون فى فسقهم حيث كفروا تلك النعمة الجسيمة وجسروا على غمطها قالوا أول من كفر هذه

النعمة قتلة عثمان رضى الله عنه فاقتتلوا بعدما كانوا إخوانا وزال عنهم الخوف، والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم (وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ) معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا يضر الفصل وإن طال (وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) فيما يدعوكم إليه وكررت طاعة الرسول تأكيدا لوجوبها (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أى لكى ترحموا فإنها من مستجلبات الرحمة ثم ذكر الكافرين فقال (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ) أى فائتين الله بأن لا يقدر عليهم فيها فالتاء خطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وهو الفاعل والمفعولان الذين كفروا ومعجزين. وبالياء شامى وحمزة والفاعل النبى ﷺ لتقدم ذكره والمفعولان الذين كفروا ومعجزين (وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) معطوف على لا تحسبن الذين كفروا معجزين كأنه قيل الذين كفروا لا يفوتون الله ومأواهم النار (وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى المرجع النار (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ) أمر بأن يستأذن العبيد والإماء (وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ) أى الأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار، وقرئ بسكون اللام تخفيفا (ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ) فى اليوم والليلة وهى (مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ) لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة (وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ) وهى نصف النهار فى القيظ لأنها وقت وضع الثياب للقيلولة (وَمِن بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَآءِ) لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم (ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ) أى هى أوقات ثلاث عورات فحذف المبتدأ والمضاف. وبالنصب كوفى غير حفص بدلا من ثلاث مرات أى أوقات ثلاث عورات وسمى كل واحد من هذه الأحوال عورة لأن الانسان يختل تستره فيها، والعورة: الخلل ومنها الأعور المختل العين. دخل غلام من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو على عمر رضى الله عنه وقت الظهيرة وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضى الله عنه وددت أن الله نهى عن الدخول فى هذه الساعات إلا بالإذن فانطلق إلى النبى ﷺ وقد نزلت عليه الآية ثم عذرهم فى ترك الاستئذان وراء هذه المرات بقوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ) أى لا إثم عليكم ولا على المذكورين فى الدخول بغير استئذان بعدهن ثم بين العلة فى ترك الاستئذان

فى هذه الأوقات بقوله (طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُمْ) أى هم طوافون بحوائج البيت (بَعْضُكُمْ) مبتدأ خبره (عَلَى بَعْضٍ) تقديره بعضكم طائف على بعض فحذف طائف لدلالة طوافون عليه ويجوز أن تكون الجملة بدلا من التى قبلها وأن تكون مبينة مؤكدة يعنى أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأفضى إلى الحرج وهو مدفوع فى الشرع بالنص (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيَٰتِ) أى كما بين حكم الاستئذان يبين لكم غيره من الآيات التى احتجتم إلى بيانها (وَاللَّهُ عَلِيمٌ) بمصالح عباده (حَكِيمٌ) فى بيان مراده (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ) أى الأحرار دون المماليك (الْحُلُمَ) أى الاحتلام أى إذا بلغوا وأرادوا الدخول عليكم (فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا) فى جميع الأوقات (كَمَا اسْتَـْٔذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) أى الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال أو الذين ذكروا من قبلهم فى قوله: ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا الآية والمعنى أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن إلا فى العورات الثلاث فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا بالاحتلام أو بالسن وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على ان يستأذنوا فى جميع الأوقات كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن والناس عن هذا غافلون، وعن ابن عباس رضى الله عنه ثلاث آيات جحدهن الناس الإذن كله وقوله: إن أكرمكم عندالله أتقاكم. وإذا حضر القسمة. وعن سعيدبن جبير يقولون هى منسوخة والله ماهى بمنسوخة وقوله (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ) بمصالح الأنام (حَكِيمٌ) فيما يبين من الأحكام (وَالْقَوَاعِدُ) جمع قاعد لأنها من الصفات المختصة بالنساء كالطالق والحائض أى اللاتى قعدن عن الحيض والولد لكبرهن (مِنَ النِّسَآءِ) حال (الَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا) لايطمعن فيه وهى فى محل الرفع صفة للمبتدأ وهى القواعد والخبر (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ) إثم ودخلت الفاء لما فى المبتدأ من معنى الشرط بسبب الألف واللام (أَن يَضَعْنَ) فى أن يضعن (ثِيَابَهُنَّ) أى الظاهرة كالملحفة والجلباب الذى فوق الخمار (غَيْرَ) حال (مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ) أى غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية كالشعر والنحر والساق ونحو ذلك أى لا يقصدن بوضعها التبرج ولكن التخفيف وحقيقة التبرج تكلف اظهار ما يجب إخفاؤه (وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ)

أى يطلبن العفة عن وضع الثياب فيستترن وهو مبتدأ خبره (خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ) لما يملن (عَلِيمٌ) بما يقصدن (لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) قال سعيد بن المسيب كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبي ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم وكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة فنزلت الآية رخصة لهم (وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ) أى حرج (أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ) أى بيوت أولادكم لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ولذا لم يذكر الأولاد فى الآية وقد قال عليه الصلاة والسلام «أنت ومالك لأبيك» أو بيوت أزواجكم لأن الزوجين صارا كنفس واحدة فصار بيت المرأة كبيت الزوج (أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ) لأن الإذن من هؤلاء ثابت دلالة (أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ) جمع مفتح وهو ما يفتح به الغلق، قال ابن عباس رضى الله عنه: هو وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته له أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وأريد بملك المفاتح كونها فى يده وحفظه وقيل أريد به بيت عبده لأن العبد وما فى يده لمولاه (أَوْ صَدِيقِكُمْ) يعنى أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحدا وجمعا وهو من يصدقك فى مودته وتصدقه فى مودتك وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سرورا بذلك فأما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل إلا بإذن (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا) مجتمعين (أَوْ أَشْتَاتًا) متفرقين جمع شت نزلت فى بنى ليث بن عمرو وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة أو فى قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم أو تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الأكل وزيادة بعضهم على بعض (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا) من هذه البيوت لتأكلوا (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ) أى فابدءوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة أو بيوتا فارغة أو مسجدا فقولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (تَحِيَّةً) نصب بسلموا لأنها فى معنى تسليما نحو قعدت جلوسا (مِّنْ

عِندِ اللهِ) أى ثابتة بأمره مشروعة من لدنه أولأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والحيا من عند الله (مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً) وصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) لكى تعقلوا وتفهموا (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ) أى الذى يجمع له الناس نحو الجهاد والتدبير فى الحرب وكل اجتماع فى الله حتى الجمعة والعيدين (لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ) أى ويأذن لهم ولما أراد الله عز وجل أن يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه إذا كانوا معه على أمر جامع جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ) وضمنه شيئا آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين وعرض بحال المنافقين وتسللهم لواذا فَإِذَا اسْتَـْٔذَنُوكَ) فى الانصراف (لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ) أمرهم (فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ) فيه رفع شأنه عليه الصلاة والسلام (وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل أن لا يستأذن قالوا وينبغى أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم فى الدين والعلم يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم إلا بإذن، قيل نزلت يوم الخندق كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان (لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا) أى إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعى أولا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضا ويناديه باسمه الذى سماه به أبواه فلا تقولوا يا محمد ولكن يانبي الله يا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض (قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ) يخرجون قليلا قليلا (مِنكُمْ لِوَاذًا) حال أى ملاوذين اللواذ والملاوذة هو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا أى ينسلون عن الجماعة فى الخفية على سبيل

الملاوذة واستتار بعضهم ببعض (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) أى الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون. يقال خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه ومنه: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. وخالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه والضمير فى أمره لله سبحانه أو للرسول عليه الصلاة والسلام والمعنى عن طاعته ودينه ومفعول يحذر (أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ) محنة فى الدنيا أو قتل أو زلازل وأهوال أو تسليط سلطان جائر أو قسوة القلب عن معرفة الرب أو إسباغ النعم استدراجا (أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فى الآخرة والآية تدل على أن الأمر للإيجاب (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) ألا تنبيه على أن لا يخالفوا أمر من له ما فى السماوات والأرض (قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ) أدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد والمعنى أن جميع ما فى السماوات والأرض مختص به خلقا وملكا وعلما فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجهدون فى سترها (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ) وبفتح الياء وكسر الجيم يعقوب أى ويعلم يوم يردون إلى جزائه وهو يوم القيامة والخطاب والغيبة فى قوله قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاما ويرجعون للمنافقين (فَيُنَبِّئُهُم) يوم القيامة (بِمَا عَمِلُوا) بما أبطنوا من سوء أعمالهم ويجازيهم حق جزائهم (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) فلا يخفى عليه خافية وروى أن ابن عباس رضى الله عنهما قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت والله أعلم .

﴿ سورة الفرقان مكية وهى سبع وسبعون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تَبَارَكَ) تفاعل من البركة وهى كثرة الخير وزيادته ومعنى تبارك الله تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شىء وتعالى عنه فى صفاته وأفعاله وهى كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله وحده والمستعمل منه الماضى فحسب (الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ) هو مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل والحلال والحرام أو لأنه لم ينزل جملة ولكن مفرقا مفصولا بين بعضه وبعض فى الإنزال ألا ترى إلى قوله: وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس

على مكث ونزلناه تنزيلا (عَلَىٰ عَبْدِهِ) محمد عليه الصلاة والسلام (لِيَكُونَ) العبد أوالفرقان (لِلْعَالَمِينَ) للجن والإنس وعموم الرسالة من خصائصه عليه الصلاة والسلام (نَذِيراً) منذرا أى مخوفا أو إنذارا كالنكير بمعنى الإنكار ومنه قوله تعالى فكيف كان عذابى ونذر (الَّذِى) رفع على أنه خبر مبتدإ محذوف أوعلى الإبدال من الذى نزل وجوز الفصل بين البدل والبدل منه بقوله ليكون لأن المبدل منه صلته نزل وليكون تعليل له فكأن المبدل منه لم يتم إلا به أو نصب على المدح (لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) على الخلوص (وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) كما زعم اليهود والنصارى فى عزير والمسيح عليهما السلام (وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ) كما زعمت الثنوية (وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ) أى أحدث كل شىء وحده لا كما يقوله المجوس والثنوية من النور والظلمة ويزدان واهرمن ولا شبهة فيه لمن يقول إن الله شىء ويقول بخلق القرآن لأن الفاعل بجميع صفاته لا يكون مفعولا له على أن لفظ شىء اختص بما يصح أن يخلق بقرينة وخلق وهذا أوضح دليل لنا على المعتزلة فى خلق أفعال العباد (فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) فهيأه لما يصلح له بلاخلل فيه كما أنه خلق الإنسان على هذا الشكل الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى الدين والدنيا أوقدره للبقاء إلى أمد معلوم (وَاتَّخَذُوا) الضمير للكافرين لاندراجهم تحت العالمين أولدلالة نذيرا عليهم لأنهم المنذرون (مِن دُونِهِ ءَالِهَةً) أى الأصنام (لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أى أنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهية والملك والخلق والتقدير عبادة عجزة لا يقدرون على خلق شىء وهم يخلقون (وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها ولاجلب نفع إليها (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا) إماتة (وَلَا حَيَوٰةً) أى إحياء (وَلَا نُشُوراً) إحياء بعد الموت وجعلها كالعقلاء لزعم عابديها (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا) ماهذا القرآن (إِلَّا إِفْكٌ) كذب (افْتَرَىٰهُ) اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه (وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ) أى اليهود وعداس ويسار وأبو فكيهة الرومى قاله النضر بن الحارث (فَقَدْ جَآءُو ظُلْماً وَزُوراً) هذا إخبار من الله رد للكفرة فيرجع الضمير إلى الكفار وجاء يستعمل فى معنى فعل فيعدى تعديته أو حذف الجار وأوصل الفعل أى بظلم وزور وظلمهم إن جعلوا العربى يتلقن من العجمى الرومى كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب والزور أن بهتوه بنسبة ما هو برئ منه إليه

(وَقَالُوا أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أى هو أحاديث المتقدمين وما سطروه كرستم وغيره جمع أسطار وأسطورة كأحدوثة (اكْتَتَبَهَا) كتبها لنفسه (فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ) أى تلقى عليه من كتابه (بُكْرَةً) أول النهار (وَأَصِيلًا) آخره فيحفظ ما يملى عليه ثم يتلوه علينا (قُلْ) يا محمد (أَنزَلَهُ) أى القرآن (الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى يعلم كل سر خفى فى السماوات والأرض يعنى أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التى يستحيل عادة أن يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام من غير تعليم دل ذلك على أنه من عند علام الغيوب (إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيماً) فيمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة وإن استوجبوها بمكابرتهم (وَقَالُوا مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ) وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن الهاء وخط المصحف سنة لاتغير وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم كأنهم قالوا أى شيء لهذا الزاعم إنه رسول (يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) حال والعامل فيها هذا (لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا) أى إن صح أنه رسول الله فماباله يأكل الطعام كما نأكل ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون إنسانا معه ملك حتى يتساندا فى الإنذار والتخويف ثم نزلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش ثم نزلوا إلى أن يكون رجلا له بستان يأكل هو منه كالمياسير أو نأكل نحن كقراءة على وحمزة. وحسن عطف المضارع وهو يلقى وتكون على أنزل وهو ماض لدخول المضارع وهو فيكون بينهما وانتصب فيكون على القراءة المشهورة لأنه جواب لولا بمعنى هلا وحكمه حكم الاستفهام وأراد بالظالمين فى قوله (وَقَالَ الظَّـٰلِمُونَ) إياهم بأعيانهم غير أنه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا وهم كفار قريش (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُوراً) سحر فجن أو ذا سحر وهو الرئة عنوا أنه بشر لا ملك (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا) بينوا (لَكَ الْأَمْثَـٰلَ) الأشباه أى قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال من المفترى والملى عليه والمسحور (فَضَلُّوا) عن الحق (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا) فلا يجدون طريقا إليه (تَبَارَكَ الَّذِى إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً) أى تكاثر خير الذى إن شاء

وهب لك فى الدنيا خيرا مما قالوا وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك فى الآخرة من الجنات والقصور وجنات بدل من خيرا، ويجعل بالرفع مكى وشامى وأبو بكر لأن الشرط إذا وقع ماضيا جاز فى جزائه الجزم والرفع (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ) عطف على ما حكى عنهم يقول بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة أو متصل بما يليه كأنه قال بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الآخرة وهم لا يؤمنون بها (وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا) وهيأنا للمكذبين بها نارا شديدة فى الاستعار (إِذَا رَأَتْهُم) أى النار أى قابلتهم (مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) أى إذا كانت منهم بمرأى الناظرين فى البعد (سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) أى سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر أو إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا) من النار (مَكَانًا ضَيِّقًا) ضيْقا مكى فإن الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذا وصفت الجنة بأن عرضها السماوات والأرض وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح (مُّقَرَّنِينَ) أى وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرّنون فى السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال أو يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم الأصفاد (دَعَوْا هُنَالِكَ) حينئذ (ثُبُورًا) هلاكا أى قالوا واثبوراه أى تعال ياثبور فهذا حينك فيقال لهم (لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) أى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا إنما هو ثبور كثير (قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ) أى المذكور من صفة النار خير (أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) أى وعدها فالراجع إلى الموصول محذوف وإنما قال: أذلك خير، ولا خير فى النار توبيخا للكفار (كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً) ثوابا (وَمَصِيرًا) مرجعا وإنما قيل كانت لأن ما وعد الله كأنه كان لتحققه أو كان ذلك مكتوبا فى اللوح قبل أن خلقهم (لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) أى ما يشاءونه (خَالِدِينَ) حال من الضمير فى يشاءون والضمير فى (كَانَ) لما يشاءون (عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا) أى موعودا (مَّسْئُولًا) مطلوبا أو حقيقا أن يسئل أو قد سأله المؤمنون والملائكة فى دعواتهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) ـ ويوم نحشرهم ـ للبعث عند الجمهور وبالياء مكى ويزيد

ويعقوب وحفص (وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونَ اللهِ) يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير وعن الكلبي يعنى الأصنام ينطقها الله وقيل عام وما يتناول العقلاء وغيرهم لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم (فَيَقُولُ) وبالنون شامى (ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) والقياس ضلوا عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه فى هداه الطريق والأصل إلى الطريق أو للطريق وضل مطاوع أضله والمعنى أأنتم أوقعتموهم فى الضلال عن طريق الحق بإدخال الشبه أم هم ضلوا عنه بأنفسهم وإنما لم يقل أأضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل وزيد أنتم وهم لأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وإنما هو عن متوليه فلابد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ليعلم أنه المسئول عنه وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسئول عنه أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فتزيد حسرتهم (قَالُوا سُبْحَانَكَ) تعجب منهم مما قيل لهم وقصدوا به تنزيهه عن الأنداد وأن يكون له نبي أو ملك أو غيرهما ندا ثم قالوا (مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ) أى ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نتولى أحدا دونك فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك. نُتخذ يزيد واتخذ يتعدى إلى مفعول واحد نحو اتخذ وليا وإلى مفعولين نحو اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى: أم اتخذوا آلهة من الأرض. وقال: واتخذ الله إبراهيم خليلا فالقراءة الأولى من المتعدى لواحد وهو من أولياء والأصل أن تتخذ أولياء وزيدت من لتأكيد معنى النفى والقراءة الثانية من المتعدى إلى المفعولين فالمفعول الأول ما بنى له الفعل والثانى من أولياء ومن للتبعيض أى لا نتخذ بعض أولياء لأن من لا تزاد فى المفعول الثانى بل فى الأول تقول ما اتخذت من أحد وليا ولا تقول ما اتخذت أحدا من ولى (وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ) بالأموال والأولاد وطول العمر والسلامة من العذاب (حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ) أى ذكر الله والإيمان به والقرآن والشرائع (وَكَانُوا) عند الله (قَوْمًا بُورًا) أى هلكى جمع بائر كعائذ وعوذ ثم يقال للكفار بطريق الخطاب عدولا عن الغيبة (فَقَدْ كَذَّبُوكُم) وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول

ونظيرها: ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل إلى قوله فقد جاءكم بشير ونذير وقول القائل :

قالوا خراسان أقصى ما يرادبنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

(بِمَا تَقُولُونَ) بقولكم فيهم إنهم آلهة والباء على هذا كقوله: بل كذبوا بالحق والجار والمجرور بدل من الضمير كأنه قيل فقد كذبوا بماتقولون وعن قنبل بالياء ومعناه فقد كذبوكم بقولهم: سبحانك ماكان ينبغى لناأن نتخذ من دونك من أولياء. والباء على هذا كقولك كتبت بالقلم(فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً) ـ فمايستطيعون ـ أى فمايستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أوينصروكم. وبالتاء حفص أى فماتستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم ولا نصر أنفسكم ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله (وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ) أى يشرك لأن الظلم وضع الشيء فى غير موضعه ومن جعل المخلوق شريك خالقه فقد ظلم يؤيده قوله تعالى: إن الشرك لظلم عظيم (نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً) فسر بالخلود فى النار وهو يليق بالمشرك دون الفاسق إلا على قول المعتزلة والخوارج (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) كسرت إن لأجل اللام فى الخبر والجملة بعد إلا صفة لموصوف محذوف والمعنى وماأرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور أى من المرسلين ونحوه ومامنا إلاله مقام معلوم أى ومامنا أحد قيل هو احتجاج على من قال مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق وتسلية للنبي عليه الصلاة والسلام (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً) أى محنة وابتلاء وهذا تصبير لرسول الله ﷺ عما عيروه به من الفقر ومشيه فى الأسواق يعنى أنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء فيغنى من يشاء ويفقر من يشاء (أَتَصْبِرُونَ) على هذه الفتنة فتؤجروا أم لاتصبرون فيزداد غمكم وحكى أن بعض الصالحين تبرم بضنك عيشه فخرج ضجراً فرأى خصياً فى مواكب ومراكب فخطر بباله شيء فإذا بمن يقرأ هذه الآية فقال بلى فصبرا ربنا أو جعلتك فتنة لهم لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنان لكانت طاعتهم لك للدنيا أوممزوجة بالدنيا فإنما بعثناك فقيراً لتكون طاعة من يطيعك

حالصة لنا (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) عالما بالصواب فيما يبتلى به أو بمن يصبر ويجزع (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ) لا يأملون (لِقَآءَنَا) بالخير لأنهم كفرة لا يؤمنون بالبعث أو لا يخافون عقابنا إما لأن الراجى قلق فيما يرجوه كالخائف أو لأن الرجاء فى لغة تهامة الخوف (لَوْلَآ) هلا (أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) رسلا دون البشر أو شهوداً على نبوته ودعوى رسالته (أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا) جهرة فيخبرنا برسالته واتباعه (لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ) أى أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد فى قلوبهم (وَعَتَوْ) وتجاوزوا الحد فى الظلم (عُتُوًّا كَبِيرًا) وصف العتو بالكبر فبالغ فى إفراطه أى أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا أنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو واللام فى لقد جواب قسم محذوف (يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ) أى يوم الموت أو يوم البعث ويوم منصوب بما دل عليه (لَا بُشْرَىٰ) أى يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى وقوله (يَوْمَئِذٍ) مؤكد ليوم يرون أو بإضمار اذكر أى اذكر يوم يرون الملائكة ثم أخبر فقال لابشرى بالجنة يومئذ ولا ينتصب بيرون لأن المضاف إليه لا يعمل فى المضاف ولا يبشرى لأنها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله ولأن المنفى بلا لا يعمل فيما قبل لا (لِّلْمُجْرِمِينَ) ظاهر فى موضع ضمير أو عام يتناولهم بعمومه وهم الذين اجترموا الذنوب والمراد الكافرون لأن مطلق الأسماء يتناول أكمل المسميات (وَيَقُولُونَ) أى الملائكة (حِجْرًا مَّحْجُورًا) حراماً محرماً عليكم البشرى أى جعل الله ذلك حراماً عليكم إنما البشرى للمؤمنين والحجر مصدر والكسر والفتح لغتان وقرئ بهما وهو من حجره إذا منعه وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها ومحجوراً لتأكيد معنى الحجر كما قالوا موت مائت (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) هو صفة ولا قدوم هنا ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التى عملوها فى كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضيف ونحو ذلك بحال من خالف سلطانه وعصاه فقدم إلى أشيائه وقصد إلى ما تحت يديه فأفسدها ومزقها كل ممزق ولم يترك لها أثراً والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار والمنثور المفرق وهو استعارة عن جمله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع ثم بين فضل أهل الجنة على أهل النار فقال (أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا) تمييز والمستقر المكان الذى يكونون فيه فى أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحادثون

(وَأَحْسَنُ مَقِيلاً) مكانا يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم ولا نوم فى الجنة ولـكنه سمى مكان استراحتهم إلى الحور مقيلا على طريق التشبيه وروى أنه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم فيقيل أهـل الجنـة فى الجنة وأهل النار فى النار وفى لفظ الأحسن تهكم بهم (وَيَوْمَ) واذكر يوم (تَشَقَّقُ السَّمَآءُ) والأصـل تتشقق فحذف التاء كوفى وأبو عمرو وغيرهم أدغمها فى الشين (بِالْغَمَامِ) لما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذى تشقق به السماء كما تقول شققت السنام بالشفرة فانشق بها (وَنُزِّلَ الْمَلَـٰئِكَةُ تَنزِيلاً) وننزل الملائـكة مكى، وتنزيلا على هـذا مصدر من غير لفظ الفعل والمعنى أن السماء تنفتح بغمام أبيض يخرج منها وفى الغمام الملائـكة ينزلون وفى أيديهـم صحائف أعمال العباد (الْمُلْكُ) مبتدأ (يَوْمَئِذٍ) ظرفه (الْحَقُّ) نعته ومعناه الثابت لأن كل ملك يزول يومئذ فلا يبقى إلا ملـكه (لِلرَّحْمَـٰنِ) خبره (وَكَانَ) ذلك اليوم (يَوْماً عَلَى الْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا) شديداً يقال عسر عليه فهو عسير وعسر ويفهم منه يسره على المؤمنين ففى الحديث «يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلوها فى الدنيا» (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ) عض اليدين كناية عن الغيظ والحسرة لأنه من روادفها فتذكر الرادفة ويدل بهـا على المردوف فيرتفع الـكلام به فى طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده فى نفسه من الروعة مالا يجـده عند لفظ المـكنىّ عنه ، واللام فى الظالم للعهد وأريد به عقبة لما تبين أو للجنس فيتناول عقبة وغيره من الـكفار (يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى اتَّخَذْتُ) فى الدنيا (مَعَ الرَّسُولِ) محمد عليـه الصلاة والسلام (سَبِيلاً) طريقاً إلى النجاة والجنة وهو الإيمان (يَـٰوَيْلَتَىٰ) وقرئ ياويلتى بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادى ويلته وهى هلـكته يقول لها تعالى فهذا أوانك وإنما قلبت الياء ألفا كما فى صحارى ومدارى (لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً) فلان كناية عن الأعلام فإن أريد بالظالم عقبة لما روى أنه اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله عليه الصلاة والسلام فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل فقال له أبىّ بن خلف وهو خليله وجهى من وجهك حرام إلا أن ترجع فارتد فالمعنى ياليتنى لم أتخذ أبيا خليلا فـكنى عن اسمه وإن أريد به الجنس فـكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لامحالة فجعل كناية عنه وقيل هو كناية عن الشيطان (لَّقَدْ أَضَلَّنِى

عَنِ الذِّكْرِ) أى عن ذكر الله أو القرآن أو الإيمان (بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى) من الله (وَكَانَ الشَّيْطَـٰنُ) أى خليله سماه شيطانا لأنه أضله كما يضله الشيطان أو إبليس لأنه الذى حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول (لِلْإِنسَـٰنِ) المطيع له (خَذُولًا) هو مبالغة من الخذلان أى من عادة الشيطان ترك من يواليه وهذا حكاية كلام الله أو كلام الظالم (وَقَالَ الرَّسُولُ) أى محمد عليه الصلاة والسلام فى الدنيا (يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى) قريشاً (اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا) متروكا أى تركوه ولم يؤمنوا به من الهجران وهو مفعول ثان لاتخذوا فى هذا تعظيم للشكاية وتخويف لقومه لأن الأنبياء إذا شكوا إليه قومهم حل بهم العذاب ولم ينظروا ثم أقبل عليه مسلياً وعده النصرة عليهم فقال(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيرًا)أى كذلك كان كل نبى قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفاك بى هادياً إلى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرا لك عليهم والعدو يجوز أن يكون واحدا وجمعا والباء زائدة أى وكفى ربك هاديا وهو تمييز (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى قريش أو اليهود (لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً) حال من القرآن أى مجتمعا (وَٰحِدَةً) يعنى هلا أنزل عليه دفعة واحد فى وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وماله أنزل على التفاريق وهو فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو متفرقا ونزّل هنا بمعنى أنزل وإلا لكان متدافعا بدليل جملة واحدة وهذا اعتراض فاسد لأنهم تحدوا بالإتيان بسورة واحدة من أصغر السور فأبرزوا صفحة عجزهم حتى لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة وبذلوا المهج وما مالوا إلى الحجج (كَذَٰلِكَ) جواب لهم أى كذلك أنزل مفرقا فى عشرين سنة أو فى ثلاث وعشرين وذلك فى كذلك إشارة إلى مدلول قوله لولا نزل عليه القرآن جملة لأن معناه لم أنزل عليك القرآن مفرقا فأعلم أن ذلك (لِنُثَبِّتَ بِهِ) بتفريقه (فُؤَادَكَ) حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شىء وجزأ عقيب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه، أو لنثبت به فؤادك عن الضجر بتواتر الوصول وتتابع الرسول لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب (وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا) معطوف على الفعل الذى تعلق به كذلك كانه قال كذلك فرقناه ورتلناه اى قدرناه آية بعد آية ووقفة بعد وقفة أو أمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى: ورتل القرآن ترتيلا. أى اقراه بترسل وتثبت

أو بيناه تبيينا، والترتيل التبيين فى ترسل وتثبت (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ) بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل فى البطلان (إِلَّا جِئْنَٰكَ بِالْحَقِّ) إلا أتيناك بالجواب الحق الذى لا محيد عنه (وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) وبما هو أحسن معنى ومؤدى من مثلهم أى من سؤالهم وإنما حذف من مثلهم لأن فى الكلام دليلا عليه كما لو قلت رأيت زيدا وعمرا وإن عمرا أحسن وجها كان فيه دليل على أنك تريد من زيد ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا أولا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا أنزل عليك القرآن جملة ألا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك فى حكمتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعنى أن تنزيله مفرقا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شىء منها أدخل فى الإعجاز من أن ينزل كله جملة (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ) الذين مبتدأ وأولئك مبتدأ ثان وشر خبر أولئك وأولئك مع شر خبر الذين أو التقدير هم الذين أو أعنى الذين وأولئك مستأنف (مَّكَانًا) أى مكانة ومنزلة أو مسكنا ومنزلا (وَأَضَلُّ سَبِيلًا) أى وأخطأ طريقا وهو من الإسناد المجازى والمعنى إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضلون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم أضل من سبيله وفى طريقته قوله قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه الآية وعن النبى ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم» قيل يارسول الله كيف يمشون على وجوههم فقال عليه الصلاة والسلام «الذى أمشاكم على أقدامكم يمشيهم على وجوههم» (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ) التوراة كما آتيناك القرآن (وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ) بدل أو عطف بيان (وَزِيرًا) هو فى اللغة من يرجع إليه من الوزر وهو الملجأ والوزارة لا تنافى النبوة فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا (فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا) إلى فرعون وقومه وتقديره فذهبا إليهم وأنذرا فكذبوهما (فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا) التدمير الإهلاك بأمر عجيب

أراد اختصار القصة فذكر أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة أعنى إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (وَقَوْمَ نُوحٍ) أى ودمرنا قوم نوح (لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ) يعنى نوحا وإدريس وشيثا أوكان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع (أَغْرَقْنَـٰهُمْ) بالطوفان (وَجَعَلْنَـٰهُمْ) وجعلنا إغراقهم أو قصتهم (لِلنَّاسِ ءَايَةً) عبرة يعتبرون بها (وَأَعْتَدْنَا) وهيأنا (لِلظَّـٰلِمِينَ) لقوم نوح وأصله وأعتدنا لهم إلا أنه أراد تظليمهم فأظهر أوهو عام لكل من ظلم شرك ويتناولهم بعمومه (عَذَابًا أَلِيمًا) أى النار (وَعَادًا) دمرنا عادا (وَثَمُودَ) حمزة وحفص على تأويل القبيلة وغيرهما، وثمودا على تأويل الحى أو لأنه اسم الأب الأكبر (وَأَصْحَـٰبَ الرَّسِّ) هم قوم شعيب كانوا يعبدون الأصنام فكذبوا شعيبا فبيناهم حول الرس وهى البئر غير مطوية انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم، وقيل الرس قرية قتلوا نبيهم فهلكوا أوهم أصحاب الأخدود والرس الأخدود (وَقُرُونًا) وأهلكنا أمما (بَيْنَ ذَٰلِكَ) المذكور (كَثِيرًا) لا يعلمها إلا الله أرسل إليهم فكذبوهم فأهلكوا (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَـٰلَ) بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين (وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا) أى أهلكنا إهلاكا، وكلا الأول منصوب بما دل عليه ضربنا له الأمثال وهو أنذرنا أو حذرنا والثانى بتبرنا لأنه فارغ له (وَلَقَدْ أَتَوْا) يعنى أهل مكة (عَلَى الْقَرْيَةِ) سدوم وهى أعظم قرى قوم لوط وكانت خمسا أهلك الله أربعا مع أهلها وبقيت واحدة (الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ) أى أمطر الله عليها الحجارة يعنى أن قريشا مروا مرارا كثيرة فى متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التى أهلكت بالحجارة من السماء، ومطر السوء مفعول ثان والأصل أمطرت القرية مطرا أو مصدر محذوف الزوائد أى إمطار السوء (أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا) أماشاهدوا ذلك بأبصارهم عند سفرهم الشام فيتفكروا فيؤمنوا (بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا) بل كانوا قوما كفرة بالبعث لا يخافون بعثا فلا يؤمنون أو لا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم فى الوصول إلى ثواب أعمالهم (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ) إن نافية (إِلَّا هُزُوًا) اتخذه هزوا فى معنى استهزأ به والأصل اتخذه موضع هزؤ أو مهزوءاً به (أَهَـٰذَا الَّذِى) محكى بعد القول المضمر وهذا استصغار واستهزاء أى قائلين أهذا الذى (بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) والمحذوف حال والعائد إلى الذى محذوف أى بعثه

(إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا) أن مخففة من الثقيلة واللام فارقة وهو دليـل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ فى دعوتهم وعرض المعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسـلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم (وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ) هو وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الامهال (مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) هو كالجواب عن قولهم إن كاد ليضلنا لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال إذ لايضل غيره إلا من هو ضال فى نفسه (أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ) أى من أطاع هواه فيما يأتى ويذر فهو عابد هواه وجاعله إلٰهه فيقول الله تعالى لرسوله هذا الذى لا يرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى يروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر فاذا مر بحجر أحسن منه ترك الأول وعبد الثانى وعن الحسن هو فى كل متبع هواه (أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) أى حفيظا تحفظه من متابعة هواه وعبادة مايهواه أفأنت تكون عليه موكلا فتصرفه عن الهوى إلى الهدى عرفه أن إليه التبليغ فقط(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) أم منقطعة معناه بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التى تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهى كونهم مسلوبى الأسماع والعقول لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا ومشبهين بالأنعام التى هى مثل فى الغفلة والضلالة فقد ركبهم الشيطان بالاستذلال لتركهم الاستدلال ثم هم أرجح ضلالة منها لأن الأنعام تسبح ربها وتسجد له وتطيع من يعلفها وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ولايطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى، وقالوا للملائكة: روح وعقل وللبهائم نفس وهوى والآدمى مجمع الكل ابتلاء فإن غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام وإنما ذكر الأكثر لأن فيهم من لم يصده عن الاسلام إلا حب الرياسة وكفى به داء عضالا ولأن فيهم من آمن (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ

رَبِّكَ) ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته (كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) أى بسطه فعم الأرض وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس فى قول الجمهور لأنه ظل ممدود لاشمس معه ولا ظلمة وهو كما قال فى ظل الجنة وظل ممدود إذ لاشمس معه ولا ظلمة (وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً) أى دائما لايزول ولا تذهبه الشمس (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ) على الظل (دَلِيلًا) لأنه بالشمس يعرف الظل ولولاالشمس لماعرف الظل فالأشياء تعرف بأضدادها (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ) أى أخذنا ذلك الظل الممدود (إِلَيْنَا) إلى حيث أردنا (قَبْضًا يَسِيرًا) سهلا غير عسير أو قليلاقليلاأى جزءا فجزءا بالشمس التى تأتى عليه وجاء بثم لتفاضل مابين الأمور فكأن الثانى أعظم من الأول والثالث أعظم من الثانى شبه تباعد ما بينهما فى الفضل بتباعد مابين الحوادث فى الوقت (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً) جعل الظلام الساتر كاللباس (وَالنَّوْمَ سُبَاتاً) راحةلأبدانكم وقطعالأعمالكم والسبت القطع والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته وقيل السبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة وهو كقوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعضده ذكر النشور فى مقابلته (وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً) إذ النشور انبعاث من النوم كنشور الميت أى ينشر فيه الخلق للمعاش وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه لأن فى الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية وفى النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر وقال لقمان لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر (وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ) الريح مكى والمراد به الجنس (بُشْرًا) تخفيف بشُر جمع بشور (بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) أى قدام المطر لأنه ريح ثم سحاب ثم مطر وهذه استعارة مليحة (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) مطرا (طَهُوراً) بليغا فى طهارته والطهور صفة كقولك ماء طهور أى طاهر واسم كقولك لما يتطهر به طهور كالوضوء والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار ومصدر بمعنى التطهر كقولك تطهرت طهورا حسنا ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «لاصلاة إلا بطهور» أى بطهارة وما حكى عن ثعلب هو ما كان طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره وهو مذهب الشافعى رحمه الله تعالى إن كان هذا بيان زيادة الطهارة فحسن ويعضده قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به وإلا فليس فعول من التفعيل فى شىء وقياسه على ماهو مشتق من الأفعال

التمدية كقطوع ومنوع غير سديد لأن بناء الفعول للمبالغة فإن كان الفعل متعديا فالفعول متعد وإن كان لازما فلازم (لِنُحْيِيَ بِهِ) بالمطر (بَلْدَةً مَيْتاً) ذكر ميتا على إرادة البلد أو المكان (وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) أى ونسقى الماء البهائم والناس ومما خلقنا حال من أنعاما وأناسى أى أنعاما وأناسى مما خلقنا وسقى وأسقى لغتان وقرأ المفضل والبرجمى ونَسقيه والأناسى جمع إنسى على القياس ككرسى وكراسى أو إنسان وأصله أناسين كسرحان وسراحين فأبدلت النون ياء وأدغمت وقدم إحياء الأرض على سقى الأنعام والأناسى لأن حياتها سبب لحياتهما وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأناسى متعلقة بها فكأن الإنعام عليهم بسقى الإنعام كالأنعام بسقيهم وتنكير الأنعام والأناسى ووصفها بالكثرة لأن أكثر الناس منيخون بالقرب من الأودية والأنهار فيهم غنية عن سقى السماء وأعقابهم وبقاياهم وهم كثير يعيشون بما ينزل الله من رحمته وتنكير البلدة لأنه يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء ولما كان سقى الأناسى من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكراما لهم وبيان أن من حقهم أن يؤثروا الطهارة فى بواطنهم وظواهرهم لأن الطهورية شرط الإحياء (وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا) ليذكروا حمزة وعلى يريد ولقد صرفنا هذا القول بين الناس فى القرآن وفى سائر الكتب المنزلة على الرسل وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه فيشكروا (فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً) فأبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها أو صرفنا المطر بينهم فى البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وجود ورذاذ وديمة فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله تعالى ورحمته وعن ابن عباس رضى الله عنهما مامن عام أقل مطراً من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء وقرأ الآية وروى أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره فى كل عام لأنه لا يختلف ولكن يختلف فيه البلاد وينتزع من هنا جواب فى تنكير البلدة والأنعام والأناسى ومن نسب الأمطار إلى الأنواء وجحد أن تكون هى والأنواء من خلق الله تعالى كفر وإن رأى أن الله تعالى خالقها وقد نصب الأنواء أمارات ودلالات عليها لم يكفر (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً فَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ) أى لو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى ولبعثنا

فى كل قرية نبيا ينذرها ولـكن شئنا أن نجمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة إلى كافة العالمين فقصرنا الأمر عليك وعظمناك به فتكون وحدك كـكلهم ولذا خوطب بالجمع يا أيها الرسل فقابل ذلك بالشكر والصبر والتشدد فلاتطع الـكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم وكما آثرتك على جميع الأنبياء فآثر رضائى على جميع الأهواء وأريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم (وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ) أى بالله يعنى بعونه وتوفيقه أوبالقرآن أى جادلهم به وقرعهم بالعجز عنه (جِهَادًا كَبِيرًا) عظيما موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاق ويجوز أن يرجع الضمير فى به إلى مادل عليه ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا من كونه نذير كافة القرى لأنه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له وجاهدهم بسبب كونك نذير كافةالقرى جهادا كبيرا جامعا لـكل مجاهدة (وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ) خلاهما متجاورين متلاصقين تقول مرجت الدابة إذا خليتها ترعى وسمى الماءين الـكثيرين الواسعين بحرين (هَٰذَا) أى أحدهما (عَذْبٌ فُرَاتٌ) صفة لعذب أى شديد العذوبة حتى يقرب إلى الحلاوة (وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) صفة لملح أى شديد الملوحة (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا) حائلا من قدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج فهما فى الظاهر مختلطان وفى الحقيقة منفصلان (وَحِجْرًا مَّحْجُورًا) وسترا ممنوعا عن الأعين كقوله حجابا مستورا (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ) اى النطفة (بَشَرًا) إنسانا (فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا) أراد تقسيم البشر قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينسب إليهم فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أى إناثا يصاهر بهن كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) حيث خلق من النطفة الواحدة بشرا نوعين ذكرا وأنثى وقيل فجعله نسبا أى قرابة وصهرا مصاهرة يعنى الوصلة بالنكاح من باب الأنساب لأن التواصل يقع بها وبالمصاهرة لأن التوالد يكون بهما (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ) إن عبدوه (وَلَا يَضُرُّهُمْ) إن تركوه (وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ) على معصية ربه (ظَهِيرًا) معينا ومظاهرا وفعيل بمعنى مفاعل غير عزيز والظهير والمظاهر كالعوين والمعاون والمظاهرة المعاونة والمعنى أن الـكافر بعبادة الصنم يتابع الشيطان ويعاونه على

معصية الرحمن (وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا) للمؤمنين (وَنَذِيراً) منذرا للكافرين (قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ) على التبليغ (مِنْ أَجْرٍ) جعل (إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا) والمراد إلا فعل من شاء واستثناؤه من الأجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صوره بصورة الثواب كأنه يقول إن حفظت مالك اعتدّ حفظك بمنزلة الثواب لى ورضائى به كرضا المثاب بالثواب ولعمرى إنه عليه الصلاة والسلام مع أمته بهذا الصدد ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا تقربهم إليه بالإيمان والطاعة أو بالصدقة والنفقه وقيل المراد لكن من شاء أن يتخذ بالإنفاق إلى رضاء ربه سبيلا فليفعل وقيل تقديره لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجرا إلا اتخاذ المدعو سبيلا إلى ربه بطاعته فذلك أجرى لأن الله يأجرنى عليه (وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ) اتخذ من لا يموت وكيلا لايكلك إلى من يموت ذايلا يعنى ثق به وأسند أمرك إليه فى استكفاء شرورهم ولا تتكل على حى يموت وقرأها بعض الصالحين فقال لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق والتوكل الاعتماد عليه فى كل أمر (وَسَبِّحْ) من لا يكل إلى غيره من توكل عليه (بِحَمْدِهِۦ) بتوفيقه الذى يوجب الحمد أو قل سبحان الله وبحمده أو نزهه عن كل العيوب بالثناء عليه (وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيراً) أى كفى الله خبيرا بذنوب عباده يعنى أنه خبير بأحوالهم كاف فى جزاء أعمالهم (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) أى فى مدة مقدار هذه المدة لأنه لم يكن حينئذ ليل ونهار روى عن مجاهد أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وإنما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَـٰنُ) أى هو الرحمن فالرحمن خبر مبتدأ محذوف أو بدل من الضمير فى استوى أو الذى خلق مبتدأ والرحمن خبره (فَسْئَلْ) بلا همزة مكى وعلى (بِهِۦ) صلة سل كقوله سأل سائل بعذاب واقع كما تكون عن صلته فى قوله تعالى ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم فسأل به كقولك اهتم به واشتغل به وسأل عنه كقولك بحث عنه وفتش عنه أوصلة (خَبِيراً) ويكون خبيرا مفعول سل أى فاسأل عنه رجلا عارفا يخبرك

برحمته أو فاسأل رجلا خبيرا به وبرحمته أو الرحمن اسم من أسماء الله تعالى مذكور فى الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتب حتى يعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون مانعرف الرحمن إلا الذى باليمامة يعنون مسيلمة وكان يقال له رحمان اليمامة (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ) أى إذا قال محمد عليه الصلاة والصلام للمشركين (اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ) صلوا لله واخضعوا له (قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ) أى لانعرف الرحمن فنسجد له فهذا سؤال عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم والسؤال عن المجهول بما أو عن معناه لأنه لم يكن مستعملا فى كلامهم كما استعمل الرحيم والراحم والرحوم (أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا) للذى تأمرنا بالسجود له أو لأمرك بالسجود يامحمد من غير علم منابه. يأمرنا على وحمزة كأن بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولانعرف ماهو فقدعاندوا لأن معناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التى لا غاية بعدها فى الرحمة لأن فعلان من أبنية المبالغة تقول رجل عطشان إذا كان فى نهاية العطش (وَزَادَهُمْ) قوله اسجدوا للرحمن (نُفُوراً) تباعدا عن الإيمان (تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَآءِ بُرُوجاً) هى منازل الكواكب السيارة لكل كوكب بيتان يقوى حاله فيهما. وللشمس بيت وللقمر بيت. فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشترى، والجدى والدلو بيتا زحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيصيب كل واحد منها ثلاثة بروج: فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. سميت المنازل بالبروج التى هى القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البروج من التبرج لظهوره، وقال الحسن وقتادة ومجاهد: البروج هى النجوم الكبار لظهورها (وَجَعَلَ فِيهَا) فى السماء (سِرَاجاً) يعنى الشمس لتوقدها. سرجا حمزة وعلى أى نجوما (وَقَمَرًا مُّنِيراً) مضيئا بالليل (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً) فعلة من خلف كالركبة من ركب وهى الحالة التى يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر والمعنى جعلهما ذوى خلفة يخلف أحدهما الآخر عند مضيه أو يخلفه فى قضاء مافاته من الورد

(لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ) يتدبر فى تسخيرهما واختلافهما فيعرف مدبرهما. يذكُر حمزة وخلف أى يذكر الله أو المنسى فيقضى (أَوْ أَرَادَ شُكُوراً) أى يشكر نعمة ربه عليه فيهما (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ) مبتدأخبره (الَّذِينَ يَمْشُونَ) أوأولئك يجزون والذين يمشون ومابعدها صفة والإضافة إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل . وصف أولياءه بعدما وصف أعداءه (عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً) حال أو صفة للمشى أى هينين أومشيا هينا والهون الرفق واللين أى يمشون بسكينة ووقار وتواضع دونمرح واختيال وتكبر فلايضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ولذا كرهبعض العلماء الركوب فى الأسواق ولقوله: ويمشون فى الأسواق (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَٰهِلُونَ) أى السفهاء بما يكرهون (قَالُوا سَلَٰماً) سدادا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإفك أوتسلما منكم نتاركـكم ولانجاهلـكم فأقيم السلام مقام التسلم وقيل نسختها آية القتال ولاحاجة إلىذلك فالإغضاء عنالسفهاء مستحسن شرعاومروءة هذاوصف نهارهم ثم وصف ليلهم بقوله (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً) جمع ساجد (وَقِيَٰماً) جمع قائم والبيتوتة خلاف الظلول وهىأن يدركك الليل نمت أو لم تنم وقالوامن قرأشيئامن القرآنفى صلاة وإنقل فقد باتساجداوقائما وقيل هماالركعتان بعدالمغرب والركعتان بعدالعشاء والظاهر أنهوصف لهم بإحياء الليل أو أكثره (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً) هلاكا لازما ومنهالغريم. لملازمته. وصفهم بإحياء الليل ساجدين قائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذانا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله فى صرف العذاب عنهم (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً) أى إن جهنم. وساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقراً والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم إن وجعلها خبرا لها أو بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقرا حال أو تمييز ويصح أن يكون التعليلان متداخلين ومترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم (وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا) لم يجاوزوا الحد فى النفقة أولم يأكلوا للتنعم ولم يلبسوا للتصلف وعنابنعباس رضىاللهعنهما لم ينفقوا فىالمعاصى فالإسراف مجاوزة القدر وسمع رجل رجلا يقول لاخير فى الإسراف فقال لاإسراف فىالخير ، وقال عليه الصلاة والسلام «من منع حقا فقد قتر ومن أعطى فىغيرحق فقد أسرف» (وَلَمْ يَقْتُرُوا)

بضم التاء كوفى وبضم الياء وكسر التاء مدنى وشامى وبفتح الياء وكسر التاء مكى وبصرى والقتر والإقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الإسراف (وَكَانَ) إنفاقهم (بَيْنَ ذَٰلِكَ) أى الإسراف والإقتار (قَوَاماً) أى عدلا بينهما فالقوام العدل بين الشيئين والمنصوبان أى بين ذلك قواما خبران وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر عليه الصلاة والسلام ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك الآية. وسأل عبد الملك بن مروان عمر بن عبد العزيز عن نفقته حين زوجه ابنته فقال الحسنة بين السيئتين فعرف عبد الملك أنه أراد ما فى هذه الآية وقيل أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثيابهم للجمال والزينة ولكن لسد الجوعة وستر العورة ودفع الحر والقر وقال عمر رضى الله عنه كفى سرفا أن لا يشتهى الرجل شيئا إلا أكله (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ) أى لا يشركون (وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ) أى حرمها يعنى حرم قتلها (إِلَّا بِالْحَقِّ) بقود أو رجم أو ردة أو شرك أو سعى فى الأرض بالفساد وهو متعلق بالقتل المحذوف أو بلا يقتلون (وَلَا يَزْنُونَ) ونفى هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريض لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم كأنه قيل والذين طهرهم الله مما أنتم عليه (وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ) أى المذكور (يَلْقَ أَثَاماً) جزاء الإثم (يُضَاعَفْ) بدل من يلق لأنهما فى معنى واحد إذ مضاعفة العذاب هى لقاء الآثام كقوله .

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

فجزم تلمم لأنه بمعنى تأتنا إذ الإتيان هو الإلمام. يضعَّفْ مكى ويزيد ويعقوب. يضعَّفُ شامى يضاعفُ أبو بكر على الاستئناف أو على الحال ومعنى يضاعف (لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أى يعذب على مرور الأيام فى الآخرة عذابا على عذاب وقيل إذا ارتكب المشرك معاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعا فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه (وَيَخْلُدْ) جزمه جازم يضاعف ورفعه رافعه لأنه معطوف عليه (فِيهِ) فى العذاب. فيهى مكى وحفص بالإشباع وإنما خص حفص الإشباع بهذه الكلمة مبالغة فى الوعيد والعرب تمد للمبالغة مع أن الأصل فى هاء الكناية الإشباع (مُهَاناً) حال أى ذليلا (إِلَّا مَن تَابَ) عن الشرك وهو استثناء

من الجنس فى موضع النصب (وَءَامَنَ) بمحمد عليه الصلاة والسلام (وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا) بعدتوبته (فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ) أى يوفقهم للمحاسن بعد القبائح أو يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الإيمان والطاعة ولم يرد به أن السيئة بعينها حسنة ولكن المراد ماذكرنا. يبدل مخففا البرجمى (وَكَانَ اللهُ غَفُوراً) يكفر السيئات (رَّحِيماً) يبدلها بالحسنات (وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً) أى ومن تاب وحقق التوبة بالعمل الصالح فإنه يتوب بذلك إلى الله تعالى متابا مرضيا عنده مكفرا للخطايا محصلا للثواب (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) أى الكذب يعنى ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يقربونها تنزها عن مخالطة الشر وأهله إذ مشاهدة الباطل شركة فيه وكذلك النظارة إلى مالم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه فى الآثام لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا وسبب وجود الزيادة فيه وفى مواعظ عيسى عليه السلام: إياكم ومجالسة الخاطئين. أولا يشهدون شهادة الزور على حذف المضاف وعن قتادة المراد مجالس الباطل وعن ابن الحنفية لايشهدون اللهو والغناء (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ) بالفحش وكل ماينبغى أن يلغى ويطرح والمعنى وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به (مَرُّوا كِرَاماً) معرضين مكرمين أنفسهم عن التلوث به كقوله: وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه. وعن الباقر رضى الله عنه إذا ذكروا الفروج كنوا عنها (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ) أى قرئ عليهم القرآن أو وعظوا بالقرآن (لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً) هذا ليس بنفى الخرور بل هو إثبات له ونفى الصمم والعمى ونحوه لا يلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء يعنى أنهم إذا ذكروا بها خروا سجدا وبكيا سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون واعية لما أمروا به ونهوا عنه لا كالمنافقين وأشباههم دليله قوله تعالى: وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا) من للبيان كأنه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا (وَذُرِّيَّٰتِنَا) ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرة أعين وهو من قولهم رأيت منك أسدا أى أنت أسد أو للابتداء على معنى هب لنا من جهتهم ما تقربه عيوننا من طاعة وصلاح وذريتنا. أبو عمرو وكوفى غير حفص لإرادة الجنس وغيرهم ذرياتنا (قُرَّةَ أَعْيُنٍ) وإنما نكر لأجل تنكير القرة لأن المضاف

لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه كأنه قال هب لنا منهم سرورا وفرحا وإنما قيل أعين على القلة دون عيون لأن المراد أعين المتقين وهى قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال الله تعالى: وقليل من عبادى الشكور. ويجوز أن يقال فى تنكير أعين إنها أعين خاصة وهى أعين المتقين والمعنى أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجا وأعقابا عمالا لله تعالى يسرون بمكانهم وتقر بهم عيونهم وقيل ليس شىء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله تعالى وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو الولد إذا رآه يكتب الفقه (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً) أى أئمة يقتدون بنا فى الدين فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس أو واجعل كل واحد منا إماما قيل فى الآية ما يدل على أن الرياسة فى الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها (أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ) أى الغرفات وهى العلالى فى الجنة فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس دليله قوله: وهم فى الغرفات آمنون . (بِمَا صَبَرُوا) أى بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغيرذلك (وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا) ويلقون كوفى غير حفص (تَحِيَّةً) دعاء بالتعمير (وَسَلَاماً) ودعاء بالسلامة يعنى أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم أو يحيي بعضهم بعضا ويسلم عليه (خَٰلِدِينَ فِيهَا) حال (حَسُنَتْ) أى الغرفة (مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً) موضع قرار وإقامة وهى فى مقابلة ساءت مستقرا ومقاما (قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ) ما متضمنة لمعنى الاستفهام وهى فى محل النصب ومعناه مايصنع بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى الاسلام أولولا عبادتكم له أى أنه خلقكم لعبادته كقوله: وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. أى الاعتبار عند ربكم لعبادتكم أو ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة، وهو كقوله تعالى : مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ) رسولى يا أهل مكة (فَسَوْفَ يَكُونُ) العذاب (لِزَاماً) أى ذا لزام أو ملازما وضع مصدر لازم موضع اسم الفاعل، وقال الضحاك مايعبأ مايبالى بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه إلها آخر .

﴿ سورة الشعراء مكية وهى مائتان وعشرون وسبع آيات ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسٓمٓ) طس ويس وحم ممالة كوفى غير الأعشى والبرجمى وحفص ويظهر النون عندالميم يزيد وحمزة. وغيرهما يدغمها (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ) الظاهر إعجازه، وصحة أنه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن والمعنى آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين (لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ) قاتل ولعل للإشفاق (نَّفْسَكَ) من الحزن يعنى أشفق على نفسك إن تقتلها حسرة وحزنا على مافاتك من إسلام قومك (أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) لئلا يؤمنوا أو لامتناع إيمانهم أو خيفة أن لا يؤمنوا (إِن نَّشَأْ) إيمانهم (نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً) دلالة واضحة (فَظَلَّتْ) أى فتظل لأن الجزاء يقع فيه لفظ الماضى فى معنى المستقبل تقول إن زرتنى أكرمتك أى أكرمك كذا قاله الزجاج (أَعْنَٰقُهُمْ) رؤساؤهم ومقدموهم أوجماعاتهم يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم (لَهَا خَٰضِعِينَ) منقادين وعن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فينا وفى بنى أمية فتكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعدصعوبة ويلحقهم هوان بعدعزة (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) أى وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيرا إلا جددوا إعراضا عنه وكفرا به (فَقَدْ كَذَّبُوا) محمدا ﷺ فيما أتاهم به (فَسَيَأْتِيهِمْ) فسيعلمون (أَنبَٰٓؤُا) أخبار (مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) وهذا وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذامسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ما الشىء الذى كانوا يستهزئون به وهو القرآن وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التى كانت خافية عليهم (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا) كم نصب بأنبتنا (فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ) صنف من النبات (كَرِيمٍ) محمود كثير المنفعة يأكل منه الناس والأنعام كالرجل الكريم الذى نفعه عام وفائدة الجمع بين كلمتى الكثرة والإحاطة أن كلمة كل تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم تدل على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة وبه نبه على كمال قدرته (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) أى إن فى إنبات تلك الأصناف لآية على أن مبنتها قادر على إحياء الموتى وقدعلم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مرجى

إيمانهم (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ) فى انتقامه من الكفرة (الرَّحِيمُ) لمن آمن منهم ووحد آية مع الإخبار بكثرتها لأن ذلك مشار به إلى مصدر أنبتنا أو المراد إن فى كل واحد من تلك الأزواج لآية أى آية (وَإِذْ) مفعول به أى اذكر إذ (نَادَىٰ) دعا (رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ) إن بمعنى أى (الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أنفسهم بالكفر وبنى إسرائيل بالاستعباد وذبح الأولاد سجل عليهم بالظلم ثم عطف (قَوْمَ فِرْعَوْنَ) عليهم عطف البيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد (أَلَا يَتَّقُونَ) أى ائتهم زاجرا فقد آن لهم أن يتقوا وهى كلمة حث وإغراء ويحتمل أنه حال من الضمير فى الظالمين أى يظلمون غير متقين الله وعقابه فأدخلت همزة الإنكار على الحال (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ) الخوف غم يلحق الإنسان لأمر سيقع (أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي) بتكذيبهم إياى مستأنف أو عطف على أخاف (وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي) بأن تغلبنى الحمية على ما أرى من المحال وأسمع من الجدال وبنصبهما يعقوب عطفا على يكذبون فالخوف متعلق بهذه الثلاثة على هذا التقدير وبالتكذيب وحده بتقدير الرفع (فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ) أى أرسل إليه جبريل واجعله نبيا يعيننى على الرسالة وكان هارون بمصر حين بعث موسى نبيا بالشام ولم يكن هذا الالتماس من موسى عليه السلام توقفا فى الامتثال بل التماس عون فى تبليغ الرسالة وتمهيد العذر فى التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف فى امتثال الأمر وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ) أى تبعة ذنب بقتل القبطى فحذف المضاف أو سمى تبعة الذنب ذنبا كما سمى جزاء السيئة سيئة (فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) أى يقتلونى به قصاصا وليس هذا تعللا أيضا بل استدفاع للبلية المتوقعة وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة ولذا وعده بالكلاءة والدفع بكلمة الردع وجمع له الاستجابتين معا فى قوله (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا) لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الله الدفع بردعه عن الخوف والتمس منه رسالة أخيه فأجابه بقوله اذهبا أى جعلته رسولا معك فاذهبا وعطف فاذهبا على الفعل الذى يدل عليه كلا كأنه قيل ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون (بِآيَاتِنَا) مع آياتنا وهى اليد والعصا وغير ذلك (إِنَّا مَعَكُم) أى معكما بالعون والنصرة ومع من أرسلتما إليه بالعلم والقدرة (مُّسْتَمِعُونَ) خبر لإن

ومعكم لغو أو هما خبران أى سامعون والاستماع فى غير هذا الاصغاء للسماع يقال استمع فلان إلى حديثه أى أصغى إليه ولايجوز حمله ههنا على ذلك فحمل على السماع (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ) لم يثن الرسول كما ثنى فى قوله إنا رسولا ربك لأن الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعل ثمة بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وجعل هنا بمعنى الرسالة فيستوى فى الوصف به الواحد والتثنية والجمع أو لأنهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنهما رسول واحد أو أريد إن كل واحد منا (أَنْ أَرْسِلْ) بمعنى أى أرسل لتضمن الرسول معنى الارسال وفيه معنى القول (مَعَنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ) يريد خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهما فأتيا بابه فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب إن ههنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك منه فأديا إليه الرسالة فعرف فرعون موسى فعند ذلك (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا) وإنما حذف فأتيا فرعون فقال اختصارا والوليد الصبي لقرب عهده من الولادة أى ألم تكن صغيرا فربيناك (وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) قيل ثلاثين سنة (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ) يعنى قتل القبطى فعرض إذ كان ملكا (وَأَنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ) بنعمتى حيث قتلت خبازى أو كنت على ديننا الذى تسميه كفرا وهذا افتراء منه عليه لأنه معصوم من الكفر وكان يعايشهم بالتقية (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا) أى إذ ذاك (وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) الجاهلين بأنها تبلغ القتل والضال عن الشيء هو الذاهب عن معرفته أو الناسين من قوله أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى فدفع وصف الكفر عن نفسه ووضع الضالين موضع الكافرين وإذا جواب وجزاء معا وهذا الكلام وقع جوابا لفرعون وجزاء له لأن قول فرعون وفعلت فعلتك معناه أنك جازيت نعمتى بما فعلت فقال له موسى نعم فعلتها مجازيا لك تسليما لقوله لأن نعمته كانت جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء (فَفَرَرْتُ مِنكُمْ) إلى مدين (لَمَّا خِفْتُكُمْ) أن تقتلونى وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج الآية (فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا) نبوة وعلما فزال عنى الجهل والضلالة (وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) من جملة رسله (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ) كر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله وأبى أن تسمى نعمة لأنها نقمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بنى إسرائيل لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح

أبنائهم هو السبب فى حصوله عنده وتربيته ولو تركهم لرباه أبواه فكأن فرعون امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه إذا حققت وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيدا ووحد الضمير فى تمنها وعبدت وجمع فى منكم وخفتكم لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. وأما الامتنان فمنه وحده وكذا التعبيد وتلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لايدرى ماهى إلا بتفسيرها ومحل أن عبدت الرفع عطف بيان لتلك أى تعبيدك بنى إسرائل نعمة تمنها على (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَٰلَمِينَ) أى إنك تدعى أنك رسول رب العالمين فما صفته لأنك إذا أردت السؤال عن صفة زيد تقول مازيد تعنى أطويل أم قصير أفقيه أم طبيب نص عليه صاحب الكشاف وغيره (قَالَ) موسى مجيبا له على وفق سؤاله (رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) أى ومابين الجنسين (إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) أى إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل فكفى خلق هذه الأشياء دليلا أو إن كان يرجى منكم الإيقان الذى يؤدى إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلا لم ينفع والإيقان العلم الذى يستفاد بالاستدلال ولذا لا يقال الله موقن (قَالَ) أى فرعون (لِمَنْ حَوْلَهُ) من أشراف قومه وهم خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) معجبا قومه من جوابه لأنهم يزعمون قدمهما وينكرون حدوثهما وأن لهما ربا فاحتاج موسى إلى أن يستدل بما شاهدوا حدوثه وفناءه فاستدل حيث (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ) أى هو خالقكم وخالق آبائكم فإن لم تستدلوا بغيركم فبأنفسكم وإنما قال رب آبائكم لأن فرعون كان يدعى الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم (قَالَ) أى فرعون (إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) حيث يزعم أن فى الوجود إلها غيرى وكان فرعون ينكر إلهية غيره(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) فتستدلون بما أقول فتعرفون ربكم وهذا غاية الارشاد حيث عمم أولا بخلق السماوات والأرض وما بينهما ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم فى فصول السنة وحساب مستو من

أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن عن الاحتجاج بالاحياء والاماتة على نمروذ بن كنعان وقيل سأله فرعون عن الماهية جاهلا عن حقيقة سؤاله فلما أجاب موسى بحقيقة الجواب وقع عنده أن موسى حاد عن الجواب حيث سأله عن الماهية وهو يجيب عن ربوبيته وآثار صنعه فقال معجبا لهم من جواب موسى ألاتستمعون فعاد موسى إلى مثل قوله الأول فجننه فرعون زاعما أنه حائد عن الجواب فعاد ثالثا إلى مثل كلامه الأول مبينا أن الفرد الحقيقي إنما يعرف بالصفات وأن السؤال عن الماهية محال وإليه الاشارة فى قوله تعالى إن كنتم تعقلون أى إن كان لكم عقل علمكم أنه لاتمكن معرفته إلا بهذا الطريق فلما تحير فرعون ولم يتهيأ له أن يدفع ظهور آثار صنعه (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِى) أى غيرى إلها (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) أى لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الأرض بعيدة العمق فردا لا يبصر فيها ولايسمع فكان ذلك أشد من القتل ولو قيل لأسجننك لم يؤد هذا المعنى وإن كان أخصر (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ) الواو للحال دخلت عليها همزه الاستفهام أى أتفعل بى ذلك ولو جئتك (بِشَىْءٍ مُّبِينٍ) أى جائيا بالمعجزة (قَالَ فَأْتِ بِهِ) بالذى يبين صدقك (إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ) أن لك بينة وجواب الشرط مقدر أى فأحضره (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) ظاهر الثعبانية لاشىء يشبه الثعبان كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر روى أن العصا ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون أسألك بالذى أرسلك إلا أخذتها فأخذها فعادت عصا (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ) فيه دليل على أن بياضها كان شيئا يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة وكان بياضها نوريا روى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال فهل غيرها فأخرج يده فقال لفرعون ماهذه؟ قال فرعون: يدك، فأدخلها فى إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق (قَالَ) أى فرعون (لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ) هو منصوب نصبين نصب فى اللفظ والعامل فيه ما يقدر فى الظرف ونصب فى المحل وهو النصب على الحال من الملأ أى كائنين حوله والعامل فيه قال (إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ) بالسحر ثم أغوى قومه على

موسى بقوله (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا) منصوب لأنه مفعول به من قولك أمرتك الخير (تَأْمُرُونَ) تشيرون فى أمره من حبس أو قتل من المؤامرة وهى المشاورة أو من الأمر الذى هو ضد النهى لما تحير فرعون برؤية الآيتين وزل عنه ذكر دعوى الالهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه خوفا طفق يؤامر قومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم أو جعلهم آمرين ونفسه مأمورا (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ) أخر أمرهما ولاتباغت قتلهما خوفا من الفتنة (وَابْعَثْ فِى الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ) شرطا يحشرون السحرة وعارضوا قول فرعون إن هذا لساحر عليم بقولهم (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) فجاءوا بكلمة الاحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض قلقه (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) أى يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لأنه الوقت الذى وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة فى قوله تعالى: موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى. والميقات ما وقت به أى حدد من زمان أومكان ومنه مواقيت الاحرام (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ) أى اجتمعوا وهو استبطاء لهم فى الاجتماع والمراد منه استعجالهم (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ) فى دينهم (إِن كَانُوا هُمُ الْغَٰلِبِينَ) أى غلبوا موسى فى دينه وليس غرضهم اتباع السحرة وإنما الغرض الكلى أن لايتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى (فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ) وبكسر العين على وهما لغتان (وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) أى قال فرعون نعم لكم أجر عندى وتكونون مع ذلك من المقربين عندى فى المرتبة والجاه فتكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج ولما كان قولهم: أئن لنا لأجرا فى معنى جزاء الشرط لدلالته عليه وكان قوله: وإنكم إذا لمن المقربين معطوفا عليه دخلت إذا قارة فى مكانها الذى تقضيه من الجواب والجزاء (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ) من السحر فسوف ترون عاقبته (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ) سبعين ألف حبل (وَعِصِيَّهُمْ) سبعين ألف عصا وقيل كانت الحبال اثنين وسبعين ألفا وكذا العصى (وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَٰلِبُونَ) أقسموا بعزته وقوته وهو من أيمان الجاهلية (فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ) تبتلع (مَا يَأْفِكُونَ) ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته

بسحرهم ويزوّرونه ويخيلون فى حبالهم وعصيهم أنها حياة تسعى (فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ) عبر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة لأنه ذكر مع الإلقاآت ولأنهم لسرعة ماسجدوا صاروا كأنهم ألقوا (قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ) عن عكرمة رضى الله عنه أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ) عطف بيان لرب العالمين لأن فرعون كان يدعى الربوبية فأرادوا أن يعزلوه وقيل إن فرعون لما سمع منهم آمنا برب العالمين قال إياى عنيتم قالوا رب موسى وهارون (قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ) بذلك (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) وقد تواطأتم على أمر ومكر (فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) وبال ما فعلتم ثم صرح فقال (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ) من أجل خلاف ظهر منكم (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) كأنه أراد به ترهيب العامة لئلا يتبعوهم فى الإيمان (قَالُوا لَا ضَيْرَ) لاضرر وخبر لا محذوف أى فى ذلك أوعلينا (إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَا أَن كُنَّا) لأن كنا (أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) من أهل المشهد أو من رعية فرعون . أراد والاضرر علينا فى ذلك بل لنا أعظم النفع لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا أولا ضير علينا فيما تتوعدنا به إنه لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت والقتل أهون أسبابه وأرجاها أولا ضير علينا فى قتلك إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا إنقلاب من يطمع فى مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ) وبوصل الهمزة حجازى (بِعِبَادِى) بنى إسرائيل سماهم عباده لإيمانهم بنبيه أى سر بهم ليلا وهذا بعد سنين من إيمان السحرة (إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ) يتبعكم فرعون وقومه علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم يعنى إنى بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم من طريق البحر فأهلكهم وروى أنه مات فى تلك الليلة فى كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اجمع بنى اسرائيل كل أربعة أبيات فى بيت ثم اذبح الجداء واضربوا بدمائها على أبوابكم فإنى سآمر الملائكة أن لايدخلوا بيتا على بابه دم وسآمرهم بقتل أبكار القبط واخبزوا خبزا فطيرا فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادى حتى تنتهى إلى البحر فيأتيك أمرى (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ) أى جامعين للناس بعنف فلما اجتمعوا قال (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) والشرذمة الطائفة

القليلة ذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلا بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة أو أراد بالقلة الذلة لاقلة العدد أى أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولاتتوقع غلبتهم وإنمااستقل قوم موسى وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا لكثرة من معه فعن الضحاك كانوا سبعة آلاف ألف (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ) أى أنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا وهى خروجهم من مصرنا وحملهم حلينا وقتلهم أبكارنا (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ) شامى وكوفى وغيرهم حذرون فالحذر المتيقظ والحاذر الذى يجدد حذره وقيل المؤدى فى السلاح وإنما يفعل ذلك حذرا واحتياطا لنفسه يعنى ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا الى حسم فساده وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به العجز والفتور (فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ) بساتين (وَعُيُونٍ) وأنهار جارية (وَكُنُوزٍ) وأموال ظاهرة من الذهب والفضة وسماها كنوزا لأنهم لا ينفقون منها فى طاعة الله تعالى (وَمَقَامٍ) ومنزل (كَرِيمٍ) بهى بهيج وعن ابن عباس رضى الله عنهما المنابر (كَذَٰلِكَ) يحتمل النصب على أخرجناهم مثل ذلك الاخراج الذى وصفنا والرفع على أنه خبرمبتدأ محذوف أى الامر كذلك (وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) عن الحسن لماعبروا النهر رجعوا وأخذوا ديارهم وأموالهم (فَأَتْبَعُوهُم) فلحقوهم فاتبعوهم يزيد (مُّشْرِقِينَ) حال أى داخلين فى وقت شروق الشمس وهو طلوعها أدرك قوم فرعون موسى وقومه وقت طلوع الشمس (فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ) أى تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه والمراد بنو اسرائيل والقبط (قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) أى قرب أن يلحقنا عدونا وأمامنا البحر (قَالَ) موسى عليه السلام ثقة بوعد الله إياه (كَلَّآ) ارتدعوا عن سوء الظن بالله فلن يدركوكم (إِنَّ مَعِىَ) معىَ حفص (رَبِّى سَيَهْدِينِ) أى سيهدينى طريق النجاة من إدراكهم وإدرارهم سيهدينى بالياء يعقوب (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ) أى القلزم أو النيل (فَانفَلَقَ) أى فضرب فانفلق وانشق فصار اثنى عشر فرقا على عدد الأسباط (فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ) أى جزء تفرق منه (كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) كالجبل المنطاد فى السماء (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ) حيث انفلق البحر (ٱلْآخَرِينَ) قوم فرعون

أى قربناهم من بنى اسرائيل أو من البحر (وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ) من الغرق (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) فرعون وقومه وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب فى الآجال وغيرها من الحوادث فإنهم اجتمعوا فى الهلاك مع اختلاف طوالعهم روى أن جبريل عليه السلام كان بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون فكان يقول لبنى إسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم يلحق آخركم بأولكم فلما انتهى موسى إلى البحر قال يوشع لموسى أين أمرت فهذا البحر أمامك وغشيك آل فرعون قال موسى ههنا فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا وروى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال عند ذلك يامن كان قبل كل شىء والمكون لكل شىء والكائن بعد كل شىء (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) أى فيما فعلنا بموسى وفرعون (لَآيَةً) لعبرة عجيبة لاتوصف (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم) أى المغرقين (مُّؤْمِنِينَ) قالوا لم يؤمن منهم إلا آسية وحزقيل مؤمن آل فرعون ومريم التى دلت موسى على قبر يوسف (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ) بالانتقام من أعدائه (الرَّحِيمُ) بالإنعام على أوليائه (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ) على مشركى قريش (نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ) خبره (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ) قوم إبراهيم أو قوم الأب (مَا تَعْبُدُونَ) أى أى شىء تعبدون وإبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة الأصنام ولكنه سألهم ليريهم أن مايعبدونه ليس بمستحق للعبادة (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا) وجواب ما تعبدون أصناما كيسئلونك ماذا ينفقون قل العفو ماذا قال ربكم قالوا الحق لأنه سؤال عن المعبود لا عن العبادة وإنما زادوا نعبد فى الجواب افتخارا ومباهاة بعبادتها ولذا عطفوا على نعبد (فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ) فنقيم على عبادتها طول النهار وإنما قالوافنظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل أو معناه الدوام (قَالَ) أى ابراهيم (هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ) هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف لدلالة (إِذْ تَدْعُونَ) عليه (أَوْ يَنفَعُونَكُمْ) إن عبدتموها (أَوْ يَضُرُّونَ) إن تركتم عبادتها (قَالُوا بَلْ) اضراب أى لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ولا نعبدها لشىء من ذلك ولكن (وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) فقلدناهم (قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ) الأولون (فَإِنَّهُمْ) أى الأصنام (عَدُوٌّ لِّىٓ) العدو والصديق يجيئان فى معنى الوحدة والجماعة يعنى لو عبدتهم لكانوا أعداء

لى فى يوم القيامة كقوله سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال الفراء هو من المقلوب أى فإنى عدوهم وفى قوله عدو لى دون لكم زيادة نصح ليكون أدعى لهم إلى القبول ولو قال فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة (إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ) استثناء منقطع لأنه لم يدخل تحت الأعداء كأنه قال لكن رب العالمين (الَّذِى خَلَقَنِى) بالتكوين فى القرار المكين (فَهُوَ يَهْدِينِ) لمناهج الدنيا ولمصالح الدين والاستقبال فى يهدينى مع سبق العناية لأنه يحتمل يهدينى للأهم الأفضل والأتم الأكمل أو الذى خلقنى لأسباب خدمته فهو يهدينى إلى آداب خلته (وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى) أضاف الإطعام إلى ولى الإنعام لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام (وَيَسْقِينِ) قال ابن عطاء هو الذى يحيينى بطعامه ويروينى بشرابه (وَإِذَا مَرِضْتُ) وإنما لم يقل أمرضنى لأنه قصد الذكر بلسان الشكر فلم يضف إليه مايقتضى الضر قال ابن عطاء وإذا مرضت برؤية الخلق (فَهُوَ يَشْفِينِ) بمشاهدة الحق قال الصادق إذا مرضت برؤية الأفعال فهو يشفين بكشف منة الإفضال (وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) ولم يقل إذا مت لأنه الخروج من حبس البلاء ودار الفناء إلى روض البقاء لوعد اللقاء وأدخل ثم فى الإحياء لتراخيه عن الإفناء وأدخل الفاء فى الهداية والشفاء لأنهما يعقبان الخلق والمرض لامعا معا (وَالَّذِى أَطْمَعُ) طمع العبيد فى الموالى بالافضال لاعلى الاستحقاق بالسؤال (أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى) قيل هو قوله إنى سقيم بل فعله كبيرهم هذا ربى للبازغ هى أختى لسارة وماهى إلا معاريض جائزة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم لأنفسهم وتعليم للأمم فى طلب المغفرة (يَوْمَ الدِّينِ) يوم الجزاء (رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا) حكمة أو حكما بين الناس بالحق أو نبوة لأن النبى عليه السلام ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله (وَأَلْحِقْنِى بِالصَّٰلِحِينَ) أى الأنبياء ولقد أجابه حيث قال وإنه فى الآخرة لمن الصالحين (وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ) أى ثناء حسنا وذكرا جميلا فى الأمم التى تجىء بعدى فأعطى ذلك فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه ووضع اللسان موضع القول لأن القول يكون به (وَاجْعَلْنِى مِن) يتعلق بمحذوف أى وارثا من (وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ) أى من الباقين فيها (وَاغْفِرْ لِأَبِى) اجعله أهل المغفرة بإعطاء الإسلام وكان وعده الاسلام يوم فارقه

(إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) الكافرين (وَلَا تُخْزِنِي) الاخزاء من الخزى وهو الهوان أو من الخزاية وهو الحياء وهذا نحو الاستغفار كما بينا (يَوْمَ يُبْعَثُونَ) الضمير فيه للعباد لأنه معلوم أو للضالين وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه أى ولا تخزنى فى يوم يبعث الضالون وأبى فيهم (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ) هو بدل من يوم الأول (وَلَا بَنُونَ) أحدا (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) عن الكفر والنفاق فقلب الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى: فى قلوبهم مرض أى إن المال إذا صرف فى وجوه البر وبنوه صالحون فإنه ينتفع به وبهم سليم القلب أو جعل المال والبنون فى معنى الغنى كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الاغنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل فى دينه بسلامة قلبه كما أن غناه فى دنياه بماله وبنيه وقد جعل من مفعولا لينفع أى لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه فى طاعة الله ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع ويجوز على هذا إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين وقد صوب الجليل استثناء الخليل إكراما له ثم جعله صفة له فى قوله: وإن من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم وما أحسن ما رتب عليه السلام كلامه مع المشركين حيث سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم صور المسئلة فى نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله تعالى فعظم شأنه وعدد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) أى قربت عطف جملة على جملة أى تزلف من موقف السعداء فينظرون إليها (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ) أى أظهرت حتى يكاد يأخذهم لهبها (لِلْغَاوِينَ) للكافرين (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ) يوبخون على إشراكهم فيقال لهم أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لانهم وآلهتهم وقود النار (فَكُبْكِبُوا) أنكسوا وطرح

بعضهم على بعض (فِيهَا) فى الجحيم (هُمْ) أى الآلهة (وَالْغَاوُونَ) وعبدتهم الذين برزت لهم والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة إثر مرة حتى يستقر فى قعرها نعوذ بالله منها (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) شياطينه أو متبعوه من عصاة الإنس والجن (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ) يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم) نعدلكم أيها الأصنام (بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) فى العبادة (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) أى رؤساؤهم الذين أضلوهم أو إبليس وجنوده ومن سن الشرك (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ) كالمؤمنين من الأنبياء والأولياء والملائكة (وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) كما نرى لهم أصدقاء إذ لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادى: الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين أوفما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. والحميم -من الاحتمام وهو الاهتمام- الذى يهمه ما يهمك أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص وجمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء فى العادة وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما أهمك فقليل وسئل حكيم عن الصديق فقال اسم لا معنى له وجاز أن يراد بالصديق الجمع (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً) رجعة إلى الدنيا (فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وجواب لو محذوف وهو لفعلنا كيت وكيت أو لو فى مثل هذا بمعنى التمنى كأنه قيل فليت لنا كرة لما بين معنى لو وليت من التلاقى (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) فيما ذكر من الأنباء (لَآيَةً) أى لعبرة لمن اعتبر (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) فيه أن فريقا منهم آمنوا (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ) المنتقم ممن كذب إبراهيم بنار الجحيم (الرَّحِيمُ) المسلم كل ذى قلب سليم إلى جنة النعيم (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) القوم يذكر ويؤنث قيل ولد نوح فى زمن آدم عليه السلام ونظير قوله المرسلين والمراد نوح عليه السلام قولك فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله إلا دابة أو برد أو كانوا ينكرون بعث الرسل أصلا فلذا جمع أو لأن من كذب واحدا منهم فقد كذب الكل لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل

وكذا جميع مافى هذه السورة (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ) نسبا لادينا (نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ) خالق الأنام فتتركوا عبادة الأصنام (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) كان مشهورا بالأمانة فيهم كمحمد عليه الصلاة والسلام فى قريش (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) فيما آمركم به وأدعوكم إليه من الحق وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ) على هذا الأمر (مِنْ أَجْرٍ) جزاء (إِنْ أَجْرِيَ) بالفتح مدنى وشامى وأبو عمرو وحفص (إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فلذلك أريده (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) كرره ليقرره فى نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلة فعلة الأول كونه أمينا فيما بينهم وعلة الثانى حسم طمعه منهم كأنه قال إذا عرفتم رسالتى وأمانتى فاتقوا الله ثم إذا عرفتم احترازى من الأجر فاتقوا الله (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ) الواو للحال وقد مضمرة بعدها دليله قراءة يعقوب وأتباعك جمع تابع كشاهد وأشهاد أوتبع كبطل وأبطال (الْأَرْذَلُونَ) السّفلة والرذالة الخسة والدناءة وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنيئة والصناعة لاتزرى بالديانة فالغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلا وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا وما زالت أتباع الأنبياء كذلك (قَالَ وَمَا عِلْمِي) وأى شىء أعلم (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الصناعات إنما أطلب منهم الايمان وقيل إنهم طعنوا مع استرذالهم فى إيمانهم وقالوا إن الذين آمنوا بك ليس فى قلوبهم ما يظهرونه فقال ماعلى إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن السرائر (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) أن الله يحاسبهم على مافى قلوبهم (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ) أى ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعا فى إيمانكم (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) ماعلى إلا أن أنذركم إنذارا بينا بالبرهان الصحيح الذى يتميز به الحق من الباطل ثم أنتم أعلم بشأنكم (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ) عما تقول (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) من المقتولين بالحجارة (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ) ليس هذا اخبارا بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد أنهم كذبونى فى وحيك ورسالتك (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) أى أى فاحكم بينى وبينهم حكما والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق كما سمى فيصلا لأنه يفصل بين الخصومات (وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ) معىَ حفص (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

من عذاب عملهم (فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ) الفلك السفينة وجمعه فلك فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد (ٱلْمَشْحُونِ) المملوء ومنه شحنة البلد أى الذى يملؤه كفاية (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ) أى بعد إنجاء نوح ومن آمن (ٱلْبَاقِينَ) من قومه (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ) المنتقم بإهانة من جحد وأصر (ٱلرَّحِيمُ) المنعم بإعانة من وحد وأقر (كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ) هى قبيلة وفى الأصل اسم رجل هو أبو القبيلة (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ) فى تكذيب الرسول الأمين (وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ) مكان مرتفع (ءَايَةً) برج حمام أو بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مربهم (تَعْبَثُونَ) تلعبون (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ) مآخذ الماء أوقصورا مشيدة أو حصونا (لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) ترجون الخلود فى الدنيا (وَإِذَا بَطَشْتُم) أخذتم أحداً بعقوبة (بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) قتلا بالسيف وضربا بالسوط والجبار الذى يقتل ويضرب على الغضب (فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ) فى البطش (وَأَطِيعُونِ) فيما أدعوكم إليه (وَٱتَّقُوا ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ) من النعم ثم عددها عليهم فقال (أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ) قرن البنين بالأنعام لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام عليها (وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) إن عصيتمونى (قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ) أى لا نقبل كلامك ودعوتك وعظت أم سكت ولم يقل أم لم تعظ لرءوس الآى (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ) ماهذا الذى نحن عليه من الحياة والموت واتخاذ الابتناء إلا عادة الأولين أو مانحن عليه دين الأولين. إلا خلق الأولين مكى وبصرى ويزيد وعلى أى ماجئت به اختلاق الأولين وكذب المتنبئين قبلك كقولهم أساطير الأولين أوخلقنا كخلق الأولين نموت ونحيا كما حيوا (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) فى الدنيا ولا بعث ولاحساب (فَكَذَّبُوهُ) أى هودا (فَأَهْلَكْنَٰهُمْ) بريح صرصرعاتية (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

أَتُتْرَكُونَ) إنكار لأن يتركوا خالدين فى نعيمهم لا يزالون عنه (فِي مَا هَٰهُنَا) فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم (ءَامِنِينَ) من العذاب والزوال والموت ثم فسره بقوله (فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ) وهذا أيضا إجمال ثم تفصيل (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ) وعطف نخل على جنات مع أن الجنة تتناول النخل أول شىء تفضيلا للنخل على سائر الشجر (طَلْعُهَا) هو ما يخرج من النخل كنصل السيف (هَضِيمٌ) لين نضيج كأنه قال ونخل قد أرطب ثمره (وَتَنْحِتُونَ) تنقبون (مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ) شامى وكوفى حاذقين حال وغيرهم فرهين أشرين والفراهة الكيس والنشاط (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ) الكافرين أو التسعة الذين عقروا الناقة جعل الأمر مطاعا على المجاز الحكمى والمراد الآمر وهو كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول كقولهم أنبت الربيع البقل (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) بالظلم والكفر (وَلَا يُصْلِحُونَ) بالإيمان والعدل والمعنى أن فسادهم مصمت ليس معه شىء من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح (قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) المسحر الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله وقيل هو من السحر الرئة وأنه بشر (مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ) فى دعوى الرسالة (قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ) نصيب من الماء فلا تزاحموها فيه (وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) لا تزاحمكم هى فيه، روى أنهم قالوا : نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبا فجعل صالح يتفكر فقال له جبريل صل ركعتين واسأل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة ونتجت سقبا مثلها فى العظم وصدرها ستون ذراعا وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه الماء وهذا دليل على جواز المهايأة لأن قوله: لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، من المهايأة (وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ) بضرب أو عقر أو غير ذلك (فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد (فَعَقَرُوهَا) عقرها قدار ولكنهم راضون به فأضيف إليهم، روى أن عاقرها قال لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها فيقولون أترضين فتقول نعم وكذلك صبيانهم (فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ)

على عقرها خوفا من نزول العذاب بهم لا ندم توبة أو ندموا حين لا ينفع الندم وذلك عند معاينة العذاب أو على ترك الولد (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) المقدم ذكره (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) أراد بالعالمين الناس أتطئون الذكور من الناس مع كثرة الإناث أو أتطئون أنتم من بين من عدا كم من العالمين الذكران أى أنتم مختصون بهذه الفاحشة والعالمين على هذا كل ما ينكح من الحيوان (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم) من تبيين لما خلق أو تبعيض والمراد بما خلق العضو المباح منهن وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات ومن أجازه فقد أخطأ خطأ عظيما (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) العادى المتعدى فى ظلمه المتجاوز فيه الحد أى بل أنتم قوم أحق بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ) عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ) هو أبلغ من أن يقول قال فقولك فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم لأنك تشهد بأنه مساهم لهم فى العلم. والقلى البغض يقلى الفؤاد والكبد وفيه دليل على عظم المعصية لأن قلاه من حيث الدين (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ) من عقوبة عملهم (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ) يعنى بناته ومن آمن معه (إِلَّا عَجُوزًا) هى امرأة لوط وكانت راضية بذلك والراضى بالمعصية فى حكم العاصى واستثناء الكافرة من الأهل وهم مؤمنون للاشتراك فى هذا الاسم وإن لم تشاركهم فى الإيمان (فِي الْغَابِرِينَ) صفة لها أى فى الباقين فى العذاب فلم تنج منه والغابر فى اللغة الباقى كأنه قيل إلا عجوزا غابرة أى مقدرا غبورها إذ الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ) والمراد بتدميرهم الائتفاك بهم (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا) عن قتادة أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم الله وقيل لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطرا

من حجارة (فَسَآءَ) فاعله (مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) والمخصوص بالذم وهو مطرهم محذوف ولم يرد بالمنذرين قوما بأعيانهم بل المراد جنس الكافرين (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْئَيْكَةِ) بالهمزة والجر هى غيضة تنبت ناعم الشجر عن الخليل ليكة حجازى وشامى وكذا فى ص علم لبلد قيل أصحاب الأيكة هم أهل مدين التجئوا إلى غيضة إذ ألح عليهم الوهج والأصح أنهم غيرهم نزلوا غيضة بعينها بالبادية وأكثر شجرهم المقل بدليل أنه لم يقل هنا أخوهم شعيب لأنه لم يكن من نسبهم بل كان من نسب أهل مدين ففى الحديث أن شعيبا أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة (الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ) أتموه (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) ولا تنقصوا الناس حقوقهم فالكيل واف وهو مأمور به وطفيف وهو منهى عنه وزائد وهو مسكوت عنه فتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعل فلا شىء عليه (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) وبكسر القاف كوفى غير أبى بكر وهو الميزان أو القبان فإن كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعى (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ) يقال بخسته حقه إذا نقصته إياه (أَشْيَاءَهُمْ) دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافهما (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) ولا تبالغوا فيها فى الإفساد نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه يقال عثا فى الأرض إذا أفسد وعثى فى الأرض لغة فى عثا (وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ) الجبلة عطف على كم أى اتقوا الذى خلقكم وخلق الجبلة (الْأَوَّلِينَ) الماضين (قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا) إدخال الواو هنا ليفيد معنيين كلاهما مناف الرسالة عندهم : التسحير والبشرية وتركها فى قصة ثمود ليفيد معنى واحدا وهو كونه مسحرا ثم كرر بكونه بشرا مثلهم (وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَٰذِبِينَ) إن مخففة من الثقيلة واللام دخلت للفرق بينها وبين النافية وإنما تفرقتا على فعل الظن وثانى مفعوليه لأن أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر كقولك إن زيدا لمنطلق فلما كان بابا كان وظننت من جنس باب المبتدأ والخبر فعل ذلك فى البابين

فقيل إن كان زيد لمنطلقا وإن ظننته لمنطلقا (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً) كِسَفا حفص وهما جمعا كسفة وهى القطعة وكسفه قطعه (مِّنَ السَّمَآءِ) أى السحاب أو الظلة (إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ) أى إن كنت صادقا أنك نبي فادع الله أن يسقط علينا كسفا من السماء أى قطعا من السماء عقوبة (قَالَ رَبِّيٓ) بفتح الياء حجازى وأبوعمرو وبسكونها غيرهم (أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى إن الله أعلم بأعمالكم وبما تستحقون عليها من العذاب فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل وإن أراد عقابا آخر فإليه الحكم والمشيئة (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) هى سحابة أظلتهم بعدما حبست عنهم الريح وعذبوا بالحر سبعة أيام فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من الحر فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا (إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) وقد كرر فى هذه السورة فى أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريرا لمعانيها فى الصدور ليكون أبلغ فى الوعظ والزجر ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختم بما اختتمت به (وَإِنَّهُ) أى القرآن (لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ) منزل منه (نَزَلَ بِهِ) مخفف والفاعل (الرُّوحُ الْأَمِينُ) أى جبريل لأنه أمين على الوحى الذى فيه الحياة. حجازى وأبوعمرو وزيد وحفص وغيرهم بالتشديد ونصب الروح والفاعل هو الله تعالى أى جعل الله الروح نازلا به والباء على القراءتين للتعدية (عَلَىٰ قَلْبِكَ) أى حفظك وفهمك إياه وأثبته فى قلبك إثبات مالا ينسى كقوله: سنقرئك فلا تنسى (لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ) بلغة قريش وجرهم (مُّبِينٍ) فصيح ومصحح عما صحفته العامة والباء إما أن يتعلق بالمنذرين أى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام أو بنزل أى نزله بلسان عربى لتنذر به لأنه لو نزله بلسان أعجمى لتجافوا عنه أصلا ولقالوا ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الانذار به وفى هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه وتفهّمه قومك ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها وقد يكون الرجل عارفا بعدة لغات فإذا كلم بلغته التى نشأ عليها لم

يكن قلبه ناظرا إلا إلى معانى الكلام وإن كلم بغيرها كان نظره أولا فى ألفاظها ثم فى معانيها وإن كان ماهرا بمعرفتها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربى مبين (وَإِنَّهُ) وإن القرآن (لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) يعنى ذكره مثبت فى سائر الكتب السماوية وقيل إن معانيه فيها وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية فيكون دليلا على جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً) ولم تكن لهم اية شامي جعلت آية اسم كان وخبره (أَن يَعْلَمَهُ) أى القرآن لوجود ذكره فى التوراة وقيل فى تكن ضمير القصة وآية خبر مقدم والمبتدأ أن يعلمه والجملة خبر كان وقيل كان تامة والفاعل آية وأن يعلمه بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف أى أولم تحصل لهم آية وغيره يكن بالتذكير وآية بالنصب على أنها خبره وأن يعلمه هو الاسم وتقديره أولم يكن لهم علم علماء بنى اسرائيل آية (عُلَمَٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) كعبد الله بن سلام وغيره قال الله تعالى: وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين وخط فى المصحف علماؤا بواو قبل الألف (وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وكذلك الأعجمى إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له أعجم وأعجمى شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين والعجمى الذي من جنس العجم أفصح أولم يفصح وقرأ الحسن الأعجميين وقيل الأعجمين تخفيف الأعجميين كما قالوا الأشعرون أى الأشعريون بحذف ياء النسبة ولولا هذا التقدير لم يجز أن يجمع جمع السلامة لأن مؤنثه عجماء (فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ) والمعنى أنا أنزلنا القرآن على رجل عربي مبين ففهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على أن البشارة بإنزاله وصفته فى كتبهم وقد تضمنت معانيه وقصصه وصح بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا فلم يؤمنوا به وسموه شعرا تارة وسحرا أخرى وقالوا هذا من افتراء محمد عليه الصلاة والسلام ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلا أن يقدر على نظم مثله فقرأه عليهم هكذا معجزا لكفروا به كما كفروا ولتمحلوا لجحودهم عذرا ولسموه سحرا ثم قال (كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ) أى أدخلنا التكذيب أو الكفر وهو مدلول قوله ما كانوا به مؤمنين (فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) الكافرين

الذين علمنامنهم اختيارالكفر والإصرار عليه يعنى مثل هذاالسلك سلكناه فى قلوبهم وقررناه فيهافكيفما فعل بهم وعلى أى وجه دبر أمرهم فلاسبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الكفر به والتكذيب له كما قال: ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين. وهو حجتنا على المعتزلة فى خلق أفعال العباد خيرها وشرها وموقع قوله (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) بالقرآن من قوله سلكناه فى قلوب المجرمين موقع الموضح والملخص لأنه مسوق لثبات كونه مكذبا مجحودا فى قلوبهم فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لايزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد ويجوز أن يكون حالا أى سلكناه فيها غير مؤمن به (حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) المراد معاينة العذاب عند الموت ويكون ذلك إيمان يأس فلا ينفعهم (فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً) فجأة (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) باتيانه (فَيَقُولُوا) وفيأتيهم معطوفان على يروا (هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) يسألون النظرة والإمهال طرفة عين فلايجابون إليها (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) توبيخ لهم وإنكار عليهم قولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. ونحو ذلك (أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) قيل هى سنو مدة الدنيا (ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ) من العذاب (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) به فى تلك السنين والمعنى أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال فى سلامة وأمن فقال الله تعالى: أفبعذابنا يستعجلون. أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل، ثم قال هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فإذا لحقهم الوعيد بعدذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم * قال يحيى بن معاذ: أشد الناس غفلة من اغتر بحياته والتذ بمراداته وسكن إلى مألوفاته والله تعالى يقول: أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ماأغنى عنهم ما كانوا يمتعون، وعن ميمون بن مهران أنه لقى الحسن فى الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال عظنى فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون قدوعظت فأبلغت وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ) رسل ينذرونهم ولم تدخل الواو على الجملة بعد إلا كما فى: وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم. لأن الأصل عدم الواو إذ الجملة صفة لقرية وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف (ذِكْرَىٰ) منصوبة بمعنى تذكرة

لأن أنذر وأذكر متقاربان فكأنه قيل مذكرون تذكرة أو حال من الضمير فى منذرون أى ينذرونهم ذوى تذكرة أو مفعول له أى ينذرون لأجل التذكرة والموعظة أو مرفوعة على أنها خبر مبتدإ محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى أو تكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلايعصوا مثل عصيانهم (وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ) فنهلك قوما غير ظالمين، ولما قال المشركون إن الشياطين تلقى القرآن على محمد أنزل (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ) أى القرآن (الشَّيَٰطِينُ وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) ومايتسهل لهم ولا يقدرون عليه (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) لممنوعون بالشهب (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) مورد النهى لغيره على التعريض والتحريك له على زيادة الإخلاص (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) خصهم لنفى التهمة إذ الإنسان يساهل قرابته أو ليعلموا أنه لا يغنى عنهم من الله شيئا وأن النجاة فى اتباعه دون قربه ولما نزلت صعد الصفا ونادى الأقرب فالأقرب وقال «يابنى عبد المطلب يابنى هاشم يابنى عبد مناف ياعباس عم النبي ياصفية عمة رسول الله إنى لاأملك لكم من الله شيئا» (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ) وألن جانبك وتواضع وأصله أن الطائر إذاأراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب (لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) من عشيرتك وغيرهم (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) يعنى أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض جناحك لهم وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) على الذى يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم، والتوكل تفويض: الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره، وقالوا المتوكل من إذا دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله وقال الجنيد رضى الله عنه التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض بالكلية عما دونه فإن حاجتك إليه فى الدارين. فتوكل مدنى وشامى عطف على فقل أو فلا تدع (الَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ) متهجدا (وَتَقَلُّبَكَ)

أى ويرى تقلبك (فِى السَّٰجِدِينَ) فى المصلين. أتبع كونه رحيما على رسوله ما هو من أسباب الرحمة وهوذكر ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون وليعلم أنهم كيف يعبدون الله ويعملون لآخرتهم، وقيل معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه فى الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفه هل تجد الصلاة بالجماعة فى القرآن فقال لا يحضرنى فتلا له هذه الآية (إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ) لما تقوله (الْعَلِيمُ) بما تنويه وتعمله هوّن عليه معاناة مشاق العبادات حيث أخبر برؤيته له إذلا مشقة على من يعلم أنه يعمل بمرأى مولاه وهو كقولك * بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى * نزل جوابا لقول المشركين إن الشياطين تلقى السمع على محمد ﷺ (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) أى هل أخبركم أيها المشركون (عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَٰطِينُ) ثم نبأفقال (تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) مرتكب للآثام وهم الكهنة والمتنبئة كسطيح وطليحة ومسيلمة ومحمد ﷺ يشتم الأفاكين ويذمهم فكيف تنزل الشياطين عليه (يُلْقُونَ السَّمْعَ) هم الشياطين كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يستمعون إلى الملأ الأعلى فيحفظون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به إلى أوليائهم. ويلقون حال، أى تنزل ملقين السمع أوصفة لكل أفاك لأنه فى معنى الجمع فيكون فى محل الجزاء أواستئناف فلا يكون له محل كأنه قيل لم تنزل على الأفاكين فقيل يفعلون كيت وكيت (وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ) فيما يوحون به إليهم لأنهم يسمعونهم مالم يسمعوا وقيل يلقون إلى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة وقيل الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين ويتلقون وحيهم إليهم أويلقون المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا إليهم والأفاك الذى يكثر الإفك، ولايدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك فأراد أن هؤلاء الأفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى وأكثرهم مفتر عليه وعن الحسن وكلهم وإنما فرق بين وإنه لتنزيل رب العالمين وماتنزلت به الشياطين، وهل أنبئكم على من تنزل الشياطين، وهن أخوات لأنه إذا فرق بينهن بآيات ليست منهن ثم رجع إليهن مرة بعد مرة دل ذلك على شدة العناية بهن كما إذا حدثت

حديثا وفى صدرك اهتمام بشيء فتعيد ذكره ولا تنفك عن الرجوع إليه * ونزل فيمن كان يقول الشعر ويقول نحن نقول كما يقول محمد ﷺ واتبعهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم (وَالشُّعَرَآءُ) مبتدأ خبره (يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) أى لايتبعهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب ومدح من لايستحق المدح ولايستحسن ذلك منهم إلا الغاوون أى السفهاء أو الراوون أو الشياطين أو المشركون قال الزجاج إذا مدح أو هجا شاعر بما لا يكون وأحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون يتبعهم نافع (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ) من الكلام (يَهِيمُونَ) خبر أن أى فى كل فن من الكذب يتحدثون أو فى كل لغو وباطل يخوضون والهائم الذاهب على وجهه لامقصد له وهو تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأبخلهم على حاتم. عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله .

فبتن بجانبيّ مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال وجب عليك الحد فقال قد درأ الله عنى الحد بقوله (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ) حيث وصفهم بالكذب والخلف فى الوعد * ثم استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ) كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك رضى الله عنهم (وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً) أى كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر وإذا قالوا شعرا قالوه فى توحيد الله تعالى والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والأدب ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الأمة ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب وقال أبو يزيد الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة لكنه بالحضور (وَانتَصَرُوا) وهجوا (مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) هجوا أى ردوا هجاء من هجا رسول الله ﷺ والمسلمين وأحق الخلق بالهجاء من كذب رسول الله ﷺ وهجاه وعن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال له «اهجهم فو الذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النبل» وكان يقول لحسان «قل وروح القدس معك» * ختم السورة بما يقطع أكباد المتدبرين وهو قوله (وَسَيَعْلَمُ) وما فيه من الوعيد البليغ

وقوله (الَّذِينَ ظَلَمُوا) وإطلاقه، وقوله (أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) وإبهامه، وقدتلاها أبوبكر لعمر رضى الله تعالى عنه حين عهد إليه وكان السلف يتواعظون بها قال ابن عطاء وسيعلم المعرض عنا ماالذى فاته منا وأىّ منصوب بينقلبون على المصدر لا بيعلم لأن أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ماقبلها أى ينقلبون أىّ انقلاب .

﴿ سورة النمل مكية وهى ثلاث وتسعون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) أى وآيات كتاب مبين وتلك إشارة إلى آيات السورة، والكتاب المبين : اللوح، وآياته أنه قد خط فيه كل ماهو كائن فهو يبين للناظرين فيه آياته أو القرآن وآياته إنه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم وعلى هذا عطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى نحو هذا فعل السخى والجواد ونكر الكتاب ليكون أفخم له وقيل إنما نكر الكتاب هنا وعرفه فى الحجر وعرف القرآن هنا ونكره ثم لأن القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ووصفان له لأنه يقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف (هُدًى وَبُشْرَىٰ) فى محل النصب على الحال من آيات أى هداية وبشارة فالعامل فيها مافى تلك من معنى الإشارة أو الجر على أنه بدل من كتاب أو صفة له أو الرفع على هى هدى وبشرى أو على البدل من آيات أو على أن يكون خبرا بعد خبر لتلك أى تلك آيات وهادية من الضلالة ومبشرة بالجنة وقيل هدى لجميع الخلق وبشرى (لِلْمُؤْمِنِينَ) خاصة (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ) يديمون على فرائضها وسننها (وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ) يؤدون زكاة أموالهم (وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) من جملة صلة الموصول ويحتمل أن تتم الصلة عنده وهو استئناف كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ويدل عليه أنه عقد جملة اسمية وكرر فيها المبتدأ الذى هو هم حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ) بخلق الشهوة حتى رأوا ذلك حسنا

كما قال: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا (فَهُمْ يَعْمَهُونَ) يترددون فى ضلالتهم كما يكون حال الضال عن الطريق (أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ) القتل والأسر يوم بدر بما كان منهم من سوء الأعمال (وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) أشد الناس خسرانا لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ) لتؤتاه وتلقنه (مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) من عند أىّ حكيم وأىّ عليم وهذا معنى تنكيرهما وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه (إِذْ) منصوب باذكر كأنه قال على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى عليه السلام (قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ) لزوجته ومن معه عند مسيره من مدين إلى مصر (إِنِّي ءَانَسْتُ) أبصرت (نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ) عن حال الطريق لأنه كان قد ضله (أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ) بالتنوين كوفى أى شعلة مضيئة (قَبَسٍ) نار مقبوسة بدل أو صفة. وغيرهم بشهاب قبس على الإضافة لأنه يكون قبسا وغير قبس ولا تدافع بين قوله سآتيكم هنا ولعلى آتيكم فى القصص مع أن أحدهما ترج والآخر تيقن لأن الراجى إذا قوى رجاؤه يقول سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة ومجيئه بسين التسويف عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة وبأو لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما إما هداية الطريق وإما اقتباس النار ولم يدر أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين وهما عز الدنيا والآخرة واختلاف الألفاظ فى هاتين السورتين والقصة واحدة دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى وجواز النكاح بغير لفظ التزوج (لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) تستدفئون بالنار من البرد الذى أصابكم والطاء بدل من تاء افتعل لأجل الصاد (فَلَمَّا جَآءَهَا) أى النار التى أبصرها (نُودِيَ) موسى (أَن بُورِكَ) مخففة من الثقيلة وتقديره نودى بأنه بورك والضمير ضمير الشأن وجاز ذلك من غير عوض وإن منعه الزمخشرى لأن قوله بورك دعاء والدعاء يخالف غيره فى أحكام كثيرة أو مفسرة لأن فى النداء معنى القول أى قيل له بورك أى قدس أو جعل فيه البركة والخير (مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) أى بورك من فى مكان النار وهم الملائكة ومن حول مكانها أى موسى لحدوث أمر دينى فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه (وَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ)

هو من جملة ما نودى فقد نزه ذاته عما لايليق به من التشبيه وغيره (يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) الضمير فى إنه للشأن والشأن أنا الله مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان للخبر أو يرجع إلى مادل عليه ما قبله أى إن مكلمك أنا والله بيان لأنا والعزيز الحكيم صفتان للمبين وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يده من المعجزات (وَأَلْقِ عَصَاكَ) لتعلم معجزتك فتأنس بها وهوعطف على بورك لأن المعنى نودى أن بورك من فى النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير لنودى والمعنى قيل له بورك من فى النار وقيل له ألق عصاك ويدل عليه ماذكر فى سورة القصص وأن ألق عصاك بعد قوله أن ياموسى إنى أنا الله على تكرير حرف التفسير (فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ) تتحرك حال من الهاء فى رآها (كَأَنَّهَا جَآنٌّ) حية صغيرة حال من الضمير فى تهتز (وَلَّىٰ) موسى (مُدْبِرًا) أدبر عنها وجعلها تلى ظهره خوفا من وثوب الحية عليه (وَلَمْ يُعَقِّبْ) ولم يلتفت أولم يرجع يقال قد عقب فلان إذا رجع يقاتل بعد أن ولى فنودى (يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ) أى لا يخاف عندى المرسلون حال خطابى إياهم أولا يخاف لدى المرسلون من غيرى (إِلَّا مَن ظَلَمَ) أى لكن من ظلم من غيرهم لأن الأنبياء لايظلمون أو لكن من ظلم منهم من زل من المرسلين فجاء غير ما أذنت له مما يجوز على الأنبياء كما فرط من آدم ويونس وداود وسليمان عليهم السلام (ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا) أى أتبع توبة (بَعْدَ سُوٓءٍ) زلة (فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أقبل توبته وأغفر زلته وأرحمه فأحقق أمنيته وكأنه تعريض بماقال موسى حين قتل القبطى: رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفر له (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ) جيب قميصك وأخرجها (تَخْرُجْ بَيْضَآءَ) نيرة تغلب نور الشمس (مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ) برص وبيضاء ومن غير سوء حالان (فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ) كلام مستأنف وفى يتعلق بمحذوف أى اذهب فى تسع آيات أو وألق عصاك وأدخل يدك فى جملة تسع آيات (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ) إلى يتعلق بمحذوف أى مرسلاإلى فرعون وقومه(إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ) خارجين عن أمرالله كافرين (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا) أى معجزاتنا (مُبْصِرَةً) حال أى ظاهرة بينة جعل الإبصار لها وهو فى الحقيقة لمتأمليها للابستهم إياها بالنظر والتفكر فيها أو جعلت كأنها تبصر فتهدى لأن الأعمى لا يقدر

على الاهتداء فضلا أن يهدى غيره ومنه قولهم كلمة عيناء وعوراء لأن الكلمة الحسنة ترشد والسيئة تغوى (قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) ظاهر لمن تأمله وقد قوبل بين المبصرة والمبين (وَجَحَدُوا بِهَا) قيل الجحود لا يكون إلا من علم من الجاحد وهذا ليس بصحيح لأن الجحود هو الإنكار وقد يكون الإنكار للشيء للجهل به وقد يكون بعد المعرفة تعنتا كذا ذكر فى شرح التأويلات وذكر فى الديوان يقال جحد حقه وبحقه بمعنى والواو فى (وَاسْتَيْقَنَتْهَا) للحال وقد بعدها مضمرة والاستيقان أبلغ من الإيقان (أَنفُسُهُمْ) أى جحدوها بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم وضمائرهم (ظُلْمًا) حال من الضمير فى وجحدوا وأى ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات من عند الله ثم سماها سحرا بينا (وَعُلُوًّا) ترفعا عن الإيمان بما جاء به موسى (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) وهو الإغراق هنا والإحراق ثمة (وَلَقَدْ آتَيْنَا) أعطينا (دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا) طائفة من العلم أوعلما سنيا غزيرا والمراد علم الدين والحكم (وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) والآيات حجة لنا على المعتزلة فى ترك الأصلح وهنا محذوف ليصح عطف الواو عليه ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه الفاء كقولك أعطيته فشكر، وتقديره آتيناهما علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الذى فضلنا، والكثير المفضل عليه من لم يؤت علما أو من لم يؤت مثل علمهما وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير وفى الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباده وما سماهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم فى الشرف والمنزلة لأنهم القوام بما بعثوا من أجله وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ماأوتوه وإن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر رضى الله عنه كل الناس أفقه من عمر رضى الله عنه (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر قالوا أوتى النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه وإلافالنبوة لاتورث (وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) تشهيرا لنعمة الله تعالى واعترافا بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التى هى علم منطق الطير والمنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير

المقيد وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض . روى أنه صاح فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال : يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال: يقول استغفروا الله يامذنبين وصاح خطاف فقال: يقول قدموا خيرا تجدوه وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمرى فأخبر أنه يقول سبحان ربى الأعلى وقال : الحدأة تقول كل شىء هالك إلا الله. والقطاة تقول من سكت سلم. والديك يقول اذكروا الله ياغافلين والنسر يقول يا ابن آدم عش ماشئت آخرك الموت والعقاب يقول فى البعد من الناس أنس والضفدع يقول سبحان ربى القدوس (وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ) المراد به كثرة ما أوتى كما تقول فلان يعلم كل شىء ومثله وأوتيت من كل شىء (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) قوله وارد على سبيل الشكر كقوله أنا سيد ولد آدم ولا فخر أى أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخراً. والنون فى علمنا وأوتينا نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا فكلم أهل طاعته على الحال التى كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك (وَحُشِرَ) وجمع (لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ) روى أن معسكره كان مائة فرسخ فى مائة فرسخ خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وابريسم فرسخا فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب وفضة فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لايقع عليه حر الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض إنى قد زدت فى ملكك أن لا يتكلم أحد بشىء إلا ألقته الريح فى سمعك ، فيحكى أنه مر بحراث فقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فألقته الريح فى أذنه فنزل ومشى إلى الحراث وقال إنى جئت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتى آل داود (فَهُمْ يُوزَعُونَ) يحبس أولهم على آخرهم أى يوقف

سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالى ليكونوا مجتمعين وذلك للكثرة العظيمة. والوزع: المنع، ومنه قول عثمان رضى الله عنه : مايزع السلطان أكثر مما يزع القرآن (حَتَّىٰ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ) أى ساروا حتى إذا بلغوا وادى النمل وهو واد بالشام كثير النمل وعدى بعلى لأن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء (قَالَتْ نَمْلَةٌ) عرجاء تسمى طاخية أو منذرة وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم فسأله أبو حنيفة رضى الله عنه وهو شاب عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى فأفحم فقال أبو حنيفة رضى الله عنه كانت أنثى فقيل له بماذا عرفت فقال بقوله قالت نملة ولو كانت ذكرا لقال قال نملة وذلك أن النملة مثل الحمامة فى وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة، نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهى (يَـٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ) ولم يقل ادخلن لأنه لما جعلها قائلة والنمل مقولا لهم كما يكون فى أولى العقل أجرى خطابهن مجرى خطابهم (لَا يَحْطِمَنَّكُمْ) لا يكسرنكم، والحطم الكسر وهو نهى مستأنف وهو فى الظاهر نهى لسليمان عن الحطم وفى الحقيقة نهى لهن عن البروز والوقوف على طريقة لا أرينك هاهنا أى لا تحضر هذا الموضع وقيل هو جواب الأمر وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد لأنه من ضرورات الشعر (سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُ) قيل أراد لا يحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) لا يعلمون بمكانكم أى لو شعروا لم يفعلوا قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا) متعجبا من حذرها واهتدائها لمصالحها ونصيحتها للنمل أو فرحا لظهور عدله وضاحكا حال مؤكدة لأن تبسم بمعنى ضحك وأكثر ضحك الأنبياء التبسم كذا قاله الزجاج (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ) ألهمنى وحقيقته كفنى عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك (أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ) من النبوة والملك والعلم (وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ) لأن الانعام على الوالدين إنعام على الولد (وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَـٰهُ) فى بقية عمرى (وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ) وأدخلنى الجنة برحمتك لا بصالح عملى إذ لا يدخل الجنة أحد إلا برحمته كما جاء فى الحديث (فِى عِبَادِكَ الصَّـٰلِحِينَ) أى فى زمرة أنبيائك المرسلين أو مع عبادك الصالحين روى أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم

أنهم فى الهواء فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن ثم دعا بالدعوة (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ) مكى وعلى وعاصم، وغيرهم بسكون الياء. والتفقد طلب ماغاب عنك (لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ) أم بمعنى بل والمعنى انه تعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد فقال مالى لا أراه على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول بل هو غائب وذكر أن سليمان عليه السلام لما حج خرج إلى اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال فنزل ليصلى فلم يجد الماء وكان الهدهد قُنَّاقِنَهُ وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء فى الزجاجة فتستخرج الشياطين الماء فتفقده لذلك وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب علىّ به فارتفع فنظر فإذا هو مقبل فقصده فناشده الله فتركه فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض وقال يانبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله فارتعد سليمان وعفا عنه (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً) بنتف ريشه وإلقائه فى الشمس أو بالتفريق بينه وبين إلفه أو بإلزامه خدمة أقرانه أو بالحبس مع أضداده وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الأضداد أو بإيداعه القفص أو بطرحه بين يدى النمل ليأكله وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة (أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى) بالنون الثقيله ليشاكل قوله لأعذبنه وحذف نون العماد للتخفيف. ليأتيننى بنونين مكى الأولى للتأكيد والثانية للعماد (بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ) بحجة له فيها عذر ظاهر على غيبته والإشكال أنه حلف على أحد ثلاثة أشياء: اثنان منها فعله ولا مقال فيه والثالث فعل الهدهد وهو مشكل لأنه من أين درى أنه يأتى بسلطان حتى قال والله ليأتينى بسلطان وجوابه أن معنى كلامه ليكونن أحد الأمور يعنى إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس فى هذا ادعاء دراية (فَمَكَثَ) الهدهد بعد تفقد سليمان إياه، وبضم الكاف غير عاصم وسهل ويعقوب، وهما لغتان (غَيْرَ بَعِيدٍ) أى مكثاً غير طويل أو غير زمان بعيد كقوله عن قريب ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه

خوفا من سليمان فلما رجع سأله عما لقى فى غيبته (فَقَالَ أَحَطتُ) علمت شيئا من جميع جهاته (بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ) ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام مع ماأوتى من فضل النبوة والعلوم الجمة ابتلاء له فى علمه وفيه دليل بطلان قول الرافضه أن الإمام لا يخفى عليه شىء ولا يكون فى زمانه أحد أعلم منه (وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ) غير منصرف. أبو عمرو جعله اسما للقبيلة أو المدينة وغيره بالتنوين جعله اسما للحي أو الأب الأكبر (بِنَبَإٍ يَقِينٍ) النبأ الخبر الذى له شأن وقوله من سبأ بنبإ من محاسن الكلام ويسمى البديع وقد حسن وبدع لفظا ومعنى هاهنا ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإ بخبر لكان المعنى صحيحا وهو كما جاء أصح لما فى النبإ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً) هى بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها ملك أرض اليمن ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والضمير فى (تَمْلِكُهُمْ) راجع إلى سبأ على تأويل القوم أو أهل المدينة (وَأُوتِيَتْ) حال، وقد مقدرة (مِن كُلِّ شَيْءٍ) من أسباب الدنيا مايليق بحالها (وَلَهَا عَرْشٌ) سرير عظيم (عَظِيمٌ) كبير قيل كان ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراعا وطوله فى الهواء ثمانون ذراعا وكان من ذهب وفضة وكان مرصعا بأنواع الجواهر وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبواب على كل بيت باب مغلق واستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم عرشها لذلك وقد أخفى الله تعالى على سليمان ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب عليهما السلام (وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) أى سبيل التوحيد (فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) إلى الحق ولا يبعد من الهدهد التهدى إلى معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وحرمة السجود للشمس إلهاما من الله كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التى لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها (أَلَّا يَسْجُدُوا) بالتشديد أى فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن وأدغمت النون فى اللام ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا وبالتخفيف يزيد وعلى وتقديره ألا ياهؤلاء اسجدوا فألا للتنبيه ويا حرف نداء ومناداه محذوف، فمن شدد لم يقف إلا على العرش العظيم ومن خفف وقف على فهم لا يهتدون

ثم ابتدأ ألا يسجدوا أو وقف على ألايا ثم ابتدأ اسجدوا وسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعا بخلاف ما يقوله الزجاج إنه لا يجب السجود مع التشديد لأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح للآتى بها أو ذم لتاركها وإحدى القراءتين أمر والأخرى ذم للتارك (لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ) سمى المخبوء بالمصدر (فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) قتادة خبء السماء المطر وخبء الأرض النبات (وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) وبالتاء فيهما على وحفص (اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) وصف الهدهد عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ماخلق من السماوات والأرض ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك إلى ههنا كلام الهدهد، فلما فرغ من كلامه (قَالَ) سليمان للهدهد (سَنَنظُرُ) من النظر الذى هو التأمل (أَصَدَقْتَ) فيما أخبرت (أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ) وهذا أبلغ من أم كذبت لأنه إذا كان معروفا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذبا لامحالة وإذا كان كاذبا اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به، ثم كتب سليمان كتابا صورته من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ : بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على وآتونى مسلمين وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد (اذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ) بسكون الهاء تخفيفا أبو عمرو وعاصم وحمزة ويختلسها كسرا لتدل الكسرة على الياء المحذوفة يزيد وقالون ويعقوب فألقهى بإثبات الياء غيرهم (إِلَيْهِمْ) إلى بلقيس وقومها لأنه ذكرهم معها فى قوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك (ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ) تنح عنهم إلى مكان قريب بحيث تراهم ولا يرونك ليكون ما يقولونه بمسمع منك (فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) ما الذى يردونه من الجواب فأخذ الهدهد الكتاب بمنقاره ودخل عليها من كوة فطرح الكتاب على نحرها وهى راقدة وتوارى فى الكوة فانتبهت فزعة أو أتاها والجنود حوالها فرفرف ساعة وألقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة فلما رأت الخاتم (قَالَتْ) لقومها خاضعة خائفة (يَٰأَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّى) وبفتح الياء مدنى (أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ) حسن مضمونه ومافيه أو مختوم. قال عليه الصلاة والسلام:

«كرم الكتاب ختمه» وقيل من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به ، أومصدر بيسم الله الرحمن الرحيم أولأنه من عند ملك كريم (إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) هو تبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت إنى ألقى إلى كتاب كريم قيل لها ممن هو وماهو فقالت إنه من سليمان وإنه كيت وكيت. وأن فى (أَلَّا تَعْلُوا) لا تترفعوا (عَلَيَّ) ولا تتكبروا كما يفعل الملوك مفسرة كقوله وانطلق الملأ منهم أن امشوا يعنى أى امشوا (وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) مؤمنين أو منقادين وكتب الأنبياء مبنية على الإيجاز والاختصار (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي) أشيروا على فى الأمر الذى نزل بى والفتوى الجواب فى الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتاء فى السن والمراد هنا بالفتوى الإشارة عليها بما عندهم من الرأى وقصدها بالرجوع إلى استشارتهم تطييب أنفسهم ليمالئوها ويقوموا معها (مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا) فاصلة أو ممضية حكما (حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ) بكسر النون، والفتح لحن لأن النون إنما تفتح فى موضع الرفع وهذا فى موضع النصب وأصله تشهدوننى فحذفت النون الأولى للنصب والياء لدلالة الكسرة عليها وبالياء فى الوصل والوقف يعقوب أى تحضرونى أوتشيرونى أو تشهدوا أنه صواب أى لاأبت الأمر إلا بمحضركم وقيل كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا كل واحد على عشرة آلاف (قَالُوا) مجيبين لها (نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ) أرادوا بالقوة قوة الأجساد والآلات وبالبأس النجدة والبلاء فى الحرب (وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) أى موكول إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك كأنهم أشاروا عليها بالقتال أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة وأنت ذات الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نتبع رأيك فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة ورتبت الجواب فزيفت أولا ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه حيث (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً) عنوة وقهرا (أَفْسَدُوهَا) خربوها (وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً) أذلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا وأسروا فذكرت لهم سوء عاقبة الحرب ثم قالت (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) أرادت وهذه عادتهم المستمرة التى لا تتغير لأنها كانت فى بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأى السديد، وقيل هو تصديق من الله لقولها واحتج الساعى فى الأرض بالفساد بهذه الآية ومن استباح حراما فقد كفر وإذا احتج له بالقرآن

على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين (وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ) أى مرسلة رسلا بهدية (فَنَاظِرَةٌ) فمنتظرة (بِمَ) أى بما لأن الألف تحذف مع حرف الجر فى الاستفهام (يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) بقبولها أم بردها لأنها عرفت عادة الملوك وحسن مواقع الهدايا عندهم فإن كان ملكا قبلها وانصرف وإن كان نبيا ردها ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه فبعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك فى زى الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رسلا وأمرت عليهم المنذر بن عمرو بدليل قوله تعالى: بم يرجع المرسلون . وكتبت كتابا فيه نسخة الهدايا وقالت فيه إن كنت نبيا فميز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بما فى الحق واثقب الدرة ثقبا واسلك فى الخرزة خيطا ثم قالت للمنذر إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظره وإن رأيته بشاشا لطيفا فهو نبى فأقبل الهدهد وأخبر سليمان الخبر كله فأمر سليمان الجن فضربوا لبنات الذهب والفضة وفرشوها فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب والفضة وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنات وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ والإنس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ورأوا الدواب تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم سليمان بوجه طلق فأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه وقال أين الحق فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فى الدرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها [1] ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر ارجع إليهم (فَلَمَّا جَآءَ) رسولها المنذر بن عمرو (سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ) بنونين وإثبات الياء فى الوصل والوقف مكى وسهل وافقهما مدنى وأبو عمرو فى الوصل أتمدوننى حمزة ويعقوب فى الحالين وغيرهم بنونين بلا ياء فيهما والخطاب للرسل (فَمَآ ءَاتَىٰنِيَ اللَّهُ) من

(١) قوله فيها أى فى الخرزة المار ذكرها .

النبوة والملك والنعمة. وبفتح الباء مدنى وأبو عمرو وحفص (خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَاكُمْ) من زخارف الدنيا (بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) الهدية اسم المهدى كما أن العطية اسم المعطى فتضاف إلى المهدى والمهدى له تقول هذه هدية فلان تريد هى التى أهداها أو أهديت إليه والمعنى إن ما عندى خير مما عندكم وذلك أن الله آتانى الدين الذى فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع وآتانى من الدنيا مالا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلى بأن يمد بمال بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فلذلك تفرحون بما تزادون ويهدى إليكم لأن ذلك مبلغ همتكم وحالى خلاف حالكم ومالأرضى منكم بشىء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية والفرق بين قولك أتمدوننى بمال وأنا أغنى منكم وبين أن تقوله بالفاء أنى إذا قلته بالواو جعلت مخاطبى عالما بزيادتى فى الغنى وهو مع ذلك يمدنى بمال وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالى فأنا أخبره الساعة بمالا أحتاج معه إلى إمداده كأنى أقول له أنكر عليك ما فعلت فإنى غنى عنه وعليه ورد فما آتانى الله ووجه الاضراب أنه لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذى حملهم عليه وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التى لايعلمون غيرها (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ) خطاب للرسول أو الهدهد محملا كتابا آخر إليهم ائت بلقيس وقومها (فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا) لاطاقة لهم بها وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة أى لايقدرون أن يقابلوهم (وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا) من سبأ (أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) الذل أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك والصغار أن يقعوا فى أسر واستعباد فلما رجع إليها رسولها بالهدايا وقص عليها القصة قالت: هونبى ومالنا به طاقة ثم جعلت عرشها فى آخر سبعة أبيات وغلقت الأبواب ووكلت به حرسا يحفظونه وبعثت إلى سليمان إنى قادمة إليك لأنظر ما الذى تدعو إليه وشخصت إليه فى اثنى عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان (قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ) أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظم قدرة الله تعالى وعلى ما يشهد لنبوة سليمان أو أراد أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها وهذا بعيد عند أهل التحقيق أو أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختبارا لعقلها

(قَالَ عِفرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ) وهو الخبيث المارد واسمه ذكوان (أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ) مجلس حكمك وقضائك (وَإِنِّى عَلَيْهِ) على حمله (لَقَوِىٌّ أَمِينٌ) آتى به كما هو لا آخذ منه شيئا ولا أبدله فقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من هذا (قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ) أى ملك بيده كتاب المقادير أرسله الله تعالى عندقول العفريت أوجبريل عليه السلام والكتاب على هذا اللوح المحفوظ، أو الخضر أو آصف بن برخيا كاتب سليمان وهوالأصح وعليه الجمهور وكان عنده اسم الله الأعظم الذى إذادعى به أجاب وهو ياحى ياقيوم ياذاالجلال والإكرام أوياإلهنا وإله كل شىء إلٰهاواحدا لا إلٰه إلاأنت وقيل كان له علم بمجارى الغيوب إلهاما (أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ) بالعرش وآتيك فى الموضعين يجوز أن يكون فعلا أو اسم فاعل ومعنى قوله (قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) أنك ترسل طرفك إلى شىء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد عينيه فنظر نحو اليمن فدعا آصف فغار العرش فى مكانه ثم نبع عند مجلس سليمان بقدرة الله تعالى قبل أن يرتد طرفه (فَلَمَّا رَءَاهُ) أى العرش (مُسْتَقِرًّا عِندَهُ) ثابتا لديه غير مضطرب (قَالَ هَٰذَا) أى حصول مرادى وهو حضور العرش فى مدة ارتداد الطرف (مِن فَضْلِ رَبِّى) علىّ وإحسانه إلى بلااستحقاق منى بل هو فضل خال من العوض صاف عن الغرض (لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ) ليمتحننى أشكر إنعامه (أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) لأنه يحط به عنها عبء الواجب ويصونها عن سمة الكفران ويستجلب به المزيد وترتبط به النعمة فالشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة وفى كلام بعضهم إن كفران النعمة بوار وقلما أقشعت نافرة فرجعت فى نصابها فاستدع شاردها بالشكر واستدم راهنها بكرم الجوار. واعلم أن سبوغ ستر الله تعالى متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقارا أى لم تشكر لله نعمة (وَمَن كَفَرَ) بترك الشكر على النعمة (فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ) عن الشكر (كَرِيمٌ) بالإنعام على من يكفر نعمته، قال الواسطى ما كان منا من الشكر فهو لنا وما كان منه من النعمة فهو إلينا وله المنة والفضل علينا (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا) غيروا أى اجعلوا مقدمه مؤخره وأعلاه أسفله (نَنظُرْ) بالجزم على الجواب (أَتَهْتَدِى) إلى معرفة عرشها أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه (أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا

جَآءَتْ) بلقيس (قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ) ها للتنبيه والكاف للتشبيه وذا اسم إشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا (قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) فأجابت أحسن جواب فلم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع فى المحتمل للأمرين أولماشبهوا عليها بقولهم: أهكذاعرشك شبهت عليهم بقولها كأنه هومع أنها علمت أنه عرشها (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا) من كلام بلقيس أى وأوتينا العلم بقدرة الله تعالى وبصحة نبوتك بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبل هذه المعجزة أى إحضار العرش أو من قبل هذه الحالة (وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) منقادين لك مطيعين لأمرك أومن كلام سليمان وملئه عطفوا على كلامها قولهم: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها أو أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين موحدين خاضعين (وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ) متصل بكلام سليمان أى وصدها عن العلم بما علمناه أو عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين أظهر الكفرة ثم بين نشأها بين الكفرة بقوله (إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ) أو كلام مبتدأ أى قال الله تعالى وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل أوصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ) أى القصر أو صحن الدار (فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً) ماءعظيما (وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا) سأقيهابالهمزة مكى روى أن سليمان أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس وإنما فعل ذلك لنزيدها استعظاما لأمره وتحقيقا لنبوته وقيل إن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد يجمع فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد فقالوا له إن فى عقلها شيئا وهى شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليعرف ساقها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هى أحسن الناس ساقا وقدما إلا أنها شعراء فصرف بصره (قَالَ) لها (إِنَّهُ (صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ)مملس مستو ومنه الأمرد (مِّن قَوَارِيرَ) من الزجاج وأراد سليمان تزوجها فكره شعرها فعملت لها الشياطين النورة فأزالته فنكحها سليمان وأحبها وأقرها على ملكها

وكان يزورها فى الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له (قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) بعبادة الشمس (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قال المحققون لا يحتمل أن يحتال سليمان لينظر إلى ساقيها وهى أجنبية فلا يصح القول بمثله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ) فى النسب (صَالِحًا) بدل (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) بكسر النون فى الوصل عاصم وحمزة وبصرى وبضم النون غيرهم اتباعا للباء والمعنى بأن اعبدوا الله وحدوه (فَإِذَا) للمفاجأة (هُمْ) مبتدأ (فَرِيقَانِ) خبر (يَخْتَصِمُونَ) صفة وهى العامل فى إذا والمعنى فإذا قوم صالح فريقان مؤمن به وكافر به يختصمون فيقول كل فريق الحق معى وهو مبين فى قوله: قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون. وقال الفريق الكافر: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين (قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ) بالعذاب الذى توعدون (قَبْلَ الْحَسَنَةِ) قبل التوبة (لَوْلَا) هلا (تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ) تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزول العذاب بكم (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) بالإجابة (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ) تشاءمنا بك لأنهم قحطوا عند مبعثه لتكذيبهم فنسبوه إلى مجيئه والأصل تطيرنا وقرئ به فأدغمت التاء فى الطاء وزيدت الألف لسكون الطاء (وَبِمَن مَّعَكَ) من المؤمنين (قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ) أى سببكم الذى يجئ منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته أو عملكم مكتوب عند الله فإنما نزل بكم مانزل عقوبة لكم وفتنة ومنه وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه وأصله أن المسافر إذا مر بطائر فيزجره فإن مر سانحا تيامن وإذا مر بارحا تشاءم فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته أو من عمل العبد الذى هو السبب فى الرحمة والنقمة (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) تختبرون أوتعذبون بذنبكم (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ) مدينة ثمود وهى الحجر (تِسْعَةُ رَهْطٍ) هو جمع لا واحد له ولذا جاز تمييز التسعة به فكأنه قيل تسعة أنفس وهو من الثلاثة إلى العشرة وعن أبى دؤاد رأسهم قدار بن سالف وهم الذين سموا فى عقر الناقة وكانوا ابناء أشرافهم (يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) يعنى أن شأنهم

الإفساد البحت لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح وعن الحسن يظلمون الناس ولا يمنعون الظالمين من الظلم وعن ابن عطاء يتبعون معايب الناس ولا يسترون عوراتهم (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ) تحالفوا خبر فى محل الحال بإضمار قد أى قالوا متقاسمين أو أمر أى أمر بعضهم بعضا بالقسم (لَنُبَيِّتَنَّهُ) لنقتلنه بياتا أى ليلا (وَأَهْلَهُ) وأهله وتبعه (ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ) لولى دمه لنبيتنه بالتاء وبضم التاء الثانية ثم لتقولن بالتاء وضم اللام حمزة وعلى (مَا شَهِدْنَا) ما حضرنا (مَهْلِكَ أَهْلِهِ) حفص مهلَك أبو بكر وحماد والمفضل من هلك فالأول موضع الهلاك والثانى المصدر مُهلَك غيرهم من أهلك وهو الإهلاك أو مكان الإهلاك أى لم نتعرض لأهله فكيف تعرضنا له أو ما حضرنا موضع هلاكه فكيف توليناه (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) فيما ذكرنا (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) مكرهم ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ومكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روى أنه كان لصالح مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثالث فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله كلا منهم فى مكانه ونجى صالحا عليه السلام ومن معه (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ) بفتح الألف كوفى وسهل وبكسرها غيرهم على الاستئناف ومن فتحه رفعه على أنه بدل من العاقبة أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هى تدميرهم أو نصبه على معنى لأنا أو على أنه خبر كان أى فكان عاقبة مكرهم الدمار (وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) بالصيحة (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً) ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط أو خالية من الخواء ، وهى حال عمل فيها مادل عليه تلك (بِمَا ظَلَمُوا) بظلمهم (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) فيما فعل بثمود (لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) قدرتنا فيتعظون (وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا) بصالح (وَكَانُوا يَتَّقُونَ) ترك أوامره وكانوا أربعة آلاف نجوا مع صالح من العذاب (وَلُوطًا إِذْ قَالَ) واذكر لوطا، وإذ بدل من لوطا أى واذكر وقت قول لوط (لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ

الْفَٰحِشَةَ) أى إتيان الذكور (وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها من بصر القلب أو يرى ذلك بعضهم من بعض لأنهم كانوا يرتكبونها فى ناديهم معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض مجانة وانهماكا فى المعصية أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم ثم صرح فقال (أَئِنَّكُمْ) بهمزتين كوفى وشامى (لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً) للشهوة (مِّن دُونِ النِّسَآءِ) أى ان الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الأنثى للأنثى فهى مضادة لله فى حكمته (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك أو أريد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها وقد اجتمع الخطاب والغيبة فى قوله بل أنتم قوم تجهلون وبل أنتم قوم تفتنون فغلب الخطاب على الغيبة لأنه أقوى إذ الأصل أن يكون الكلام بين الحاضرين (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ) أى لوطا ومتبعيه نخبر كان جواب واسمه أن قالوا (مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) يتنزهون عن القاذورات ينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم وقيل هو استهزاء كقوله إنك لأنت الحليم الرشيد (فَأَنجَيْنَٰهُ) نخلصناه من العذاب الواقع بالقوم (وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا) بالتشديد سوى حماد وأبى بكر أى قدرنا كونها (مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ) من الباقين فى العذاب (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا) حجارة مكتوبا عليها اسم صاحبها (فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ) الذين لم يقبلوا الإنذار (قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ) أمر رسوله محمداً ﷺ بتحميده ثم بالصلاة على المصطفين من عباده توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته وقدرته على كل شىء وهو تعليم لكل متكلم فى كل أمر ذى بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما أو هو خطاب للوط عليه السلام بأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم (ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) بالياء بصرى وعاصم ولا خير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل شىء وإنما هو إلزام لهم وتهكم بحالهم وذلك انهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيئاً على شىء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثا لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط

وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال : «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم» ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله فقال (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) والفرق بين أم وأم فى أما يشركون وأمن خلق السموات أن تلك متصلة إذ المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ولما قال آلله خير أم الآلهة قال بل أمن خلق السموات والأرض خير تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شىء (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً) مطراً (فَأَنبَتْنَا) صرف الكلام عن الغيبة إلى التكلم تأكيدا لمعنى اختصاص الفعل بذاته وإيذانا بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والأشكال مع حسنها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده (بِهِ) بالماء (حَدَائِقَ) بساتين، والحديقة: البستان وعليه حائط من الإحداق وهو الإحاطة (ذَاتَ) ولم يقل ذوات لأن المعنى جماعة حدائق كما تقول النساء ذهبت (بَهْجَةٍ) حسن لأن الناظر يبتهج به ثم رشح معنى الاختصاص بقوله (مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا) ومعنى الكينونة الانبغاء أراد أن تأتى ذلك محال من غيره (أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ) أغيره يقرن به ويجعل شريكا له (بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) به غيره أو يعدلون عن الحق الذى هو التوحيد وبل هم بعد الخطاب أبلغ فى تخطئة رأيهم (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ) وما بعده بدل من أمن خلق فكان حكمها حكمه (قَرَارًا) دحاها وسواها للاستقرار عليها (وَجَعَلَ خِلَالَهَا) ظرف أى وسطها وهو المفعول الثانى والأول (أَنْهَارًا) وبين البحرين مثله (وَجَعَلَ لَهَا) للأرض (رَوَاسِيَ) جبالا تمنعها عن الحركة (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ) العذب والمالح (حَاجِزًا) مانعا أن يختلطا (أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) التوحيد فلا يؤمنون (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) الاضطرار افتعال من الضرورة وهى الحالة المحوجة إلى اللجأ يقال اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر والمضطر الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إلى الله أو المذنب إذا استغفر أو المظلوم إذا دعا أو من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد وهو منه على خطر (وَيَكْشِفُ السُّوءَ) الضر أو الجور (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) أى فيها وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك والتسلط (أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) وبالياء أبو عمرو وبالتخفيف حمزة وعلى وحفص

وما مزيدة أى تذكرون تذكرا قليلا (أَمَّن يَهْدِيكُمْ) يرشدكم بالنجوم (فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ) ليلا وبعلامات فى الأرض نهارا (وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ) الريح مكى وحمزة وعلى (بُشْرًا) من البشارة وقد مرّ فى الأعراف (بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ) قدام المطر (أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ) ينشئ الخلق (ثُمَّ يُعِيدُهُۥ) وإنما قيل لهم ثم يعيده وهم منكرون للإعادة لأنه أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار فلم يبق لهم عذر فى الإنكار (وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ) أى المطر (وَٱلْأَرْضِ) أى ومن الأرض النبات (أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ) حجتكم على إشراككم (إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) فى دعواكم أن مع الله إلهاً آخر (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ) مَن فاعل يعلم، والغيب هو ما لم يقم عليه دليل ولا اطلع عليه مخلوق مفعول والله بدل مِن مَن والمعنى لايعلم أحد الغيب إلا الله نعم ان الله تعالى يتعالى عن أن يكون ممن فى السموات والأرض ولكنه جاء على لغة بنى تميم حيث يجرون الاستثناء المنقطع مجرى المتصل ويجيزون النصب والبدل فى المنقطع كما فى المتصل ويقولون مافى الدار أحد إلا حمار وقالت عائشة رضى الله عنها من زعم أنه يعلم مافى غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله. وقيل نزلت فى المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة (وَمَا يَشْعُرُونَ) ومايعلمون (أَيَّانَ) متى (يُبْعَثُونَ) ينشرون (بَلِ ٱدَّٰرَكَ)أدرك مكى وبصرى ويزيد والمفضل أى انتهى وتكامل من أدركت الفاكهة تكاملت نضجا بل ادّرك عن الأعشى افتعل بل ادّارك غيرهم استحكم وأصله تدارك فأدغمت التاء فى الدال وزيد ألف الوصل ليمكن التكلم بها (عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ) أى فى شأن الآخرة ومعناها، والمعنى أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وذلك قوله (بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) والإضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم وتكرير لجهلهم وصفهم أولا بأنهم لايشعرون وقت البعث ثم بأنهم لايعلمون أن القيامة كائنة ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وقد جعل الآخرة مبتدأ عماهم ومنشأه فلذا عداه بمن دون عن لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى منعهم عن التدبر والتفكر ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية وهو وصف المشركين بإنكارهم البعث مع

استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب وأن العباد لا علم لهم بشيء منه أنه لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب وكان هذا بيانا لعجزهم ووصفا لقصور علمهم وصل به أن عندهم عجزا أبلغ منه وهو أنهم يقولون للكائن الذى لابد من كونه وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به وجاز أن يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكما بهم كما تقول لأجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزؤ وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذى الطريق إلى علمه مسلوك فضلا أن يعرفوا وقت كونه الذى لاطريق إلى معرفته ويجوز أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك أدركت الثمرة لأن تلك غايتها التى عندها تعدم وقد فسرها الحسن باضمحل علمهم فى الآخرة وتدارك من تدارك بنوفلان إذا تتابعوا فى الهلاك (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ) من قبورنا أحياء وتكرير حرف الاستفهام فى أئذا وأئنا فى قراءة عاصم وحمزة وخلف، إنكار بعد إنكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والعامل فى إذا مادل عليه لمخرجون وهو نخرج لأن اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام أو إن أو لام الابتداء لايعمل فيما قبله فكيف إذا اجتمعن والضمير فى إنالهم ولآبائهم لأن كونهم ترابا قدتناولهم وآباءهم لكنه غلبت الحكاية على الغائب وآباؤنا عطف على الضمير فى كنا لأن المفعول جرى مجرى التوكيد (لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا) أى البعث (نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ) من قبل محمد ﷺ قدم هنا هذا على نحن وآباؤنا وفى المؤمنون نحن وآباؤنا على هذا ليدل على أن المقصود بالذكر هو البعث هنا وثمة المبعوثون (إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم (قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ) أى آخر أمر الكافرين وفى ذكر الإجرام لطف بالمسلمين فى ترك الجرائم كقوله تعالى: فدمدم عليهم ربهم بذنبهم. وقوله: مما خطيئاتهم أغرقوا (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) لأجل أنهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا (وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ) فى حرج صدر (مِّمَّا يَمْكُرُونَ) من مكرهم وكيدهم لك فإن الله يعصمك من الناس يقال ضاق الشيء ضيقا بالفتح وهو قراءة غير ابن كثير وبالكسر وهو قراءته (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ) أى وعد العذاب (إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) أن العذاب نازل بالمكذب (قُلْ

عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ) استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم عسى أن يكون ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء فى ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم ، وعسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجده فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ) أي إفضال (عَلَى النَّاسِ) بترك المعاجلة بالعذاب (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) أي أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه فيستعجلون العذاب بجهلهم (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ) تخفى (صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) يظهرون من القول فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم ولكن له وقت مقدر أو أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه وقرئ تَكُنُّ يقال كننت الشيء وأكننته إذا سترته وأخفيته (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) سمي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية والتاء فيهما كالتاء فى العاقبة والعافية ونظائرها الرمية والذبيحة والنطيحة فى أنها أسماء غير صفات ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية كأنه قال وما من شيء شديد الغيوبة إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته فى اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البيّن لمن ينظر فيه من الملائكة (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أى يبين لهم (أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) فإنهم اختلفوا فى المسيح فتحزبوا فيه أحزابا ووقع بينهم التناكر فى أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا يريد اليهود والنصارى (وَإِنَّهُ) وإن القرآن (لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) لمن أنصف منهم وآمن أى من بنى إسرائيل أو منهم ومن غيرهم (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ) بين من آمن بالقرآن ومن كفر به (بِحُكْمِهِ) بعدله لأنه لا يقضى إلا بالعدل فسمى المحكوم به حكما أو بحكمته ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (وَهُوَ الْعَزِيزُ) فلا يرد قضاؤه (الْعَلِيمُ) بمن يقضى له وبمن يقضى عليه أو العزيز فى انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحقين (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين (إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج وهو الدين الواضح الذى لا يتعلق به شك وفيه

بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنتَ بِهَٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ) لما كانوا لا يعون ما يسمعون ولا به ينتفعون شبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس وبالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون وبالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويجعلهم هداة بصراء إلاالله تعالى ثم أكد حال الصم بقوله إذا ولوا مدبرين لأنه إذا تباعد عن الداعى بأن تولى عنه مدبرا كان أبعد عن إدراك صوته، ولايسمع الصُّمُّ مكى وكذا فى الروم وما أنت تهدى العمى وكذا فى الروم حمزة (إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا) أى ما يجدى إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أى يصدقون بها (فَهُم مُّسْلِمُونَ) مخلصون من قوله بلى من أسلم وجهه لله يعنى جعله سالماً لله خالصاً له (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ) سمى معنى القول ومؤداه بالقول وهو ماوعدوا من قيام الساعة والعذاب ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة (أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) هى الجساسة، فى الحديث: طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان .وقيل لها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير ومابين المفصلين اثناعشر ذراعا تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية فتقول (أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ) أى لايوقنون بخروجى لأن خروجها من الآيات وتقول ألا لعنة الله على الظالمين أو تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام أو بأن هذا مؤمن وهذا كافر وفتح ان كوفى وسهل على حذف الجار أى تكلمهم بأن وغيرهم كسروا لأن الكلام بمعنى القول أو بإضمار القول أى تقول الدابة ذلك ويكون المعنى بآيات ربنا أو حكاية لقول الله تعالى عند ذلك ثم ذكر قيام الساعة فقال (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا) من للتبعيض أى واذكر يوم نجمع من كل أمة من الأمم زمرة (مِّمَّن يُكَذِّبُ) من للتبيين (بِـَٔايَٰتِنَا) المنزلة على أنبيائنا (فَهُمْ يُوزَعُونَ) يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقون إلى موضع الحساب وهذه عبارة عن كثرة العدد وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو) حضروا موقف الحساب والسؤال (قَالَ) لهم تعالى تهديدا (أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى) المنزلة على رسلى (وَلَمْ تُحِيطُوا

بِهَا عِلماً) الواو للحال كأنه قال أكذبتم بآياتى بادئ الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب (أَمَّا ذَا كُنتُم تَعمَلُونَ) حيث لم تتفكروا فيها فإنكم لم تخلقوا عبثا (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ) أى يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله: هذا يوم لا ينطقون (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) حال، جعل الإبصار للنهار وهو لأهله والتقابل مراعى من حيث المعنى لأن معنى مبصرا ليبصروا فيه طرق التقلب فى المكاسب (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يصدقون فيعتبرون، وفيه دليل على صحة البعث لأن معناه ألم يعلموا أنا جعلنا الليل والنهار قواما لمعاشهم فى الدنيا ليعلموا أن ذلك لم يجعل عبثا بل محنة وابتلاء ولابد عند ذلك من ثواب وعقاب فإذا لم يكونا فى هذه الدار فلابد من دار أخرى للثواب والعقاب (وَيَوْمَ) واذكر يوم (يُنفَخُ فِي الصُّورِ) وهو قرن أو جمع صورة والنافخ إسرافيل عليه السلام (فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ) اختير فزع على يفزع للإشعار بتحقق الفزع وثبوته وانه كائن لا محالة والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون (إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ) إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام وقيل الشهداء وقيل الحور وخزنة النار وحملة العرش، وعن جابر رضى الله عنه منهم موسى عليه السلام لأنه صعق مرة، ومثله: ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله (وَكُلٌّ أَتَوْهُ) حمزة وحفص وخلف، آتوه غيرهم وأصله آتيوه (دَٰخِرِينَ) حال أى صاغرين ومعنى الإتيان حضورهم الموقف ورجوعهم إلى أمره تعالى وانقيادهم له (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا) بفتح السين شامى وحمزة ويزيد وعاصم وبكسرها غيرهم حال من المخاطب (جَامِدَةً) واقفة ممسكة عن الحركة من جمد فى مكانه إذا لم يبرح (وَهِيَ تَمُرُّ) حال من الضمير المنصوب فى تحسبها (مَرَّ السَّحَابِ) أى مثل مر السحاب والمعنى أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة فى مكان واحد لعظمها وهى تسير سيرا سريعا كالسحاب إذا ضربته الريح وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تبين حركتها كما قال النابغة فى صفة جيش .

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم ... وقوف لحاج والركاب تهملج

(صُنْعَ اللّهِ) مصدر عمل فيه ما دل عليه تمر لأن مرورها كمر السحاب من صنع الله فكأنه قيل صنع الله ذلك صنعا وذكر اسم الله لأنه لم يذكر قبل (ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) أى أحكم خلقه (إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ) يفعلون مكى وبصرى غير سهل وأبو بكر غير يحيي وغيرهم بالتاء أى أنه عالم بما يفعل العباد فيكافئهم على حسب ذلك ثم لخص ذلك بقوله (مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ) أى بقول لا إله إلا الله عند الجمهور (فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا) أى فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعلى هذا لا يكون خير بمعنى أفضل ويكون منها فى موضع رفع صفة لخير أى بسببها (وَهُم مِّن فَزَعٍ) كوفى أى من فزع شديد مفرط الشدة وهو خوف النار أو من فزع ما وإن قل، وبغير تنوين غيرهم (يَوْمَئِذٍ) كوفى ومدنى، وبكسر الميم غيرهم والمراد يوم القيامة (ءَامِنُونَ) أمن يتعدى بالجار وبنفسه كقوله أفأمنوا مكر الله (وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ) بالشرك (فَكُبَّتْ) ألقيت (وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ) يقال كببت الرجل ألقيته على وجهه أى ألقوا على رؤوسهم فى النار أو عبر عن الجملة بالوجه كما يعبر بالرأس والرقبة عنها أى ألقوا فى النار ويقال لهم تبكيتا عند الكب (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) فى الدنيا من الشرك والمعاصى (إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ) مكة (ٱلَّذِى حَرَّمَهَا) جعلها حرما آمنا يأمن فيها اللاجئ إليها ولا يختلى خلاها ولا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها (وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ) مع هذه البلدة فهو مالك الدنيا والآخرة (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) المنقادين له (وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ) من التلاوة أو من التلو كقوله: واتبع مايوحى إليك من ربك، أمر رسوله بأن يقول أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكا كما فعلت قريش وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام وأن أتلو القرآن لأعرف الحلال والحرام وما يقتضيه الإسلام وخص مكة من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب بلاده إليه وأعظمها عنده وأشار إليها بقوله هذه إشارة تعظيم لها وتقريب دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه ووصف ذاته بالتحريم الذى هو خاص وصفها وجعل دخول كل شئ تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما (فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ) باتباعه إياى فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفى الشركاء عنه والدخول فى الملة الحنيفية واتباع ما أنزل علىّ من الوحى (فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ) فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إلىّ (وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ

الْمُنذِرِينَ) أى ومن ضل ولم يتبعنى فلا علىّ وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ المبين (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا) ثم أمره أن يحمد الله على ما خوله من نعمة النبوة التى لا توازيها نعمة وأن يهدد أعداءه بما سيريهم الله من آياته فى الآخرة فيستيقنون بها وقيل هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله فى الدنيا (وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) بالتاء مدنى وشامى وحفص ويعقوب خطاب لأهل مكة وبالياء غيرهم أى كل عمل يعملونه فإن الله عالم به غير غافل عنه فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه .

﴿ سورة القصص مكية ثمانون وثمان آيات ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ) يقال بان الشئ وأبان بمعنى واحد ويقال أبنته فأبان لازم ومتعد أى مبين خيره وبركته أو مبين للحلال والحرام والوعد والوعيد والإخلاص والتوحيد (نَتْلُوا عَلَيْكَ) نقرأ عليك أى يقرؤه جبريل بأمرنا ومفعول نتلو (مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ) أى نتلو عليك بعض خبرهما (بِالْحَقِّ) حال أى محقين (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) لمن سبق فى علمنا أنه مؤمن لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم (إِنَّ فِرْعَوْنَ) جملة مستأنفة كالتفسير للجمل كأن قائلا قال وكيف كان نبؤهما فقال إن فرعون (عَلَا) طغى وجاوز الحد فى الظلم واستكبر وافتخر بنفسه ونسى العبودية (فِى الْأَرْضِ) أى أرض مملكته يعنى مصر (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه أو فرقا مختلفة يكرم طائفة ويهين أخرى فأكرم القبطى وأهان الإسرائيلى (يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ) هم بنو إسرائيل (يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ) أى يترك البنات أحياء للخدمة، وسبب ذبح الأبناء أن كاهنا قال له يولد مولود فى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يده وفيه دليل على حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل وإن كذب فما معنى القتل ، ويستضعف حال من الضمير فى وجعل أو صفة لشيعا أو كلام

مستأنف ويذبح بدل من يستضعف (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) أى إن القتل ظلما إنما هو فعل المفسدين إذ لا طائل تحته صدق الكاهن أو كذب (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ) نتفضل وهو دليل لنا فى مسألة الأصلح وهذه الجملة معطوفة على إن فرعون علا فى الأرض لأنها نظيرة تلك فى وقوعها تفسيرا لنبأ موسى وفرعون واقتصاصا له أوحال من يستضعف أى يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وإرادة الله تعالى كائنة فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم (عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً) قادة يقتدى بهم فى الخير أو قادة إلى الخير أو ولاة وملوكا (وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) أى يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم (وَنُمَكِّنَ) مكن له إذا جعل له مكانا يقعد عليه أو يرقد، ومعنى التمكين (لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) أى أرض مصر والشام أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم ويسلطهم وينفذ أمرهم (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا) بضم النون ونصب فرعون وما بعده، وبالياء ورفع فرعون وما بعده على وحمزة أى يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم ، ويرى نصب عطف على المنصوب قبله كقراءة النون أو رفع على الاستئناف (مِنْهُم) من بنى إسرائيل ويتعلق بنرى دون يحذرون لأن الصلة لا تتقدم على الموصول (مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) الحذر: التوقى من الضرر (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ) بالإلهام أو بالرؤيا أو بإخبار ملك كما كان لمريم وليس هذا وحى رسالة ولا تكون هى رسولا (أَنْ أَرْضِعِيهِ) أن بمعنى أى أو مصدرية (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ) من القتل بأن يسمع الجيران صوته فينمو عليه (فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) البحر، قيل هو نيل مصر (وَلَا تَخَافِي) من الغرق والضياع (وَلَا تَحْزَنِي) بفراقه (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) بوجه لطيف لتربيته (وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وفى هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به فنهيت عنهما وبشرت برده إليها وجعله من المرسلين. وروى أنه ذبح فى طلب موسى تسعون ألف وليد وروى أنها حين ضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ودخل حبه قلبها فقالت ماجئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ولكن وجدت لابنك حبا ماوجدت مثله

فاحفظيه فلما خرجت القابلة جاءت عيون فرعون فلفته فى خرقة ووضعته فى تنور مسجور لم تعلم ماتصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئا فخرجوا وهى لاتدرى مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار بردا وسلاما فلما ألح فرعون فى طلب الولدان أوحى إليها بإلقائه فى اليم فألقته فى اليم بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر (فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ) أخذه، قال الزجاج كان فرعون من أهل فارس من اصطخر (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا) أى ليصير الأمر إلى ذلك لا أنهم أخذوه لهذا كقولهم للموت ماتلده الوالدة وهى لم تلد لأن يموت ولدها ولكن المصير إلى ذلك كذا قاله الزجاج وعن هذا قال المفسرون: إن هذه لام العاقبة والصيرورة. وقال صاحب الكشاف هى لام كى التى معناها التعليل كقولك جئتك لتكرمنى ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذى هو نتيجة المجيء (وَحَزَنًا) وحُزنا على وحمزة وهما لغتان كالعدم والعدم (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِئِينَ) خاطين تخفيف خاطئين أبوجعفر أى كانوا مذنبين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم أوكانوا خاطئين فى كل شىء فليس خطؤهم فى تربية عدوهم ببدع منهم (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ) روى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فأعياهم فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا فعالجته ففتحته فإذا بصبى نوره بين عينيه فأحبوه وكانت لفرعون بنت برصاء فنظرت إلى وجهه فبرئت، فقالت الغواة من قومه هو الذى نحذر منه فأذن لنا فى قتله فهم بذلك فقالت آسية قرة عين لى ولك فقال فرعون: لك، لا لى وفى الحديث لو قال كما قالت لهداه الله تعالى كما هداها وهذا على سبيل الفرض أى لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها وكان أسلم كما أسلمت وقرة خبر مبتدأ محذوف أى هو قرة ولى ولك صفتان لقرة (لَا تَقْتُلُوهُ) خاطبته خطاب الملوك أو خاطبت الغواة (عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ) فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك لما عاينت من النور وبرء البرصاء (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) أو نتبناه فإنه أهل لأن يكون ولدا للملوك (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) حال، وذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم فى التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه وقوله إن فرعون الآية

جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعانى والبيان (وَأَصْبَحَ) وصار (فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا) صفرا من العقل لما دهمها من فرط الجزع لما سمعت بوقوعه فى يد فرعون (إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ) لتظهر به والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته وأنه ولدها. قيل لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت كادت تصيح وتقول : وا ابناه وقيل لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله فكادت تقول : وا ابناه شفقة عليه وإن مخففة من الثقيلة أى إنها كادت (لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) لولا ربطنا على قلبها والربط على القلب تقويته بإلهام الصبر (لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) من المصدقين بوعدنا وهو إنا رادوه إليك وجواب لولا محذوف أى لأبدته أو فارغا من الهم حين سمعت أن فرعون تبناه إن كادت لتبدى بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت لولا أنا طأمنا قلبها وسكنا قلقه الذى حدث به من شدة الفرح لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبنى فرعون، قال يوسف بن الحسين أمرت أم موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت ببشارتين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ) مريم (قُصِّيهِ) اتبعى أثره لتعلمى خبره (فَبَصُرَتْ بِهِ) أى أبصرته (عَن جُنُبٍ) عن بعد حال من الضمير فى به أو من الضمير فى بصرت (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أنها أخته (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ) تحريم منع لا تحريم شرع أى منعناه أن يرضع ثديا غير ثدى أمه وكان لا يقبل ثدى مرضع حتى أهمهم ذلك. والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع وهو الثدى أو الرضاع (مِن قَبْلُ) من قبل قصها أثره أو من قبل أن نرده على أمه (فَقَالَتْ) أخته وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثديا (هَلْ أَدُلُّكُمْ) أرشدكم (عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ) أى موسى (لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) النصح إخلاص العمل من شائبة الفساد روى أنها لما قالت وهم له ناصحون قال هامان : إنها لتعرفه وتعرف أهله فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام، فقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فانطلقت إلى أمها بأمرهم فجاءت بها والصبى على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكى يطلب الرضاع فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها فرعون ومن أنت منه فقد أبى كل ثدى إلا ثديك فقالت إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبى إلا قبلنى فدفعه إليها وأجرى

عليها وذهبت به إلى بيتها وأنجز الله وعده فى الرد فعندها ثبت واستقر فى علمها أنه سيكون نبيا وذلك قوله (فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا) بالمقام معه (وَلَا تَحْزَنَ) بفراقه (وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ) أى وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبرا وقوله ولا تحزن معطوف على تقر وإنما حل لها ماتأخذه من الدينار كل يوم كما قال السدى لأنه مال حربى لالأنه أجرة على إرضاع ولدها (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) هو داخل تحت علمها أى لتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لايعلمون انه حق فيرتابون ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ) بلغ موسى نهاية القوة وتمام العقل وهو جمع شدة كنعمة وأنعم عند سيبويه (وَٱسْتَوَىٰٓ) واعتدل وتم استحكامه وهو أربعون سنة ويروى انه لم يبعث نبى إلا على رأس أربعين سنة (ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا) نبوة (وَعِلْمًا) فقها أوعلما بمصالح الدارين (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ) أى كما فعلنا بموسى وأمه نفعل بالمؤمنين. قال الزجاج جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة التى هى جزاء المحسنين والعالم الحكيم من يعمل بعلمه لأنه تعالى قال: ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. فجعلهم جهالا إذ لم يعملوا بالعلم (وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ) أى مصر (عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا) حال من الفاعل أى مختفيا وهو مابين العشاءين أو وقت القائلة يعنى انتصاف النهار وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل المدينة إلا على تغفل (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ) ممن شايعه على دينه من بنى إسرائيل قيل هو السامرى، وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره (وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ) من مخالفيه من القبط وهو فاتون، وقيل فيهما هذا وهذا وإن كانا غائبين على جهة الحكاية أى إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته وهذا من عدوه (فَٱسْتَغَٰثَهُ) فاستنصره (ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ) ضربه بجمع كفه أو بأطراف أصابعه (فَقَضَىٰ عَلَيْهِ) فقتله (قَالَ هَٰذَا) إشارة إلى القتل الحاصل بغير قصد (مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ) وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلما لنفسه واستغفر منه لأنه كان مستأمنا فيهم ولا يحل قتل الكافر الحربى المستأمن أو لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى القتل، وعن ابن جريج ليس لنبى أن يقتل مالم يؤمر (إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) ظاهر العداوة (قَالَ رَبِّ) يارب (إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى) بفعل

صار قتلا (فَاغْفِرْ لِي) زلتي (فَغَفَرَ لَهُ) زلته (إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ) بإقالة الزلل (الرَّحِيمُ) بإزالة الخجل (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا) معينا (لِلْمُجْرِمِينَ) للكافرين وبما أنعمت على قسم جوابه محذوف تقديره أقسم بإنعامك على بالمغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين أو استعطاف كأنه قال رب اعصمنى بحق ماأنعمت على من المغفرة فلن أكون إن عصمتنى ظهيراً للمجرمين وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون وانتظامه فى جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا) على نفسه من قتله القبطى أن يؤخذ به (يَتَرَقَّبُ) حال أى يتوقع المكروه وهو الاستقادة منه أو الأخبار أو ما يقال فيه، وقال ابن عطاء: خائفاً على نفسه يترقب نصرة ربه وفيه دليل على أنه لا بأس بالخوف من دون الله بخلاف ما يقوله بعض الناس انه لا يسوغ الخوف من دون الله (فَإِذَا الَّذِي) إذا للمفاجأة وما بعدها مبتدأ (اسْتَنْصَرَهُ) أى موسى (بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ) يستغيثه والمعنى أن الإسرائيلى الذى خلصه موسى استغاث به ثانيا من قبطى آخر (قَالَ لَهُ مُوسَىٰ) أى للإسرائيلى (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) أى ضال عن الرشد ظاهر الغى فقد قاتلت بالأمس رجلا فقتلته بسببك والرشد فى التدبير أن لا يفعل فعلا يفضى إلى البلاء على نفسه وعلى من يريد نصرته (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ) موسى (أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي) بالقبطى الذى (هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا) لموسى والإسرائيلى لأنه ليس على دينهما أو لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل (قَالَ) الإسرائيلى لموسى عليه السلام وقد توهم أنه أراد أخذه لا أخذ القبطى إذ قال له إنك لغوى مبين (يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا) يعنى القبطى (بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ) ماتريد (إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا) أى قتالا بالغضب (فِي الْأَرْضِ) أرض مصر (وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) فى كظم الغيظ وكان قتل القبطى بالأمس قد شاع ولكن خفى قاتله فلما أفشى على موسى عليه السلام علم القبطى أن قاتله موسى فأخبر فرعون فهموا بقتله (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) هو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون (يَسْعَىٰ) صفة لرجل أو حال من رجل لأنه وصف بقوله من أقصى المدينة (قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ) أى يأمر بعضهم بعضاً بقتلك أو يتشاورون بسببك والائتمار التشاور يقال الرجلان يتآمران ويأتمران لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشىء أو يشير عليه بأمر

(فَاخْرُجْ) من المدينة (إِنِّى لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ) لك بيان وليس بصلة الناصحين لأن الصلة لاتتقدم على الموصول كأنه قال إنى من الناصحين ثم أراد أن يبين فقال لك كما يقال سقيا لك ومرحبا لك (فَخَرَجَ) موسى (مِنْهَا) من المدينة (خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ) التعرض له فى الطريق أو أن يلحقه من يقتله (قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ) أى قوم فرعون (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ) نحوها ، والتوجه الإقبال على الشىء، ومدين قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن فى سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام قال ابن عباس رضى الله عنهما: خرج ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه (قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السَّبِيلِ) أى وسطه ومعظم نهجه فجاءه ملك فانطلق به إلى مدين (وَلَمَّا وَرَدَ) وصل (مَآءَ مَدْيَنَ) ماءهم الذى يسقون منه وكان بئرا (وَجَدَ عَلَيْهِ) على جانب البئر (أُمَّةً) جماعة كثيرة (مِّنَ النَّاسِ) من أناس مختلفين (يَسْقُونَ) مواشيهم (وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ) فى مكان أسفل من مكانهم (امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ) تطردان غنمهما عن الماء لأن على الماء من هو أقوى منهما فلاتتمكنان من السقى أولئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم والذود الطرد والدفع (قَالَ مَاخَطْبُكُمَا) ما شأنكما وحقيقته مامخطوبكما أى مامطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبا (قَالَتَا لَا نَسْقِى) غنمنا (حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ) مواشيهم يَصدر شامى ويزيد وأبوعمرو أى يرجع، والرعاء جمع راع كقائم وقيام (وَأَبُونَا شَيْخٌ) لايمكنه سقى الأغنام (كَبِيرٌ)فى حاله أو فى السن لايقدر على رعى الغنم، أبدتا إليه عذرهما فى توليهما السقى بأنفسهما (فَسَقَىٰ لَهُمَا) فسقى غنمهما لأجلهما رغبة فى المعروف وإغاثة للملهوف روى أنه نحى القوم عن رأس البئر وسألهم دلوا فأعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكانت لاينزعها إلا أربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض ودعا بالبركة وترك المفعول فى يسقون وتذودان ولا نسقى وفسقى لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقى ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلا وكذا فى لانسقى وفسقى فالمقصود هو السقى لاالمسقى ووجه مطابقة جوابها سؤاله أنه سألهما عن سبب الذود فقالتا السبب فى ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ونستحى من الإختلاط بهم فلابدلنا من تأخير السقى إلى أن يفرغوا وإنما رضى شعيب عليه السلام لابنتيه بسقى الماشية لأن هذا الأمر فى نفسه ليس

بمحظور والدين لايأباه وأما المروءة فعادات الناس فى ذلك متباينة وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة(ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ)أى ظل سمرة وفيه دليل جواز الاستراحة فى الدنيا بخلاف مايقوله بعض المتقشفة ولما طال البلاء عليه أنس بالشكوى إذ لا نقص فى الشكوى إلى المولى (فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ)لأى شىء (أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ)قليل أو كثير غث أو سمين(فَقِيرٌ)محتاج، وعدى فقير باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب قيل كان لم يذق طعاما سبعة أيام وقد لصق بظهره بطنه ويحتمل أن يريد أنى فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلى من خير الدين وهو النجاة من الظالمين لأنه كان عند فرعون فى ملك وثروة قال ذلك رضا بالبدل السنى وفرحا به وشكرا له وقال ابن عطاء نظر من العبودية إلى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار لما ورد على سره من الأنوار (فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا) على استحياء فى موضع الحال أى مستحية وهذا دليل كمال إيمانها وشرف عنصرها لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لافأتته مستحية قداستترت بكم درعها، ومافى ماسقيت مصدرية أى جزاء سقيك روى أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حُفّل قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لإحداهما اذهبى فادعيه لى فتبعها موسى عليه السلام فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشى خلفى وانعتى لى الطريق (فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ)أى قصته وأحواله مع فرعون، والقصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص (قَالَ) له (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ) إذ لاسلطان لفرعون بأرضنا وفيه دليل جواز العمل بخبر الواحد ولو عبدا أو أنثى والمشى مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع وأما أخذ الأجر على البر والمعروف فقيل إنه لابأس به عند الحاجة كما كان لموسى عليه السلام على أنه روى إنها لما قالت ليجزيك كره ذلك وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها لأن للقاصد حرمة ولما وضع شعيب الطعام بين يديه امتنع فقال شعيب ألست جائعا قال بلى ولكن أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ولا نأخذ على المعروف ثمنا فقال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فأكل (قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ اسْتَـْٔجِرْهُ) اتخذه أجيرا لرعى الغنم روى أن كبراها كانت تسمى

صفراءوالصغرى صفيراء، وصفراء هى التى ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره وهى التى تزوجها (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَئْجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ) فقال وما علمك بقوته وأمانته فذكرت نزع الدلو وأمرهابالمشى خلفه ووردالفعل بلفظ الماضى للدلالة على أن أمانته وقوته أمران متحققان وقولها إن خير من استأجرت القوى الأمين كلام جامع لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك، وقيل القوى فى دينه الأمين فى جوارحه وقد استغنت بهذ الكلام الجارى مجرى المثل عن أن تقول استأجرهلقوته وأمانته. وعن ابن مسعود رضى الله عنه أفرس الناس ثلاث بنت شعيب وصاحب يوسف فى قوله عسى أن ينفعنا وأبو بكر فى عمر (قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ) أزوجك (إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ) قوله هاتين يدل على أنه كان له غيرهما وهذه مواعدة منه ولم يكن ذلك عقد نكاح إذلو كان عقدا لقال قد أنكحتك (عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى) تكون أجيراً لى من أجرته إذا كنت له أجيرا (ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ) ظرف والحجة السنة وجمعها حجج والتزوج على رعى الغنم جائز بالإجماع لأنه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة (فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا) أى عمل عشر حجج (فَمِنْ عِندِكَ) فذلك تفضل منك ليس بواجب عليك أو فإتمامه من عندك ولا أحتمه عليك ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع (وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ) بإلزام أتم الأجلين، وحقيقة قولهم: شققت عليه وشق عليه الأمرأن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقول تارة أطيقه وطورا لاأطيقه (سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّٰلِحِينَ) فى حسن المعاملة والوفاء بالعهد ويجوز أن يراد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه ومعونته لأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ذلك (قَالَ) موسى (ذَٰلِكَ) مبتدأ وهوإشارة إلى ماعاهده عليه شعيب والخبر (بَيْنِى وَبَيْنَكَ) يعنى ذلك الذى قلته وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليه قائم بيننا جميعا لايخرج كلانا عنه لاأنا فيما شرطت على ولا أنت فيما شرطت على نفسك ثم قال (أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ) أى أى أجل قضيت من الأجلين يعنى العشرة أو الثمانية وأى نصب بقضيت وما زائدة ومؤكدة لإبهام أى وهى شرطية وجوابها (فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ) أى لايعتدى على فى طلب الزيادة عليه، قال المبرد: قدعلم

أنه لاعدوان عليه فى أيهما ولـكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم فى الوفاء وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فـكذا طلب الزيادة على الأقل (وَاللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) هو من وكل إليه الأمر ، وعدى بعلى لأنه استعمل فى موضع الشاهد والرقيب. روى أن شعيبا كانت عنده عصىٌّ الأنبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل أدخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الأنبياء عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده إلا هى سبع مرات فعلم أن له شأنا ولما أصبح قال له شعيب إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الـكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنينا أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا التنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع إلى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا وقال له: إنى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء فأوحى إليه فى المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فوضعت كلهن أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ) قال عليه السلام «قضى أوفاهما وتزوج صغراهما» وهذا بخلاف الرواية التى مرت (وَسَارَ بِأَهْلِهِ) بامرأته نحو مصر. قال ابن عطاء: لما تم أجل المحنة ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة سار بأهله ليشتركوا معه فى لطائف صنع ربه (ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ) عن الطريق لأنه قد ضل الطريق (أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ) بالنسبة إلى موسى (فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ) بتكليم الله تعالى فيها (مِنَ الشَّجَرَةِ) العناب أو العوسج (أَن يَامُوسَىٰ) أن مفسرة أو مخففة من الثقيلة (إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) قال جعفر: أبصر ناراً دلته على الأنوار لأنه رأى النور فى هيئة النـار فلما دنا منها شملته أنوار القدس وأحاطت به جلابيب الأنس فخوطب بألطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلما شريفا أعطى ما سأل وأمن ممـا خاف، والجذوة باللغات الثلاث وقرئ بهن ، فعاصم بفتح الجيم وحمزة وخلف بضمها وغيرهم بكسرها العود الغليظ

كانت فى رأسه نار أو لم تكن، ومن الأولى والثانية لابتداء الغاية أى أتاه النداء من شاطىء الوادى من قبل الشجرة ومن الشجرة بدل من شاطىء الواد بدل الاشتمال لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء أى الجانب (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) ونودى أن ألق عصاك فألقاها فقلبها الله ثعبانا (فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ) تتحرك (كَأَنَّهَا جَآنٌّ) حية فى سمعها وهى ثعبان فى جثتها (وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) يرجع فقيل له (يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) أى أمنت من أن ينالك مكروه من الحية (اسْلُكْ) أدخل (يَدَكَ فِى جَيْبِكَ) جيب قميصك (تَخْرُجْ بَيْضَآءَ) لها شعاع كشعاع الشمس (مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ) برص (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) حجازى بفتحتين وبصرى. الرَّهْب حفص الرُّهْب غيرهم ومعنى الكل الخوف والمعنى واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما بك من فرق أى لأجل الحية . عن ابن عباس رضى الله عنهما : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقيل معنى ضم الجناح ان الله تعالى لما قلب العصا حية فزع موسى واتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشىء فقيل له ان اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران اجتناب ماهو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح اليد لأن يدى الإنسان بمنزلة جناحى الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه أو أريد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران ومعنى من الرهب من أجل الرهب أى إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك جعل الرهب الذى كان يصيبه سببا وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه ومعنى واضمم إليك جناحك واسلك يدك فى جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين لاختلاف الغرضين إذ الغرض فى أحدهما خروج اليد بيضاء وفى الثانى إخفاء الرهب ومعنى واضمم يدك إلى جناحك فى طه أدخل يمناك تحت يسراك (فَذَٰنِكَ) مخففا مثنى ذاك ومشددا مكى وأبو عمرو مثنى ذلك فإحدى النونين عوض من اللام المحذوفة والمراد اليد والعصا (بُرْهَٰنَانِ) حجتان نيرتان بينتان وسميت الحجة برهانا لإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء برهرهة (مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ) أى

أرسلناك إلى فرعون وملئه بهاتين الآيتين (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ) كافرين (قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) به بغير ياء وبالياء يعقوب (وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ) حفص (رِدْءًا) حال أى عونا يقال ردأته أعنته وبلا همز مدنى (يُصَدِّقُنِى) عاصم وحمزة صفة أى ردأ مصدقاً لى وغيرهما بالجزم جواب لأرسله ومعنى تصديقه موسى إعانته إياه بزيادة البيان فى مظان الجدال إن احتاج إليه ليثبت دعواه لا أن يقول له صدقت ألا ترى إلى قوله هو أفصح منى لسانا فأرسله وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان لا لقوله صدقت فسحبان وباقل فيه يستويان (إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) يكذبونى فى الحالين يعقوب (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ) سنقويك به إذ اليد تشد بشدة العضد لأنه قوام اليد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور (وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا) غلبة وتسلطا وهيبة فى قلوب الأعداء (فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ) الباء تتعلق بيصلون أى لايصلون إليكما بسبب آياتنا وتم الكلام أو بنجعل لكما سلطانا أى نسلطكما بآياتنا أو بمحذوف أى اذهبا بآياتنا أو هو بيان للغالبون لا صلة أو قسم جوابه لا يصلون مقدما عليه (أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَٰلِبُونَ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ) واضحات (قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى) أى سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله (وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ) حال منصوبة عن هذا أى كائنا فى زمانهم يعنى ماحدثنا بكونه فيهم (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ) أى ربى أعلم منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبيا وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى يعنى نفسه ولو كان كما تزعمون ساحرا مفتريا لما أهله لذلك لأنه غنى حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبىء الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة لقوله تعالى: أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن. والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى والغفران . قال موسى بغير واو مكى وهو حسن لأن الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عند تسميتهم مثل تلك الآيات العظام سحرا مفترى ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك وقال موسى هذا ليوازن الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد أحدهما وصحة

الآخر، ربى أعلم حجازى وأبو عمرو ومن يكون حمزة وعلى (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي) قصد بنفى علمه بإله غيره نفى وجوده أى ما لكم من إله غيرى أو هو على ظاهره وأن إلها غيره غير معلوم عنده (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ) أى اطبخ لى الآجر واتخذه وإنما لم يقل مكان الطين هذا لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة ولأنه أفصح وأشبه بكلام الجبابرة إذ أمر هامان وهو وزيره بالإيقاد على الطين منادى باسمه بيا فى وسط الكلام دليل التعظم والتجبر (فَاجْعَل لِّي صَرْحًا) قصرا عاليا (لَّعَلِّي أَطَّلِعُ) أى أصعد والاطلاع الصعود (إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ) حسب أنه تعالى فى مكان كما كان هو فى مكان (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ) أى موسى (مِنَ الْكَاذِبِينَ) فى دعواه أن له إلها وأنه أرسله إلينا رسولا وقد تناقض المخذول فإنه قال ما علمت لكم من إله غيرى ثم أظهر حاجته إلى هامان وأثبت لموسى إلها وأخبر أنه غير متيقن بكذبه وكأنه تحصن من عصا موسى عليه السلام فلبّس وقال لعلى أطلع إلى إله موسى روى أن هامان جمع خمسين ألف بناء وبنى صرحا لم يبلغه بناء أحد من الخلق فضرب الصرح جبريل عليه السلام بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا هلك (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ) تعظم (فِي الْأَرْضِ) أرض مصر (بِغَيْرِ الْحَقِّ) أى بالباطل فالاستكبار بالحق لله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة أى المتبالغ فى كبرياء الشأن كما حكى رسولنا عن ربه: الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار. وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) يَرجعون نافع وحمزة وعلى وخلف ويعقوب (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) من الكلام المفخم الذى دل به على عظمة شأنه شبههم استقلالا لعددهم وإن كانوا الجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ بكفه فطرحهن فى البحر (فَانظُرْ) يا محمد (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) وحذر قومك فإنك منصور عليهم (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) قادة (يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) أى عمل أهل النار قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق وأنوار التحقيق فهم فى ظلمات نفوسهم لا يدلون على سبيل الرشاد. وفيه دلالة خلق أفعال العباد (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ) من العذاب (وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) ألزمناهم طردا وإبعادا عن الرحمة وقيل هو

مايلحقهم من لعن الناس إياهم بعدهم (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) المطرودين المبعدين أو المهلكين المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون ويوم ظرف للمقبوحين (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) التوراة (مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ) قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام (بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ) حال من الكتاب والبصيرة نور القلب الذى يبصر به الرشد والسعادة كما أن البصر نور العين الذى يبصر به الأجساد. يريد آتيناه التوراة أنوارا للقلوب لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف حقا من باطل (وَهُدًى) وإرشادا لأنهم كانوا يخبطون فى ضلال (وَرَحْمَةً) لمن اتبعها لأنهم إذا عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة (لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) يتعظون (وَمَا كُنتَ) يامحمد (بِجَانِبِ) الجبل (الْغَرْبِيِّ) وهوالمكان الواقع فى شق الغرب وهو الذى وقع فيه ميقات موسى (إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ) أى كلمناه وقربناه نجيا (وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّٰهِدِينَ) من جملة الشاهدين للوحى إليه حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى فى ميقاته (وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا) بعد موسى (قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) أى طالت أعمارهم وفترت النبوة وكادت الأخبار تخفى واندرست العلوم ووقع التحريف فى كثير منها فأرسلناك مجددا لتلك الأخبار مبينا ما وقع فيه التحريف وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى كأنه قال وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ولكنا أوحيناه إليك فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الفترة ودل به على المسبب اختصارا فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده (وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا) مقيما (فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ) وهم شعيب والمؤمنون به (تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا) تقرؤها عليهم تعلما منهم يريد الآيات التى فيها قصة شعيب وقومه وتتلو فى موضع نصب خبر ثان أو حال من الضمير فى ثاويا (وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا) موسى أن خذ الكتاب بقوة (وَلَٰكِن) أعلمناك وأرسلناك (رَّحْمَةً) للرحمة (مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ) فى زمان الفترة بينك وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ) عقوبة (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) من الكفر والظلم ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدى نسبت الأعمال إلى الأيدى وإن كانت من أعمال القلوب تغليبا للأكثر على الأقل (فَيَقُولُوا) عندالعذاب (رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ

إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) لولا الأولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء الأولى للعطف والثانية جواب لولا لكونها فى حكم الأمر إذ الأمر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد والفاء تدخل فى جواب الأمر والمعنى ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى هلا أرسلت إلينا رسولا محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعنى أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها كقوله: لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . * فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هى السبب فى الإرسال لا القول لدخول لولا الامتناعية عليها دونه * قلت: القول هو المقصود بأن يكون سبباً للإرسال ولكن العقوبة لما كانت سبباً للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال فأدخلت عليها لولا وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويؤول معناه إلى قولك ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا (فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا) أى القرآن أو الرسول المصدق بالكتاب المعجز (قَالُوا) أى كفار مكة (لَوْلَآ أُوتِىَ) هلا أعطى (مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ) من الكتاب المنزل جملة واحدة (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا) يعنى أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة فى زمن موسى عليه السلام (بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ) من قبل القرآن (قَالُوا) فى موسى وهرون (سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا) [ساحران تظاهرا] تعاونا ـ سحران كوفى أى ذوا سحر أو جعلوهما سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر ـ (وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ) بكل واحد منهما (كَٰفِرُونَ) وقيل ان أهل مكة كما كفروا بمحمد عليه السلام وبالقرآن فقد كفروا بموسى والتوراة وقالوا فى موسى ومحمد: ساحران تظاهرا أو فى التوراة والقرآن سحران تظاهرا وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد فأخبروهم أنه فى كتابهم فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك: ساحران تظاهرا (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ) مما أنزل على موسى ومما أنزل على (أَتَّبِعْهُ) جواب فأتوا (إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) فى أنهما سحران (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ) فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) أى لا أحد أضل ممن اتبع فى الدين هواه

وبغير هدى حال أى مخذولا يخلى بينه وبين هواه (إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) التوصيل تكثير الوصل وتكريره يعنى أن القرآن أتاهم متتابعا متواصلا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ومواعظ ليتذكروا فيفلحوا (الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِ) من قبل القرآن وخبر الذين (هُم بِهِ) بالقرآن (يُؤْمِنُونَ) نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب (وَإِذَا يُتْلَىٰ) القرآن (عَلَيْهِمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ) من قبل نزول القرآن (مُسْلِمِينَ) كائنين على دين الإسلام مؤمنين بمحمد عليه السلام، وقوله إنه تعليل للإيمان به لأن كونه حقا من الله حقيق بأن يؤمن به، وقوله إنا بيان لقوله آمنا لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده فأخبروا بأن إيمانهم به متقادم (أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب (وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) يدفعون بالطاعة المعصية أو بالحلم الأذى (وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ) يزكون (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ) الباطل أو الشتم من المشركين (أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا) للاغين (لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ) أمان منا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله (لَا نَبْتَغِي الْجَٰهِلِينَ) لا نريد مخالطتهم وصحبتهم (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) لا تقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم (وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ) يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) بمن يختار الهداية ويقبلها ويتعظ بالدلائل والآيات. قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب وذلك أنه قال عند موته يا معشر بنى هاشم صدقوا محمدا تفلحوا فقال عليه السلام يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد يا ابن أخى قال أريد منك أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله قال يا ابن أخى أنا قد علمت أنك صادق ولكنى أكره أن يقال جزع عند الموت وإن كانت الصيغة عامة والآية حجة على المعتزلة لأنهم يقولون الهدى هو البيان وقد هدى الناس أجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم فدل أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء وإعطاء التوفيق والقدرة (وَقَالُوٓا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا) قالت قريش نحن نعلم

أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك أن يتخطفونا من أرضنا فألقمهم الله الحجر بأنه مكن لهم فى الحرم الذى أمنه بحرمة البيت وأمن قطانه بحرمته والثمرات تجبى إليه من كل أوب وهم كفرة فأنى يستقيم أن يعرضهم للتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز (يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ) وبالتاء مدنى ويعقوب وسهل أى تجلب وتجمع (ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ) معنى الكلية الكثرة كقوله وأوتيت من كل شىء (رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا) هو مصدر لأن معنى يجبى إليه يرزق أو مفعول له أو حال من الثمرات إن كان بمعنى مرزوق لتخصصها بالإضافة كما تنصب عن النكرة المتخصصة بالصفة (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) متعلق بمن لدنا أى قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا) هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا فى مثل حالهم بإنعام الله عليهم فلم يشكروا النعمة وقابلوها بالبطر فأهلكوا وكم نصب بأهلكنا ومعيشتها بحذف الجار وإيصال الفعل أى فى معيشتها والبطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله فيه (فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ) منازلهم باقية الآثار يشاهدونها فى الأسفار كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم (لَمْ تُسْكَن) حال والعامل فيها الإشارة (مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا) من السكنى أى لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوما أو ساعة (وَكُنَّا نَحْنُ الْوَٰرِثِينَ) لتلك المساكن من ساكنيها أى لا يملك التصرف فيها غيرنا (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ) فى كل وقت (حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا) وبكسر الهمزة حمزة وعلى أى فى القرية التى هى أمها أى أصلها ومعظمها (رَسُولًا) لإلزام الحجة وقطع المعذرة أو وما كان فى حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى فى الأرض حتى يبعث فى أم القرى ــ يعنى مكة لأن الأرض دحيت من تحتها ــ رسولا ، يعنى محمداً عليه السلام (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا) أى القرآن (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ) أى وما أهلكناهم للانتقام إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم وهو إصرارهم على كفرهم وعنادهم ومكابرتهم بعد الاعذار إليهم (وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا) وأى

شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياما قلائل وهى مدة الحياة الفانية (وَمَا عِندَ اللهِ) وهو ثوابه (خَيْرٌ) فى نفسه من ذلك (وَأَبْقَىٰ) لأنه دائم (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أن الباقى خير من الفانى وخيّر أبو عمرو بين الياء والتاء والباقون بالتاء لا غير وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع ثم قرر هذه الآية بقوله (أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا) أى الجنة فلا شيء أحسن منها لأنها دائمة ولذا سميت الجنة بالحسنى (فَهُوَ لَاقِيهِ) أى رائيه ومدركه ومصيبه (كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) من الذين أحضروا النار ونحوه فكذبوه فإنهم لمحضرون نزلت فى رسول الله ﷺ وأبى جهل لعنه الله أو فى على وحمزة وأبى جهل أو فى المؤمن والكافر ومعنى الفاء الأولى انه لما ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله عقبه بقوله أفمن وعدناه أى أبعد هذا التفاوت الجلى يسوى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة والفاء الثانية للتسبيب لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد وثم لتراخى حال الإحضار عن حال التمتع ثم هو على كما قيل عضد فى عضد شبه المنفصل بالمتصل (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) ينادى الله الكفار نداء توبيخ وهو عطف على يوم القيامة أو منصوب باذكر (فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ) بناء على زعمهم (الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) ومفعولا تزعمون محذوفان تقديره كنتم تزعمونهم شركائى ويجوز حذف المفعولين فى باب ظننت ولا يجوز الاقتصار على أحدهما (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أى الشياطين أو أئمة الكفر ومعنى حق عليهم القول وجب عليه مقتضاه وثبت وهو قوله: لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ) مبتدأ (الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) أى دعوناهم إلى الشرك وسولنا لهم الغى صفة والراجع إلى الموصول محذوف والخبر (أَغْوَيْنَاهُمْ) والكاف فى (كَمَا غَوَيْنَا) صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلا فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب وهو كقوله وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق إلى قوله ولوموا أنفسكم (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ)

منهم ومما اختاروه من الكفر (مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) بل يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى (وَقِيلَ) للمشركين (ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ) أي الأصنام لتخلصكم من العذاب (فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) فلم يجيبوهم (وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) وجواب لو محذوف أي لما رأوا العذاب (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) الذين أرسلوا إليكم حكى أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم مايقوله الشياطين أو أئمة الكفر عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم وعجزهم عن نصرتهم ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ) خفيت عليهم الحجج أو الأخبار وقيل خفى عليهم الجواب فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب (فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ) لايسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجة رجاء أن يكون عنده عذر وحجة لأنهم يتساوون فى العجز عن الجواب (فَأَمَّا مَن تَابَ) من الشرك (وَءَامَنَ) بربه وبما جاء من عنده (وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ) أى فعسى أن يفلح عند الله وعسى من الكرام تحقيق وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام وترغيب للكافرين على الإيمان ونزل جوابا لقول الوليد بن المغيرة: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. يعنى نفسه أو أبامسعود (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ) وفيه دلالة خلق الأفعال، ويوقف على (وَيَخْتَارُ) أى وربك يخلق مايشاء وربك يختار مايشاء (مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) أى ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما وله الخيرة عليهم ولم يدخل العاطف فى ما كان لهم الخيرة لأنه بيان لقوله ويختار إذ المعنى أن الخيرة لله وهو أعلم بوجوه الحكمة فى أفعاله فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ومن وصل على معنى ويختار الذى لهم فيه الخيرة فقد أبعد بل ما لنفى اختيار الخلق تقريراً لاختيار الحق ومن قال ومعناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل إلى الاعتزال. والخيرة من التخير يستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم محمد خيرة الله من خلقه (سُبْحَٰنَ اللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) أى الله برىء من إشراكهم وهو منزه عن أن يكون لأحد عليه اختيار (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ) تضمر (صُدُورُهُمْ) من عداوة رسول الله ﷺ وحسده (وَمَا يُعْلِنُونَ) من

مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير عليه غيره فى النبوة (وَهُوَ اللهُ) وهو المستأثر بالإلهية المختص بها (لَآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ) تقرير لذلك كقولك القبلة الكعبة لاقبلة إلا هى (لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَىٰ) الدنيا (وَالْآخِرَةِ) هوقولهم الحمدلله الذى أذهب عنا الحزن. الحمد لله الذى صدقنا وعده وقيل الحمد لله رب العالمين والتحميد ثمة على وجه اللذة لا الكلفة (وَلَهُ الْحُكْمُ) القضاء بين عباده (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) بالبعث والنشور . وبفتح التاء وكسر الجيم يعقوب (قُلْ أَرَأَيْتُمْ) أريتم محذوف الهمزة على (إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا) هومفعول ثان لجعل أى دائما من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم فى الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد والميم مزيدة ووزنه فعمل (إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ) والمعنى أخبرونى من يقدر على هذا (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ولم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قال بليل تسكنون فيه بل ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء أفلا تسمعون لأن السمع يدرك مالا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ) أى لتسكنوا بالليل ولتبتغوا من فضل الله فى النهار فيكون من باب اللف والنشر (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الله على نعمه وقال الزجاج يجوز أن يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من فضل الله فيهما ويكون المعنى جعل لكم الزمان ليلا ونهارا لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله فيه (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليؤذن أن لا شىء أجلب لغضب الله من الإشراك به كما لا شىء أدخل فى مرضاته من توحيده (وَنَزَعْنَا) وأخرجنا (مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) يعنى نبيهم لأن الأنبياء للأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه (فَقُلْنَا) للأمم (هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ) فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسل (فَعَلِمُوٓا) حينئذ (أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ) التوحيد (وَضَلَّ عَنْهُم) وغاب عنهم غيبة الشىء الضائع (مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) من ألوهية غير الله والشفاعة لهم (إِنَّ قَٰرُونَ) لا ينصرف للعجمة

والتعريف ولو كان فاعولا من قرنت الشيء لانصرف (كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ) كان إسرائيليا ابن عم لموسى فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث وكان يسمى المنور لحسن صورته وكان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى (فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ) من البغى وهو الظلم قيل ملكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم أو من البغى الكبر تكبر عليهم بكثرة ماله وولده أو زاد عليهم فى الثياب شبرا (وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ) ما بمعنى الذى فى موضع نصب بآتينا وإن واسمها وخبرها صلة الذى ولهذا كسرت إن والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو مايفتح به أو مفتح بالفتح وهو الخزانة والأصوب أنها المقاليد (لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ) لتثقل العصبة فالباء للتعدية يقال ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة وكانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على اصبع وكانت من جلود (أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ) الشدة (إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ) أى المؤمنون وقيل القائل موسى عليه السلام ومحل إذ نصب بتنوء (لَا تَفْرَحْ) لاتبطر بكثرة المال كقوله ولا تفرحوا بما آتاكم ولا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريب فلا يفرح بها (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ) البطرين بالمال (وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ) من الغنى والثروة (ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ) بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم وتصرف إلى أبواب الخير (وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا) وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك وقيل معناه واطلب بدنياك آخرتك فإن ذلك حظ المؤمن منها (وَأَحْسِن) إلى عباد الله (كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ) أو أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام كما أحسن إليك بالإنعام (وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ) بالظلم والبغى (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ) أى المال (عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ) أى على استحقاق لما فىّ من العلم الذى فضلت به الناس وهو علم التوراة أو علم الكيمياء وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا أو العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة وعندى صفة لعلم قال سهل: ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل رؤية منة الله تعالى عليه فى جميع الأفعال والأقوال والشقى من زين فى عينه أفعاله وأقواله وأحواله ولم يفتح له سبيل رؤية منة الله فافتخر بها وادعاها لنفسه فشؤمه يهلكه يوما كما خسف بقارون لما ادّعى

لنفسه فضلا (أَوَ لَمْ يَعْلَمْ) قارون (أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً) هو إثبات لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه فى التوراة كأنه قيل أو لم يعلم فى جملة ما عنده من العلم هـذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته أو نفى لعلمه بذلك لأنه لما قال أوتيته على علم عندى قيل أعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لـكل نعمة ولم يعلم هـذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالـكين (وَأَكْثَرُ جَمْعًا) للمال أو أكثر جماعة وعددا (وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) لعلمه تعالى بهم بل يدخلون النار بغير حساب أو يعترفون بها بغير سؤال أو يعرفون بسيماهم فلا يسئلون أو لا يسئلون لتعلم من جهتهم بل يسئلون سؤال توبيخ أو لا يسئل عن ذنوب الماضين المجرمون من هذه الأمة (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) فى الحمرة والصفرة وقيل خرج يوم السبت على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج وفى زينته حال من فاعل خرج أى متزينا (قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا) قيل كانوا مسلمين وإنما تمنوا على سبيل الرغبة فى اليسار كعادة البشر وقيل كانوا كفارا (يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ) قالوه غبطة والغابط هو الذى يتمنى مثـل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه كهذه الآية والحاسد هو الذى يتمنى أن تـكون نعمة صاحبه له دونه وهو كقوله تعالى : ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض . وقيـل لرسول الله ﷺ هل تضر الغبطة قال لا إلا كما يضر العضاه الخبط (إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) الحظ الجد وهو البخت والدولة (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) بالثواب والعقاب وفناء الدنيا وبقاء العقبى لغابطى قارون (وَيْلَكُمْ) أصل ويلك الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك مالا يرضى وفى التبيان فى إعراب القرآن هو مفعول فعل محذوف أى ألزمكم الله ويلـكم (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ) أى لا يلقن هذه الكلمة وهى ثواب الله خير (إِلَّا الصَّٰبِرُونَ) على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا وعلى ما قسم الله من القليل عن الـكثير (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) كان قارون يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف

درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه فجمع بنى اسرائيل وقال إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت كبيرنا فربما شئت قال نبرطل فلانة البغى حتى ترميه بنفسها فترفضه بنو إسرائيل فجعل لها ألف دينار أوطستا من ذهب أو حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يابنى إسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه فقال قارون وإن كنت أنت قال وإن كنت أنا قال فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها بالذى فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فقالت جعل لى قارون جعلا على أن أقذفك بنفسى فخر موسى ساجدا يبكى وقال يارب إن كنت رسولك فاغضب لى فأوحى الله إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك فقال يابنى إسرائيل إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال ياأرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى ويناشدونه بالله والرحم وموسى لايلتفت إليهم لشدة غضبه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فقال الله تعالى استغاث بك مرارا فلم ترحمه فوعزتى لواسترحمنى مرة لرحمته فقال بعض بنى إسرائيل إنما أهلكه ليرث ماله فدعا الله حتى خسف بداره وكنوزه (فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ) جماعة (يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ) يمنعونه من عذاب الله (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ)من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله يقال نصره من عدوه فانتصر أى منعه منه فامتنع (وَأَصْبَحَ) وصار (الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ) منزلته من الدنيا (بِالْأَمْسِ) ظرف لتمنوا ولم يرد به اليوم الذى قبل يومك ولكن الوقت القريب استعارة (يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ) وى منفصلة عن كأن عند البصريين قال سيبويه وى كلمة تنبه على الخطأ وتندم يستعملها النادم بإظهار ندامته يعنى أن القوم قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم وقولهم ياليت لنا مثل ما أوتى قارون وتندموا (لَوْلَا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا) بصرف ما كنا نتمناه بالأمس (لَخَسَفَ بِنَا) [لَخُسِفَ] وبفتحتين حفص ويعقوب وسهل وفيه ضمير الله تعالى (وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) أى تندموا ثم قالوا كأنه لايفلح الكافرون (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ) تلك تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها وقوله (نَجْعَلُهَا) خبر تلك والدار نعتها

(لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ) بغيا ابن جبير وظلما الضحاك أو كبرا (وَلَا فَسَادًا) عملا بالمعاصي أو قتل النفس أو دعاء إلى عبادة غير الله ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون وعن على رضى الله عنه ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها وعن الفضيل انه قرأها ثم قال ذهبت الأماني ههنا وعن عمر بن عبدالعزيز انه كان يرددها حتى قبض وقال بعضهم حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثا بقوله ان فرعون علا فى الأرض ولا تبغ الفساد فى الأرض (وَالْعَـٰقِبَةُ) المحمودة (لِلْمُتَّقِينَ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا) مر فى النمل (وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ) معناه فلا يجزون فوضع الذين عملوا السيئات موضع الضمير لأن فى إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين (إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) إلا مثل ما كانوا يعملون ومن فضله العظيم أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة (إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ) أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه (لَرَآدُّكَ) بعد الموت (إِلَىٰ مَعَادٍ) أىّ معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر فلذا نكره أو المراد به مكة والمراد رده إليها يوم الفتح لأنها كانت فى ذلك اليوم معادا له شأن ومرجعا له اعتداد لغلبة رسول الله وقهره لأهلها ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه والسورة مكية ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة لا بمكة ولا بالمدينة حين اشتاق إلى مولده ومولد آبائه ولما وعد رسوله الرد إلى معاده قال (قُل) للمشركين (رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ) يعنى نفسه وما له من الثواب فى معاده (وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ) يعنى المشركين وما يستحقونه من العذاب فى معادهم من فى محل نصب بفعل مضمر أى يعلم (وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ) يوحى (إِلَيْكَ الْكِتَـٰبُ) القرآن (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) هو محمول على المعنى أى وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك أو إلا بمعنى لكن للاستدراك أى ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك الكتاب (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ) معينا لهم على دينهم (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ اللَّهِ) هو على الجمع أى الا يمنعنك هؤلاء عن العمل بآيات الله أى القرآن (بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ) الآيات أى بعد وقت إنزاله

وإذ يضاف إليه أسماء الزمان كقولك حينئذ ويومئذ (وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ) إلى توحيده وعبادته (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ) قال ابن عباس رضى الله عنهما الخطاب فى الظاهر للنبى ﷺ والمراد أهل دينه ولأن العصمة لاتمنع النهى والوقف على آخر لازم لأنه لو وصل لصار (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) صفة لإلها آخر وفيه من الفساد ما فيه (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) أى إلا إياه فالوجه يعبر به عن الذات وقال مجاهد يعنى علم العلماء إذا أريد به وجه الله (لَهُ الْحُكْمُ) القضاء فى خلقه (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) تَرجِعون بفتح التاء وكسر الجيم يعقوب ، والله أعلم .

﴿ سورة العنكبوت مكية وهى تسع وتسعون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) الحسبان قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما والعلم فهو القطع على أحدهما ولايصح تعليقهما بمعانى المفردات ولكن بمضامين الجمل فلو قلت حسبت زيدا وظننت الفرس لم يكن شيئا حتى تقول حسبت زيدا عالما وظننت الفرس جوادا لأن قولك زيد عالم والفرس جواد كلام دال على مضمون فإذا أردت الاخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لااليقين أدخلت على شطرى الجملة فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك والكلام الدال على المضمون الذى يقتضيه الحسبان هنا أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون وذلك أن تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا فالترك أول مفعولى حسب ولقولهم آمنا هوالخبر وأما غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من الترك الذى هو بمعنى التصيير كقول عنترة * فتركته جزر السباع ينشنه * ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام وهو استفهام توبيخ والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وروى أنها نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد جزعوا من أذى المشركين أوفى عمار بن ياسر وكان يعذب

فى الله (وَلَقَدْ فَتَنَّا) اختبرنا وهو موصول بأحسب أو بلايفتنون (الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) بأنواع الفتن فنهم من يوضع النشار على رأسه فيفرق فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه ومنهم من يمشط بأمشاط الحديد مايصرفه ذلك عن دينه (فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ) بالامتحان (الَّذِينَ صَدَقُوا) فى الإيمان (وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَـٰذِبِينَ) فيه ومعنى علمه تعالى وهو عالم بذلك فيما لم يزل أن يعلمه موجودا عند وجوده كما علمه قبل وجوده أنه يوجد والمعنى وليتميزن الصادق منهم من الكاذب قال ابن عطاء يتبين صدق العبد من كذبه فى أوقات الرخاء والبلاء فمن شكر فى أيام الرخاء وصبر فى أيام البلاء فهو من الصادقين ومن بطر فى أيام الرخاء وجزع فى أيام البلاء فهو من الكاذبين (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أى الشرك والمعاصى (أَن يَسْبِقُونَا) أى يفوتونا يعنى أن الجزاء يلحقهم لامحالة واشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سد مسد مفعولين كقوله أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذلك يقدر انه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن انه لايجازى بمساويه وقالوا الأول فى المؤمنين وهذا فى الكافرين (سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) ما فى موضع رفع على معنى ساء الحكم حكمهم أو نصب على معنى ساء حكما يحكمون والمخصوص بالذم محذوف أى بئس حكما يحكمونه حكمهم (مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ اللهِ) أى يأمل ثوابه أو يخاف حسابه فالرجاء يحتملهما (فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ) المضروب للثواب والعقاب (لَآتٍ) لا محالة فليبادر للعمل الصالح الذى يصدق رجاءه ويحقق أمله (وَهُوَ السَّمِيعُ) لما يقوله عباده (الْعَلِيمُ) بما يفعلونه فلا يفوته شىء ما وقال الزجاج من للشرط ويرتفع بالابتداء وجواب الشرط فإن أجل الله لآت كقولك إن كان زيد فى الدار فقد صدق الوعد (وَمَن جَـٰهَدَ) نفسه بالصبر على طاعة الله أو الشيطان بدفع وساوسه أو الكفار (فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِ) لأن منفعة ذلك ترجع إليها (إِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ) وعن طاعتهم ومجاهدتهم وإنما أمر ونهى رحمة لعباده (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) أى الشرك والمعاصى بالإيمان والتوبة (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى أحسن جزاء أعمالهم فى الإسلام (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا) وصى حكمه حكم أمر فى معناه وتصرفه يقال وصيت زيدا بأن يفعل خيرا كما تقول أمرته بأن يفعل ومنه قوله ووصى بها إبراهيم بنيه

أى وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وقولك : وصيت زيدا بعمرو معناه وصيتة بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك وكذلك معنى قوله ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ووصيناه بإيتاء والديه حسناأو بإيلاء والديه حسنا أى فعلا ذاحسن أو ماهو فى ذاته حسن لفرط حسنه كقوله وقولوا للناس حسنا ويجوز أن يجعل حسنا من باب قولك زيدا بإضمار اضرب إذارأيته متهيئا للضرب فتنصبه بإضمار أولهما أو افعل بهما لأن التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كأنه قال قلنا أولهما معروفا ولا تطعهما فى الشرك إذاحملاك عليه وعلى هذا التفسير إن وقف على بوالديه وابتدئ حسنا حسن الوقف وعلى التفسير الأول لابد من اضمار القول معناه وقلنا (وَإِن جَٰهَدَاكَ) أيها الإنسان (لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ) أى لاعلم لك بالٰهيته والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كأنه قال لتشرك بى شيئا لايصح أن يكون إلٰها (فَلَا تُطِعْهُمَآ) فى ذلك فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ) مرجع من آمن منكم ومن أشرك (فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) فأجازيكم حق جزائكم وفى ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك وحث على الثبات والاستقامة فى الدين روى أن سعد بن أبى وقاص لماأسلم نذرت أمه أن لاتأكل ولا تشرب حتى يرتد فشكا إلى النبى ﷺ فنزلت هذه الآية والتى فى لقمان والتى فى الأحقاف (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ)هو مبتدأ والخبر (لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّٰلِحِينَ) فى جملتهم والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمنى الأنبياء عليهم السلام قال سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وقال يوسف عليه السلام توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين أو فى مدخل الصالحين وهو الجنة ونزلت فى المنافقين (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى اللهِ) أى إذا مسه أذى من الكفار (جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ) أى جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله تعالى (وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ)أى وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا إنا كنا معكم أى متابعين لكم فى دينكم ثابتين عليه بثباتكم فأعطونا نصيبنا من المغنم (أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَٰلَمِينَ) أى هو أعلم بما فى صدور العالمين من العالمين بما فى صدرهم ومن ذلك مافى صدور هؤلاء من النفاق وما فى صدور المؤمنين من الإخلاص ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين بقوله (وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَٰفِقِينَ) أى حالهما ظاهرة

فند من يملك الجزاء عليهما (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ) أمروهم باتباع سبيلهم وهى طريقتهم التى كانوا عليها فى دينهم وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرادوا ليجتمع هذان الأمران فى الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم والمعنى تعليق الحمل بالاتباع أى إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم وهذا قول صناديد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم لانبعث نحن ولا أنتم فإن كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم (وَمَاهُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ) لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشىء وفى قلوبهم نية الخلف (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ) أى أثقال أنفسهم يعنى أوزارهم بسبب كفرهم (وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِم) أى أثقالا أخر غير الخطايا التى ضمنوا للمؤمنين حملها وهى أثقال الذين كانوا سببا فى ضلالهم وهو كما قال ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم (وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) يختلقون من الأكاذيب والأباطيل (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً) كان عمره ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين وعن وهب أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة فقال له ملك الموت يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا قال كدار لها بابان دخلت وخرجت ولم يقل تسعمائة وخمسين سنة لأنه لو قيل كذلك لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل هنا فكأنه قيل تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة ولأن القصة سيقت لما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا عليه السلام فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض وجىء بالمميز أولا بالسنة ثم بالعام لأن تكرار لفظ واحد فى كلام واحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ) هو ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أوظلام ليل أونحوهما (وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ) أنفسهم بالكفر (فَأَنجَيْنَـٰهُ) أى نوحا (وَأَصْحَـٰبَ السَّفِينَةِ) وكانوا ثمانية وسبعين نفساً نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم (وَجَعَلْنَـٰهَآ) أى السفينة أو الحادثة أو القصة (ءَايَةً) عبرة وعظة (لِّلْعَـٰلَمِينَ) يتعظون بها (وَإِبْرَاهِيمَ) نصب بإضمار اذكر وأبدل عنه (إِذْ قَالَ) بدل

اشتمال لأن الأحيان تشتمل على ما فيها أو معطوف على نوح أى وأرسلنا إبراهيم أو ظرف لأرسلنا يعنى أرسلناه حين بلغ من السن أو العلم مبلغا صلح فيه لأن يعظ قومه ويأمرهم بالعبادة والتقوى وقرأ إبراهيم النخعى وأبو حنيفة رضى الله عنهما : وإبراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم (لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ) من الكفر (إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) إن كان لكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا) أصناما (وَتَخْلُقُونَ) وتكذبون أو تصنعون وقرأ أبو حنيفة والسلمى رضى الله عنهما وتُخَلِّقُون من خلق بمعنى التكثير فى خلق (إِفْكًا) وقرىء أَفِكا وهو مصدر نحو كذب ولعب والإفك مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما واختلاقهم الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا) لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق (فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ) كله فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره (وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه وبفتح التاء وكسر الجيم يعقوب (وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) أى وإن تكذبونى فلا تضرونى بتكذيبكم فإن الرسل قبلى قد كذبتهم أممهم وماضروهم وإنما ضروا أنفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب تكذيبهم وأما الرسول فقد تم أمره حيث بلغ البلاغ المبين الذى زال معه الشك وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته أو وإن كنت مكذبا فيما بينكم فلى فى سائر الأنبياء أسوة حيث كذبوا وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب وهذه الآية والآيات التى بعدها إلى قوله فما كان جواب قومه محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السلام لقومه والمراد بالأمم قبله قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم وأن تكون آيات وقعت معترضة فى شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها فإن قلت فالجمل الاعتراضية لابد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه فلا تقول مكة وزيد قائم خير بلاد الله قلت نعم وبيانه أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله ﷺ وأن تكون مسلاة له بأن أباه إبراهيم عليه السلام كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان فاعترض بقوله وإن تكذبوا على معنى إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمدا فقد كذب إبراهيم قومه

وكل أمة نبيها لأن قوله فقد كذب أمم من قبلكم لابد من تناوله لأمة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض متصل ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه (أَوَ لَمْ يَرَوْا) وبالتاء كوفى غير حفص (كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ) أى قد رأوا ذلك وعلموه وقوله (ثُمَّ يُعِيدُهُ) ليس بمعطوف على يبدئ وليست الرؤية واقعة عليه وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر فى قوله كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة على البدء دون الإنشاء بل هو معطوف على جملة قوله أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق (إِنَّ ذَٰلِكَ) أى الإعادة (عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) سهل (قُلْ) يا محمد وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره وأوحينا إليه أن قل (سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) على كثرتهم واختلاف أحوالهم لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمشاهدة وبدأ وأبدأ بمعنى (ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) أى البعث وبالمد[1] حيث كان مكى وأبو عمرو وهذا دليل على أنهما نشأتان وأن كل واحدة منهما إنشاء أى ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك والقياس أن يقال كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة لأن الكلام معهم وقع فى الإعادة فلما قررهم فى الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء فإذا لم يعجزه الإبداء وجب أن لا يعجزه الإعادة فكأنه قال ثم ذلك الذى أنشأ النشأة الأولى هو الذى ينشئ النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ (إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قادر (يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) بالخذلان (وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ) بالهداية أو بالحرص والقناعة أو بسوء الخلق وحسنه أو بالإعراض عن الله وبالإقبال عليه أو بمتابعة البدع وبملازمة السنة (وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) تردون وترجعون (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) ربكم أى لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه (فِي الْأَرْضِ) الفسيحة (وَلَا فِي السَّمَاءِ) التى هى أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها (وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ) يتولى أموركم (وَلَا نَصِيرٍ) ولا ناصر يمنعكم من عذابى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ) بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته (وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي) جنتى (وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

(١) قوله وبالمد أى مد الشين بعد تحريكها .

أليم فما كان جواب قومه) قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان (إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه) قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعا فى حكم القائلين فاتفقوا على تحريقه (فأنجاه الله من النار) حين قذفوه فيها (إن فى ذلك) فيما فعلوا به وفعلنا (لآيات لقوم يؤمنون) روى أنه لم ينتفع فى ذلك اليوم بالنار يعنى يوم ألقى إبراهيم فى النار وذلك لذهاب حرها (وقال) إبراهيم لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا) حمزة وحفص، مودة بينكم مدنى وشامى وحماد ويحيى وخلف مودة بينكم مكى وبصرى وعلى ، مودة بينكم الشمنى والبرجمى، النصب على وجهين على التعليل أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وأن يكون مفعولا ثانيا كقوله اتخذ إلهه هواه وما كافة أى اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف أو اتخذتموها مودة بينكم أى مودة بينكم كقوله: ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله. وفى الرفع وجهان أن يكون خبر الإن وما موصولة وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أى هى مودة بينكم والمعنى ان الأوثان مودة بينكم أى مودودة أو سبب مودة ومن أضاف المودة جعل بينكم اسما لا ظرفا كقوله شهادة بينكم ومن نون مودة ونصب بينكم فعلى الظرف (ثم يوم القيمة يكفر بعضكم ببعض) تتبرأ الأصنام من عابديها (ويلعن بعضكم بعضا) أى يوم القيامة يقوم بينكم التلاعن فيلعن الأتباع القادة (ومأواكم النار) أى مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع (وما لكم من نصرين) ثمة (فآمن له) لإبراهيم عليه السلام (لوط) هو ابن أخى إبراهيم وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه (وقال) إبراهيم (إنى مهاجر) من كوثى وهى من سواد الكوفة إلى حران ثم منها إلى فلسطين وهى من برية الشأم ومن ثم قالوا لكل نبى هجرة ولإبراهيم هجرتان وكان معه فى هجرته لوط وسارة وقد تزوجها إبراهيم (إلى ربى) إلى حيث أمرنى ربى بالهجرة إليه (إنه هو العزيز) الذى يمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذى لا يأمرنى إلا بما هو خير (ووهبنا له إسحق) ولدا (ويعقوب) ولد ولد ولم يذكر اسمعيل لشهرته (وجعلنا فى ذريته النبوة) أى فى ذرية إبراهيم فإنه شجرة الأنبياء (والكتب) والمراد به الجنس يعنى التوراة والإنجيل والزبور

والفرقان (وَءَاتَيْنَهُ) أى إبراهيم (أَجْرَهُ)الثناء الحسن والصلاة عليه إلى آخر الدهر ومحبة أهل الملل له أو هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لغيره (فِى الدُّنْيَا) فيه دليل على أنه تعالى قد يعطى الأجر فى الدنيا (وَإِنَّهُ فِى الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّلِحِينَ) أى من أهل الجنة عن الحسن (وَلُوطًا) أى واذكرلوطا (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ) الفعلة البالغة فى القبح وهى اللواطة(مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَلَمِينَ)جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة كأن قائلا قال لم كانت فاحشة فقيل لأن أحدا قبلهم لم يقدم عليها قالوا لم ينزذكر على ذكر قبل قوم لوط (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ)بالقتل وأخذ المال كما هو عمل قطاع الطريق وقيل اعتراضهم السابلة بالفاحشة (وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ) مجلسكم ولا يقال للمجلس ناد إلا مادام فيه أهله (الْمُنكَرَ) أى المضارطة والمجامعة والسباب والفحش فى المزاح والحذف بالحصى ومضغ العلك والفرقعة والسواك بين الناس(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّدِقِينَ) فيماتعدنا من نزول العذاب. إنكم أئنكم شامى وحفص وهو الموجود فى الإمام وكل واحدة بهمزتين كوفى غير حفص. آينكم آينكم بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة أبو عمرو أينكم أينكم بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة مكى ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد (قَالَ رَبِّ انصُرْنِى) بإنزال العذاب (عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصى والفواحش (وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ) بالبشارة لإبراهيم بالولد والنافلة يعنى إسحق ويعقوب (قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ) إضافة مهلكوا لم تفد تعريفا لأنها بمعنى الاستقبال والقرية سدوم التى قيل فيها أجور من قاضى سدوم وهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم عليه السلام قالوا إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم عليه السلام (إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَلِمِينَ)أى الظلم قد استمر منهم فى الأيام السالفة وهم عليه مصرون وظلمهم كفرهم وأنواع معاصيهم (قَالَ) إبراهيم (إِنَّ فِيهَا لُوطًا) أى أتهلكونهم وفيهم من هو برىء من الظلم وهو لوط (قَالُوا) أى الملائكة(نَحْنُ أَعْلَمُ) منك (بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ) لننجينه يعقوب وكوفى غير عاصم(وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَبِرِينَ)الباقين فى العذاب ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم بقوله(وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا

سِيءَ بِهِمْ)ساءه مجيئهم وأن صلة أكدت وجود الفعلين مرتبا أحدهما على الآخر كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان كأنه قيل كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومهم أن يتناولوهم بالفجور سىء بهم[1] مدنى وشامى وعلى (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا رحب الذراع إذا كان مطيقا والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلا فى العجز والقدرة وهو نصب على التميز (وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ) وبالتخفيف مكي وكوفى غير حفص (وَأَهْلَكَ) الكاف فى محل الجر ونصب أهلك بفعل محذوف أى وننجى أهلك (إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ إِنَّا مُنزِلُونَ) منزّلون شامى (عَلَىٰ أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً) عذاباً (مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) بفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ) من القرية (ءَايَةً بَيِّنَـةً) هى آثار منازلهم الخربة وقيل الماء الأسود على وجه الأرض (لِّقَوْمٍ) يتعلق بتركنا أو ببينـة (يَعْقِلُونَ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ) وأرسلنا إلى مدين (أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ) وافعلوا ماترجون به الثواب فى العاقبة أو خافوه (وَلاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) قاصدين الفساد (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) الزلزلة الشديدة أو صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب رجفت بها (فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ) فى بلدهم وأرضهم (جَـٰثِمِينَ) باركين على الركب ميتين (وَعَاداً) منصوب بإضمار أهلكنا لأن قوله فأخذتهم الرجفة يدل عليه لأنه فى معنى الإهلاك (وَثَمُودَاْ) حمزة وحفص وسهل ويعقوب (وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم) ذلك يعنى ماوصفه من إهلاكهم (مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ) من جهة مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها وكان أهل مكة يمرون عليها فى أسفارهم فيبصرونها (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ) من الكفر والمعاصى (فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) السبيل الذى أمروا بسلوكه هو الإيمان بالله ورسله (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) عقلاء متمكنين من النظر وتميز الحق من الباطل ولـكنهم لم يفعلوا (وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ) أى وأهلكناهم (وَلَقَدْ جَآءَهُم

(١) قوله: سىء بهم أى باشمام كسرة السين الضمة.

مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَـٰتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَـٰبِقِينَ) فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه. (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ) فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب (فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) هي ريح عاصف فيها حصباء وهي لقوم لوط (وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ) هي لمدين وثمود (وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ) يعني قارون (وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا) يعني قوم نوح وفرعون (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) ليعاقبهم بغير ذنب (وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بالكفر والطغيان (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ) أي آلهة يعني مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار (كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا) أي كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت فإن ذلك بيت لا يدفع عنها الحر والبرد ولا يقي ماتقي البيوت فكذلك الأوثان لاتنفعهم في الدنيا والآخرة، جعل حاتم اتخذت حالا (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ) لا بيت أوهن من بيتها . عن عليّ رضي الله عنه طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يورث الفقر (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن وقيل معنى الآية مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتا بالإضافة إلى رجل يبني بيتا بآجر وجص أو ينحته من صخر وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون وقال الزجاج في جماعة تقدير الآية مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء لو كانوا يعلمون كمثل العنكبوت (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ) بالياء بصري وعاصم وبالتاء غيرهما غير الأعشى والبرجمي وما بمعنى الذي وهو مفعول يعلم ومفعول يدعون مضمر أي يدعونه يعني يعبدونه (مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ) من في من شيء للتبيين (وَهُوَ الْعَزِيزُ) الغالب الذي لا شريك له (الْحَكِيمُ) في ترك المعاجلة بالعقوبة وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جمادا لا علم له ولا قدرة وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لايفعل كل شيء إلا بحكمة وتدبير (وَتِلْكَ الْأَمْثَـٰلُ) الأمثال نعت والخبر (نَضْرِبُهَا) نبينها (لِلنَّاسِ) كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَـٰلِمُونَ) به وبأسمائه وصفاته أي لايعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا هم لأن الأمثال والتشبيهات

إنما هى الطرق إلى المعانى المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبى ﷺ أنه تلاهذه الآية فقال «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه» ودلت الآية على فضل العلم على العقل (خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) أى محقا يعنى لم يخلقهما باطلا بل لحكمة وهى أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته الاترى إلى قوله (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) وخصهم بالذكر لانتفاعهم بها (اتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ) تقربا إلى الله تعالى بقراءة كلامه ولتقف على ما أمر به ونهى عنه (وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ) أى دم على إقامة الصلاة (إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ) الفعلة القبيحة كالزنا مثلا (وَالْمُنكَرِ) هو ما ينكره الشرع والعقل قيل من كان مراعيا للصلاة جره ذلك إلى أن ينتهى عن السيئات يوما ما فقد روى أنه قيل يوما لرسول الله ﷺ إن فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل فقال «إن صلاته لتردعه» روى أن فتى من الأنصار كان يصلى معه الصلوات ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه فوصف له فقال «إن صلاته ستنهاه» فلم يلبث أن تاب وقال ابن عوف إن الصلاة تنهى إذا كنت فيها فأنت فى معروف وطاعة وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر وعن الحسن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهى وبال عليه (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) أى والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وإنما قال ولذكر الله ليستقل بالتعليل كأنه قال والصلاة أكبر لأنها ذكر الله وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته وقال ابن عطاء ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له الآن لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأمانى ولأن ذكره لا يفنى وذكركم لا يبقى وقال سلمان ذكر الله أكبر من كل شىء وأفضل فقد قال عليه السلام «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» قالوا وما ذاك يارسول الله قال «ذكر الله» وسئل أى الأعمال أفضل قال «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله» أو ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم أو ذكر الله أكبر من تلقى معه معصية أو ذكر الله أكبر فى النهى عن الفحشاء والمنكر من غيره (وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) من الخير والطاعة فيثيبكم أحسن الثواب

(وَلاَ تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلاَّ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) بالخصلة التى هى أحسن للثواب وهى مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم كما قال: ادفع بالتى هى أحسن (إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ) فأفرطوا فى الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة وقيل إلا الذين آذوا رسول الله ﷺ أو إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة أو معناه ولا تجادلوا الداخلين فى الذمة المؤدين للجزية إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فجادلتهم بالسيف والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة فى الدين وعلى جواز تعلم علم الكلام الذى به تتحقق المجادلة وقوله (وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ) من جنس المجادلة بالأحسن. وقال عليه السلام «ماحدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلا لم تصدقوهم وإن كان حقا لم تكذبوهم» (وَكَذَٰلِكَ) ومثل ذلك الإنزال (أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ) أى أنزلناه مصدقا لسائر الكتب السماوية أو كما أنزلنا الكتب إلى من قبلك أنزلنا إليك الكتاب (فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ) هم عبد الله بن سلام ومن معه (وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ) أى من أهل مكة (مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ) أو أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين كانوا فى عهد رسول الله ﷺ (وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ) مع ظهورها وزوال الشبهة عنها (إِلاَّ ٱلْكَٰفِرُونَ) إلا المتوغلون فى الكفر المصممون عليه ككعب بن الأشرف وأضرابه (وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ) من قبل القرآن (مِن كِتَٰبٍ وَلاَ تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ) خص اليمين لأن الكتابة غالبا تكون باليمين أى ما كنت قرأت كتابا من الكتب ولا كنت كاتبا (إِذًا) أى لو كان شىء من ذلك أى من التلاوة ومن الخط (لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ) من أهل الكتاب وقالوا الذى نجد نعته فى كتبنا أمى لا يكتب ولا يقرأ وليس به أو لارتاب مشركو مكة وقالوا لعله تعلمه أو كتبه بيده وسماهم مبطلين لإنكارهم نبوته. وعن مجاهد والشعبى مامات النبى ﷺ حتى كتب وقرأ (بَلْ هُوَ) أى القرآن (ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ) أى فى صدور العلماء به وحفاظه وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظا فى الصدور بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف (وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ) الواضحة

(إِلاَّ الظَّـٰلِمُونَ) أى المتوغلون فى الظلم (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِ) آية بغير ألف مكى وكوفى غير حفص أرادوا هلا أنزل عليه آيات مثل الناقة والعصا ومائدة عيسى عليهم السلام ونحو ذلك (قُلْ إِنَّمَا الْآيَـٰتُ عِندَ اللَّهِ) ينزل أيتها شاء ولست أملك شيئا منها (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات وليس لى أن أقول أنزل على آية كذا دون آية كذا مع على أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة والآيات كلها فى حكم آية واحدة فى ذلك (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) أى أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذى تدوم تلاوته عليهم فى كل مكان وزمان فلايزال معهم آية ثابتة لاتزول كما تزول كل آية بعد كونها أو تكون فى مكان دون مكان (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) أى فى مثل هذه الآية الموجودة فى كل مكان وزمان إلى آخر الدهر (لَرَحْمَةً) لنعمة عظيمة (وَذِكْرَىٰ) وتذكرة (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) دون المتعنتين (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا) أى شاهدا بصدق ماأدعيه من الرسالة وأنزال القرآن على وبتكذيبكم (يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) فهو مطلع على أمرى وأمركم وعالم بحق وباطلكم (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَـٰطِلِ) منكم وهو مايعبدون من دون الله (وَكَفَرُوا بِاللَّهِ) وآياته (أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ) المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين وروى أن كعب ابن الأشرف وأصحابه قالوا يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) بقولهم أمطر علينا حجارة من السماء الآية (وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى) وهو يوم القيامة أو يوم بدر أو وقت فنائهم بآجالهم والمعنى ولولا أجل قد سماه الله وبينه فى اللوح لعذبهم والحكمة تقتضى تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى (لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ) عاجلا (وَلَيَأْتِيَنَّهُم) العذاب عاجلا أو ليأتينهم العذاب فى الأجل المسمى (بَغْتَةً) فجأة (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) بوقت مجيئه (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ) أى ستحيط بهم (يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) لقوله تعالى: من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. ولا وقف على بالكافرين لأن يوم ظرف إحاطة النار بهم (وَيَقُولُ) بالياء كوفى ونافع وقوله (ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى جزاء أعمالكم (يَـٰعِبَادِىَ) وبسكون الياء بصرى

وكوفى غير عاصم (الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ) وبفتح الياء شامى يعنى أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة فى بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلبا وأصح دينا وأكثر عبادة والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتا كثيرا وقالوا لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من الفتن وأربط للأمر الدينى من مكة حرسها الله تعالى وعن سهل إذاظهرت المعاصى والبدع فى أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين وعن رسول الله ﷺ «من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجب الجنة» (فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ)وبالياء يعقوب وتقديره فإياى اعبدوا فاعبدونى وجىء بالفاء فى فاعبدون لأنه جواب شرط محذوف لأن المعنى إن أرضى واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها ثم حذف الشرط وعوض عن حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص ثم شجع المهاجر بقوله (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ) أى واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق لأنها إذاتيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها (ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) بعد الموت للثواب والعقاب يرجعون يحيى ترجعون يعقوب (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا) لننزلنهم من الجنة علالى لنثوينهم كوفى غير عاصم من الثواء وهو النزول للإقامة وثوى غير متعد فإذا تعدى بزيادة الهمزة لم يجاوز مفعولا واحدا والوجه فى تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف إما إجراؤه مجرى لننزلنهم أولنؤينهم أوحذف الجار وإيصال الفعل أوتشبيه الظرف المؤقت بالمبهم (تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ)ويوقف على العاملين على أن (ٱلَّذِينَ صَبَرُوا) خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين صبروا على مفارقة الأوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصى والوصل أجود ليكون الذين نعتا للعاملين (وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ولم يتوكلوا فى جميع ذلك إلا على الله ولما أمر رسول الله ﷺ من أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فنزلت (وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ) أى وكم من دابة وكائن بالمد والهمز مكى والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أم لم تعقل (لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) لاتطيق أن تحمله لضعفها عن حمله (ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ)أى لايرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله ولا يرزقكم أيضا أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم

وكسبها لأنه لولم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لاتحمل وعن الحسن لاتحمل رزقها لاتدخره إنما تصبح فيرزقها الله وقيل لايدخر شيء من الحيوان قوتا إلا ابن آدم والفأرة والنملة (وَهُوَ السَّمِيعُ) لقولكم نخشى الفقر والعيلة (الْعَلِيمُ) بما فى ضمائركم (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) أى ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق السموات والأرض على كبرهما وسعتهما ومن الذى سخر الشمس والقمر (لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) فكيف يصرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كله (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) أى لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لأن من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهما مثله. قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) يعلم مايصلح العباد ومايفسدهم فى الحديث «إن من عبادى من لايصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لايصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك» (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) أى هم مقرون بذلك (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) على إنزاله الماء لإحياء الأرض أو على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه ولم يكن إقرارا عاطلا كإقرار المشركين (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) لايتدبرون بما فيهم من العقول فيما نريهم من الآيات ونقيم عليهم من الدلالات أولا يعقلون ماتريد بقولك الحمد لله (وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) أى وما هى لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون وفيه إزدراء بالدنيا وتصغير لأمرها وكيف لايصغرها وهى لاتزن عنده جناح بعوضة، واللهو مايتلذذ به الإنسان فيلهيه ساعة ثم ينقضى (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) أى الحياة أى ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لاموت فيها فكأنها فى ذاتها حياة والحيوان مصدر حي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوا ولم يقل لهى الحياة لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب والحياة حركة والموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة فى معنى الحياة ويوقف على الحيوان لأن التقدير (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفانى على الحيوان الباقى ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقا بشرط علمهم ذلك وليس كذلك (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ) هو متصل بمحذوف دل عليه

ماوصفهم به وشرح من أمرهم معناه هم على ماوصفوا به من الشرك والعناد فإذا ركبوا فى الفلك (دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) كائنين فى صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلها آخر (فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ) وأمنوا (إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) عادوا إلى حال الشرك (لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ) من النعمة قيل هى لام كى وكذا فى (وَلِيَتَمَتَّعُوا) فيمن قرأها بالكسر أى لكى يكفروا وكى يتمتعوا والمعنى يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التلذذ والتمتع وعلى هذا لاوقف على يشركون ومن جعله لام الأمر متثبتا بقراءة ابن كثير وحمزة وعلى وليتمتعوا بسكون اللام على وجه التهديد كقوله: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وتحقيقه فى أصول الفقه يقف عليه (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) سوء تدبيرهم عند تدميرهم (أَوَلَمْ يَرَوْا) أى أهل مكة (أَنَّا جَعَلْنَا) بلدهم (حَرَمًا) ممنوعا مصونا (ءَامِنًا) يأمن داخله (وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) يستلبون قتلا وسبيا (أَفَبِالْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ) أى أبالشيطان والأصنام (وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ) أى بمحمد عليه السلام والإسلام (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا) بأن جعل له شريكا (أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ) بنبوة محمد عليه السلام والكتاب (لَمَّا جَآءَهُ) أى لم يتلعثموا فى تكذيبه حين سمعوه (أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ) هذا تقرير لثوائهم فى جهنم لأن همزة الإنكار إذا أدخلت على النفى صار إيجابا يعنى ألا يثوون فيها وقدافتروا مثل هذا التكذيب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب أو ألم يصح عندهم أن فى جهنم مثوى للكافرين حين اجترءوا مثل هذه الجراءة وذكر المثوى فى مقابلة لنبوئنهم يؤيد قراءة الثانى (وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا) أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين (فِينَا) فى حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) سبْلنا أبوعمرو أى لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقا وعن الدارانى: والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى مالم يعلموا فقد قيل: من عمل بما علم وفق لما لا يعلم. وقيل: إن الذى نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو لتقصيرنا فيما نعلم. وعن فضيل: والذين

جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به . وعن سهل: والذين جاهدوا فى إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة. وعن ابن عطاء جاهدوا فى رضانا لنهدينهم الوصول إلى محل الرضوان وعن ابن عباس جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وعن الجنيد جاهدوا فى التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص أو جاهدوا فى خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا أو جاهدوا فى طلبنا تحريا لرضانا لنهدينهم سبل الوصول إلينا (وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) بالنصرة والمعونة فى الدنيا وبالثواب والمغفرة فى العقبى .

﴿ سورة الروم مكية وهى ستون أو تسع وخمسون آية والاختلاف فى بضع سنين ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ) أى غلبت فارس الروم (فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ) أى فى أقرب أرض العرب لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم والمعنى غلبوا فى أدنى أرض العرب منهم وهى أطراف الشام أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أى فى أدنى أرضهم إلى عدوهم (وَهُم) أى الروم (مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ) أى غلبة فارس إياهم وقرئ بسكون اللام فالغلب والغلب مصدران وقد أضيف المصدر إلى المفعول (سَيَغْلِبُونَ) فارس ولا وقف عليه لتعلق (فِي بِضْعِ سِنِينَ) به وهو مابين الثلاث إلى العشرة قيل احتربت فارس والروم بين أذرعات وبصرى فغلبت فارس الروم والملك بفارس يومئذ كسرى ابرويز فبلغ الخبر مكة فشق على رسول الله ﷺ والمؤمنين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل كتاب وفرح المشركون وشمتوا وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت فقال لهم أبو بكر والله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبىّ بن خلف كذبت فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعل الأجل ثلاث سنين فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ فقال عليه السلام «زد فى الخطر وأبعد فى الأجل» فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ومات أبىّ من جرح رسول الله ﷺ وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية أو يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبىّ فقال عليه السلام «تصدق

به» وهذه آية بينة على صحة نبوته وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب وكان ذلك قبل تحريم القمار عن قتادة ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة فى دار الحرب بين المسلمين والكفار وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ) أى من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء أو حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين يعنى أن كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخرا ليس إلا بأمر الله وقضائه وتلك الأيام نداولها بين الناس (وَيَوْمَئِذٍ) ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعد الله من غلبتهم (يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ) وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وقيل نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم والباء يتصل بيفرح فيوقف على الله لا على المؤمنين (يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ) الغالب على أعدائه (الرَّحِيمُ) العاطف على أوليائه (وَعْدَ اللَّهِ) مصدر مؤكد لأن قوله وهم من بعد غلبهم سيغلبون وعد من الله للمؤمنين فقوله وعد الله بمنزلة وعد الله المؤمنين وعدا (لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) بنصر الروم على فارس (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ذلك (يَعْلَمُونَ) بدل من لا يعلمون وفيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا وقوله (ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يفيد أن للدنيا ظاهرا وباطنا فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها وباطنها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة وبالأعمال الصالحة وتنكير الظاهر يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحداً من جملة ظواهرها (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) هم الثانية مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر هم الأولى وفيه بيان أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم) يحتمل أن يكون ظرفا كأنه قيل أولم يثبتوا التفكر فى أنفسهم أى فى قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكر لا يكون إلا فى القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقوله اعتقده فى قلبك وأن يكون صلة للتفكر نحو تفكر فى الأمر وأجال فيه فكره ومعناه على هذا أولم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الإهمال

وأنه لابد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة فى التدبير وأنه لابد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت (مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ) متعلق بالقول المحذوف معناه أولم يتفكروا فيقولوا هذاالقول وقيل معناه فيعلموا لأن فى الكلام دليلا عليه (إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) أى ما خلقها باطلا وعبثا بغير حكمة بالغة ولا لتبقى خالدة إنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة وبتقدير أجل مسمى لابد لها من أن تنتهى إليه وهوقيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب الاترى إلى قوله: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاوأنكم إلينا لاترجعون. كيف سمى تركهم غيرراجعين إليه عبثا (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ) بالبعث والجزاء (لَكَٰفِرُونَ) لجاحدون وقال الزجاج: أى لكافرون بلقاء ربهم (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) هو تقرير لسيرهم فى البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ثم وصف حالهم فقال (كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ) وحرثوها (وَعَمَرُوهَآ) أى المدمرون (أَكْثَرَ) صفة مصدر محذوف ومامصدرية فى (مِمَّا عَمَرُوهَا) أى من عمارة أهل مكة (وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ) وتقف عليها لحق الحذف أى فلم يؤمنوا فأهلكوا (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) فما كان تدميره إياهم ظلما لهم (وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ماأوجب تدميرهم (ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ) بالنصب شامى وكوفى (الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا السُّوٓأَىٰٓ) تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ومحلها رفع على أنها اسم كان عند من نصب عاقبة على الخبر ونصب عند من رفعها والمعنى أنهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار ثم كانت عاقبتهم السوأى إلا أنه وضع المظهروهوالذين أساءوا موضع المضمر أىالعقوبة التى هىأسوأ العقوبات فى الآخرة وهى النار التى أعدت للكافرين(أَن كَذَّبُوا)لأن كذبوا أوبأن وهويدل على أن معنى أساءوا كفروا (بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ) يعنى ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها (اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ) ينشئهم (ثُمَّ يُعِيدُهُ) يحييهم بعد الموت (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)وبالياء أبوعمرو وسهل (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ)ييأس ويتحير يقال ناظرته

فأبلس إذا لم ينبس ويئس من أن يحتج (ٱلْمُجْرِمُونَ) المشركون (وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ) من الذين عبدوهم من دون الله. وكتب (شُفَعَٰٓؤُا) فى المصحف بواو قبل الألف كما كتب علمؤا بنى إسرائيل وكذلك كتبت السوأى بالألف قبل الياء اثباتا للهمزة على صورة الحرف الذى منه حركتها (وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ) أى يكفرون بآلهتهم ويجحدونها أو وكانوا فى الدنيا كافرين بسببهم (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) الضمير فى يتفرقون للمسلمين والكافرين لدلالة مابعده عليه حيث قال (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ) أى بستان وهى الجنة والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه (يُحْبَرُونَ) يسرون يقال حبره إذا سره سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره ثم اختلف فيه لاحتمال وجوه المسار فقيل يكرمون وقيل يحلون وقيل هو السماع فى الجنة (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ) أى البعث (فَأُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) مقيمون لايغيبون عنه ولا يخفف عنهم كقوله: وماهم بخارجين منها .لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر مايوصل إلى الوعد وينجى من الوعيد فقال (فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ) والمراد بالتسبيح ظاهره الذى هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير فى هذه الأوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة أو الصلاة فقيل لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن فقال نعم وتلا هذه الآية وهو نصب على المصدر والمعنى نزهوه عما لا يليق به أوصلوا لله (حِينَ تُمْسُونَ) صلاة المغرب والعشاء (وَحِينَ تُصْبِحُونَ) صلاة الفجر (وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) اعتراض ومعناه أن على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه، وفى السموات حال من الحمد (وَعَشِيًّا) صلاة العصر وهو معطوف على حين تمسون، وقوله عشيا متصل بقوله حين تمسون (وَحِينَ تُظْهِرُونَ) صلاة الظهر أظهر أى دخل فى وقت الظهيرة والقول الأكثر أن الصلوات الخمس فرضت بمكة (يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ) الطائر من البيضة أو الإنسان من النطفة أو المؤمن من الكافر (وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ) أى البيضة من الطائر أو النطفة من الإنسان أو الكافر من المؤمن، والميت بالتخفيف فيهما مكى وشامى وأبو عمرو وأبو بكر وحماد وبالتشديد غيرهم (وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ) بالنبات (بَعْدَ مَوْتِهَا) يبسها (وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) تَخرجون حمزة وعلى وخلف أى ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم والكاف فى محل النصب بتخرجون

والمعنى أن الإبداء والإعادة يتساويان فى قدرة من هو قادر على إخراج الميت من الحى وعكسه روى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال «من قرأ فسبحان الله حين تمسون إلى الثلاث وآخر سورة والصفات دبر كل صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء وقطر الأمطار وورق الأشجار وتراب الأرض فإذا مات أجرى له بكل حرف عشر حسنات فى قبره» قال عليه السلام «من قرأ حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله وكذلك تخرجون أدرك مافاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته» (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ) ومن علامات ربوبيته وقدرته (أَنْ خَلَقَكُم) أى أباكم (مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ) أى آدم وذريته (تَنتَشِرُونَ) تتصرفون فيما فيه معاشكم وإذا للمفاجأة وتقديره ثم فاجأتم وقت كونكم بشرا منتشرين فى الأرض (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا) أى حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون وما بين الجنسين المختلفين من التنافر يقال سكن إليه إذا مال إليه (وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) أى جعل بينكم التواد والتراحم بسبب الزواج وعن الحسن المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد وقيل المودة للشابة والرحمة للعجوز وقيل المودة والرحمة من الله والفرك من الشيطان أى بغض المرأة زوجها وبغض الزوج المرأة (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فيعلمون أن قوام الدنيا بوجود التناسل (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ) أى اللغات أو أجناس النطق وأشكاله (وَأَلْوَٰنِكُمْ) كالسواد والبياض وغيرهما ولاختلاف ذلك وقع التعارف وإلا فلو تشاكلت واتفقت لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت المصالح وفى ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وهم على الكثرة التى لا يعلمها إلا الله متفاوتون (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلَمِينَ) [للعالَمين] جمع عالَم وبكسر اللام حفص جمع عالِم ويشهد للكسر قوله تعالى وما يعقلها إلا العالمون (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ) هذا من باب اللف، وترتيبه ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين أو المراد منامكم فى الزمانين وابتغاؤكم فيهما، والجمهور على الأول لتكرره فى القرآن وأسد المعانى مادل عيه القرآن (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

يَسْمَعُونَ) أى يسمعون سماع تدبر بآذان واعية (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ) فى يريكم وجهان اضمار أن كما فى حرف ابن مسعود رضى الله عنه وإنزال الفعل منزلة المصدر وبهما فسر المثل تسمع بالمعيدى خير من أن تراه أى أن تسمع أو سماعك (خَوْفًا) من الصاعقة أو من الإخلاف (وَطَمَعًا) فى الغيث أو خوفا للمسافر وطمعا للحاضر وهما منصوبان على المفعول له على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أى إرادة خوف وإرادة طمع أو على الحال أى خائفين وطامعين (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ)وبالتخفيف مكى وبصرى (مَآءً) مطرا (فَيُحْيِۦ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يتفكرون بعقولهم (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ) تثبت بلا عمد (السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ) أى بإقامته وتدبيره وحكمته (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ)للبعث(دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ)من قبوركم هذا كقوله يريكم فى إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قال ومن آياته قيام السموات والأرض واستمساكها بغير عمد ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة ياأهل القبور اخرجوا والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بثم بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله وهو أن يقول ياأهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وإذا الأولى للشرط والثانية للمفاجأة وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط ومن الأرض متعلق بالفعل لا بالمصدر وقولك دعوته من مكان كذا يجوز أن يكون مكانك ويجوز أن يكون مكان صاحبك(وَلَهُۥ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ)منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه أومقرون بالعبودية (وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ) أى ينشئهم (ثُمَّ يُعِيدُهُۥ) للبعث (وَهُوَ) أى البعث (أَهْوَنُ) أيسر (عَلَيْهِ) عندكم لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء فلم أنكرتم الإعادة، وأخرت الصلة فى قوله وهو أهون عليه وقدمت فى قوله: هو علىّ هين. لقصد الاختصاص هناك وأما هنا فلا معنى للاختصاص وقال أبو عبيدة والزجاج وغيرهما: الأهون بمعنى الهين فيوصف به الله عز وجل وكان ذلك على الله يسيرا كما قالوا الله أكبر أى كبير والإعادة فى نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء أو هو أهون على الخلق من الإنشاء لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفا ثم علقا ثم مضغا إلى تكميل

خلقهم (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) أى الوصف الأعلى الذى ليس لغيره وقدعرف به ووصف فى السموات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وهو أنه القادر الذى لايعجزعن شىء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ويدل عليه قوله (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى القاهر لكل مقدور (الْحَكِيمُ) الذى يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه وعن ابن عباس رضى الله عنهما : المثل الأعلى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير. وعن مجاهد: هو قول لاإله إلا الله . ومعناه وله الوصف الأرفع الذى هو الوصف بالوحدانية ويعضده قوله (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ) فهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن جعل له شريكا من خلقه ومن للابتداء كأنه قال أخذ مثلا وانتزعه من أقرب شىء منكم وهى أنفسكم (هَل لَّكُم) معاشر الأحرار (مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم) عبيدكم ومن للتبعيض (مِّن شُرَكَاءَ) من مزيدة لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفى ومعناه هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد أن يشارككم بعضهم (فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ) من الأموال وغيرها (فَأَنتُمْ) معاشر الأحرار والعبيد (فِيهِ) فى ذلك الرزق (سَوَاءٌ) من غير تفصلة بين حر وعبد يحكم مماليككم فى أموالكم كحكمكم (تَخَافُونَهُمْ) حال من ضمير الفاعل فى سواء أى متساوون خائفا بعضكم بعضا مشاركته فى المال والمعنى تخافون معاشرة السادة عبيدكم فيها فلا تمضون فيها حكما دون إذنهم خوفا من لائمة تلحقكم من جهتهم (كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) يعنى كما يخاف بعض الأحرار بعضا فيما هو مشترك بينهم فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء (كَذَٰلِكَ) موضع الكاف نصب أى مثل هذا التفصيل (نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ) نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يتدبرون فى ضرب الأمثال فلما لم ينزجروا أضرب عنهم فقال (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أنفسهم بما أشركوا كما قال الله تعالى: إن الشرك لظلم عظيم. (أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) أى اتبعوا أهواءهم جاهلين (فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ) أى أضله الله تعالى (وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ) من العذاب (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ) فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه واهتمامه بأسبابه فإن من اهتم بالشىء عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم له وجهه (حَنِيفًا) حال

من الأمور أو من الدين (فِطْرَتَ اللهِ) أى الزموا فطرة الله والفطرة الخلقة ألا ترى إلى قوله لاتبديل لخلق الله فالمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل مساوقا للنظر الصحيح حتى لوتركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الجن والإنس ومنه قوله عليه السلام « كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى » وقوله عليه السلام « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه » وقال الزجاج: معناه أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به على ماجاء فى الحديث « إن الله عز وجل أخرج من صلب آدم كالذر وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم » فقال وإذ أخذ ربك إلى قوله قالوا بلى وكل مولود هو من تلك الذرية التى شهدت بأن الله تعالى خالقها. فمعنى فطرة الله دين الله (الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) أى خلق (لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) أى ما ينبغى أن تبدل تلك الفطرة أو تغير وقال الزجاج معناه لاتبديل لدين الله ويدل عليه ما بعده وهو قوله (ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) أى المستقيم (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) حقيقة ذلك (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) راجعين إليه وهو حال من الضمير فى الزموا وقوله واتقوه وأقيموا ولاتكونوا معطوف على هذا المضمر أومن قوله فأقم وجهك لأن الأمر له عليه السلام أمر لأمته فكأنه قال فأقيموا وجوهكم منيبين إليه أوالتقدير كونوامنيبين دليله قوله ولاتكونوا (وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ) أى أدوها فى أوقاتها (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ممن يشرك به غيره فى العبادة (مِنَ الَّذِينَ) بدل من المشركين بإعادة الجار (فَرَّقُوا دِينَهُمْ) جعلوه أديانا مختلفة لاختلاف أهوائهم فارقوا حمزة وعلى وهى قراءة على رضى الله عنه أى تركوادين الإسلام (وَكَانُوا شِيَعاً) فرقا كل واحدة تشايع إمامها الذى أضلها (كُلُّ حِزْبٍ) منهم (بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقا (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ) شدة من هزال أومرض أوقحط أو غير ذلك (دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً) أى خلاصا من الشدة (إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) فى العبادة (لِيَكْفُرُوا) هذه لام كى وقيل لام الأمر للوعيد (بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ) من النعم (فَتَمَتَّعُوا) بكفركم قليلا أمر وعيد (فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ) وبال تمتعكم (أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا) حجة (فَهُوَ يَتَكَلَّمُ) وتكلمه مجاز كما تقول كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الشهادة كأنه قال : فهو يشهد بشركهم وبصحته (بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ) ما مصدرية أى بكونهم بالله يشركون أو موصولة ويرجع الضمير إليها أى فهو يتكلم بالأمر الذى بسببه يشركون أو معنى الآية أم أنزلنا عليهم ذاسلطان أى ملكا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذى بسببه يشركون (وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً) أى نعمة من مطر أوسعة أوصحة (فَرِحُوا بِهَا) بطروا بسببها وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) أى بلاء من جدب أو ضيق أو مرض (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) بسبب شؤم معاصيهم (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) من الرحمة وإذا لمفاجأة جواب الشرط نابت عن الفاء لتآخيهما فى التعقيب (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أنكر عليهم بأنهم قد علموا بأنه القابض الباسط فما لهم يقنطون من رحمته وما لهم لا يرجعون إليه تائبين عن المعاصى التى عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته ولما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك فقال (فَـَٔاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ) أعط قريبك (حَقَّهُ) من البر والصلة (وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) نصيبهما من الصدقة المسماة لهما وفيه دليل وجوب النفقة للمحارم كما هو مذهبنا (ذَٰلِكَ) أى إيتاء حقوقهم(خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) أى ذاته أى يقصدون بمعروفهم إياه خالصا (وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ النَّاسِ) يريد وما أعطيتم أكلة الربا من ربا ليربوا فى أموالهم (فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ) فلا يزكوا عند الله ولا يبارك فيه وقيل هو من الربا الحلال أى وما تعطونه من الهدية لتأخذوا أكثر منها فلا يربوا عند الله لأنكم لم تريدوا بذلك وجه الله (وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ) صدقة (تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) تبتغون به وجهه خالصا لا تطلبون به مكافأة ولارياء ولا سمعة (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) ذووالإضعاف من الحسنات ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوةواليسار. أتيتم من ربا بلامد مكى أى وماغشيتموه من إعطاء ربا لتربوا مدنى أى لتزيدوا

فى أموالهم وقوله فأولئك هم المضعفون التفات حسن لأنه يفيد التعميم كأنه قيل من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين والمعنى المضعفون به لأنه لابد له من ضمير يرجع إلى ما الموصولة وقال الزجاج فى قوله فأولئك هم المضعفون أى فأهلها هم المضعفون أى هم الذين يضاعف لهم الثواب يعطون بالحسنة عشر أمثالها ثم أشار إلى عجز آلهتهم فقال (اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ) مبتدأ وخبر (ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) أى هو المختص بالخلق والرزق والإماتة والإحياء (هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ) أى أصنامكم التى زعمتم أنهم شركاء لله (مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم) أى من الخلق والرزق والإماتة والإحياء (مِّن شَىْءٍ) أى شيئاً من تلك الأفعال فلم يجيبوا عجزا فقال استبعادا (سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ومن الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) نحو القحط وقلة الأمطار والريع فى الزراعات والربح فى التجارات ووقوع الموتان فى الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شىء (بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ) بسبب معاصيهم وشركهم كقوله: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم. (لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا) أى ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة وبالنون عن قنبل (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) عما هم عليه من المعاصى ثم أكد تسبيب المعاصى لغضب الله ونكاله بقوله (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ) حيث أمرهم بأن يسيروا فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) البليغ الاستقامة الذى لا يتأتى فيه عوج (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ) هو مصدر بمعنى الرد (مِنَ اللهِ) يتعلق بيأتى والمعنى من قبل أن يأتى من الله يوم لا يرده أحد كقوله تعالى فلا يستطيعون ردها أو بمرد على معنى لا يرده هو بعد أن يجىء به ولا راد له من جهته (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) يتصدعون أى يتفرقون ثم أشار إلى غناه عنهم فقال (مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) أى وبال كفره (وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) أى يسوون لأنفسهم مايسويه لنفسه الذى يمهد لنفسه فراشه ويوطئه لئلا يصيبه فى مضجعه ماينغص عليه مرقده من نتوء وغيره والمعنى أنه يمهد لهم الجنة بسبب أعمالهم فأضيف إليهم وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على أن ضرر

الـكفر لا يعود إلا على الـكافر ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزه (لِيَجْزِيَ) متعلق بيمهدون تعليل له وتكرير (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ) وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لايفلح عنده إلا المؤمن (مِن فَضْلِهِ) أى عطائه وقوله (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ) تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ) أى ومن آيات قدرته (أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَٰحَ) هى الجنوب والشمال والصبا وهى رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه السلام «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا» وقد عدد الفوائد فى إرسالها فقال (مُبَشِّرَٰتٍ) أى أرسلها للبشارة بالغيث (وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ) ولإذاقة الرحمة وهى نزول المطر وحصول الخصب الذى يتبعه والروح الذى مع هبوب الريح وزكاء الأرض وغير ذلك وليذيقكم معطوف على مبشرات على المعنى كأنه قيل ليبشركم وليذيقكم (وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ) فى البحر عند هبوبها (بِأَمْرِهِ) أى بتدبيره أو بتكوينه كقوله إنما أمره إذا أراد شيئا الآية (وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِ) يريد تجارة البحر (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ولتشكروا نعمة الله فيها (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ) أى فآمن بهم قوم وكفر بهم قوم ويدل على هذا الإضمار قوله (فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟) أى كفروا بالإهلاك فى الدنيا (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) أى وكان نصر المؤمنين حقا علينا بإنجائهم مع الرسل وقد يوقف على حقا ومعناه وكان الانتقام منهم حقا ثم تبدىء علينا نصر المؤمنين والأول أصح (ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ) الريح مكى (فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ) أى السحاب (فِى ٱلسَّمَآءِ) أى فى سمت السماء وشقها كقوله وفرعها فى السماء (كَيْفَ يَشَآءُ) من ناحية الشمال أو الجنوب أو الدبور أو الصبا (وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا) قطعا جمع كسفة أى يجعله منبسطا يأخذ وجه السماء مرة ويجعله قطعا متفرقة غير منبسطة مرة. كِسْفا يزيد وابن ذكوان (فَتَرَى ٱلْوَدْقَ) المطر (يَخْرُجُ) فى التارتين جميعا (مِنْ خِلَٰلِهِۦ) وسطه (فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ) بالودق (مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) يريد إصابة بلادهم وأراضيهم (إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) يفرحون (وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم) المطر (مِّن قَبْلِهِۦ) كرر للتأكيد كقوله: فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها. ومعنى التوكيد فيها الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم بأسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك (لَمُبْلِسِينَ) آيسين (فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ

ءاثر)شامى وكوفى غير أبى بكر. وغيرهم أثر (رَحْمَتِ اللهِ)أى المطر(كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ) بالنبات وأنواع الثمار(بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ) أى الله(لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ) يعنى أن ذلك القادر الذى يحيي الأرض بعد موتها هو الذى يحيي الناس بعد موتهم فهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى وهو على كل شيء من المقدورات قادر وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا)أى الدبور(فَرَأَوْهُ)أى أثر رحمة الله لأن رحمة الله هى الغيث وأثرها النبات ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه لأن معنى آثار الرحمة النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير لأنه مصدر سمى به ماينبت (مُصْفَرًّا) بعد إخضراره وقال مصفرا لأن تلك صفرة حادثة وقيل فرأوا السحاب مصفرا لأن السحاب الأصفر لايمطر واللام فى لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط، وسد مسد جوابى القسم والشرط (لَّظَلُّوا) ومعناه ليظلن (مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) أى من بعد اصفراره أو من بعد الاستبشار ذمهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا فإذا أرسل ريحا فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله فهم فى جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة وكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ففرحوا وأن يصبروا على بلائه فكفروا (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ) أى موتى القلوب أو هؤلاء فى حكم الموتى فلا تطمع أن يقبلوا منك (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ) ولا يَسْمَعُ الصم مكى (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) فإن قلت الأصم لايسمع مقبلا أو مدبرا فما فائدة هذا التخصيص قلت هو إذا كان مقبلا يفهم بالرمز والإشارة فإذا ولى لايسمع ولا يفهم بالإشارة (وَمَا أَنتَ بِهَٰدِ الْعُمْيِ) أى عمى القلوب، وماأنت تهدى العمى حمزة(عَن ضَلَٰلَتِهِمْ) أى لايمكنك أن تهدى الأعمى إلى طريق قدضل عنه بإشارة منك له إليه(إِن تُسْمِعُ) ماتسمع (إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ) منقادون لأوامر الله تعالى (اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ) من النطف كقوله من ماء مهين(ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً) يعنى حال الشباب وبلوغ الأشد (ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً) يعنى حال الشيخوخة والهرم (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) من ضعف وقوة وشباب وشيبة (وَهُوَ الْعَلِيمُ) بأحوالهم (الْقَدِيرُ) على تغييرهم وهذا الترديد

فى الأحوال أبين دليل على الصانع العليم القدير. فتح الضاد فى الكل عاصم وحمزة وضم غيرهما وهو اختيار حفص وهما لغتان والضم أقوى فى القراءة لما روى عن ابن عمر قال قرأتها على رسول الله ﷺ من ضعف فأقرأنى من ضُعف (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) أى القيامة سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة كما تقول فى ساعة لمن تستعجله وجرت علما لها كالنجم للثريا (يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ) يحلف الكافرون ولا وقف عليه لأن (مَا لَبِثُوا) فى القبور أو فى الدنيا (غَيْرَ سَاعَةٍ) جواب القسم استقلوا مدة لبثهم فى القبور أو فى الدنيا لهول يوم القيامة وطول مقامهم فى شدائدها أو ينسون أو يكذبون (كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) أى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق إلى الكذب فى الدنيا ويقولون ماهى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ) هم الأنبياء والملائكة والمؤمنون (لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ) فى علم الله المثبت فى اللوح أو فى حكم الله وقضائه (إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ) ردوا ماقالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم (فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ) فى الدنيا (لَا تَعْلَمُونَ) أنه حق لتفريطكم فى طلب الحق واتباعه والفاء لجواب شرط يدل عليه الكلام تقديره إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذى أنكرتموه (فَيَوْمَئِذٍ لَّا ينفعُ) بالياء كوفى (الَّذِينَ ظَلَمُوا) كفروا (مَعْذِرَتُهُمْ) عذرهم (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) أى لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة من قولك استعتبنى فلان فأعتبته أى استرضانى فأرضيته (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ) أى ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل فى غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم ومالا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ولكنهم لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور وباطل (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) أى مثل ذلك الطبع وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحقين مبطلين وهم أعرق خلق الله فى تلك الصفة (فَاصْبِرْ) على أذاهم أو عداوتهم (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ) بنصرتك على أعدائك وإظهار دين الإسلام على كل دين (حَقٌّ) لابد من إنجازه والوفاء به

(وَلَا يَسْتَخِفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) أى لايحملنك هؤلاء الذين لايوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة فى الدعاء عليهم بالعذاب أو لايحملنك على الخفة والقلق جزعا ممايقولون ويفعلون فإنهم ضلال شاكون لايستبدع منهم ذلك ولا يستخفنْك بسكون النون عن يعقوب والله الموفق للصواب .

﴿ سورة لقمان مكية وهى ثلاث أو أربع وثلاثون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ) ذى الحكمة أو وصف بصفة الله عز وجل على الإسناد المجازى (هُدًى وَرَحْمَةً) حالان من الآيات والعامل معنى الإشارة فى تلك حمزة بالرفع على أن تلك مبتدأ وآيات الكتاب خبره وهدى خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف أى هو أوهى هدى ورحمة (لِّلْمُحْسِنِينَ) للذين يعملون الحسنات المذكورة فى قوله (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)ونظيره قول أوس:

الألمعىّ الذى يظن بك الظـ ـنّ كأن قد رأى وقد سمعا

أو للذين يعملون جميع ما يحسن ثم خص منهم القائمين بهـذه الثلاثة لفضلها (أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى) مبتدأ وخبر (مِّن رَّبِّهِمْ) صفة لهدى (وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) عطف عليه (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ) نزلت فى النضر بن الحرث وكان يشترى أخبار الأكاسرة من فارس ويقول إن محمدا يقص طرفا من قصة عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث الأكاسرة فيميلون إلى حديثه ويتركون استماع القرآن. واللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعنى. ولهو الحديث نحو السمر بالأساطير التى لاأصل لها والغناء وكان ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما يحلفان أنه الغناء وقيل الغناء مفسدة للقلب منفدة للمال مسخطة للرب وعن النبى ﷺ «مامن رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت» والاشتراء من الشراء كما روى عن النضر أو من قوله اشتروا الكفر بالإيمان أى استبدلوه منه واختاروه عليه أى يختارون حديث الباطل على حديث الحق وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى من. لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبيّن بالحديث والمراد

بالحديث الحديث المنكر كما جاء فى الحديث «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش» أوللتبعيض كأنه قيل ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى هو اللهو منه (لِيُضِلَّ) أى ليصد الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع القرآن، ليضل مكى وأبو عمرو أى ليثبت على ضلاله الذى كان عليه ويزيد فيه (عَن سَبِيلِ اللَّهِ) عن دين الإسلام والقرآن (بِغَيْرِ عِلْمٍ) أى جهلا منه بما عليه من الوزر به (وَيَتَّخِذَهَا) أى السبيل بالنصب كوفى غير أبى بكر عطفا على ليضل ومن رفع عطفه على يشترى (هُزُوًا) بسكون الزاى والهمزة حمزة وبضم الزاى بلا همز حفص وغيرهم بضم الزاى والهمزة (أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) أى يهينهم ومن لإبهامه يقع على الواحد والجمع أى النضر وأمثاله (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا) أعرض عن تدبرها متكبرا رافعا نفسه عن الإصغاء إلى القرآن (كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا)يشبه حاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو حال من مستكبرا والأصل كأنه والضمير ضمير الشأن (كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا) ثقلا وهو حال من لم يسمعها أذنيه نافع (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النَّعِيمِ) ولا وقف عليه لأن (خَٰلِدِينَ فِيهَا) حال من الضمير فى لهم (وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا) مصدران مؤكدان الأول مؤكد لنفسه والثانى مؤكد لغيره إذ لهم جنات النعيم فى معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد، وحقا يدل على معنى الثبات فأكد به معنى الوعد ومؤكدهما لهم جنات النعيم (وَهُوَ الْعَزِيزُ)الذى لايغلبه شىء فيهين أعداءه بالعذاب المهين(الْحَكِيمُ) بما يفعل فيثيب أولياءه بالنعيم المقيم (خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ) جمع عماد (تَرَوْنَهَا) الضمير للسموات وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله بغير عمد كما تقول لصاحبك أنا بلا سيف ولارمح ترانى ولا محل لها من الأعراب لأنها مستأنفة أوفى محل الجر صفة لعمد أى بغير عمد مرئية يعنى أنه عمدها بعمد لاترى وهى إمساكها بقدرته (وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَٰسِىَ) جبالا ثوابت (أَن تَمِيدَ بِكُمْ) لئلا تضطرب بكم (وَبَثَّ) ونشر (فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ) صنف (كَرِيمٍ)حسن (هَٰذَا) إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته (خَلْقُ اللَّهِ) أى مخلوقه (فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ) يعنى آلهتهم بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله فأرونى ماخلقته آلهتكم

حتى استوجبوا عندكم العبادة (بَلِ الظَّـٰلِمُونَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ) أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط فى ضلال ليس بعده ضلال (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ الْحِكْمَةَ) وهو لقمان ابن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته وقيل كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال ألا أكتفى إذا كُفيت وقيل كان خياطا وقيل نجارا وقيل راعيا وقيل كان قاضيا فى بنى إسرائيل وقال عكرمة والشعبى كان نبيا والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وهى الإصابة فى القول والعمل وقيل تتلمذ لألف وتتلمذله ألف نبي. وأن فى (أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ) مفسرة والمعنى أى اشكر لله لأن إيتاء الحكمة فى معنى القول وقد نبه الله تعالى على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقى هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له حيث فسر إيتاء الحكمة بالحث على الشكر وقيل لا يكون الرجل حكيما حتى يكون حكيما فى قوله وفعله ومعاشرته وصحبته وقال السرى السقطى : الشكر أن لاتعصى الله بنعمه. وقال الجنيد: أن لا ترى معه شريكا فى نعمه. وقيل هو الإقرار بالعجز عن الشكر والحاصل أن شكر القلب المعرفة وشكر اللسان الحمد وشكر الأركان الطاعة ورؤية العجز فى الكل دليل قبول الكل (وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) لأن منفعته تعود إليه فهو يريد المزيد (وَمَن كَفَرَ) النعمة (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ) غير محتاج إلى الشكر (حَمِيدٌ) حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد (وَإِذْ) أى واذكر إذ (قَالَ لُقْمَـٰنُ لِابْنِهِ) أنعم أوأشكم (وَهُوَ يَعِظُهُ يَـٰبُنَىَّ) بالإسكان مكى يابنى حفص بفتحه فى كل القرآن (لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لأنه تسوية بين من لانعمة إلا وهى منه ومن لانعمة له أصلا (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ) أى حملته تهن وهنا على وهن أى تضعف ضعفا فوق ضعف أى يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل كلما ازداد أو عظم ازدادت ثقلا وضعفا (وَفِصَـٰلُهُ فِى عَامَيْنِ) أى فطامه عن الرضاع لتمام عامين (أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ) هو تفسير لوصينا أى وصيناه بشكرنا وبشكر والديه وقوله حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين اعتراض بين المفسر والمفسر لأنه لما وصى بالوالدين ذكر ماتكابده الأم وتعانيه من المشاق فى حمله وفصاله هذه المدة الطويلة تذكيرا بحقها العظيم مفردا وعن ابن عيينة: من صلى الصلوات

الخمس فقد شكر الله ومن دعا للوالدين فى أدبار الصلوات الخمس فقد شكرهما (إِلَيَّ الْمَصِيرُ) أى مصيرك إلىّ وحسابك على (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) أراد بنفى العلم به نفيه أى لاتشرك بى ماليس بشىء يريد الأصنام (فَلَا تُطِعْهُمَا) فى الشرك (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) صفة مصدر محذوف أى صحابا معروفا حسنا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) أى سبيل المؤمنين فى دينك ولا تتبع سبيلهما فيه وإن كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما فى الدنيا وقال ابن عطاء: صاحب من ترى عليه أنوار خدمتى. (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ) أى مرجعك ومرجعهما (فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيدا لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك يعنى إنا وصيناه بوالديه وأمرناه أن لايطيعهما فى الشرك وإن جهدا كل الجهد لقبحه (يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ) بالرفع مدنى والضمير للقصة وأنث المثقال لإضافته إلى الحبة كما قال:

* كما شرقت صدر القناة من الدم * وكان تامة والباقون بالنصب والضمير للهنة من الإساءة والإحسان أى إن كانت مثلا فى الصغر كحبة خردل (فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ) أى فكانت مع صغرها فى أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة أوحيث كانت فى العالم العلوى أوالسفلى والأكثر على أنها التى عليها الأرض وهى السجين يكتب فيها أعمال الفجار وليست من الأرض (يَأْتِ بِهَا اللَّهُ) يوم القيامة فيحاسب بها عاملها (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ) بتوصل علمه إلى كل خفى (خَبِيرٌ) عالم بكنهه أولطيف باستخراجها خبير بمستقرها (يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ) فى ذات الله تعالى إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر أوعلى ماأصابك من المحن فإنها تورث المنح (إِنَّ ذَٰلِكَ) الذى وصيتك به (مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) أى مما عزمه الله من الأمور أى قطعه قطع إيجاب وإلزام أى أمر به أمرا حتما وهو من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الأمور أى مقطوعاتها ومفروضاتها وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأمورا بها فى سائر الأمم (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) أى ولا تعرض عنهم تكبرا تصاعر أبو عمرو ونافع وحمزة وعلى وهو بمعنى تصعّر والصعر داء يصيب البعير يلوى منه عنقه

والمعنى أقبل على الناس بوجهك تواضعا ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) أى تمرح مرحا أو أوقع المصدر موقع الحال أى مرحا أو ولا تمش لأجل المرح والأشر (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ) متكبر (فَخُورٍ) من يعدد مناقبه تطاولا (وَاقْصِدْ) القصد التوسط بين العلو والتقصير (فِي مَشْيِكَ) أى اعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين لاتدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثوب الشطار قال عليه السلام «سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن» وأما قول عائشة فى عمر رضى الله عنه كان إذا مشى أسرع فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت وعن ابن مسعود رضى الله عنه كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشيا بين ذلك وقيل معناه وانظر موضع قدميك متواضعا (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) وانقص منه أى اخفض صوتك (إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ) أى أوحشها (لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) لأن أوله زفير وآخره شهيق كصوت أهل النار وعن الثورى صياح كل شىء تسبيح إلا الحمار فإنه يصيح لرؤية الشيطان ولذلك سماه الله منكرا وفى تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيه على أن رفع الصوت فى غاية الكراهة يؤيده ماروى أنه عليه السلام كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت ويكره أن يكون مجهور الصوت وإنما وحد صوت الحمير ولم يجمع لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ) يعنى الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك (وَمَا فِي الْأَرْضِ) يعنى البحار والأنهار والمعادن والدواب وغير ذلك (وَأَسْبَغَ) وأتم (عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ) مدنى وأبوعمرو وسهل وحفص. نعمة غيرهم والنعمة كل نفع قصدبه الإحسان (ظَاهِرَةً) بالمشاهدة (وَبَاطِنَةً) مالايعلم إلا بدليل ثم قيل الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وماأشبه ذلك ويروى فى دعاء موسى عليه السلام: إلهى دلنى على أخفى نعمتك على عبادك فقال أخفى نعمتى عليهم النفس. وقيل تخفيف الشرائع وتضعيف الذرائع والخلق والخلق ونيل العطايا وصرف البلايا وقبول الخلق ورضا الرب وقال ابن عباس: الظاهرة ماسوى من خلقك والباطنة ماستر من عيوبك . (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ

بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ) نزلت فى النضر بن الحرث وقد مر فى الحج (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَاوَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)معناه أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أى فى حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) عدى هنا بإلى، وفى بلى من أسلم وجهه لله باللام فمعناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله أى خالصا له ومعناه مع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه والمراد التوكل عليه والتفويض إليه (وَهُوَ مُحْسِنٌ) فيما يعمل (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ) تمسك وتعلق (بِالْعُرْوَةِ) هى مايعلق به الشيء (الْوُثْقَىٰ) تأنيث الأوثق مثل حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه (وَإِلَى اللَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ) أى هى صائرة إليه فيجازى عليها (وَمَن كَفَرَ) ولم يسلم وجهه لله (فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ) من حزن، يُحزنك نافع من أحزن أى لايهمنك كفر من كفر (إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا) فنعاقبهم على أعمالهم (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) إن الله يعلم مافى صدور عباده فيفعل بهم على حسبه (نُمَتِّعُهُمْ) زماناً (قَلِيلًا) بدنياهم (ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ) نلجئهم (إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) شديد شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطر إلى الشيء والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة والمراد الشدة والثقل على المعذب (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) إلزام لهم على إقرارهم بأن الذى خلق السموات والأرض هو الله وحده وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وأن لا يعبد معه غيره ثم قال (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم يتنبهوا (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ) عن حمد الحامدين (الْحَمِيدُ) المستحق للحمد وإن لم يحمدوه. قال المشركون: إن هذا أى الوحى كلام سينفد فأعلم الله أن كلامه لا ينفد بقوله (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ) والبحر بالنصب أبو عمرو ويعقوب عطفا على اسم أن وهو ما والرفع على محل أن ومعمولها أى ولو ثبت كون الأشجار أقلاما وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر أو على الابتداء والواو للحال على معنى ولو أن الأشجار أقلام فى حال كون البحر ممدودا

وقرىء يُمِدُّه وكان مقتضى الـكلام أن يقال ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد لـكن أغنى عن ذكر المداد قوله يمده لأنه من قولك مد الدواة وأمدها جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادا فهي تصب فيه مدادها أبداً صبا لا ينقطع والمعنى ولو أن أشجار الأرض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد كقوله: قل لو كان البحر مداداً لـكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى. فإن قلت زعمت أن قوله والبحر يمده حال فى أحد وجهى الرفع وليس فيه ضمير راجع إلى ذى الحال قلت هو كقولك جئت والجيش مصطف وما أشبه ذلك من الأحوال التى حكمها حكم الظروف وإنما ذكر شجرة على التوحيد لأنه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بريت أقلاما وأوثر الـكلمات وهى جمع قلة على الـكلم وهى جمع كثرة لأن معناه أن كلماته لا تفى بكتبتها البحار فـكيف بكلمه (إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ) لا يعجزه شىء (حَكِيمٌ) لا يخرج من علمه وحكمته شىء فلا تنفد كلماته وحكمه (مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ) إلا كخلق نفس واحدة وبعث نفس واحده فحذف للعلم به أى سواء فى قدرته القليل والـكثير فلا يشغله شأن عن شأن (إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ) لقول المشركين إنه لا بعث (بَصِيرٌ) بأعمالهم فيجازيهم (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ الَّيْـلَ فِي النَّهَارِ) يدخل ظلمة الليل فى ضوء النهار إذا أقبل الليل (وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْـلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) لنافع العباد (كُلٌّ) أى كل واحد من الشمس والقمر (يَجْرِى) فى فلـكه ويقطعه (إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) إلى يوم القيامة أو إلى وقت معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر (وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) وبالياء عياش دل أيضا بتعاقب الليل والنهار وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين فى فلـكيهما على تقدير وحساب وبإحاطته بجميع أعمال الخلق على عظم قدرته وكمال حكمته (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ) بالياء عراق غير أبى بكر (مِن دُونِهِ الْبَـٰطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِىُّ الْـكَبِيرُ) أى ذلك الوصف الذى وصف به من عجائب قدرته وحكمته التى يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون فـكيف بالجماد الذى يدعونه من دون الله إنمـا هو بسبب أنه هو

الحق الثابت الإلهية وأن من دونه باطل الإلهية وأنه هو العلى الشأن الكبير السلطان (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ) وقرئ الفُلُك وكل فُعْل يجوز فيه فُعُل كما يجوز فى كل فُعُل فُعْل (تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ) بإحسانه ورحمته أو بالريح لأن الريح من نعم الله (لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِ) عجائب قدرته فى البحر إذا ركبتموها (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ) على بلائه (شَكُورٍ) لنعمائه وهاصفتا المؤمن فالإيمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر فكأنه قال إن فى ذلك لآيات لكل مؤمن (وَإِذَا غَشِيَهُم) أى الكفار (مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ) الموج يرتفع فيعود مثل الظلل والظلة كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرها (دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) أى باق على الإيمان والإخلاص الذى كان منه ولم يعد إلى الكفر أو مقتصد فى الإخلاص الذى كان عليه فى البحر يعنى أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط والمقتصد قليل نادر (وَمَا يَجْحَدُ بِئَايَٰتِنَا) أى بحقيقتها (إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ) غدار والختر أقبح الغدر (كَفُورٍ) لربه (يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ) لا يقضى عنه شيئا والمعنى لا يجزى فيه فحذف (وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا) وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه لأن الجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب فى ذلك أن الخطاب للمؤمنين وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر فأريد حسم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم بالشفاعة فى الآخرة ومعنى التأكيد فى لفظ المولود أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذى ولد منه لم تقبل شفاعته فضلا أن يشفع لأجداده إذ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك كذا فى الكشاف (إِنَّ وَعْدَ اللهِ) بالبعث والحساب والجزاء (حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا) بزينتها فإن نعمتها دانية ولذتها فانية (وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) الشيطان أو الدنيا أو الأمل (إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) أى وقت قيامها (وَيُنَزِّلُ) بالتشديد شامى ومدنى وعاصم وهو عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل تقديره إن الله يثبت عنده علم الساعة وينزل (الْغَيْثَ) فى إبانه

من غير تقديم ولا تأخير (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) أذكر أم أنثى وتام أم ناقص (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ) برة أو فاجرة (مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرا وعازمة على شر فعملت خيرا (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) أى أين تموت وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت لا أبرحها فترمى بها مرامى القدر حتى تموت فى مكان لم يخطر ببالها. روى أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل: من هذا؟ قال له ملك الموت قال كأنه يريدنى وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظرى إليه تعجبا منه لأنى أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك وجعل العلم لله والدراية للعبيد لما فى الدراية من معنى الختل والحيلة والمعنى أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختص بها ولا شىء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان معرفة ماعداهما أبعد وأما المنجم الذى يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر فى الطالع وما يدرك بالدليل لا يكون غيبا على أنه مجرد الظن والظن غير العلم وعن النبى ﷺ «مفاتح الغيب خمس» وتلا هذه الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما: من ادّعى علم هذه الخمسة فقد كذب. ورأى المنصور فى منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمسة أشهر وبخمسة أيام فقال أبو حنيفة رضى الله عنه هو إشارة إلى هذه الآية فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ) بالغيوب (خَبِيرٌ) بما كان ويكون وعن الزهرىّ رضى الله تعالى عنه: أكثروا قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب والله أعلم.

﴿سورة السجدة مكية وهى ثلاثون آية مدنى وكوفى، وتسع وعشرون آية بصرى﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(الٓمٓ) على أنها اسم السورة مبتدأ وخبره (تَنزِيلُ الْكِتَابِ) وإن جعلتها تعديدا للحروف ارتفع تنزيل بأنه خبر مبتدأ محذوف أو هو مبتدأ خبره (لَا رَيْبَ فِيهِ) أو يرتفع بالابتداء وخبره (مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) ولا ريب فيه اعتراض لا محل له والضمير فى فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل لا ريب فى ذلك أى فى كونه منزلا من رب العالمين لأنه معجز

للبشر ومثله أبعد شيء من الريب ثم أضرب عن ذلك إلى قوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) أى اختلقه محمد لأن أم هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة معناه بل أيقولون افتراه إنكارا لقولهم وتعجيبا منهم لظهور أمره فى عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه (بَلْ هُوَ الْحَقُّ) ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق (مِن رَّبِّكَ) ولم يفتره محمد ﷺ كما قالوا تعنتا وجهلا (لِتُنذِرَ قَوْمًا) أى العرب (مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ) ما للنفى والجملة صفة لقوما (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) على الترجى من رسول الله ﷺ كما كان لعله يتذكر على الترجى من موسى وهرون (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) استولى عليه بإحداثه (مَا لَكُم مِّن دُونِهِ) من دون الله (مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) أى إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليا أى ناصرا ينصركم ولا شفيعا يشفع لكم (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) تتعظون بمواعظ الله (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) أى أمر الدنيا (مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ) إلى أن تقوم الساعة (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ) ذلك الأمر كله أى يصير إليه ليحكم فيه (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ) وهو يوم القيامة (مِّمَّا تَعُدُّونَ) من أيام الدنيا ولا تمسك للمشبهة بقوله إليه فى إثبات الجهة لأن معناه إلى حيث رضاه أو أمره كما لا تشبث لهم بقوله: إنى ذاهب إلى ربى. إنى مهاجر إلى ربى. ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله (ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) أى الموصوف بما مر عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه (الْعَزِيزُ) الغالب أمره (الرَّحِيمُ) البالغ لطفه وتيسيره وقيل لا وقف عليه لأن (الَّذِي) صفته (أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ) أى حسنه لأن كل شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة (خَلَقَهُ) كوفى ونافع وسهل على الوصف أى كل شيء خلقه فقد أحسن. خَلْقه غيرهم على البدل أى أحسن خلق كل شيء (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ) آدم (مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ) ذريته (مِن سُلَالَةٍ) من نطفة (مِّن مَّاءٍ) أى منى وهو بدل من سلالة (مَّهِينٍ) ضعيف حقير (ثُمَّ سَوَّاهُ) قومه كقوله فى أحسن تقويم (وَنَفَخَ) أدخل (فِيهِ مِن رُّوحِهِ) الإضافة للاختصاص كأنه قال ونفخ فيه من الشيء الذى اختص هو به وبعلمه (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) أى تشكرون قليلا (وَقَالُوا) القائل أبى ابن خلف ولرضاهم بقوله أسند إليهم (أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) أى صرنا ترابا وذهبنا مختلطين

بتراب الأرض لاتتميز منه كما يضل الماء فى اللبن أوغبنا فى الأرض بالدفن فيها وقرأ على ضللنا بكسر اللام يقال ضل يضِل وضل يضَل وانتصب الظرف فى أئذا ضللنا بما يدل عليه (أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ) وهو نبعث (بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ) جاحدون لماذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ماهو أبلغ وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون فى العاقبة لابالبعث وحده (قُلْ يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) أى يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بقبض أرواحكم ثم ترجعون إلى ربكم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله. والتوفى استيفاء النفس وهى الروح أى يقبض أرواحكم أجمعين من قولك توفيت حقى من فلان إذا أخذته وافيا كملا من غير نقصان وعن مجاهد حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقيل ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها والله تعالى هو الآمر لذلك كله وهو الخالق لأفعال المخلوقات وهذا وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله توفته رسلنا وقوله الله يتوفى الأنفس حين موتها (وَلَوْ تَرَىٰٓ) الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ولو امتناعية والجواب محذوف أى لرأيت أمراعظيما (إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ) هم الذين قالوا أئذا ضللنا فى الأرض. ولو وإذ للمضى وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود ولا يقدر لترى مايتناوله كأنه قيل ولو تكون منك الرؤية وإذ ظرف له (نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ) من الذل والحياء والندم (عِندَ رَبِّهِمْ) عند حساب ربهم ويوقف عليه لحق الحذف إذ التقدير يقولون (رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا) صدق وعدك وعيدك (وَسَمِعْنَا) منك تصديق رسلك أو كنا عميا وصما فأبصرنا وسمعنا (فَٱرْجِعْنَا) إلى الدنيا (نَعْمَلْ صَـٰلِحًا) أى الإيمان والطاعة (إِنَّا مُوقِنُونَ) بالبعث والحساب الآن (وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا) فى الدنيا أى لو شئنا أعطينا كل نفس ماعندنا من اللطف الذى لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا لكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره وهو حجة على المعتزلة فإن عندهم شاء الله أن يعطى كل نفس مابه اهتدت وقد أعطاها لكنها لم تهتد وهم أولوا الآية بمشيئة الجبر وهو تأويل فاسد لما عرف فى تبصرة الأدلة (وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ولكن وجب

القول منى بمـا علمت أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنم وهو ما علم منهم أنهم يختارون الرد والتكذيب وفى تخصيص الإنس والجن إشارة إلى أنه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم (فَذُوقُوا) العذاب (بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ) بما تركتم من عمل لقاء (يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ) وهو الإيمان به (إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ) تركناكم فى العـذاب كالمنسى (وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ) أى العذاب الدائم الذى لا انقطاع له (بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) من الـكفر والمعاصى (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا) أى وعظوا بها (خَرُّوا سُجَّدًا) سجدوا لله تواضعاً وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام (وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) ونزهوا الله عما لا يليق به وأثنوا عليه حامدين له (وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) عن الإيمان والسجود له (تَتَجَافَىٰ) ترتفع وتتنحى (جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ) عن الفرش ومضاجع النوم . قال سهل: وهب لقوم هبة وهو أن أذن لهم فى مناجاته وجعلهم من أهل وسيلته ثم مدحهم عليه فقال تتجافى جنوبهم عن المضاجع (يَدْعُونَ) داعين (رَبَّهُمْ) عابدين له (خَوْفًا وَطَمَعًا) مفعول له أى لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم فى رحمته وهم المتهجدون وعن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعن ابن عطاء أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة وطلبت بساط القربة يعنى صلاة الليل . وعن أنس كان أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة فنزلت فيهم وقيل هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينـامون عنها (وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ) فى طاعة الله تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُمْ) ما بمعنى الذى،أخفى على حكاية النفس[(١)] حمزة ويعقوب (مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) أى لا يعلم أحد ما أعد لهؤلاء من الـكرامة (جَزَآءً) مصدر أى جوزوا جزاء (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) عن الحسن رضى الله عنه أخفى القوم أعمالا فى الدنيا فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وفيه دليل على أن المراد الصلاة فى جوف الليل ليكون الجزاء وفاقا ثم بين أن من كان فى نور الطاعة والإيمان لا يستوى مع من هو فى ظلمة الـكفر والعصيان بقوله:

(١) قوله: على حكاية النفس أى بأن يقرأ أخفى بصيغة المضارع .

(أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً) أى كافراً وهما محمولان على لفظ من وقوله (لاَّ يَسْتَوُونَ) على المعنى بدليل قوله (أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ) هى نوع من الجنان تأوى إليها أرواح الشهداء وقيل هى عن يمين العرش (نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاما (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) أى ملجؤهم ومنزلهم (كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ) أى تقول لهم خزنة النار (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر إذ التكذيب يقابل الإيمان (وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ) أى عذاب الدنيا من الأسر وما محنوا به من السنة سبع سنين (دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) أى عذاب الآخرة أى نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة وعن الدارانى: العذاب الأدنى الخذلان والعذاب الأكبر الخلود فى النيران وقيل العذاب الأدنى عذاب القبر (لَعَلَّهُمْ) لعل المعذبين بالعذاب الأدنى (يَرْجِعُونَ) يتوبون عن الكفر (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ) وعظ (بِآيَاتِ رَبِّهِ) أى بالقرآن (ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) أى فتولى عنها ولم يتدبر فيها وثم للاستبعاد أى أن الإعراض عن مثل هذه الآيات فى وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) ولم يقل منه لأنه إذا جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم فقد دل على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) التوراة (فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ) شك (مِن لِّقَائِهِ) من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى ليلة المعراج أو يوم القيامة أو من لقاء موسى ربه فى الآخرة كذا عن النبى صلى الله عليه وسلم (وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ) وجعلنا الكتاب المنزل على موسى لقومه هدى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً) بهمزتين كوفى وشامى (يَهْدُونَ) بذلك الناس ويدعونهم إلى ما فى التوراة من دين الله وشرائعه (بِأَمْرِنَا) إياهم بذلك (لَمَّا صَبَرُوا) حين صبروا على الحق بطاعة الله أو عن المعاصى لما صبروا

حمزة وعلى أى لصبرهم عن الدنيا وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس (وَكَانُوا بِآيَاتِنَا) التوراة (يُوقِنُونَ) يعلمون علما لايخالجه شك (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ) يقضى (بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) بين الأنبياء وأممهم أو بين المؤمنين والمشركين (فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) فيظهر المحق من المبطل (أَوَلَمْ) الواو للعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف أى أو لم يدع (يَهْدِ) يبين والفاعل الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب نهد (لَهُمْ) لأهل مكة (كَمْ) لايجوز أن يكون كم فاعل يهدى لأن كم للاستفهام فلا يعمل فيه ماقبله ومحله نصب بقوله (أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ) كعاد وثمود وقوم لوط (يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ) أى أهل مكة يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) المواعظ فيتعظوا (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ) نجرى المطر والأنهار (إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ) أى الأرض التى جرز نباتها أى قطع إما لعدم الماء أو لأنه رعى ولا يقال للتى لاتنبت كالسباخ جرز بدليل قوله (فَنُخْرِجُ بِهِ) بالماء (زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ) من الزرع (أَنْعَامُهُمْ) من عصفه (وَأَنفُسُهُمْ) من حبه (أَفَلَا يُبْصِرُونَ) بأعينهم فيستدلوا به على قدرته على إحياء الموتى (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ) النصر أو الفصل بالحكومة من قوله ربنا افتح بيننا وكان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين أو يفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون ذلك قالوا متى هذا الفتح أى فى أى وقت يكون (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) فى أنه كائن (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ) أى يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم أو يوم نصرهم عليهم أو يوم بدر أو يوم فتح مكة (لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) وهذا الكلام لم ينطبق جوابا على سؤالهم ظاهرا ولكن لما كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالا منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ماعرف من غرضهم فى سؤالهم فقيل لهم لاتستعجلوا به ولا تستهزئوا فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلا ينفعكم الإيمان أو استنظرتم فى إدراك العذاب فلم تنظروا ومن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر فهو يريد المقتولين منهم فإنهم لاينفعهم إيمانهم فى حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند الغرق (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ) النصرة وهلاكهم (إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ) الغلبة عليكم وهلاككم وكان عليه السلام لاينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة، وتبارك الذى بيده الملك. وقال

«من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام» وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: سورة الم تنزيل هى المانعة تمنع من عذاب القبر والله أعلم .

﴿ سورة الأحزاب مدنية وهى ثلاث وسبعون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال أبىّ بن كعب رضى الله عنه لزرّ كم تعدون سورة الأحزاب قال ثلاثا وسبعين قال فوالذى يحلف به أبىّ إن كانت لتعدل سورة البقرة أوأطول ولقد قرأنا منها آيةالرجم الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم أراد أبىّ أن ذلك من جملة مانسخ من القرآن وأما مايحكى أن تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة رضى الله عنها فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض (يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ) وبالهمز نافع أى ياأيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا المبلغ خطابنا إلىأحبابنا وإنما لم يقل يامحمد كماقال يا آدم ياموسى تشريفا له وتنويها بفضله وتصريحه باسمه فى قوله محمد رسول الله ونحوه لتعليم الناس بأنه رسول الله (اتَّقِ اللَّهَ) اثبت على تقوى الله ودم عليه وازدد منه فهو باب لايدرك مداه (وَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَالْمُنَٰفِقِينَ) ولا تساعدهم على شىء واحترس منهم فإنهم أعداء الله والمؤمنين وروى أن أبا سفيان وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السلمى قدموا المدينة بعد قتال أحد فنزلوا على عبد الله بن أبىّ وأعطاهم النبى الأمان على أن يكلموه فقالوا ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تنفع وتشفع، ووازرهم المنافقون على ذلك فهمّ المسلمون بقتلهم فنزلت أى اتق الله فى نقض العهد ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا) بخبث أعمالهم (حَكِيمًا) فى تأخير الأمر بقتالهم (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) فى الثبات على التقوى وترك طاعة الكافرين والمنافقين (إِنَّ اللَّهَ) الذى يوحى إليك (كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) أى لم يزل عالما بأعمالهم وأعمالكم وقيل إنما جمع لأن المراد بقوله اتبع هو وأصحابه وبالياء أبو عمرو أى بما يعمل الكافرون والمنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أسند أمرك إليه وكله إلى تدبيره (وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا) حافظا موكولا إليه كل أمر، وقال الزجاج لفظه وإن كان لفظ

الخبر فالمعنى اكتف بالله وكيلا (مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) أى ماجمع الله قلبين فى جوف ولا زوجية وأمومة فى امرأة ولا بنوة ودعوة فى رجل والمعنى أنه تعالى كما لم يجعل لإنسان قلبين ـ لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر فعلا من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليه وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك فذلك يؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما ظانا موقنا شاكا فى حالة واحدة ـ لم يحكم أيضا أن تكون المرأة الواحدة أمّا لرجل زوجا له لأن الأم مخدومة والمرأة خادمة وبينهما منافاة وأن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له لأن البنوة أصالة فى النسب والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير ولا يجتمع فى الشيء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل وهذا مثل ضربه الله تعالى فى زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبى صغيرا فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له فطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه وكانوا يقولون زيد بن محمد فلما تزوج النبى ﷺ زينب وكانت تحت زيد قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه فأنزل الله هذه الآية وقيل كان المنافقون يقولون لمحمد قلبان قلب معكم وقلب مع أصحابه وقيل كان أبو معمر أحفظ العرب فقيل له ذو القلبين فأكذب الله قولهم وضربه مثلا فى الظهار والتبنى. والتنكير فى رجل وإدخال من الاستغراقية على قلبين وذكر الجوف للتأكيد اللائى بياء بعد الهمزة حيث كان كوفى وشامى، اللاء نافع ويعقوب وسهل وهى جمع التى تُظاهِرون عاصم من ظاهر إذا قال لامرأته أنت على كظهر أمى تَظَاهَرون على وحمزة وخلف تَظَّاهرون شامى من اظّاهر بمعنى تظاهر غيرهم تَظَّهَّرون من اظَّهّر بمعنى تظهّر وعدى بمن لتضمنه معنى البعد لأنه كان طلاقا فى الجاهلية ونظيره آلى من امرأته لما ضمن معنى التباعد عدى بمن وإلا فآلى فى أصله الذى هو معنى حلف وأقسم ليس هذا بحكمه والدعى فعيل بمعنى مفعول وهو الذى يدعى ولدا وجمع على أفعلاء شاذا لأن بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقى وأتقياء وشقى وأشقياء ولا يكون ذلك فى نحو رمىّ وسمىّ للتشبيه اللفظى (ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ) أى أن قولكم للزوجة هى أم وللدعى هو ابن قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له إذ الابن يكون بالولادة وكذا الأم (وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ) أى ماحق ظاهره وباطنه

(وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) أى سبيل الحق ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ماهو سبيل الحق وهو قوله (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ) أعدل (عِندَ اللهِ) وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين فى القسط والعدل وقيل كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه ولدالرجل ضمه إلى نفسه وجعل لهمثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب إليه فيقال فلان بن فلان ثم انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجملة الطلبية ثم فصل الخبرية عنها ووصل بينها ثم فصل الاسمية عنها ووصل بينها ثم فصل بالطلبية (فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ) فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم (فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ) اى فهم إخوانكم فى الدين وأولياؤكم فى الدين فقولوا هذا أخى وهذا مولاى ويا أخى ويا مولاى يريد الأخوة فى الدين والولاية فيه (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ) أى لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهى (وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) ولكن الإثم عليكم فيما تعمدتموه بعد النهى . أولا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يابنى على سبيل الخطإ وسبق اللسان ولكن إذا قلتموه متعمدين ومافى موضع الجر عطف على ماالأولى ويجوز أن يراد العفو عن الخطإ دون العمد على سبيل العموم ثم تناول لعمومه خطأ التبنى وعمده وإذا وجد التبنى فإن كان المتبنى مجهول النسب وأصغر سنا منه ثبت نسبه منه وعتق إن كان عبدا له وإن كان أكبر سنا منه لم يثبت النسب وعتق عند أبى حنيفة رضى الله عنه وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبنى وعتق إن كان عبدا (وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) لا يؤاخذكم بالخطإ ويقبل التوبة من المتعمد (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) أى أحق بهم فى كل شىء من أمور الدين والدنيا وحكمه أنفذ عليهم من حكمها فعليهم أن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه أو هو أولى بهم أى أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله بالمؤمنين رؤف رحيم وفى قراءة ابن مسعود النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقال مجاهد كل نبى أبو أمته ولذلك صار المؤمنون إخوة لأن النبى ﷺ أبوهم فى الدين (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) فى تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن وهن فيما وراء ذلك كالإرث ونحوه كالأجنبيات ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) وذوو القرابات (بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) فى

التوارث وكان المسلمون فى صدر الإسلام يتوارثون بالولاية فى الدين وبالهجرة لا بالقرابة ثم نسخ ذلك وجعل التوارث بحق القرابة (فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ) فى حكمه وقضائه أو فى اللوح المحفوظ أو فيما فرض الله (مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ) يجوز أن يكون بيانا لأولى الأرحام أى الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضا من الأجانب وأن يكون لابتداء الغاية أى أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين أى الأنصار بحق الولاية فى الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة (إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا) الاستثناء من خلاف الجنس أى لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفا جائز وهو أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشىء فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث وعدى تفعلوا بإلى لأنه فى معنى تسدوا والمراد بالأولياء المؤمنون والمهاجرون للولاية فى الدين (كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا) أى التوارث بالأرحام كان مسطورا فى اللوح (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ) واذكر حين أخذنا من النبيين ميثاقهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم (وَمِنكَ) خصوصا وقدم رسول الله على نوح ومن بعده لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء لأنهم أولو العزم وأصحاب الشرائع فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء قدم عليهم ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه (وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا) وثيقا وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه وإنما فعلنا ذلك (لِّيَسْـَٔلَ) الله (ٱلصَّـٰدِقِينَ) أى الأنبياء (عَن صِدْقِهِمْ) عما قالوه لقومهم أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم لأن من قال للصادق صدقت كان صادقا فى قوله أو ليسأل الأنبياء ما الذى أجابتهم أممهم وهو كقوله يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم (وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ) بالرسل (عَذَابًا أَلِيمًا) وهو عطف على أخذنا لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين وأعد للكافرين عذابا أليما أو على ما دل عليه ليسأل الصادقين كأنه قال فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ) أى ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق وكان بعد حرب أحد بسنة (إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ) أى الأحزاب وهم قريش وغطفان وقريظة والنضير (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا) أى الصبا قال عليه السلام «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» (وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) وهم الملائكة وكانوا ألفا بعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة

شاتية فأخصرتهم وأسفت التراب فى وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فانهزموا من غير قتال وحين سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنسوان فرفعوا فى الآطام واشتد الخوف وكانت قريش قد أقبلت فى عشرة آلاف من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وخرج غطفان فى ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن وعامر ابن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق والثبات على معاونة النبى ﷺ ﴿بَصِيرًا﴾ وبالياء أبو عمرو أى بما يعمل الكفار من البغى والسعى فى إطفاء نور الله ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ﴾ بدل من إذ جاءتكم ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أى من أعلى الوادى من قبل المشرق بنو غطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفل الوادى من قبل المغرب قريش ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة أو عدلت عن كل شىء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ الحنجرة رأس الغلصمة وهى منتهى الحلقوم والحلقوم مدخل الطعام والشراب قالوا إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة. روى أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ هل من شىء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر قال «نعم قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا» ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ خطاب للذين آمنوا ومنهم الثبت القلوب والأقدام والضعاف القلوب الذين هم على حرف والمنافقون فظن الأولون بالله أنه يبتليهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم. قرأ أبو عمرو وحمزة الظنون بغير ألف فى الوصل والوقف وهو القياس وبالألف فيهما مدنى وشامى وأبو بكر إجراء للوصل مجرى الوقف وبالألف فى الوقف مكى وعلى وحفص ومثله الرسولا والسبيلا زادوها فى الفاصلة كما زادها فى القافية من قال: أقلى اللوم عاذل والعتابا *

وهن كلهن فى الإمام بالألف (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ) امتحنوا بالصبر على الإيمان (وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) وحركوا بالخوف تحريكا بليغاً (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ) عطف على الأول (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) قيل هو وصف المنافقين بالواو كقوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وقيل هم قوم لا بصيرة لهم فى الدين كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم (مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) روى أن معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لايقدر أن يتبرز فرقا ما هذا إلا وعد غرور (وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ) من المنافقين وهم عبد الله بن أبى وأصحابه (يَا أَهْلَ يَثْرِبَ) هم أهل المدينة (لَا مُقَامَ لَكُمْ) وبضم الميم حفص أى لاقرار لكم ههنا ولا مكان تقومون فيه أو تقيمون (فَارْجِعُوا) عن الإيمان إلى الكفر أو من عسكر رسول الله إلى المدينة (وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ) أى بنو حارثة (يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ) أى ذات عورة (وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا) العورة الخلل والعورة ذات العورة وهى قراءة ابن عباس يقال عور المكان عوراً إذا بدا منه خلل يخاف منه العدو والسارق ويجوز أن يكون عوْرة تخفيف عورة اعتذروا أن بيوتهم عرضة للعدو والسارق لأنها غير محصنة فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا إليه فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك وإنما يريدون الفرار من القتال (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم) المدينة أو بيوتهم من قولك دخلت على فلان داره (مِّنْ أَقْطَارِهَا) من جوانبها أى ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التى يفرون خوفا منها مدينتهم أو بيوتهم من نواحيها كلها وانثالت على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين (ثُمَّ سُئِلُوا) عند ذلك الفزع (الْفِتْنَةَ) أى الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين (لَآتَوْهَا) لأعطوها . لأتوها بلا مد حجازى أى لجاءوها وفعلوها (وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا) بإجابتها (إِلَّا يَسِيرًا) ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف أو ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيراً فإن الله يهلكهم والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملئوهم هولا ورعبا وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين لسارعوا إليه وما تعللوا بشىء

وما ذلك إلا لمقتهم الإسلام وحبهم الكفر (وَلَقَدْ كَانُوا عَٰهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ) أى بنو حارثة من قبل الخندق أو من قبل نظرهم إلى الأحزاب (لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَٰرَ) منهزمين (وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا) مطلوباً مقتضى حتى يوفى به (قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) أى إن كان حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار وإن لم يحضر وفررتم لم تمتعوا فى الدنيا إلا قليلا وهو مدة أعماركم وذلك قليل وعن بعض المروانية أنه مر بحائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية فقال ذلك القليل نطلب (قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ) أى مما أراد الله إنزاله بكم (إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا) فى أنفسكم من قتل أو غيره (أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) أى إطالة عمر فى عافية وسلامة أى من يمنع الله من أن يرحمكم إن أراد بكم رحمة لمافى العصمة من معنى المنع (وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) ناصراً (قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ) أى من يعوق عن نصرة رسول الله ﷺ أى يمنع وهم المنافقون (وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ) فى الظاهر من المسلمين (هَلُمَّ إِلَيْنَا) أى قربوا أنفسكم إلينا ودعوا محمداً وهى لغة أهل الحجاز فإنهم يسوون فيه بين الواحد والجماعة وأما تميم فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال وهو صوت سمى به فعل متعد نحو أحضر وقرّب (وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ) أى الحرب (إِلَّا قَلِيلًا) إلا إتيانا قليلا أى يحضرون ساعة رياء ويقفون قليلا مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون (أَشِحَّةً) جمع شحيح وهو البخيل نصب على الحال من الضمير فى يأتون أى يأتون الحرب بخلاء (عَلَيْكُمْ) بالظفر والغنيمة (فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ) من قبل العدو أو منه عليه السلام (رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ) فى تلك الحالة (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ) يمينا وشمالا (كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخوفا ولواذا بك (فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ)زال ذلك الخوف وأمنوا وحيزت الغنائم (سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ)خاطبوكم مخاطبة شديدة وآذوكم بالكلام. خطيب مِسْلق فصيح ورجل مسلاق مبالغ فى الكلام أى يقولون وفرّوا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم (أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ) أى خاطبوكم أشحة على المال والغنيمة وأشحة حال من فاعل سلقوكم (أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا) فى الحقيقة بل بالألسنة (فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَٰلَهُمْ)أبطل بإضمارهم الكفر ما أظهروه

من الأعمال (وَكَانَ ذَٰلِكَ) إحباط أعمالهم (عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) هينا (يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا) أى لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ولم ينصرفوا مع أنهم قد انصرفوا (وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ) كرة ثانية (يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ) البادون جمع البادى أى يتمنى المنافقون لجبنهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية حاصلون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم ويمتزلوا مما فيه الخوف من القتال (يَسْأَلُونَ) كل قادم منهم من جانب المدينة (عَنْ أَنبَائِكُمْ) عن أخباركم وعما جرى عليكم (وَلَوْ كَانُوا فِيكُم) ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال (مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا) رياء وسمعة (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) بالضم حيث كان عاصم أى قدوة وهو المؤتسى به أى المقتدى به كما تقول فى البيضة عشرون منا حديدا أى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد أو فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها حيث قاتل بنفسه (لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) أى يخاف الله ويخاف اليوم الآخر أو يأمل ثواب الله ونعيم اليوم الآخر قالوا لمن بدل من لكم وفيه ضعف لأنه لا يجوز البدل من ضمير المخاطب وقيل لمن يتعلق بحسنة أى أسوة حسنة كائنة لمن كان (وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) أى فى الخوف والرجاء والشدة والرخاء (وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ) وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه بقوله أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم إلى قوله قريب فلما جاء الأحزاب واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد (قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) وعلموا أن الغلبة والنصرة قد وجبت لهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال لأصحابه إن الأحزاب سائرون إليكم فى آخر تسع ليال أو عشر فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك وهذا إشارة إلى الخطب والبلاء (وَمَا زَادَهُمْ) ما رأوا من اجتماع الأحزاب عليهم ومجيئهم (إِلَّا إِيمَانًا) بالله وبمواعيده (وَتَسْلِيمًا) لقضائه وقدره (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) أى فيما عاهدوه عليه فحذف الجار كما فى المثل صدقنى سن بكره أى صدقنى فى سن بكره بطرح الجار وإيصال الفعل. نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة وسعد بن زيد وحمزة ومصعب وغيرهم (فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ) أى مات شهيدا كحمزة ومصعب. وقضاء

النحب صار عبارة عن الموت لأن كل حي من المحدثات لابد له أن يموت فكأنه نذر لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي نذره (وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ) الموت أي على الشهادة كعثمان وطلحة (وَما بَدَّلُوا) العهد (تَبْدِيلًا) ولا غيروه لاالمستشهد ولا من ينتظر الشهادة وفيه تعريض لمن بدلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب كما مر في قوله تعالى: ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار (لِّيَجْزِيَ اللهُ الصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ) بوفائهم بالعهد (وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ) إذا لم يتوبوا (أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) إن تابوا (إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا) بقبول التوبة (رَّحِيمًا) بعفو الحوبة. جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنهما استويا في طلبها والسعي في تحصيلها (وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) الأحزاب (بِغَيْظِهِمْ) حال أي مغيظين كقوله تنبت بالدهن (لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) ظفروا أي لم يظفروا بالمسلمين وسماه خيرا بزعمهم وهو حال أي غير ظافرين (وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) بالريح والملائكة (وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) قادرا غالبا (وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم) عاونوا الأحزاب (مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ) من بني قريظة (مِن صَيَاصِيهِمْ) من حصونهم الصيصية ما تحصن به روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم، على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج فقال ماهذا ياجبريل قال من متابعة قريش فقال يارسول الله إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم فإن الله داقهم دق البيض على الصفا وإنهم لكم طعمة فأذن في الناس أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة فقال رسول الله ﷺ تنزلون على حكمي فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فقال سعد حكمت فيهم إن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم فكبر النبي ﷺ وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقا وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير (وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) الخوف وبضم العين شامي وعلي ونصب

(فَرِيقًا) بقوله (تَقْتُلُونَ) وهم الرجال (وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) وهم النساء والذرارى (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ) أى المواشى والنقود والأمتعة روى أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال لهم إنكم فى منازلكم (وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا) بقصد القتال وهى مكة أو فارس والروم أو خيبر أو كل أرض تفتح إلى يوم القيامة (وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا) قادرا (يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) أى السعادة فى الدنيا وكثرة الأموال (فَتَعَالَيْنَ) أصل تعال أن يقوله من فى المكان المرتفع لمن فى المكان المستوطئ ثم كثر حتى استوى فى استعماله الأمكنة ومعنى تعالين أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين ولم يرد نهوضهن إليه بأنفسهن كقوله قام يهددنى (أُمَتِّعْكُنَّ) أعطكن متعة الطلاق وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوضة قبل الوطء (وَأُسَرِّحْكُنَّ) وأطلقكن (سَرَاحًا جَمِيلًا) لاضرار فيه أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايرن فغم ذلك رسول الله ﷺ فنزلت فبدأ بعائشة رضى الله عنها وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤى الفرح فى وجه رسول الله ﷺ ثم اختار جميعهن اختيارها وروى أنه قال لعائشة إنى ذاكر لك أمرا ولا عليك أن لا تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت أفى هذا أستأمر أبوى فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخره وحكم التخيير فى الطلاق أنه إذا قال لها اختارى فقالت اخترت نفسى أن تقع تطليقة بائنة وإذا اختارت زوجها لم يقع شىء وعن على رضى الله عنه إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة (وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ) من للبيان لا للتبعيض (أَجْرًا عَظِيمًا يَـٰنِسَآءَ النَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ) سيئة بليغة فى القبح (مُّبَيِّنَةٍ) ظاهر فحشها . من بيّن بمعنى تبين وبفتح الياء مكى وأبو بكر قيل هى عصيانهن رسول الله ﷺ ونشوزهن وقيل الزنا والله عاصم رسوله من ذلك (يُضَـٰعَفْ لَهَا الْعَذَابُ) يضعف لها العذابَ مكى وشامى يضعّف أبو عمرو ويزيد ويعقوب (ضِعْفَيْنِ) ضعفى عذاب غيرهن من النساء لأن ماقبح من سائر النساء كان أقبح منهن فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبى ﷺ ولذا كان الذم للعاصى العالم أشد من العاصى

الجاهل لأن المعصية من العالم أقبح ولذا فضل حد الأحرار على العبيد ولا يرجم الكافر (وَكَانَ ذَٰلِكَ) أى تضعيف العذاب عليهن (عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) هينا (وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) القنوت الطاعة (وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ) وبالياء فيهما حمزة وعلى (أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ) مثلى ثواب غيرها (وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا) جليل القدر وهو الجنة (يَٰنِسَآءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ) أى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل. وأحد فى الأصل بمعنى وحد وهو الواحد ثم وضع فى النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه (إِنِ اتَّقَيْتُنَّ) إن أردتن التقوى أو إن كنتن متقيات (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ) أى إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب فلا تجئن بقولكن خاضعا أى لينا خنثا مثل كلام المريبات (فَيَطْمَعَ) بالنصب على جواب النهى (الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ) ريبة وفجور (وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا) حسنا مع كونه خشنا (وَقَرْنَ) مدنى وعاصم غير هبيرة وأصله اقررن فحذفت الراء تخفيفا وألقيت فتحتها على ماقبلها أو من قار يقار إذا اجتمع والباقون قرن من وقر يقر وقاراً أو من قر يقر حذفت الأولى من راءى اقررن فرارا من التكرار ونقلت كسرتها إلى القاف (فِى بُيُوتِكُنَّ) بضم الباء بصرى ومدنى وحفص (وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَٰهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ) أى القديمة والتبرج التبختر فى المشى وإظهار الزينة والتقدير ولا تبرجن تبرجاً مثل تبرج النساء فى الجاهلية الأولى وهى الزمان الذى ولد فيه إبراهيم أو مابين آدم ونوح عليهما السلام أو زمن داود وسليمان والجاهلية الأخرى مابين عيسى ومحمد عليهما السلام أو الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام (وَأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ الزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) خص الصلاة والزكاة بالأمر ثم عم بجميع الطاعات تفضيلا لهما لأن من واظب عليهما جرتاه إلى ماوراءهما (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) نصب على النداء أو على المدح وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته. وقال: عنكم، لأنه أريد الرجال والنساء من آله بدلالة (وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) من نجاسة الآثام ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم وليتصونوا

عنها بالتقوى واستعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهر لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس وأما المحسنات فالعرض منها نقى كالثوب الطاهر وفيه تنفير لأولى الألباب عن المناهى وترغيب لهم فى الأوامر ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ أى السنة أو بيان معانى القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالما بغوامض الأشياء ﴿خَبِيرًا﴾ عالما بحقائقها أى هو عالم بأفعالكن وأقوالكن فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ومعصية رسوله. ولما نزل فى نساء النبى ﷺ ما نزل قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شىء، فنزلت ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَٰتِ﴾ المسلم الداخل فى السلم بعد الحرب المنقاد الذى لا يعاند أو المفوض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به ﴿وَالْمُؤْمِنَٰتِ وَالْقَٰنِتِينَ﴾ القائمين بالطاعة ﴿وَالْقَٰنِتَٰتِ وَالصَّٰدِقِينَ﴾ فى النيات والأقوال والأعمال ﴿وَالصَّٰدِقَٰتِ وَالصَّٰبِرِينَ وَالصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات وعن السيئات ﴿وَالْخَٰشِعِينَ﴾ المتواضعين لله بالقلوب والجوارح أو الخائفين ﴿وَالْخَٰشِعَٰتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ فرضا ونفلا ﴿وَالصَّٰئِمِينَ وَالصَّٰئِمَٰتِ﴾ فرضا ونفلا وقيل من تصدق فى كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين ﴿وَالْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عما لا يحل ﴿وَالْحَٰفِظَٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر والمعنى والحافظات فروجهن ﴿وَالذَّٰكِرَٰتِ﴾ الله فحذف لدلالة ما تقدم عليه والفرق بين عطف الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين لأن الأول نظير قوله ثيبات وأبكارا فى أنهما جنسان مختلفان واشتركا فى حكم واحد فلم يكن بد من توسط العاطف بينهما وأما الثانى فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع ومعناه أن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعاتهم. خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله فنزلت ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أى وما صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أى رسول الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور

﴿ أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه واختيارهم تلوا لاختياره فقالا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها وإنما جمع الضمير فى لهم وإن كان من حقه أن يوحد لأن المذكورين وقعا تحت النفى فعما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير إلى المعنى لا إلى اللفظ ويكون بالياء كوفى ، والخيرة ما يتخير ودل ذلك على أن الأمر للوجوب ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً ﴾ فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال وكفر وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطإ وفسق ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام الذى هو أجل النعم ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالإعتاق والتبنى فهو متقلب فى نعمة الله ونعمة رسوله وهو زيد بن حارثة ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ زينب بنت جحش وذلك أن رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه فوقعت فى نفسه فقال: سبحان الله مقلب القلوب، وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن وألقى الله فى نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أريد أن أفارق صاحبتى، فقال: مالك أرابك منها شىء ؟ قال لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذينى فقال له: أمسك عليك زوجك ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ فلا تطلقها. وهو نهى تنزيه إذ الأولى أن لا يطلق أو واتق الله فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ أى تخفى فى نفسك نكاحها إن طلقها زيد وهو الذى أبداه الله تعالى وقيل الذى أخفى فى نفسه تعلق قلبه بها ومودة مفارقة زيد إياها. والواو فى وتخفى فى نفسك ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ أى قالة الناس إنه نكح امرأة ابنه ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ واو الحال أى تقول لزيد أمسك عليك زوجك مخفيا فى نفسك إرادة أن لا يمسكها وتخفى خاشيا قالة الناس وتخشى الناس حقيقا فى ذلك بأن تخشى الله. وعن عائشة رضى الله عنها لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه لكتم هذه الآية ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً ﴾ الوطر الحاجة فإذا بلغ البالغ حاجته من شىء له فيه همة قيل قضى منه وطره والمعنى فلما لم يبق لزيد فيها حاجة وتقاصرت عنها همته وطلقها وانقضت عدتها ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ روى أنها لما اعتدت قال رسول الله ﷺ لزيد: ما أجد

أحداً أوثق فى نفسى منك: أخطب علىّ زينب . قال زيد فانطلقت وقلت يا زينب أبشرى إن رسول الله ﷺ يخطبك ففرحت وتزوجها رسول الله ﷺ ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار (لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) قيل قضاء الوطر إدراك الحاجة وبلوغ المراد منه (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ) الذى يريد أن يكونه (مَفْعُولاً) مكوناً لا محالة وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب (مَّا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ) أحل له وأمر له وهو نكاح زينب امرأة زيد أوقدر له من عدد النساء (سُنَّةَ اللهِ) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم ترابا وجندلا مؤكد لقوله ما كان على النبي من حرج كأنه قيل سن الله ذلك سنة فى الأنبياء الماضين وهو أن لا يحرج عليهم فى الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره وقد كانت تحتهم المهائر والسرارى وكانت لداود مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان ثلثمائة حرة وسبعمائة سرية (فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ) فى الأنبياء الذين مضوا من قبل (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) قضاء مقضيا وحكما مبتوتا ، ولا وقف عليه إن جعلت (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ اللهِ) بدلا من الذين الأول، وقفْ إن جملته فى محل الرفع أو النصب على المدح أى هم الذين يبلغون أو أعنى الذين يبلغون (وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ) وصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله تعريض بعد التصريح فى قوله وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا) كافياً للمخاوف ومحاسباً على الصغيرة والكبيرة فكان جديراً بأن تخشى منه (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) أى لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح والمراد من رجالكم البالغين والحسن والحسين لم يكونا بالغين حينئذ والطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم توفوا صبيانا (وَلَٰكِن) كان (رَّسُولَ اللهِ) وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا فى سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء، وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة فكان حكمه كحكم والتبنى

من باب الاختصاص والتقريب لاغير (وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) بفتح التاء عاصم بمعنى الطابع أى آخرهم يعنى لاينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمد ﷺ كأنه بعض أمته وغيره بكسر التاء بمعنى الطابع وفاعل الختم. وتقوّيه قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) أثنوا عليه بضروب الثناء وأكثروا ذلك (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً) أول النهار (وَأَصِيلًا) آخر النهار وخصا بالذكر لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما وعن قتادة قولوا سبحان الله والحمدلله ولاإله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والفعلان أى اذكروا الله وسبحوه موجهان إلى البكرة والأصيل كقولك صم وصل يوم الجمعة والتسبيح من جملة الذكر وإنما اختص من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة إبانة لفضله على سائر الأذكار لأن معناه تنزيه ذاته عما لايجوز عليه من الصفات وجاز أن يراد بالذكر وإكثاره تكثير الطاعات والعبادات فإنها من جملة الذكر ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وهى صلاة الفجر وأصيلا وهى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء أوصلاة الفجر والعشاءين (هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ) لما كان من شأن المصلى أن ينعطف فى ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوا عليه وترؤفا كعائد المريض فى انعطافه عليه والمرأة فى حنوها على ولدها ثم كثر حتى استعمل فى الرحمة والترؤف ومنه قولهم صلى الله عليك أى ترحم عليك وترأف والمراد بصلاة الملائكة قولهم اللهم صل على المؤمنين جعلوا لكونهم مستجابى الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة والمعنى هوالذى يترحم عليكم ويترأف حين يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة (لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) هو دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة وروى أنه لما نزل إن الله وملائكته يصلون على النبى قال أبو بكر ماخصك الله يارسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فنزلت (تَحِيَّتُهُمْ) من إضافة المصدر إلى المفعول أى تحية الله لهم (يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ) يرونه (سَلَامٌ) يقول الله تبارك وتعالى السلام عليكم (وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)

يعنى الجنة (يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا) على من بعثت إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم أى مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم كما يقبل قول الشاهد العدل فى الحكم وهو حال مقدرة كما تقول مررت برجل معه صقر صائدا به أى مقدرا به الصيد غدا (وَمُبَشِّرًا) للمؤمنين بالجنة (وَنَذِيرًا) للكافرين بالنار (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ) بأمره أو بتيسيره والكل منصوب على الحال (وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) جلا به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به والجمهور على أنه القرآن فيكون التقدير وذا سراج منير أو وتاليا سراجا منيرا ووصف بالإنارة لأن من السرج مالا يضىء إذا قل سليطه ودقت فتيلته أو شاهدا بوحدانيتنا ومبشرا برحمتنا ونذيرا بنقمتنا وداعيا إلى عبادتنا وسراجا وحجة ظاهرة لحضرتنا (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا) ثوابا عظيما (وَلَا تُطِعِ الْكَـٰفِرِينَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ) المراد به التهييج أو الدوام والثبات على ما كان عليه (وَدَعْ أَذَىٰهُمْ) هو بمعنى الإيذاء فيحتمل أن يكون مضافا إلى الفاعل أى اجعل إيذاءهم إياك فى جانب ولا تبال بهم ولا تخف من إيذائهم أو إلى المفعول أى دع إيذاءك إياهم مكافأة لهم (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) فإنه يكفيكهم (وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا) وكفى به مفوضا إليه وقيل إن الله تعالى وصفه بخمسة أوصاف وقابل كلا منها بخطاب مناسب له قابل الشاهد بقوله وبشر المؤمنين لأنه يكون شاهدا على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم وهو الفضل الكبير والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين وهو مناسب للبشارة والنذير بدع أذاهم لأنه إذا ترك أذاهم فى الحاضر والأذى لابد له من عقاب عاجل أو آجل كانوا منذرين به فى المستقبل والداعى إلى الله بتيسيره بقوله وتوكل على الله فإن من توكل على الله يسر عليه كل عسير والسراج المنير بالاكتفاء به وكيلا لأن من أناره الله برهانا على جميع خلقه كان جديرا بأن يكتفى به عن جميع خلقه (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَـٰتِ) أى تزوجتم والنكاح هو الوطء فى الأصل وتسمية العقد نكاحا للابسته له من حيث إنه طريق إليه كتسمية الخمر إثما لأنها سببه وكقول الراجز * أسنمة الآبال فى سحابه * سمى الماء بأسنمة الآبال لأنه سبب سمن الآبال وارتفاع أسنمتها ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله تعالى إلا فى معنى العقد لأنه فى معنى الوطء من باب

التصريح به ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشى والإتيان وفى تخصيص المؤمنات مع أن الكتابيات تساوى المؤمنات فى هذا الحكم إشارة إلى أن الأولى بالمؤمن أن ينكح مؤمنة (ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ) والخلوة الصحيحة كالمس (فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا) فيه دليل على أن العدة تجب على النساء للرجال ومعنى تعتدونها تستوفون عددها تفتعلون من العد (فَمَتِّعُوهُنَّ) والمتعة تجب للتى طلقها قبل الدخول بها ولم يسم لها مهر دون غيرها (وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا) أى لاتمسكوهن ضرارا وأخرجوهن من منازلكم إذ لا عدة لكم عليهن (يَٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ الَّٰتِى ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ) مهورهن إذ المهر أجر على البضع ولهذا قال الكرخى : إن النكاح بلفظ الإجارة جائز. وقلنا التأبيد من شرط النكاح والتأقيت من شرط الإجارة وبينهما منافاة وإيتاؤها إعطاؤها عاجلا أو فرضها وتسميتها فى العقد (وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَآءَ اللَّهُ عَلَيْكَ) وهى صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما (وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ الَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ) ومع ليس للقران بل لوجودها فحسب كقوله وأسلمت مع سليمان وعن أم هانئ بنت أبى طالب خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت فعذرنى فأنزل الله هذه الآية، فلم أحل له لأنى لم أهاجر معه (وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ) وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطلب مهرا من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك ولذا نكرها قال ابن عباس هو بيان حكم فى المستقبل ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة وقيل الواهبة نفسها ميمونة بنت الحرث أوزينب بنت خزيمة أو أم شريك بنت جابر أو خولة بنت حكيم وقرأ الحسن أن بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه بغير إن (إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا) استنكاحها طلب نكاحها والرغبة فيه وقيل نكح واستنكح بمعنى والشرط الثانى تقييد للشرط الأول شرط فى الإحلال هبتها نفسها وفى الهبة إرادة استنكاح رسول الله ﷺ كأنه قال أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها لأن إرادته هى قبول الهبة ومابه تتم وفيه دليل جواز النكاح بلفظ الهبة لأن رسول الله ﷺ وأمته سواء فى الأحكام إلا فيما خصه

الدليل (خَالِصَةً) بلا مهر حال من الضمير فى وهبت أومصدرمؤكد أى خلص لك إحلال ماأحللنا لك خالصة بمعنى خلوصا والفاعلة فى المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة (لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) بل يجب المهر لغيرك وإن لم يسمه أو نفاه. عدل عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله إن أراد النبي ثم رجع إلى الخطاب ليؤذن أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوة وتكريره أى تكرير النبي تفخيم له (قَدْ عَلِمْنَا مَافَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ) أى ما أوجبنا من المهور على أمتك فى زوجاتهم أو ما أوجبنا عليهم فى أزواجهم من الحقوق (وَمَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) بالشراءوغيره من وجوه الملك وقوله (لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ)ضيق متصل بخالصة لكمن دون المؤمنين وقوله قد علمنا مافرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم جملة اعتراضية (وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) بالتوسعة على عباده (تُرْجِي) بلا همز مدنى وحمزة وعلى وخلف وحفص وبهمز غيرهم: تؤخر(مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ) تضم بمعنىتترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء أو لاتقسم لأيتهن شئت وتقسم لمن شئت أوتترك تزوج من شئت من نساءأمتكوتتزوّج من شئت وهذهقسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق وعزل فإما أن يخلى المعزولة لايبتغيها أويبتغيها. وروى أنه أرجى منهن جويريةوسودةوصفية وميمونة وأم حبيبة وكان يقسم لهن ماشاء كما شاء وكانت ممن آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب أرجى خمسا وآوى أربعا، وروى أنه كان يسوى مع ماأطلق له وخير فيه إلاسودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت لاتطلقنى حتى أحشر فىزمرة نسائك (وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ)أى ومن دعوت إلى فراشك وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء فلا ضيق عليك فى ذلك أى ليس إذا عزلتها لم يجزلك ردها إلى نفسك. ومن رفع بالابتداء وخبره فلا جناح (ذَٰلِكَ) التفويض إلى مشيئتك (أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ) أى أقرب إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعا لأنهن إذاعلمن أن هذا التفويض من عند الله اطمأنت نفوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا وقرت

العيون. كلهن بالرفع تأكيد لنون يرضين وقرىء ويرضين كلهن بما آتيتهن على التقديم وقرىء شاذا كلهن بالنصب تأكيدا لهن فى آتيتهن ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله من ذلك وفوض إلى مشيئة رسوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بذات الصدور ﴿ حَلِيمًا ﴾ لايعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يتقى ويحذر ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ﴾ بالتاء أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتذكير لأن تأنيث الجمع غير حقيقى وإذا جاز بغير فصل فمع الفصل أجوز ﴿ مِن بَعْدُ ﴾ من بعد التسع لأن التسع نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج كما أن الأربع نصاب أمته ﴿ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ بالطلاق والمعنى وأن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا أخر بكلهن أو بعضهن كرامة لهن وجزاء على مااخترن و رضين فقصر رسول الله ﷺ عليهن وهن التسع التى مات عنهن: عائشة حفصة أم حبيبة سودة أم سلمة صفية ميمونة زينب بنت جحش جويرية. ومن فى من أزواج لتأكيد النفى وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ فى موضع الحال من الفاعل وهو الضمير فى تبدلَ أى تتبدل لامن المفعول الذى هو من أزواج لتوغله فى التنكير وتقديره مفروضا إعجابك بهن وقيل هى أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبى طالب فإنها ممن أعجبه حسنهن وعن عائشة وأم سلمة مامات رسول الله ﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء ماشاء يعنى أن الآية نسخت ونسخها إما بالسنة أو بقوله إنا أحللنا لك أزواجك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ استثنى ممن حرم عليه الإماء ومحل مارفع بدل من النساء ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ حافظا وهو تحذير عن مجاوزة حدوده ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ أن يؤذن لكم فى موضع الحال أى لاتدخلوا إلا مأذونا لكم أو فى معنى الظرف تقديره إلا وقت أن يؤذن لكم وغير ناظرين حال من لاتدخلوا وقع الاستثناء على الحال والوقت معا كأنه قيل لاتدخلوا بيوت النبى إلا وقت الإذن ولا تدخلوها إلا غير ناظرين أى غير منتظرين وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون و يقعدون منتظرين لإدراكه ومعناه لاتدخلوا ياأيها المتحينون للطعام إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين

إناه وإنى الطعام إدراكه يقال أنى الطعام إنًى كقولك قلاه قلى وقيل إناه وقته أى غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله وروى أن النبي ﷺ أولم على زينب بتمر وسويق وشاة وأمر أنسا أن يدعو بالناس فترادفوا أفواجا يأكل فوج ويخرج ثم يدخل فوج إلى أن قال يارسول الله دعوت حتى ماأجد أحداً أدعوه فقال «ارفعوا طعامكم» وتفرق الناس وبقى ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا فطاف رسول الله ﷺ بالحجرات وسلم عليهن ودعون له ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان رسول الله ﷺ شديد الحياء فتولى فلما رأوه متوليا خرجوا فرجع ونزلت (وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا) فتفرقوا (وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) هو مجرور معطوف على ناظرين أو منصوب أى ولا تدخلوها مستأنسين نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به (إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ) من إخراجكم (وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) يعنى أن إخراجكم حق ماينبغى أن يستحيا منه ولما كان الحياء مما يمنع الحيىّ من بعض الأفعال قيل لايستحيي من الحق أى لايمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم هذا أدبٌ أدّبَ الله به الثقلاء وعن عائشة رضى الله عنها حسبك فى الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم وقال فإذا طعمتم فانتشروا (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ) الضمير لنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لدلالة بيوت النبي لأن فيها نساءه (مَتَاعًا) عارية أو حاجة (فَاسْأَلُوهُنَّ) المتاع (مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) من خواطر الشيطان وعوارض الفتن وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال وكان عمر رضى الله عنه يحب ضرب الحجاب عليهن ويود أن ينزل فيه وقال يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت. وذكر أن بعضهم قال أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمد لأتزوّجن فلانة فنزل (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا) أى وما صح لكم إيذاء رسول الله ﷺ ولا نكاح أزواجه من بعد موته (إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا) أى ذنباً عظيما (إِن تُبْدُوا شَيْئًا) من إيذاء النبي ﷺ أو من نكاحهن (أَوْ تُخْفُوهُ) فى أنفسكم من ذلكم (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمًا) فيعاقبكم به ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله أو نحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب فنزل (لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلآَ أَبْنَآئِهِنَّ وَلآَ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلآَ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلآَ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلآَ نِسَآئِهِنَّ) أى نساء المؤمنات (وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ) أى لا إثم عليهن فى ألا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين وقد جاءت تسمية العم أبا قال الله تعالى: وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق. وإسمعيل عم يعقوب، وعبيدهن عند الجمهور كالأجانب ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب وفى هذا النقل فضل تشديد كأنه قيل (وَاتَّقِينَ اللهَ) فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحى من الاستتار واحتطن فيه (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) عالما قال ابن عطاء: الشهيد الذى يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح. (إِنَّ اللهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ) أى قولوا اللهم صل على محمد أو صلى الله على محمد (وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أى قولوا اللهم سلم على محمد أو انقادوا لأمره وحكمه انقياداً وسئل عليه السلام عن هذه الآية فقال «إن الله وكل بى ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان لاغفر الله لك وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين» ثم هى واجبة مرة عند الطحاوى وكلما ذكر اسمه عند الكرخى وهو الاحتياط وعليه الجمهور وإن صلى على غيره على سبيل التبع كقوله صلى الله على النبى وآله فلا كلام فيه وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة فمكروه وهو من شعائر الروافض (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ) أى يؤذون رسول الله وذكر اسم الله للتشريف أو عبر بإيذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يرضى به الله ورسوله كالكفر وإنكار النبوة مجازاً وإنما جعل مجازاً فيهما وحقيقة الإيذاء يتصور فى رسول الله لئلا يجتمع المجاز والحقيقة فى لفظ واحد (لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) طردهم الله عن رحمته فى الدارين (وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) فى الآخرة (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) أطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات لأن ذاك يكون غير حق أبدا وأما هذا فمنه حق كالحد والتعزير ومنه باطل قيل نزلت فى ناس من

المنافقين يؤذون عليا رضى الله عنه ويسمعونه وقيل فى زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات وعن الفضيل لا يحل لك أن تؤذى كلبا أو خنزيرا بغير حق فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات (فَقَدِ احْتَمَلُوا) تحملوا (بُهْتَـٰنًا) كذبا عظيما (وَإِثْمًا مُّبِينًا) ظاهرا (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ) الجلباب ما يستر الكل مثل الملحفة عن المبرد ومعنى يدنين عليهن من جلابيبهن يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن يقال إذا زلّ الثوب عن وجه المرأة أدنى ثوبك على وجهك ومن للتبعيض أى ترخى بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة أو المراد أن يتجلببن ببعض مالهن من الجلابيب وأن لا تكون المرأة متبذلة فى درع وخمار كالأمة ولها جلبابان فصاعدا فى بيتها وذلك أن النساء كنّ فى أول الإسلام على هجّيراهن فى الجاهلية متبذلات تبرز المرأة فى درع وخمار لا فصل بين الحرة والأمة وكان الفتيان يتعرضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن فى النخيل والغيطان للإماء وربما تعرضوا للحرة لحسبان الأمة فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء بلبس الملاحف وستر الرءوس والوجوه فلا يطمع فيهن طامع وذلك قوله (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) أى أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرض لهن (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) لما سلف منهن من التفريط (رَّحِيمًا) بتعليمهن آداب المكارم (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) فجور، وهم الزناة من قوله فيطمع الذى فى قلبه مرض (وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ) هم أناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ فيقولون هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين يقال أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت من الرجفة وهى الزلزلة (لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) لنأمرنك بقتالهم أو لنسلطنك عليهم (ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ) فى المدينة وهو عطف على لنغرينك لأنه يجوز أن يجاب به القسم لصحة قولك لئن لم ينتهوا لا يجاورونك ولما كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بثم لبعد حاله عن حال المعطوف عليه (إِلَّا قَلِيلًا) زمانا قليلا والمعنى لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم والفسقة عن فجورهم والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء لنأمرنك بأن تفعل الأفعال التى

نسوءهم ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة وإلى أن لايساكنوك فيها إلا زمانا قليلا ريثما يرتحلون فسمى ذلك إغراء وهو التحريش على سبيل المجاز (مَّلْعُونِينَ) نصب على الشتم أو الحال أى لايجاورنك إلا ملعونين فالاستثناء دخل على الظرف والحال معا كما مر ولا ينتصب عن أخذوا لأن مابعد حروف الشرط لا يعمل فيما قبلها (أَيْنَمَا ثُقِفُوا) وجدوا (أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) والتشديد يدل على التكثير (سُنَّةَ اللهِ) فى موضع مصدر مؤكد أى سن الله فى الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا أينما وجدوا (فِى الَّذِينَ خَلَوْا) مضوا (مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) أى لا يبدل الله سنته بل يجريها مجرى واحدا فى الأمم (يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء واليهود يسألونه امتحانا لأن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وفى كل كتاب فأمر رسوله بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع تهديدا للمستعجلين وإسكاتا للممتحنين بقوله (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) شيئا قريبا أو لأن الساعة فى معنى الزمان (إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا) نارا شديدة الاتقاد (خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) هذا يرد مذهب الجهمية لأنهم يزعمون أن الجنة والنار تفنيان ولا وقف على سعيرا لأن قوله خالدين فيها حال عن الضمير فى لهم (لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) ناصرا يمنعهم اذكر (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ) تصرف فى الجهات كما ترى البضعة تدور فى القدر إذا غلت وخصصت الوجوه لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده أو يكون الوجه عبارة عن الجملة (يَقُولُونَ) حال (يَٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا) فنتخلص من هذا العذاب فتمنوا حين لاينفعهم التمنى (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا) جمع سيد. ساداتنا شامى وسهل ويعقوب جمع الجمع والمراد رؤساء الكفرة الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم (وَكُبَرَاءَنَا) ذوى الأسنان منا أو علماءنا (فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا) يقال ضل السبيل وأضله إياه وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآى كقوافى الشعر وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن مابعده مستأنف (رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) للضلال والإضلال (وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) بالباء عاصم ليدل على أشد اللعن وأعظمه وغيره بالثاء تكثيرا لأعداد اللاعن ونزل

فى شأن زيد وزينب وما سمع فيه من قالة بعض الناس (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا)مامصدرية أو موصولة وأيهما كان فالمراد البراءة عن مضمون القول ومؤداه وهو الأمر المعيب وأذى موسى عليه السلام هو حديث المومسة التى أرادها قارون على قذفه بنفسها أو اتهامهم إياه بقتل هرون فأحياه الله تعالى فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام كما برأ نبينا عليه السلام بقوله: ما كان محمد أبا أحد من رجالكم. (وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً) ذا جاه ومنزلة مستجاب الدعوة وقرأ ابن مسعود والأعمش وكان عبداً لله وجيها (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) صدقا وصوابا أو قاصدا إلى الحق. والسداد: القصد إلى الحق والقول بالعدل والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول والبعث على أن يسددوا قولهم فى كل باب لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس كل خير ولا تقف على سديدا لأن جواب الأمر قوله (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ) يقبل طاعتكم أو يوفقكم لصالح العمل (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) أى يمحها والمعنى راقبوا الله فى حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ماهو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها. وهذه الآية مقررة للتى قبلها بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله ﷺ وهذه على الأمر باتقاء الله فى حفظ اللسان ليترادف عليهم النهى والأمر مع اتباع النهى مايتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه ولما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً) أتبعه قوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ) وهو يريد بالأمانة الطاعة لله وبحمل الأمانه الخيانة يقال فلان حامل للأمانة ومحتمل لها أى لايؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته إذ الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها ولهذا يقال ركبته الديون ولى عليه حق فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حامل لها يعنى أن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله انقياد مثلها وهو مايأتى من الجمادات وأطاعت له الطاعة التى تليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجادا وتكوينا وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة كما قال: ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا

أو كرها قالتا أتينا طائعين. وأخبر أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجدون لله وإن من الحجارة لما يهبط من خشية الله وأما الإنسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعة ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع وهذا معنى قوله (فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا) أى أبين الخيانة فيها وأن لايؤديها (وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا) وخفن من الخيانة فيها (وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ) أى خان فيها وأبى أن لايؤديها (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً) لكونه تاركا لأداء الأمانة (جَهُولًا) لإخطائه مايساعده مع تمكنه منه وهو أداؤها قال الزجاج: الكافر والمنافق حملا الأمانة أى خانا ولم يطيعا. ومن أطاع من الأنبياء والمؤمنين فلا يقال كان ظلوما جهولا وقيل معنى الآية أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه أنه عرض على أعظم ماخلق الله من الأجرام وأقواه فأبى حمله وأشفق منه وحمله الإنسان على ضعفه إنه كان ظلوما جهولا حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه فيها ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب وماجاء القرآن إلا على أساليبهم من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج واللام فى (لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ) للتعليل لأن التعذيب هنا نظير التأديب فى قولك ضربته للتأديب فلا تقف على جهولا (وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ) وقرأ الأعمش ويتوب الله بالرفع ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويبتدئ ويتوب الله ومعنى المشهورة ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لأنه إذ تيب على الوافى كان نوعا من عذاب الغادر أو للعاقبة أى حملها الإنسان فآل الأمر إلى تعذيب الأشقياء وقبول توبة السعداء (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) للتائبين (رَّحِيمًا) بعباده المؤمنين والله الموفق للصواب .

﴿ سورة سبأ مكية وهى أربع وخمسون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الْحَمْدُ) إن أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود وإن أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق (لِلَّهِ) بلام التمليك لأنه خالق ناطق الحمد أصلا فكان بملكه مالك

الحمد للتحميد أهلا (الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَافِى الْأَرْضِ) خلقا وملكا وقهرا فكان حقيقا بأن يحمد سرا وجهرا (وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ) كما هوله فى الدنيا إذالنعم فى الدارين من المولى غير أن الحمد هنا واجب لأن الدنيا دار تكليف وثم لا،لعدم التكليف وإنما يحمد أهل الجنة سرورا بالنعيم وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم بقولهم الحمدلله الذى صدقنا وعده. الحمدلله الذى أذهب عنا الحزن (وَهُوَ الْحَكِيمُ) بتدبير ما فى السماء والأرض (الْخَبِيرُ) بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض (يَعْلَمُ) مستأنف (مَا يَلِجُ) مايدخل (فِى الْأَرْضِ) من الأموات والدفائن (وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) من النبات وجواهر المعادن (وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ) من الأمطار وأنواع البركات (وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) يصعد إليها من الملائكة والدعوات (وَهُوَ الرَّحِيمُ) بإنزال مايحتاجون إليه (الْغَفُورُ) لما يجترئون عليه (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى منكرو البعث (لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ) نفى للبعث وإنكار لمجىء الساعة (قُلْ بَلَىٰ) أوجب مابعد النفى ببلى على معنى أن ليس الأمر إلا إتيانها (وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ) ثم أعيد إيجابه مؤكدا بما هو الغاية فى التوكيد والتشديد وهوالتوكيد باليمين بالله عز وجل ثم أمد التوكيد القسمى بما أتبع المقسم به من الوصف بقوله (عَٰلِمِ الْغَيْبِ) لأن عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وبشدة ثباته واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ، ولما كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها فى الخفية كان الوصف بما يرجع إلى علم الغيب أولى وأحق. عالمُ الغيب مدنى وشامى أى هو عالم الغيب علامِ الغيب حمزة وعلى على المبالغة (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ) وبكسر الزاى علىّ يقال عزب يعزُب ويعزِب إذا غاب وبعد (مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) مقدار أصغر نملة (فِى السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ) من مثقال ذرة (وَلَآ أَكْبَرُ) من مثقال ذرة (إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ) إلا فى اللوح المحفوظ، ولا أصغر ولا أكبر بالرفع عطف على مثقال ذرة ويكون إلا بمعنى لكن أو رفعا بالابتداء والخبر فى كتاب واللام فى (لِّيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ) لما قصروا فيه من مدارج الإيمان (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) لما صبروا عليه من مناهج الإحسان متعلق بلتأتينكم تعليلا له (وَالَّذِينَ سَعَوْ فِى ءَايَٰتِنَا) جاهدوا فى رد

القرآن (مُعَاجِزِينَ) مسابقين ظانين أنهم يفوتوننا. معجّزين مكي وأبو عمرو أي مثبطين الناس عن اتباعها وتأملها أو ناسبين الله إلى العجز (أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ) برفع أليم مكي وحفص ويعقوب صفة لعذاب أي عذاب أليم من سيء العذاب قال قتادة : الرجز سوء العذاب، وغيرهم بالجر صفة لرجز (وَيَرَى) في موضع الرفع بالاستئناف أي ويعلم (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) يعني أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمته أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأصحابه، والمفعول الأول ليرى (الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) يعني القرآن (هُوَ الْحَقَّ) أي الصدق وهو فصل والحق مفعول ثان أو في موضع النصب معطوف على ليجزي وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علما لا يزاد عليه في الإيقان (وَيَهْدِي) الله أو الذي أنزل إليك (إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وهو دين الله (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) وقال قريش بعضهم لبعض (هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ) يعنون محمدا ﷺ وإنما نكروه مع أنه كان مشهورا علما في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم تجاهلا به وبأمره وباب التجاهل في البلاغة والى سحرها (يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) أي يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تبعثون وتنشئون خلقا جديدا بعد أن تكونوا رفاتا وترابا ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق أي يفرقكم كل تفريق فالممزق مصدر بمعنى التمزيق والعامل في إذا ما دل عليه إنكم لفي خلق جديد أي تبعثون ، والجديد فعيل بمعنى فاعل عند البصريين تقول جد فهو جديد كقل فهو قليل ولا يجوز إنكم بالفتح للام في خبره (أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) أهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب إليه من ذلك والهمزة للاستفهام وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها (أَم بِهِ جِنَّةٌ) جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه (بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) ثم قال سبحانه وتعالى ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك وذلك أجن الجنون جعل وقوعهم في العذاب رسيلا لوقوعهم في الضلال كأنهما كائنان في وقت واحد لأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه جعلا كأنهما مقترنان ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازي لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادة

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ) وبالإدغام علىّ للتقارب بين الفاء والباء وضعفه البعض لزيادة صوت الفاء على الباء (الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ) الثلاثة بالياء كوفى غير عاصم لقوله أفترى على الله كذبا (عَلَيْهِمْ كِسَفًا) كسفا حفص (مِّنَ السَّمَاءِ) أى أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارها وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفا لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما تدلان عليه من قدرة الله تعالى (لَآيَةً) لدلالة (لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) راجع إلى ربه مطيع له إذ المنيب لا يخلو من النظر فى آيات الله على أنه قادر على كل شىء من البعث ومن عقاب من يكفر به (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ) بدل من فضلا أو من آتينا بتقدير قولنا ياجبال أو قلنا ياجبال (أَوِّبِى مَعَهُ) من التأويب رجعى معه التسبيح ومعنى تسبيح الجبال أن الله يخلق فيها تسبيحا فيسمع منها كما يسمع من المسبح معجزة لداود عليه السلام (وَالطَّيْرَ) عطف على محل الجبال والطيرُ عطف على لفظ الجبال وفى هذا النظم من الفخامة مالا يخفى حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا وإذا دعاهم أجابوا إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى ولو قال آتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير لم يكن فيه هذه الفخامة (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) وجعلناه له لينا كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة وقيل لأن الحديد فى يده لما أوتى من شدة القوة (أَنِ اعْمَلْ) أن بمعنى أى أو أمرناه أن اعمل (سَٰبِغَٰتٍ) دروعا واسعة تامة من السبوغ وهو أول من اتخذها وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء وقيل كان يخرج متنكرا فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم ماتقولون فى داود فيثنون عليه فقيض الله له ملكا فى صورة آدمى فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه وهو أنه يطعم عياله من بيت المال فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له مايستغنى به عن بيت المال فعلمه صنعة الدروع (وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ) لا تجعل المسامير دقاقا فتقلق ولا غلاظا فتفصم الحلق ، والسرد : نسج

الدروع (وَاعْمَلُوا) الضمير لداود وأهله (صَٰلِحًا) خالصا يصلح للقبول (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فأجازيكم عليه (وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ) أي وسخرنا لسليمان الريح وهي الصبا ورفع الريح أبو بكر وحماد والفضل أي ولسليمان الريح مسخرة (غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك وكان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر فارس وبينهما مسيرة شهر ويروح من اصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وقيل كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) أي معدن النحاس فالقطر النحاس وهو الصفر ولكنه أساله وكان يسيل في الشهر ثلاثة أيام كما يسيل الماء وكان قبل سليمان لايذوب وسماه عين القطر باسم ما آل إليه (وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ) من في موضع نصب أي وسخرنا من الجن من يعمل (بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ) بأمر ربه (وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ) ومن يعدل منهم (عَنْ أَمْرِنَا) الذي أمرنا به من طاعة سليمان (نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) عذاب الآخرة وقيل كان معه ملك بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان عليه السلام ضربه ضربة أحرقته (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَٰرِيبَ) أي مساجد أو مساكن (وَتَمَٰثِيلَ) أي صور السباع والطيور وروى أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما وكان التصوير مباحا حينئذ (وَجِفَانٍ) جمع جفنة (كَالْجَوَابِ) جمع جابية وهي الحياض الكبار قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل . كالجوابي في الوصل والوقف مكي ويعقوب وسهل، وافق أبو عمرو في الوصل، الباقون بغير ياء اكتفاء بالكسرة (وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ) ثابتات على الأثافي لاتنزل عنها لعظمها وقيل إنها باقية باليمن وقلنا لهم (اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا) أي ارحموا أهل البلاد واسألوا ربكم العافية عن الفضيل وشكرا مفعول له أو حال أي شاكرين أو اشكروا شكرا لأن اعملوا فيه معنى اشكروا من حيث إن العمل للمنعم شكر له أو مفعول به يعني إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ماشئتم فاعملوا أنتم شكرا، وسئل الجنيد عن الشكر فقال: بذل المجهود بين يدي المعبود (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ) بسكون الياء حمزة وغيره بفتحها (الشَّكُورُ) المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد

شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادا واعترافا وكدحا وعن ابن عباس رضى الله عنه: من يشكر على أحواله كلها. وقيل من يشكر على الشكر وقيل من يرى عجزه عن الشكر، وحكى عن داود عليه السلام أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ) أى على سليمان (مَادَلَّهُمْ) أى الجن وآل داود (عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَآبَّةُ الْأَرْضِ) أى الأرضة وهى دويبة يقال لها سرفة والأرض فعلها فأضيفت إليه يقال أرضت الخشبة أرضا إذا أكلتها الأرضة (تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ) والعصا تسمى منسأة لأنه ينسأ بها أى يطرد، ومنسأته بغير همز مدنى وأبو عمرو (فَلَمَّا خَرَّ) سقط سليمان (تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ) علمت الجن كلهم علما بينا بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم (أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا) بعد موت سليمان (فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ) وروى أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه فلما بقى من عمره سنة سأل ربه أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب وكان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقى فى ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه وروى أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعده أن يدنو منه (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ) بالصرف بتأويل الحى وبعدمه أبو عمرو بتأويل القبيلة (فِى مَسْكَنِهِمْ) حمزة وحفص ، مسكِنهم على وخلف وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التى كانوا مقيمين فيها باليمن أو مسكن كل واحد منهم، غيرهم مساكنهم (ءَايَةٌ) اسم كان (جَنَّتَانِ) بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان ومعنى كونهما آية أن أهلها لما أعرضوا عن شكر الله سلبهم الله النعمة ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم أو جعلهما آية أى علامة دالة على قدرة الله وإحسانه ووجوب شكره (عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتضامها كأنها

جنة واحدة كما تكون بساتين البلاد العامرة أو أراد بستانى كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله (كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ) حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم أو لما قال لهم لسان الحال أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك ولما أمرهم بذلك أتبعه قوله (بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) أى هذه البلدة التى فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذى رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره · قال ابن عباس : كانت سبأ على ثلاث فراسخ من صنعاء وكانت أخصب البلاد تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيدها وتسير بين تلك الشجر فيمتلئ المكتل مما يتساقط فيه من الثمر وطيبها ليس فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ومن يمر بها من الغرباء يموت قمله لطيب هوائها (فَأَعْرَضُوا) عن دعوة أنبيائهم فكذبوهم وقالوا مانعرف لله علينا نعمة (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) أى المطر الشديد أو العرم اسم الوادى أو هو الجرذ الذى نقب عليهم السكر لما طغوا سلط الله عليهم الجرذ فنقبه من أسفل ففرقهم (وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ) المذكورتين (جَنَّتَيْنِ)وتسمية البدل جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها (ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ) الأكل الثمر يثقل ويخفف وهو قراءة نافع ومكى والخمط شجر الأراك وقيل كل شجر ذى شوك (وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) الأثل شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عودا، ووجه من نون الأكل وهو غير أبى عمرو أن أصله ذواتى أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه أو وصف الأكل بالخمط كأنه قيل ذواتى أكل بشع ووجه أبى عمرو أن أكل الخمط فى معنى البرير وهو ثمر الأراك إذا كان غضا فكأنه قيل ذواتى برير، والأثل والسدر معطوفان على أكل لا على خمط لأن الأثل لا أكل له وعن الحسن قلل السدر لأنه أكرم ما بدلوا لأنه يكون فى الجنان (ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا) أى جزيناهم ذلك بكفرهم فهو مفعول ثان مقدم (وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ) كوفى غير أبى بكر وهل يُجَازَى إلا الكفورُ غيرهم يعنى وهل نجازى مثل هذا الجزاء إلا من كفر النعمة ولم يشكرها أو كفر بالله أو هل يعاقب لأن الجزاء وإن كان عاما يستعمل فى معنى المعاقبة وفى معنى الإثابة لكن المراد الخاص وهو العقاب وعن الضحاك كانوا فى الفترة التى بين عيسى ومحمد عليهما السلام (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ) بين سبإ (وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا) بالتوسعة

على أهلها فى النعم والمياه وهى قرى الشام (قُرًى ظَاهِرَةً) متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهى ظاهرة لأعين الناظرين أو ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم وهى أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبإ إلى الشام (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) أى جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم يقيل المسافر فى قرية ويروح فى أخرى إلى أن يبلغ الشام (سِيرُوا فِيهَا) وقلنا لهم سيروا ولاقول ثمة ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه فكأنهم أمروا بذلك (لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ) أى سيروا فيها إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات أى سيروا فيها آمنين لا تخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت أياماً وليالى (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) قالوا يا ليتها كانت بعيدة فنسير على نجائبنا ونربح فى التجارات ونفاخر فى الدواب والأسباب بطروا النعمة وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب، بعّد مكى وأبو عمرو (وَظَلَمُوا) بما قالوا (أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم (وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) وفرقناهم تفريقاً اتخذه الناس مثلا مضروباً يقولون ذهبوا أيدى سبا وتفرقوا أيادى سبا فلحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ) عن المعاصى (شَكُورٍ) للنعم أو لكل مؤمن لأن الإيمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) بالتشديد كوفى أى حقق عليهم ظنه أو وجده صادقاً وبالتخفيف غيرهم أى صدق فى ظنه (فَاتَّبَعُوهُ) الضمير فى عليهم واتبعوه لأهل سبإ أو لبنى آدم وقلل المؤمنين بقوله (إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) لقلتهم بالإضافة إلى الكفار ولا تجد أكثرهم شاكرين (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم) لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقا (مِّن سُلْطَانٍ) من تسليط واستيلاء بالوسوسة (إِلَّا لِنَعْلَمَ) موجوداً ما علمناه معدوماً والتغير على المعلوم لا على العلم (مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) محافظ عليه وفعيل ومفاعل متآخيان (قُلِ) لمشركى قومك (ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ) أى زعمتموهم آلهة من دون الله فالمفعول الأول الضمير الراجع إلى الموصول وحذف كما حذف فى قوله أهذا الذى بعث الله رسولا استخفافاً لطول الموصول بصلته والمفعول الثانى آلهة وحذف لأنه موصوف صفته من دون الله

والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً، فإذاً مفعولا زعم محذوفان بسببين مختلفين والمعنى ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته ثم أجاب عنهم بقوله (لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) من خير أو شر أو نفع أو ضر (فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ) وما لهم في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك (وَمَا لَهُ) تعالى (مِنْهُم) من آلهتهم (مِّن ظَهِيرٍ) من عوين يعينه على تدبير خلقه يريد أنهم على هذه الصفة من العجز فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجى (وَلَا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) أي أذن له الله يعني إلا من وقع الإذن للشفيع لأجله وهي اللام الثانية في قولك أذن لزيد لعمرو أي لأجله وهذا تكذيب لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله، أُذن له كوفي غير عاصم إلا الأعشى (حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) أي كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن وفَزَّع شامي أي الله تعالى والتفزيع إزالة الفزع وحتى غاية لما فهم من أن ثم انتظارا للإذن وتوقفاً وفزعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن لهم كأنه قيل يتربصون ويتوقعون مليا فزعين حتى إذا فزع عن قلوبهم (قَالُوا) سأل بعضهم بعضاً (مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا) قال (الْحَقَّ) أي القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه وأن يشفع إلا لمن ارتضى (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ) أمره بأن يقررهم بقوله من يرزقكم ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله يرزقكم الله وذلك للإشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه (وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) ومعناه وإن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك

وفى درجه بعد تقدم ما قدم من التقرير دلالة غير خفيــة على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين ولـكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض، ونحوه قولك للكاذب إن أحدنا لـكاذب وخولف بين حرفى الجر الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه ينغمس فى ظلام لا يرى أين يتوجه (قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) هذا أدخل فى الإنصاف من الأول حيث أسند الإجرام إلى المخاطِبين وهو مزجور عنه محظور والعملَ إلى المخاطَبين وهو مأمور به مشكور (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا) يوم القيامة (ثُمَّ يَفْتَحُ) يحكم (بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) بلا جور ولا ميل (وَهُوَ الْفَتَّاحُ) الحاكم (الْعَلِيمُ) بالحكم (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم) أى ألحقتموهم (بِهِ) بالله (شُرَكَآءَ) فى العبادة معه ومعنى قوله أرونى وكان يراهم أن يريهم الخطأ العظيم فى إلحاق الشركاء بالله وأن يطلعهم على حالة الإشراك به (كَلَّا) ردع وتنبيه أى ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالـكم (بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ) الغالب فلا يشاركه أحد وهو ضمير الشأن (الْحَكِيمُ) فى تدبيره (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم وقال الزجاج معنى الـكافة فى اللغة الإحاطة والمعنى أرسلناك جامعاً للناس فى الإنذار والإبلاغ فجعله حالا من الـكاف والتاء على هذا للمبالغة كتاء الراوية والعلاّمة (بَشِيرًا) بالفضل لمن أقر (وَنَذِيرًا) بالعدل لمن أصر (وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) فيحملهم جهلهم على مخالفتك (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ) أى القيامة المشار إليها فى قوله قل يجمع بيننـا ربنـا (إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ) الميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهوهنا الزمان ويدل عليه قراءة من قرأ ميعادٌ يومٌ فأبدل منه اليوم وأما الإضافة فإضافة تبيين كما تقول بعير سانية (لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) أى لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال ولا التقدم إليه بالاستعجال ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم أنهم سألوا عن ذلك وهم منكرون له تعنتاً لا استرشاداً فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً للسؤال على الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى أبو جهل وذووه (لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا

بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أي ما نزل قبل القرآن من كتب الله أو القيامة والجنة والنار حتى إنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ) محبوسون (عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ) يرد (بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ) فى الجدال أخبر عن عاقبة أمرهم ومآ لهم فى الآخرة فقال لرسول الله ﷺ أو المخاطب ولو ترى فى الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب فحذف الجواب (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) أى الأتباع (لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) أى للرءوس والمقدمين (لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله ورسوله (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ) أولى الاسم أى نحن حرف الانكار لأن المراد انكار أن يكون هم الصادين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم (بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم) إنما وقعت إذ مضافاً إليها وإن كانت إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية لأنه قد اتسع فى الزمان ما لم يتسع فى غيره فأضيف إليها الزمان (بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ) كافرين لاختياركم وإيثاركم الضلال على الهدى لا بقولنا وتسويلنا (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) لم يأت بالعاطف فى قال الذين استكبروا وأتى به فى وقال الذين استضعفوا لأن الذين استضعفوا مر أولا كلامهم فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) بل مكركم بنا بالليل والنهار فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازى أى الليل والنهار مكرا بطول السلامة فيهما حتى ظننا أنكم على الحق (إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا) أشباهاً والمعنى أن المستكبرين لما أنكروا بقولهم أنحن صددناكم أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم بل كنتم مجرمين أن ذلك بكسبهم واختيارهم كر عليهم المستضعفون بقولهم بل مكر الليل والنهار فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائباً ليلا ونهاراً وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ) أضمروا أو أظهروا وهو من الأضداد وهم الظالمون فى قوله إذ الظالمون موقوفون يندم المستكبرون على ضلالهم

وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين (لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) الجحيم (وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى فى أعناقهم لجاء بالصريح للدلالة على ما استحقوا به الأغلال (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فى الدنيا (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ) نبى (إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا) متنعموها ورؤساؤها (إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) هذه تسلية للنبى ﷺ مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهل مكة وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد كما قال (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظراً إلى أحوالهم فى الدنيا وظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فأبطل الله ظنهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء فربما وسع على العاصى وضيق على المطيع وربما عكس وربما وسع عليهما أو ضيق عليهما فلا ينقاس عليهما أمر الثواب وذلك قوله (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) قدر الرزق تضييقه قال الله تعالى ومن قدر عليه رزقه (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ذلك (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ) أى وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتى تقربكم وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث والزلفى والزلفة كالقربى والقربة ومحلها النصب على المصدر أى تقربكم قربة كقوله أنبتكم من الأرض نباتاً (إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) الاستثناء من كم فى تقربكم يعنى أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذى ينفقها فى سبيل الله والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقههم فى الدين ورشحهم للصلاح والطاعة وعن ابن عباس إلا بمعنى لكن ومن شرط جوابه (فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ) وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ومعنى جزاء الضعف أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً وقرأ يعقوب جزاء الضعفُ على فأولئك لهم الضعف جزاء (بِمَا عَمِلُوا) بأعمالهم (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ) أى غرف منازل الجنة الغرفة حمزة (آمِنُونَ) من كل هائل وشاغل (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا) فى إبطالها (مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ) يوسع

(لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَآ أَنفَقْتُم) ما شرطية فى موضع النصب (مِّن شَىْءٍ) بيانه (فَهُوَ يُخْلِفُهُ) يعوضه لا معوض سواه إما عاجلا بالمال أو آجلا بالثواب جواب الشرط (وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ) المطعمين لأن كل ما رزق غيره من سلطان أو سيد أو غيرهما فهو من رزق الله أجراه على أيدى هؤلاء وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التى بهـا ينتفع المرزوق بالرزق وعن بعضهم الحمد لله الذى أوجدنى وجعلنى ممن يشتهى فـكم من مشته لايجد وواجد لايشتهى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ) وبالياء فيهما حفص ويعقوب هذا خطاب للملائكة وتقريع للـكفار وارد على المثل السائر * إياك أعنى واسمعى ياجاره * ونحوه قوله أأنت قلت للنـاس اتخذونى الآية (قَالُوا) أى الملائكة (سُبْحَـٰنَكَ) تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك (أَنتَ وَلِيُّنَا) الموالاة خلاف المعاداة وهى مفاعلة من الولى وهو القرب والولى يقع على الموالِى والموالَى جميعاً والمعنى أنت الذى نواليه (مِن دُونِهِمْ) إذ لا موالاة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الـكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله أو كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها أو صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا هذه صور الملائكة فاعبدوها (أَكْثَرُهُم) أكثر الإنس أو الـكفار (بِهِم) بالجن (مُّؤْمِنُونَ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرًّا) لأن الأمر فى ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيـه أحد منفعة ولا مضرة لأحد لأن الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله فـكانت حالها خلاف حال الدنيا التى هى دار تكليف والناس فيها مخلى بينهم يتضارّون ويتنافعون والمراد أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو ثم ذكر عاقبة الظالمين بقوله (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) بوضع العبادة فى غير موضعها معطوف على لايملك (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) فى الدنيا (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا) أى إذا قرىء عليهم القرآن (بَيِّنَـٰتٍ) واضحات (قَالُوا) أى المشركون (مَا هَـٰذَآ) أى محمد (إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَـٰذَآ) أى القرآن (إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى وقالوا والعدول عنه دليل على إنكار عظيم وغضب شديد (لِلْحَقِّ)

للقرآن أو لأمر النبوة كله (لَمَّا جَآءَهُمْ) وعجزوا عن الإتيان بمثله (إِنْ هَـٰذَآ) أى الحق (إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) بتوه على أنه سحر ثم بتّوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحراً (وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا) أى ما أعطينا مشركى مكة كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك (وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ) ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله (وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) أى وكذب الذين تقدموهم من الأمم الماضية والقرون الخالية الرسل كما كذبوا (وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ) أى وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتى الأولون من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال والأولاد (فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) للمكذبين الأولين فليحذروا من مثله وبالياء فى الوصل والوقف يعقوب أى فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم مستظهرون فما بال هؤلاء وإنما قال فكذبوا وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم لأنه لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه وهو كقول القائل أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ) بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله (أَن تَقُومُوا) على أنه عطف بيان لها وقيل هو بدل وعلى هذين الوجهين هو فى محل الجر وقيل هو فى محل الرفع على تقدير وهى أن تقوموا والنصب على تقدير أعنى وأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله ﷺ وتفرقهم عن مجتمعهم عنده أو قيام القصد إلى الشىء دون النهوض والانتصاب والمعنى إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهى أن تقوموا (لِلَّهِ) أى لوجه الله خالصاً لا لحمية ولا عصبية بل لطلب الحق (مَثْنَىٰ) اثنين اثنين (وَفُرَٰدَىٰ) فردا فردا (ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) فى أمر محمد ﷺ وما جاء به أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق وكذلك الفرد يتفكر فى نفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمى البصائر ويمنع من الروية ويقل الإنصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب وتتفكروا معطوف

على تقوموا (مَا بِصَاحِبِكُم) يعنى محمداً ﷺ (مِّن جِنَّةٍ) جنون والمعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة (إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) قدام عذاب شديد وهو عذاب الآخرة وهو كقوله عليه السلام «بعثت بين يدى الساعة» ثم بين أنه لا يطلب أجراً على الإنذار بقوله (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ) على إنذارى وتبليغى الرسالة (فَهُوَ لَكُمْ) جزاء الشرط تقديره أىّ شىء سألتكم من أجر كقوله: ما يفتح الله للناس من رحمة. ومعناه نفى مسئلة الأجر رأساً نحو مالى فى هذا فهو لك أى ليس لى فيه شىء (إِنْ أَجْرِيَ) مدنى وشامى وأبو بكر وحفص وبسكون الياء غيرهم (إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) فيعلم أنى لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ) بالوحى والقذف توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد ويستعار لمعنى الإلقاء ومنه وقذف فى قلوبهم الرعب أن اقذفيه فى التابوت ومعنى يقذف بالحق يلقيه وينزله إلى أنبيائه أو يرمى به الباطل فيدمغه ويزهقه (عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ) مرفوع على البدل من الضمير فى يقذف أو على أنه خبر مبتدإ محذوف (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ) الإسلام والقرآن (وَمَا يُبْدِئُ الْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ) أى زال الباطل وهلك لأن الإبداء والإعادة من صفات الحى فعدمهما عبارة عن الهلاك والمعنى جاء الحق وزهق الباطل كقوله جاء الحق وزهق الباطل وعن ابن مسعود رضى الله عنه دخل النبى ﷺ مكة وحول الكعبة أصنام فجعل يطعنها بعود معه ويقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، جاء الحق ومايبدىء الباطل ومايعيد» وقيل الباطل الأصنام وقيل إبليس لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل له الشيطان من شاط إذا هلك أى لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحداً ولا يبعثه فالمنشىء والباعث هو الله ولما قالوا قد ضللت بترك دين آبائك قال الله تعالى (قُلْ إِن ضَلَلْتُ) عن الحق (فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى) إن ضللت فمنى وعلىّ (وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّى) أى فبتسديده بالوحى إلى وكان قياس التقابل أن يقال وإن اهتديت فإنما أهتدى لها كقوله: فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. ولكن هما متقابلان معنى لأن النفس كل ما عليها وضار لها فهو بها وبسببها لأنها الأمارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف وإنما أمر رسوله أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا

دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به (إِنَّهُ سَمِيعٌ) لما أقوله لكم (قَرِيبٌ) منى ومنكم يجازينى ويجازيكم (وَلَوْ تَرَىٰٓ) جوابه محذوف أى لرأيت أمراً عظيما وحالا هائلة (إِذْ فَزِعُوا) عند البعث أو عند الموت أو يوم بدر (فَلَا فَوْتَ) فلا مهرب أو فلا يفوتون الله ولا يسبقونه (وَأُخِذُوا) عطف على فزعوا أى فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم أو على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا (مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) من الموقف إلى النار إذا بعثوا أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا أو من صحراء بدر إلى القليب (وَقَالُوا) حين عاينوا العذاب (ءَامَنَّا بِهِۦ) بمحمد عليه السلام لمرور ذكره فى قوله ما بصاحبكم من جنة أو بالله (وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) التناوش: التناول أى كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم يريد أن التوبة كانت تقبل منهم فى الدنيا وقد ذهبت الدنيا وبعدت من الآخرة وقيل هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشىء من غلوة كما يتناول الآخر من قيس ذراع. التناؤش بالهمزة أبو عمرو وكوفى غير حفص همزت الواو لأن كل واو مضمومة ضمتها لازمة إن شئت أبدلتها همزة وإن شئت لم تبدل نحو قولك أدور وتقاوم وإن شئت قلت أدؤر وتقاؤم وعن ثعلب التناؤش بالهمز التناول من بعد وبغير همز التناول من قرب (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ) من قبل العذاب أو فى الدنيا (وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ) معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعنى وكانوا يتكلمون بالغيب أو بالشىء الغائب يقولون لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار (مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) عن الصدق أو عن الحق والصواب أو هو قولهم فى رسول الله ﷺ شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفى لأنهم لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعراً ولا كذباً وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شىء مما جاء به السحر والشعر وأبعد شىء من عاداته التى عرفت بينهم وجربت الكذب ويقذفون بالغيب عن أبى عمرو على البناء للمفعول أى تأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه وإن شئت فعلقه بقوله وقالو آمنا به على أنه مثلهم فى طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان فى الدنيا بقولهم آمنا فى الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئا من مكان بعيد لا مجال للظن فى لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه بعيداً ويجوز أن يكون

الضمير فى آمنا به للعذاب الشديد فى قوله: بين يدى عذاب شديد . وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا فهذا كان قذفهم بالغيب وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف (وَحِيلَ) وحجز (بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم بقوله: ارجعنا نعمل صالحا. والأفعال التى هى فزعوا وأخذوا وحيل كلها للمضى والمراد بها الاستقبال لتحقق وقوعه (كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ) بأشباههم من الكفرة (إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ) من أمر الرسل والبعث (مُّرِيبٍ) موقع فى الريبة من أرابه إذا أوقعه فى الريبة، هذا رد على من زعم أن الله لا يعذب على الشك والله أعلم .

﴿ سورة الملائكة مكية وهى خمس وأربعون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) حمد ذاته تعليما وتعظيما (فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ) مبتدئها ومبتدعها قال ابن عباس رضى الله عنهما: ما كنت أدرى معنى الفاطر حتى اختصم إلىّ أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها. أى ابتدأتها (وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا) إلى عباده (أُولِي) ذوى اسم جمع لذو وهو بدل من رسلا أو نعت له (أَجْنِحَةٍ) جمع جناح (مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) صفات لأجنحة وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير إلى غير تكرير وقيل للعدل والوصف والتعويل عليه والمعنى أن الملائكة طائفة أجنحتهم اثنان اثنان أى لكل واحد منهم جناحان وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة ولعل الثالث يكون فى وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ) أى يزيد فى خلق الأجنحة وغيره (مَا يَشَاءُ) وقيل هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن والخط الحسن والملاحة فى العينين والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام فى الأعضاء وقوة فى البطش وحصافة فى العقل وجزالة فى الرأى وذلاقة فى اللسان ومحبة فى قلوب

المؤمنين وما أشبه ذلك (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قادر (مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ) نكرت الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قال من أية رحمة رزق أو مطر أو صحة أو غير ذلك (فَلَا مُمْسِكَ لَهَا) فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها واستعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله (وَمَا يُمْسِكْ) يمنع ويحبس (فَلَا مُرْسِلَ لَهُ) مطلقَ له (مِن بَعْدِهِ) من بعد إمساكه وأنث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة ثم ذكره حملا على اللفظ المرجع إليه إذ لا تأنيث فيه لأن الأول فسر بالرحمة فحسن اتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثانى فترك على أصل التذكير وعن معاذ مرفوعاً «لا تزال يد الله مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم ويعظم برهم فاجرهم وتمن قراؤهم أمراءهم على معصية الله فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم» (وَهُوَ الْعَزِيزُ) الغالب القادر على الإرسال والإمساك (الْحَكِيمُ) الذى يرسل ويمسك ما تقتضى الحكمة إرساله وإمساكه (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا) باللسان والقلب (نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) وهى التى تقدمت من بسط الأرض كالمهاد ورفع السماء بلا عماد وإرسال الرسل لبيان السبيل دعوة إليه وزلفة لديه والزيادة فى الخلق وفتح أبواب الرزق ثم نبه على رأس النعم وهو اتحاد المنعم بقوله (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ) برفع غير على الوصف لأن خالق مبتدأ خبره محذوف أى لكم وبالجر على وحمزة على الوصف لفظاً (يَرْزُقُكُم) يجوز أن يكون مستأنفاً ويجوز أن يكون صفة لخالق (مِّنَ السَّمَاءِ) بالمطر (وَالْأَرْضِ) بأنواع النبات (لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) جملة مفصولة لا محل لها (فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) فبأى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ) نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها وسلى رسوله بأن له فى الأنبياء قبله أسوة ولهذا نكر رسل أى رسل ذوو عدد كبير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم لأنه أسلى له وتقدير الكلام وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك لأن الجزاء يتعقب الشرط ولو أجرى على الظاهر يكون سابقاً عليه ووضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أى بالتكذيب عن التأسى (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) كلام يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذِّب والمكذَّب بما يستحقانه، ترجع بفتح التاء شامى

وحمزة وعلى ويعقوب وخلف وسهل (يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ) بالبعث والجزاء (حَقٌّ) كائن (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا) فلا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله (وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) أى الشيطان فإنه يمنيكم الأمانىّ الكاذبة ويقول إن الله غنى عن عبادتك وعن تكذيبك (إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ) ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بأحواله (فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) فى عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدنّ منكم إلا ما يدل على معاداته فى سركم وجهركم ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذى يؤمه فى دعوة شيعته هو أن يوردهم مورد الهلاك بقوله (إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَـٰبِ السَّعِيرِ) ثم كشف الغطاء فبنى الأمر كله على الإيمان وتركه فقال (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) أى فمن أجابه حين دعاه فله عذاب شديد لأنه صار من حزبه أى أتباعه (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ) ولم يجيبوه ولم يصيروا من حزبه بل عادوه (لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) لكبر جهادهم ولما ذكر الفريقين قال لنبيه عليه السلام (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا) بتزيين الشيطان كمن لم يزين له فكأن رسول الله ﷺ قال لا، فقال (فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ) وذكر الزجاج أن المعنى أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليه حسرة فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء عليه فلا تُذهب نفسَك يزيد أى لا تهلكها حسرات مفعول له يعنى فلا تهلك نفسك للحسرات وعليهم صلة تذهب كما تقول هلك عليه حبا ومات عليه حزناً ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم (وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَـٰحَ) الريح مكى وحمزة وعلى (فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ) بالتشديد مدنى وحمزة وعلى وحفص وبالتخفيف غيرهم (فَأَحْيَيْنَا بِهِ) بالمطر لتقدم ذكره ضمناً (الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) يبسها وإنما قيل فتثير لتحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة الدالة على القدرة الربانية وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب وكذلك سوق

السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كان من الدليل على القدرة الباهرة قيل فسقنا وأحيينا معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ماهو أدخل فى الاختصاص وأدل عليه (كَذَٰلِكَ النُّشُورُ) الكاف فى محل الرفع أى مثل إحياء الموات نشور الأموات قيل يحيى الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمنى الرجال تنبت منه أجساد الخلق (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً) أى العزة كلها مختصة ، بالله عزة الدنيا وعزة الآخرة وكان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال: واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال: الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا . فبين أن لا عزة إلا بالله والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله لله العزة جميعا موضعه استغناء عنه به لدلالته عليه لأن الشيء لايطلب إلا عند صاحبه ومالكه ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهى عند الأبرار. تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت مايدل عليه مقامه وفى الحديث «إن ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز» ثم عرف أن مايطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ومعنى قوله إليه إلى محل القبول والرضا وكل مااتصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود أو إلى حيث لاينفذ فيه إلا حكمه والكلم الطيب كلمات التوحيد أى لاإله إلا الله وكان القياس الطيبة ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا التاء يذكر ويؤنث والعمل الصالح العبادة الخالصة يعنى والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب فالرافع الكلم والمرفوع العمل لأنه لايقبل عمل إلا من موحد وقيل الرافع الله والمرفوع العمل أى العمل الصالح يرفعه الله وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع والكلم الطيب يصعد بنفسه وقيل العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه أى من أراد العزة فليعمل عملا صالحا فإنه هو الذى يرفع العبد (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ) هى صفة لمصدر محذوف أى المكرات السيئات لأن مكر فعل غير متعد لا يقال مكر فلان عمله والمراد مكر قريش به عليه السلام حين اجتمعوا فى دار الندوة كما قال الله تعالى: وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك. الآية (لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) فى الآخرة (وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ) مبتدأ (هُوَ) فصل (يَبُورُ) خبر أى ومكر أولئك الذين مكروا هو خاصة يبور أى يفسد ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم

وأثبتهم فى قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم جميعا وحقق فيهم قوله تعالى ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وقوله ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله (وَاللَّهُ خَلَقَكُم) أى أباكم (مِّن تُرَابٍ ثُمَّ) أنشأكم (مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا) أصنافا أو ذكرانا وإناثا (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) هو فى موضع الحال أى إلا معلومة له (وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ) أى وما يعمر من أحد وإنما سماه معمرا بما هو صائر إليه (وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) يعنى اللوح أو صحيفة الإنسان ولا ينقص زيد فإن قلت الإنسان إما معمر أى طويل العمر أو منقوص العمر أى قصيره فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره قلت هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة فى تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر فى عمر واحد وعليه كلام الناس يقولون: لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه إلا بحق. أو تأويل الآية أنه يكتب فى الصحيفة عمره كذا كذا سنة ثم يكتب فى أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتى على آخره فذلك نقصان عمره وعن قتادة المعمر من يبلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة (إِنَّ ذَٰلِكَ) أى إحصاءه أو زيادة العمر ونقصانه (عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) سهل (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا) أى أحدهما (عَذْبٌ فُرَاتٌ) شديد العذوبة وقيل هو الذى يكسر العطش (سَائِغٌ شَرَابُهُ) مرىء سهل الانحدار لعذوبته وبه ينتفع شرّابه (وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) شديد الملوحة وقيل هو الذى يحرق بملوحته (وَمِن كُلٍّ) ومن كل واحد منهما (تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) وهو السمك (وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) وهى اللؤلؤ والمرجان (وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ) فى كل (مَوَاخِرَ) شواقّ للماء بجريها يقال مخرت السفينة الماء أى شقته وهى جمع ماخرة (لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ) من فضل الله ولم يجر له ذكر فى الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الله على ما آتاكم من فضله. ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر ثم قال على سبيل الاستطراد فى صفة البحرين وما علّق بهما من نعمته وعطائه ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضّل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب فى منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو فى طريقة قوله تعالى: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد

قسوة. ثم قال: وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) يدخل من ساعات أحدهما فى الآخر حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة والناقص تسعا (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) أى ذلل أضواء صوره لاستواء سيره (كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى) أى يوم القيامة ينقطع جريهما (ذَٰلِكُمُ) مبتدأ (اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ) أخبار مترادفة أو الله ربكم خبران وله الملك جملة مبتدأة واقعة فى قران قوله (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ) يعنى الأصنام التى تعبدونها من دون الله يدعون قتيبة (مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) هى القشرة الرقيقة الملتفة على النواة (إِن تَدْعُوهُمْ) أى الأصنام (لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ) لأنهم جماد (وَلَوْ سَمِعُوا) على سبيل الفرض (مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ) لأنهم لا يدّعون ماتدّعون لهم من الإلهية ويتبرءون منها (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم ويقولون ما كنتم إيانا تعبدون (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) ولا ينبئك أيها المفتون بأسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير بخبايا الأمور، وتحقيقه ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به يريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به والمعنى أن هذا الذى أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأنى خبير بما أخبرت به (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ) قال ذوالنون الخلق محتاجون إليه فى كل نفس وخطرة ولحظة وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به (وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ) عن الأشياء أجمع (الْحَمِيدُ) المحمود بكل لسان ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء ولهذا وصف نفسه بالغنى الذى هو مطعم الأغنياء وذكر الحميد ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه والجواد المنعم عليهم إذ ليس كل غنى نافعا بغناه إلا إذا كان الغنى جوادا منعما وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم. قال سهل: لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر فمن ادعى الغنى حجب عن الله ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه. فينبغى للعبد أن يكون مفتقرا بالسر إليه ومنقطعا عن الغير إليه حتى تكون عبوديته محضة فالعبودية هى الذل والخضوع وعلامته أن لا يسأل من أحد. وقال الواسطى: من استغنى بالله لا يفتقر ومن تعزز بالله لا يذل. وقال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غنيا بالله وكلما ازداد افتقارا ازداد غنى. وقال يحيى: الفقر خير للعبد من

الغنى لأن المذلة فى الفقر والكبر فى الغنى والرجوع إلى الله بالتواضع والذلة خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال. وقيل صفة الأولياء ثلاثة الثقة بالله فى كل شىء والفقر إليه فى كل شىء والرجوع إليه من كل شىء وقال الشبلى الفقر بحر البلاء وبلاؤه كله عز (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ) كلكم إلى العدم فإن غناه بذاته لابكم فى القدم (وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) وهو بدون حمدكم حميد (وَمَا ذَٰلِكَ) الإنشاء والإفناء (عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) بممتنع وعن ابن عباس يخلق بعدكم من يعبده لايشرك به شيئا (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى والوزر والوقر أخوان ووزر الشىء إذا حمله والوازرة صفة للنفس والمعنى أن كل نفس يوم القيامة لاتحمل إلا وزرها الذى اقترفته لا تؤاخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولى بالولى والجار بالجار وإنما قيل وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى لأن المعنى ان النفوس الوازرات لاترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها لاوزر غيرها وقوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وارد فى الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم وذلك كله أوزارهم مافيها شىء من وزر غيرهم الاترى كيف كذبهم الله تعالى فى قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم بقوله وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء (وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ) أى نفس مثقلة بالذنوب أحدا (إِلَىٰ حِمْلِهَا) ثقلها أى ذنوبها ليتحمل عنها بعض ذلك (لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ) أى المدعو وهو مفهوم من قوله وإن تدع (ذَا قُرْبَىٰ) ذاقرابة قريبة كأب أو ولد أوأخ والفرق بين معنى قوله ولاتزر وازرة وزر أخرى ومعنى وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شىء أن الأول دال على عدل الله فى حكمه وأن لايؤاخذ نفسا بغير ذنبها والثانى فى بيان أنه لاغياث يومئذ لمن استغاث حتى إن نفسا قد أثقلتها الأوزار لودعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعو بعض قرابتها (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم) أى إنما ينتفع بإنذارك هؤلاء (بِالْغَيْبِ) حال من الفاعل أو المفعول أى يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائبا عنهم وقيل بالغيب فى السر حيث لا اطلاع للغير عليه (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) فى مواقيتها (وَمَن تَزَكَّىٰ) تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصى (فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ) وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكى (وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) المرجع وهو وعد للمتزكى بالثواب (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ) مثل للكافر والمؤمن أو للجاهل والعالم (وَلَا الظُّلُمَاتُ) مثل للكفر (وَلَا النُّورُ) للإيمان (وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) الحق والباطل أو الجنة والنار والحرور الريح الحار كالسموم إلا

أن السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار. عن الفراء (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ) مثل للذين دخلوا فى الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وزيادة. لا لتأكيد معنى النفى والفرق بين هذه الواوات أن بعضها ضمت شفعا إلى شفع وبعضها وترا إلى وتر (إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) يعنى أنه قد علم من يدخل فى الإسلام ممن لا يدخل فيه فيهدى من يشاء هدايته وأما أنت تخفى عليك أمرهم فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين. شبه الكفار بالموتى حيث لا ينتفعون بمسموعهم (إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ) أى ماعليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ) حال من أحد الضميرين يعنى محقا أو محقين أو صفة للمصدر أى إرسالا مصحوبا بالحق (بَشِيرًا) بالوعد (وَنَذِيرًا) بالوعيد (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ) وما من أمة قبل أمتك. والأمة: الجماعة الكثيرة وجدعليه أمة من الناس ويقال لأهل كل عصر أمة والمراد هنا أهل العصر وقد كانت آثار النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام فلم تخل تلك الأمم من نذير وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد عليه السلام (إِلَّا خَلَا) مضى (فِيهَا نَذِيرٌ) يخوفهم وخامة الطغيان وسوء عاقبة الكفران وا كتفى بالنذير عن البشير فى آخر الآية بعد ما ذكرها لأن النذارة مشفوعة بالبشارة فدل ذكر النذارة على ذكر البشارة (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) رسلهم (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم) حال وقد مضمرة (بِالْبَيِّنَاتِ) بالمعجزات (وَبِالزُّبُرِ) وبالصحف (وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) أى التوراة والإنجيل والزبور ولما كانت هذه الأشياء فى جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقا وإن كان بعضها فى جميعهم وهى البينات وبعضها فى بعضهم وهى الزبر والكتاب وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ (ثُمَّ أَخَذْتُ) عاقبت (الَّذِينَ كَفَرُوا) بأنواع العقوبة (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) إنكارى عليهم وتعذيبى لهم (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ) بالماء (ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا) أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ) طرق مختلفة اللون جمع جدة كمدة ومدد (بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) جمع غربيب وهو تأكيد للأسود يقال أسود غربيب وهو الذى أبعد فى السواد وأغرب فيه ومنه الغراب وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع إلا أنه أضمر المؤكد قبله والذى بعده

تفسير للمضمر وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الإظهار والإضمار جميعا ولا بد من تقدير حذف المضاف فى قوله ومن الجبال جدد أى ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤول إلى قولك ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال ثمرات مختلفا ألوانها (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) يعنى ومنهم بعض مختلف ألوانه(كَذَٰلِكَ)أى كاختلاف الثمرات والجبال .ولما قال الم تر أن الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته أتبع ذلك (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَـٰٓؤُا) أى العلماء به الذين علموه بصفاته فعظموه ومن ازداد علما به ازداد منه خوفا ومن كان علمه به أقل كان آمن. وفى الحديث «أعلمكم بالله أشدكم له خشية» وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يؤذن أن معناه أن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم ولو عكس لكان المعنى أنهم لايخشون إلا الله كقوله: ولايخشون أحدا إلا الله. وبينهما تغاير، ففى الأول بيان أن الخاشين هم العلماء وفى الثانى بيان أن المخشى منه هو الله تعالى. وقرأ أبو حنيفة وابن عبد العزيز وابن سيرين رضى الله عنهم إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ والخشية فى هذه القراءة استعارة والمعنى إنما يعظم الله من عباده العلماء(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه أن يخشى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ اللَّهِ) يداومون على تلاوة القرآن (وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) أى مسرين النفل ومعلنين الفرض يعنى لايقتنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به(يَرْجُونَ)خبر إن (تِجَـٰرَةً) هى طلب الثواب بالطاعة(لَّن تَبُورَ)لن تكسد يعنى تجارة ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله (لِيُوَفِّيَهُمْ) متعلق بلن تبور أى ليوفيهم بنفاقها عنده(أُجُورَهُمْ) ثواب أعمالهم (وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ)بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم أو بتضعيف حسناتهم أو بتحقيق وعد لقائه. أو يرجون فى موضع الحال أى راجين. واللام فى ليوفيهم تتعلق بيتلون وما بعده أى فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق لهذا الغرض وخبر إن (إِنَّهُ غَفُورٌ) لفرطاتهم (شَكُورٌ) أى غفور لهم شكور لأعمالهم أى يعطى الجزيل على العمل القليل (وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَـٰبِ) أى القرآن. ومن للتبيين (هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا) حال مؤكدة لأن الحق لاينفك عن هذا التصديق (لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)لما تقدمه من الكتب (إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)فعلمك وأبصر أحوالك ورآك أهلا لأن يوحى إليك

مثل هذا الكتاب المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ)أى أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أى حكمنا بتوريثه(الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله ثم رتبهم على مراتب فقال (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) وهو المرجأ لأمر الله(وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا (وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) وهذا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالى قال: والسابقون الأولون من المهاجرين الآية وقال بعده: وآخرون اعترفوا بذنوبهم. الآية وقال بعده : وآخرون مرجون لأمر الله.الآية والحديث فقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية قال رسول الله ﷺ «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفورله » وعنه عليه السلام «السابق يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يظن أنه لاينجو ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة» رواه أبو الدرداء. والأثر فمن ابن عباس رضى الله عنهما السابق المخلص والمقتصد المرائى والظالم الكافر بالنعمة غير الجاحد لها لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة وقول السلف فقد قال الربيع بن أنس الظالم صاحب الكبائر والمقتصد صاحب الصغائر والسابق المجتنب لهما وقال الحسن البصرى الظالم من رجحت سيئاته والسابق من رجحت حسناته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته وسئل أبو يوسف رحمه الله عن هذه الآية فقال كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله: والذين كفروا لهم نار جهنم. وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده فإنه قال فنهم ومنهم ومنهم والكل راجع إلى قوله الذين اصطفينا من عبادنا وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل وقال ابن عطاء إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله وقيل إنما قدمه ليعرفه أن ذنبه لايبعده من ربه وقيل إن أول الأحوال معصية ثم توبة ثم استقامة وقال سهل السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم الجاهل وقال أيضا السابق الذى اشتغل بمعاده والمقتصد الذى اشتغل بمعاشه ومعاده والظالم الذى اشتغل بمعاشه عن معاده وقيل الظالم الذى يعبده على الغفلة والعادة والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة والسابق الذى يعبده على الهيبة والاستحقاق وقيل الظالم من أخذ الدنيا حلالا كانت أو حراما والمقتصد من يجتهد أن لايأخذها إلا من حلال والسابق من أعرض عنها جملة وقيل الظالم طالب الدنيا والمقتصد طالب العقبى والسابق طالب المولى (بِإِذْنِ اللَّهِ)

بأمره أو بعلمه أو بتوفيقه (ذَٰلِكَ)أى إيراث الكتاب(هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّٰتُ عَدْنٍ) خبر ثان لذلك أوخبر مبتدأ محذوف أومبتدأ والخبر(يَدْخُلُونَهَا)أى الفرق الثلاثة يُدخَلونها أبو عمرو (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ) جمع أسورة جمع سوار (مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا) أى من ذهب مرصع باللؤلؤ ولؤلؤا بالنصب والهمزة نافع وحفص عطفا على محل من أساور أى يحلون أساور ولؤلؤا (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) لما فيه من اللذة والزينة (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) خوف النار أو خوف الموت أو هموم الدنيا (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ) يغفر الجنايات وإن كثرت (شَكُورٌ) يقبل الطاعات وإن قلت (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ) أى الإقامة لانبرح منها ولا نفارقها يقال أقمت إقامة ومقاما ومقامة (مِن فَضْلِهِ) من عطائه وإفضاله لاباستحقاقنا(لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ)تعب ومشقة (وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)إعياء من التعب وفترة. وقرأ أبوعبد الرحمن السلمى لغوب بفتح اللام وهو شيء يلغب منه أى لا نتكلف عملا يلغبنا (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا) جواب النفى ونصبه بإضمار أن أى لايقضى عليهم بموت ثان فيستريحوا (وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا) من عذاب نار جهنم (كَذَٰلِكَ) مثل ذلك الجزاء(نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) يُجزَى كلُّ كفور أبو عمرو (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا) يستغيثون فهو يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد ومشقة واستعمل فى الاستغاثة لجهر صوت المستغيث (رَبَّنَا) يقولون ربنا (أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)أى أخرجنا من النار ردنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر ونطع بعد المعصية فيجاوبون بعد قدر عمر الدنيا (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) يجوز أن يكون ما نكرة موصوفة أى تعميرا يتذكر فيه من تذكر وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر إلا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم ثم قيل هو ثمان عشرة سنة وقيل أربعون وقيل ستون سنة (وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) الرسول عليه السلام أو المشيب وهو عطف على معنى أولم نعمركم لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه إخبار كأنه قيل قد عمرناكم وجاءكم النذير (فَذُوقُوا) العذاب(فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ)ناصر يعينهم (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ماغاب فيهما عنكم(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) كالتعليل لأنه إذا علم مافى الصدور وهو أخفى مايكون فقد علم كل غيب فى العالم وذات الصدور مضمراتها وهى تأنيث ذو فى نحو قول أبى بكر رضى الله عنه ذو بطن خارجة جاريةٌ أى مافى بطنها من الحبل لأن الحبل يصحب البطن وكذا المضمرات تصحب الصدور وذوموضوع لمعنى

الصحبة (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ) يقال للمستخلف خليفة ويجمع على خلائف والمعنى أنه جعلكم خلفاء فى أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على مافيها وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة(فَمَن كَفَرَ)منكم وغمط مثل هذه النعمة السنية (فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ) فوبال كفره راجع عليه وهومقت الله وخسار الآخرة كما قال (وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا) وهو أشد البغض (وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا)هلاكا وخسرانا(قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ) آلهتكم التى أشركتموهم فى العبادة(ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ) أرونى بدل من أرأيتم لأن معنى أرأيتم أخبرونى كأنه قيل أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة أرونى أى جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ) أم لهم مع الله شركة فى خلق السموات(أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ) أى معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب. بينات على وابن عامر ونافع وأبو بكر (بَلْ إِن يَعِدُ) مايعد(ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم) بدل من الظالمون وهم الرؤساء(بَعْضًا) أى الأتباع(إِلَّا غُرُورًا) هوقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله (إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا)يمنعهما من أن تزولا لأن الإمساك منع(وَلَئِن زَالَتَآ) على سبيل الفرض (إِنْ أَمْسَكَهُمَا) ماأمسكهما (مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ) من بعد إمساكه ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفى والثانية للابتداء(إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدَّاهدًّا لعظم كلمة الشرك كما قال تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض الآية (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ) نصب على المصدر أى إقساما بليغا أوعلى الحال أى جاهدين فى أيمانهم(لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ)بلغ قريشا قبل مبعث النبى ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم أى من الأمة التى يقال فيها هى إحدى الأمم تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة كما يقال للداهية العظيمة هى إحدى الدواهى (فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ) فلما بعث رسول الله ﷺ (مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) أى مازادهم مجىء الرسول ﷺ إلا تباعدا عن

الحق وهو إسناد مجازى (اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ) مفعول له وكذا (وَمَكْرَ السَّيِّئِ) والمعنى ومازادهم إلا نفورا للاستكبار ومكر السيء أوحال يعني مستكبرين وما كرين برسول الله ﷺ وأصل قوله ومكر السيء وأن مكروا السيء أى المكر السيء ثم ومكراً السيء ثم ومكر السيء والدليل عليه قوله (وَلَا يَحِيقُ) يحيط وينزل (الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) ولقد حاق بهم يوم بدر وفى المثل من حفر لأخيه جبا وقع فيه مكبا (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ) وهو إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم والمعنى فهل ينظرون بعد تكذيبك إلا أن ينزل بهم العذاب مثل الذى نزل بمن قبلهم من مكذبى الرسل جعل استقبالهم لذلك انتظارا له منهم (فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) بين أن سنته التى هى الانتقام من مكذبى الرسل سنة لا يبدلها فى ذاتها ولا يحولها عن أوقاتها وأن ذلك مفعول لامحالة (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه فى مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم (وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ) من أهل مكة (قُوَّةً) اقتدارا فلم يتمكنوا من الفرار (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ) ليسبقه ويفوته (مِن شَيْءٍ) أى شيء (فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا) بهم (قَدِيرًا) قادرا عليهم (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا) بما اقترفوا من المعاصى (مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا) على ظهر الأرض لأنه جرى ذكر الأرض فى قوله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض (مِن دَابَّةٍ) من نسمة تدب عليها (وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) إلى يوم القيامة (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) أى لم تخف عليه حقيقة أمرهم وحكمة حكمهم والله الموفق للصواب .

﴿ تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع وأوله سورة يس عليه الصلاة والسلام ﴾